مقدمة

إلى القارئ

إن الغرض الذى أبغيه من تأليف هذا الكتاب هو أن أعرض على القارئ قصة حضارة العصور الوسطى من عام ٣٢٥م إلى عام ١٣٠٠ كاملة بقدر ما تتسع لها صفحاته ، بعيدة عن الهوى بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية ، والطريقة التى اتبعتها فى تأليفه هى النظر إلى التاريخ كله على أنه وحدة شاملة يكمل بعضه بعضاً — أى تصوير جميع مظاهر حضارة من الحضارات أو عصر من العصور فى صورة جامعة شاملة ، وإيراد قصة تلك الحضارة وذلك العصر بهذه الطريقة عينها . ولقد كان اضطرارنا إلى الإحاطة بجميع النواحى الاقتصادية ، والسياسية ، والقانونية ، والحربية ، والأخلاقية ، والاجتماعية ، والدينية ، والتربوية ، والعلمية ، والطبية ، والفلسفية ، والأدبية ، والفنية لأربع حضارات متباينة — البيزنطية ، والإسلامية ، واليهودية ، والأوربية الغربية ، مما جعل وحدة المنهج والإيجاز من أشق الأمور . فأما من حيث الوحدة فإن التقاء الحضارات الأربع واصطراعها أيام الحروب الصليبية قد خلع على هذا المنهج شيئاً منها ، وأما الإيجاز ففى وسع القارئ المتعب ، الذى يرهقه طول الكتاب ، أن يجد شيئاً من العزاء إذا علم أن المخطوط فى صورته الأصلية كان يزيد على هذا النص الذى بين يديه بقدر نصف طوله(*) . ذلك أننا لم نبق من المخطوط الأصلى إلا ما كان فى رأينا لا غنى عنه لفهم تلك الفترة من تاريخ العالم على الوجه الصحيح ، أو لجعل القصة حية واضحة زاهية .

على أن فى وسع القارئ غير المتخصص أن يمر ببعض الفقرات العويصة

(*) إن الثغرات التى يجدها القارئ أحيانا فى ترقيم المراجع سببها ما حذفناه من العبارات فى اللحظة الأخيرة .

دون أن يقف عندها طويلا ، ولن يخل هذا بسياق القصة أو يشوه الصورة ؛ وهذا المجلد هو القسم الرابع من قصة الحضارة التي ستكون بعد تمامها مؤلفة من ستة أقسام(*) : القسم الأول هو « تراث الشرق » (١٩٣٥) ، وقد أحطنا فيه بتاريخ مصر والشرق الأدنى من أقدم العهود إلى أن فتحهما الإسكندر حوالى ٣٣٠ ق . م ، وبتاريخ الهند والصين واليابان إلى الوقت الحاضر ؛ والقسم الثاني وهو « حياة اليونان » (١٩٣٩) ، يروى تاريخ اليونان والشرق الأدنى ويصف حضارتهما إلى أن فتح الرومان بلاد اليونان في عام ١٤٦ ق . م ؛ والقسم الثالث « قيصر والمسيح » (١٩٤٤) يروى تاريخي رومة والمسيحية من بدايتهما ، وتاريخ الشرق الأدنى من عام ١٤٦ ق . م ، إلى مجمع نيقية الذى عقد فى عام ٣٢٥ م . ويواصل هذا الكتاب دراسة حياة الرجل الأبيض حتى موت دانتي فى عام ١٣٢١ . ويشمل القسم الخامس « النهضة والإصلاح » تاريخ الفترة الواقعة بين عامى ١٣٢١ ، ١٦٤٨ ونعتزم إصداره فى عام ١٩٥٥ ؛ وأما الجزء السادس «عصر العقل » الذى يصل بالقصة إلى الوقت الحاضر ، فسيصدر بمشيئة الله فى عام ١٩٦٠ وفى هذا الوقت يكون المؤلف قد قرب من الشيخوخة قرباً يضطره إلى أن يتخلى عن ميزة تطبيق الطريقة الجامعة التي سار عليها فى الأقسام الستة على الأمريكتين .

والخطة التي اتبعناها فى هذه الأقسام الستة هى أن يكون كل منها وحدة مستقلة بذاتها ، ولكن القرّاء الذين درسوا « قيصر والمسيح » سيجدون أن من السهل عليهم أكثر من غيرهم أن يمسكوا بخيوط القصة التي نرويها فى هذا الكتاب . وسيضطرنا تاريخ الحوادث وتسلسلها إلى أن نبدأه بأقل ما يعنى به الناس عادة من نواحى حضارة العصور الوسطى الرباعية وهو الحضارتان البيزنطية

(*) وقد عاد المؤلف فجعلها سبعة إذ خص الإصلاح بمجلد كامل وقد صدر المجلد الخامس فى عصر النهضة وحدة وشرعنا فعلا فى ترجمته . (المترجم)

والإسلامية ؛ وسيدهش القارئ المسيحي من كثرة الصحف التي اختصصنا بها الثقافة الإسلامية ، كما أن العالم الذي درس حضارة الإسلام سيأسف أشد الأسف للحيز الضيق الذي خصصنا به حضارة المسلمين الزاهرة في العصور الوسطى ولاضطرارنا إلى اختصار تاريخها هذا الاختصار الشديد . ولقد بذلنا جهدنا على الدوام في أن نكون بعيدين عن الهوى والتحيز ، وأن ننظر إلى كل دين وكل ثقافة كما ينظر إليهما أهلهما ؛ ولكنا مع هذا لا ندعي العصمة من الهوى ، ولا ننكر أنه قد بقي في قصتنا شيء من التحيز في اختيار مادة الكتاب وفي توزيع صحفه على موضوعاته المختلفة إن لم يكن في غير هاتين الناحيتين . ذلك أن العقل كالجسم سجين في جلده لا يستطيع الفكاك منه .

ولقد أعدنا كتابة المخطوط ثلاث مرات ، وكنا في كل مرة نكشف فيه عن أخطاء جديدة ، وما من شك في أنه لا يزال به كثير منها ، غير أننا قد ضحينا بتحسين الجزء بغية إكمال الكل ، وإنا لنرحب بكل ما يبلغ إلينا من هذه الأخطاء .

ولقد كان من الواجب على أن أهدى هذا الكتاب إلى زوجتي كما أهديت إليها الكتب السابقة ، فلقد ظلت سبعة وثلاثين عاماً تحبوني في صبر جميل بقدر من تسامحها ، وحمايتها ، وإرشادها ، وإلهامها لا تفي به هذه المجلدات جميعها . ولكنها هي التي أشارت عليّ بأن أهدى هذا الكتاب إلى ابنتنا ، وإلى زوجها ، وإلى حفيدنا .

في الثاني والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٩ — ول ديورانت

الكتاب الأول

الدولة البيزنطية فى أوج مجدها

٣٢٥ – ٥٦٥

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

التواريخ المذكورة أمام أسماء الحكام والبابوات هى تواريخ حكمهم والتواريخ كلها بعد الميلاد

٢٢٦ أردشير نيوسس الأسرة الساسانية
٢٤١ — ٢٧٢ شابور الأول ملك فارس
٢٥١ — ٣٥٦ القديس أنطونيوس المصرى
٢٩٣ — ٣٧٣ أثاناسيوس
٣٠٠ — ٣٦٧ هيلارى البواتييرى
٣٠٩ — ٣٧٩ شابور الثانى ملك فارس
٣١٠ — ٤٠٠ أوسنيوس ، الشاعر
٣١١ — ٣٨١ ألفلاس رسول إلى القوط
٣٢٥ مجمع نيقية
٣٢٥ — ٤٠٣ أوربسيوس ، الطبيب
٣٢٥ — ٣٩١ أميانس مرسلانس ، المؤرخ
٣٢٩ — ٣٧٩ القديس بازل
٣٢٩ — ٣٨٩ جريجورى نزيانزين
٣٣١ مولد يوليان المرتد
٣٣٧ موت قسطنطين
٣٤٠ — ٣٩٨ القديس أمبروز
٣٤٠ — ٤١٠ القديس چيروم
٣٤٥ — ٤٠٧ القديس يوحنا كريستوم
٣٤٥ — ٤١٠ سماكس ، عضو مجلس الشيوخ
٣٤٨ — ٤١٠ پرودنتيوس ، الشاعر
٣٥٣ — ٣٦١ قنسطنطيوس ينفرد بالملك
٣٥٤ — ٤٣٠ القديس أوغسطين
٣٥٩ — ٤٠٨ استلكو الشريف
٣٦١ — ٣٦٣ يوليان إمبراطوراً
٣٦٣ — ٣٦٤ چرڤيان إمبراطوراً
٣٦٤ — ٣٦٧ ڤلنتنيان الأول ، إمبراطور الغرب
٣٦٤ — ٣٧٨ ڤالنز إمبراطور الشرق
٣٦٥ — ٤٠٨ كلوديان الشاعر
٣٦٦ — ٣٨٤ البابا دماسس الأول
٣٧٢ الهون يعبرون الفلجا
٣٧٥ — ٣٨٣ جراتيان إمبراطور الغرب
٣٧٨ معركة هدريا نوپل
٣٧٩ ثيون الإسكندرى ، العالم الرياضى
٣٧٩ — ٣٩٥ ثيودوسيوس الأول ، الإمبراطور
٣٨٢ — ٣٩٢ مسألة مذبح النصر
٣٨٣ — ٣٩٢ ڤلنتنيان الثانى إمبراطور الغرب
٣٨٦ — ٤٠٤ چيروم يترجم الكتاب المقدس
٣٨٧ تعميد أوغسطين
٣٨٩ — ٤٦١ القديس پتريك
٣٩٠ توبة ثيودوسيوس
٣٩٢ — ٣٩٤ يوچنيوس إمبراطور الغرب
٣٩٤ نهاية الألعاب الأولمبية
٣٩٤ — ٤٢٣ هونوريوس إمبراطور الغرب
٣٩٥ — ٤٠٨ أركاديوس إمبراطور الشرق

ق م

٣٩٥ – ٤٠١ ألريك الأول ملك القوط الغربيين

٣٩ اعترافات القديس أوغسطين

حوالى ٤٠٠ ساترناليا لمكروبيوس

٤٠٢ هزيمة ألريك عند پلنتيا

٤٠٣ راڤنا تصبح عاصمة الغرب

٤٠٤ نهاية ألعاب المجالدين

٤٠٧ الفيالق الرومانية تغادر انجلترا

٤٠٨ – ٤٥٠ ثيودوسيوس الثانى إمبراطور الشرق

٤٠٩ بلاجيوس ، العالم الدينى

٤١٠ ألريك ينهب رومة

٤١٠ – ٤٨٥ پركلس ، العالم الرياضى

٤١٣ أورسيوس ، المؤرخ

٤١٣ – ٤٢٦ « مدينة الله » لأوغسطين

٤١٥ اغتيال هيپاشيا

٤٢٥ جامعة القسطنطينية

٤٢٥ – ٤٥٥ ڤلنتنيان الثالث إمبراطور الغرب

٤٨٢ – ٤٣١ نسطوريوس بطرق القسطنطينية

٤٢٩ الوندال يفتحون إفريقية

٤٣١ مجمع إفسوس

٤٣٢ – ٤٨٢ سيدنيوس أپلينارس

٤٣٢ – ٤٦١ القديس پاترك فى أيرلندة

٤٣٣ – ٤٥٤ إيتيوس ، الشريف

٤٣٨ قانون ثيودوسيوس

٤٣٩ جيرسريك يستولى على قرطاجنة

٤٤٠ – ٤٦١ البابا ليو الأول

٤٤٠ موسى القورينى المؤرخ

ق م

٤٤٩ الإنجليز – السكسون يغزون بريطانيا

٤٥٠ – ٤٦٧ سارسيان إمبراطور الشرق

٤٥٠ – ٥٥٠ عصر البناء والفسيفساء العظيم فى راڤنا

٤٥١ هزيمة أتلا فى ترويس

٤٥٢ ليو الأول يصد أتلا عن رومة

٤٥٣ موت أتلا

٤٥٤ ڤلنتنيان الثالث يذبح إيتيوس

٢٥٥ جيسريك ينهب رومة

٤٥٦ ريسيمر يحكم الغرب

٤٥٧ – ٤٦١ ماچريان إمبراطور الغرب

٤٦٦ – ٤٨٣ القوط الغربيون يفتحون أسپانيا

٤٧٤ – ٤٩١ زينون إمبراطور الشرق

٤٧٥ – ٤٧٦ روميولوس أوغسطولس

٤٧٥ – ٥٢٦ ثيودوريك ملك القوط الشرقيين

٤٧٥ – ٥٢٤ بوئثيوس ، الفيلسوف

٤٧٦ خاتمة الدولة الرومانية الغربية

٨٠ – ٥٧٣ كسيودوروس ، المؤرخ

٤٨١ كلوڤس والفرنجة يبدءون فتح غالة

٤٨٣ – ٥٣١ كاڤادة الأول ، الشيوعية المزادقية

٤٩٠ – ٥٧٠ پروكپيوس ، المؤرخ

٤٩١ – ٥١٨ أنستاسيوس الأول إمبراطور الشرق

٤٩٣ – ٥٢٦ ثيودوريك يحكم إيطاليا

٥٢٥ – ٦٠٥ الإسكندر الترالیسى ، الطبيب

ق م

٥٢٧ — ٥٦٥ جستنيان الأول الإمبراطور

٥٢٩ جستنيان يغلق مدارس أثينة ، القديس بندكت يؤسس متى كسينو

٥٣٠ — ٦١٠ فرتناتس الشاعر

٥٣١ — ٥٧٩ كسرى الأول ملك فارس

٥٣٢ — ٥٣٧ كنيسة أيا صوفيا

٥٣٣ بلساريوس يستعيد إفريقية

٥٣٥ — ٥٥٣ « الحرب القوطية » فى إيطاليا

٥٣٨ — ٥٩٤ جريجورى التورى المؤرخ

ق م

٥٤١ — ٥٥٣ توتيلا يحكم إيطاليا

٥٥٢ دخول صناعة الحرير فى أوربا

٥٧٠ — ٦٣٦ إزدور الأشبيلى ، صاحب دائرة المعارف

٥٧٧ انتصار الإنجليز — السكسون فى ديورهام

٥٨٩ — ٦٢٨ كسرى الثانى ملك فارس

٦١٦ الفرس يفتحون مصر

٦٣٧ — ٦٤٢ العرب يفتحون فارس

٦٤١ نهاية الأسرة الساسانية

الباب الاول

توليان المرتد

٣٣٢ - ٦٣

الفصل الأول

تراث قسطنطين

لما أحس الإمبراطور قسطنطين بدنو أجله جمع حوله فى عام ٣٣٥ أبناءه وأبناء أخيه وقسم بينهم حكم الإمبراطورية الضخمة التى استولى عليها ، وكان عمله هذا مثلا من أمثلة الحمق الذى تدفع إليه معزة الأبناء . وقد خص ابنه الأكبر قسطنطين الثانى بالغرب — بريطانيا ، وغالة ، وأسبانيا ؛ وخص ابنه قنسطنطيوس Constantius بالشرق — بآسية الصغرى ، وسوريا ، ومصر ؛ وخص ابنه الأصغر قنسطانس Constans بشمالى أفريقية وإيطاليا ، وإليركم ، وتراقية بما فى ذلك العاصمتان الجديدة والقديمة — القسطنطينية وروما — ، وأعطى ابنى أخ له أرمينية ومقدونية وبلاد اليونان . وكان الإمبراطور المسيحى الأول قد بذل حياته وحيوات كثيرة غير حياته ، فى إعادة الملكية ، وتوحيد العقيدة الدينية فى الدولة الرومانية ؛ فلما مات فى عام ٣٣٧ تعرض هذا كله للخطر الشديد ، ولم يكن أمامه إلا واحدة من اثنتين ليس فيهما حظ لمختار ، فإما أن تقسم حكومة البلاد وإما أن تتعرض لخطر الحرب الأهلية ؛ ذلك أن حكمه لم يدم حتى يخلع عليه القداسة طول الزمن ، ولم يكن يضمن والحالة هذه أن تنعم البلاد بالسلم إذا خلفه

على العرش وارث واحد ، ولهذا بدا له أن شر تقسيم البلاد بين عدة حكام أهون من شر الحرب الأهلية .

غير أن البلاد مع هذا لم تنج من الحرب الأهلية ، ويسر الاغتيال حل مشكلة التقسيم . ذلك أن الجيش رفض كل سلطان عدا سلطان أبناء قسطنطين ، واغتيل جميع الذكور من أقارب الإمبراطور السابق عدا جالس Gallus ويوليان Julian ابنى أخيه ، فأما جالس فكان عليلا يرجى ألا تطول حياته كثيراً ، وأما يوليان فكان فى سن الخامسة ، ولعل سحر الطفولة هو الذى رقق قلب قنسطنطيوس الذى تعزو إليه الروايات المتواترة ، ويعزو إليه أمنيوس ، هذه الجرائم[1] . وأوقد قنسطنطيوس مرة أخرى نار الحرب مع بلاد الفرس وهى حلقة من النزاع القديم بين الشرق والغرب ، ذلك النزاع الذى لم تخمد جذوته واقع الأمر من أيام مرثون ، وأجاز لإخوته أن يبيد بعضهم بعضاً بسلسلة من الاغتيالات الأخوية . ولما انفرد بالملك (٣٥٣) عاد إلى القسطنطينية ، وحكم الدولة التى وجدت من جديد حكماً بذل فيه كل ما اتصف به من عجز يصحبه الإخلاص ، واستقامة شديدة ، ولم يكن يهنأ له عيش لارتيابه فى الناس وسوء ظنه بهم ، ولا يحبه أحد لقسوته ، ولا يرقى إلى مصاف العظماء لكبريائه وغروره .

وكانت المدينة التى سماها قسطنطين روما الجديدة Nova Roma ، والتى سميت باسمه فى أثناء حياته ، قد أقامها على مضيق البسفور جماعة من المستعمرين اليونان حوالى عام ٦٥٧ ق . م ، وظلت ما يقرب من ألف عام تعرف باسم بيزنطية ، وسيظل لفظ بيزنطى عنواناً لحضارتها وفنها على مر الأيام ، ولم يكن ثمة موضع آخر فى الأرض كلها أصلح منها لإقامة عاصمة لدولة ما . وقد أطلق عليها نابليون فى تلزت Tilsit عام ١٨٠٧ اسم إمبراطورية العالم ، وأبى أن يسلمها إلى الروسيا التى كانت تتوق إلى السيطرة عليها مسوقة إلى هذا باتجاهما يخترق بلادها من الأنهار . وتستطيع الدولة المسيطرة عليها أن تغلق

فى أى وقت تشاء باباً رئيسياً بين الشرق والغرب ، وفيها تجتمع تجارة ثلاث قارات ، وتفرغ غلات مائة من الدول ، وهنا يستطيع جيش أن يصمد ليصد الفرس المتحضرين ، والهون الهمج الشرقيين ، وصقالبة الشمال ، وبرابرة الغرب . وتحميها المياه الدافقة من جميع الجهات إلا جهة واحدة يستطاع حمايتها بالأسوار المنيعة ، وتستطيع الأساطيل الحربية والسفن التجارية أن تجد فى القرن الذهبى — وهو خليج صغير من خلجان البسفور — مرفأ أميناً يقيها هجمات السفن المعادية والأعاصير المدمرة . ولعل اليونان قد سموا هذا الخليج قرناً Keras لشكله الذى يشبه القرن ، أما وصفه بالذهبى فقد أضيف إليه فيما بعد ليوحى إلى سامعيه بما ينعم به هذا المرفأ من ثروة عظيمة يأتى إليه بها السمك والحبوب والتجارة . ورأى الإمبراطور المسيحى أنه واجد فى هذا المكان ، بين السكان الذين تدين كثرتهم بالمسيحية ، والذين طال عهدهم بالملكية والأبهة الشرقيتين ، من تأييد الشعب ما لا يستطيع أن يجده فى رومة ، وما يضن به عليه مجلس شيوخها المتغطرس وسكانها الوثنيون . وهنا عاشت الدولة الرومانية ألف عام بعد وفاته رغم هجمات جحافل البرابرة التى أغرقت رومة فيما بعد ، فقد هدد القوط ، والهون ، والوندال ، والأفار ، والفرس ، والعرب ، والبلغار ، والروس العاصمة الجديدة ، وعجزوا جميعاً عن الاستيلاء عليها ، ولم تسقط فى تلك القرون العشرة إلا مرة واحدة ، وكان سقوطها فى أيدى الصليبيين المسيحيين الذين كان حبهم للذهب يزيد قليلا على حبهم للدين . وظلت بعد ظهور الإسلام ثمانية قرون تصد جيوش المسلمين التى اكتسحت أمامها آسية وإفريقية ، وأسبانيا . وفيها ظلت الحضارة اليونانية قائمة لا ينضب معينها تحتفظ للعالم بشعلة أنقذته فيما بعد من الهمجية ، وعضت بالنواجذ على كنوزها القديمة ، حتى أسلمتها آخر الأمر إلى إيطاليا فى عصر النهضة ، ومنها إلى العالم الغربى .

وفى عام ٣٢٤ سار قسطنطين الأكبر على رأس جماعة من قواده الجند ،

والمهندسين ، والقساوسة ، وانتقل بهم من مرفأ بيزنطية ، واجتاز ما حوله من التلال ، ليرسم حدود العاصمة التي كان يعتزم إنشاءها . ولما عجب بعضهم من اتساع رقعتها رد على هؤلاء بقوله : « سأواصل السير حتى يرى الله الذى لا تدركه الأبصار أن من الخير أن أقف(٢) » . وكانت هذه سنته التي جرى عليها طوال حكمه ، فلم يكن يتردد قط فى القيام بأى عمل ، أو النطق بأى لفظ ، يمكن أن تنال به خططه أو دولته ذلك التأييد القوى الذى ينبعث من عاطفة الشعب الدينية وولائه للكنيسة المسيحية .

ثم جاء « إطاعة لأمر الله »(٣) بآلاف الصناع والفنانين لإقامة أسوار المدينة ، وحصونها ، ودور المصالح الحكومية ، وقصورها ، ومنازل سكانها . وزين الميادين والشوارع بالفساقى ، والأبهاء ذات العمد ، وبالنقوش التي جاء بها من مختلف المدن فى دولته الواسعة بلا تمييز بينها ؛ وهداه حرصه على تسلية العامة وإيجاد متنفس ينصرف فيه شغبها واضطرابها ، فأنشأ مضماراً للسباق تستطيع فيه الجماهير أن تشبع غريزة اللعب والمقامرة على نطاق لم يُر له مثيل إلا فى رومة أيام انحلالها . وأعلنت رومة الجديدة عاصمة للدولة الشرقية فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ٣٣٠ ، واتخذ ذلك اليوم بعدئذ عيداً يحتفل به فى كل عام بأعظم مظاهر الأبهة والفخامة . وكان ذلك إيذاناً بانتهاء عهد الوثنية من الوجهة الرسمية وبداية العصور الوسطى عصور انتصار الإيمان من الوجهة الرسمية أيضاً إذا صح ذلك التعبير . وبذلك انتصر الشرق فى معركته الروحية على الغرب الظافر بقوته المادية الجسمية ، وسيطر على الروح الغربية مدى ألف عام .

وما كان يمضى على اتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة حتى أصبحت أغنى مدائن العالم وأجملها وأعظمها حضارة ، وظلت كذلك مدى عشرة قرون كاملة . وبينا كان عدد سكانها فى عام ٣٣٧ لا يزيد على ٥٠٫٠٠٠ نسمة إذا هم يبلغون فى عام ٤٠٠ حوالى مائة ألف ، وفى عام ٥٠٠ ما يقرب من مليون(٤) . وثمة وثيقة

رسمية (يرجع تاريخها إلى حوالى عام ٤٥٠) تقول إنه كان بالمدينة وقت كتابة هذه الوثيقة خمسة قصور إمبراطورية وستة قصور لسيدات الحاشية ، وثلاثة لعظماء الدولة ، و٤٣٨٨ من الدور الفخمة ، و٣٢٢ شارعاً ، ٥٢ مدخلا ذا عمد ؛ هذا فضلا عن نحو ألف حانوت ، ومائة مكان للهو ، وكثير من الحمامات الفخمة ، والكنائس المزدانة بالنقوش الجميلة ، والميادين الواسعة العظيمة التى كانت متاحف حقة لفن العالم القديم[٥] . وقد أنشئت على التل الثانى من التلول التى كانت تعلو بالمدينة فوق ما يحيط بها من المياه سوق قسطنطين ، وهى ساحة رحبة إهليلجية الشكل يدخل الإنسان إليها من كلا جانبيها تحت قوس من أقواس النصر . وكان يحيط بالساحة مداخل ذات عمد ، وتماثيل ، وكان فى ناحيتها الشمالية بناء فخم لمجلس الشيوخ ، وفى وسطها عمود من حجر السماق يعلو فوق الأرض ١٢٠ قدماً ، ويتوجه تمثال لأپلو ، ويقال إن هذا العمود من صنع فدياس نفسه[*] .

وكان يمتد من السوق العامة فى اتجاه الغرب طريق وسط تقوم على جانبيه قصور وحوانيت ، وتظلله طائفة من العمد ، ويخترق المدينة إلى الأوغسطيوم Augusteum ، وهو ميدان واسع طوله ألف قدم وعرضه ثلثمائة ، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى هلينا Helena أم قسطنطين بوصفها Augusta (العظيمة) . وعند الطرف الشمالى من هذا الميدان قامت فى صورتها الأولى كنيسة أيا صوفيا Sophia — أى كنيسة الحكمة القدسية . وكان عند طرفه الشرقى قاعة ثانية لمجلس الشيوخ ؛ وعند طرفه الجنوبى شيد القصر الرئيسى للإمبراطور ، كما شـيدت حمامات زيوكسپس Zeuxippus الضخمة التى كانت تحتوى على مئات من التماثيل المنحوتة من الرخام ، أو المصبوبة من البرنز . وعند الطرف الغربى للطريق الأوسط كان يقوم بناء ضخم مكون من عقود — يعرف باسم الميليون milion

(*) وقد اسود لونه بتأثير الزمن والحرائق ، وأصبح الآن يعرف بالعمود المحروق .

أو شاخص الميل — ومنه تتشعب الطرق العظيمة الكثيرة (التي لا يزال بعضها باقياً للآن) ، والتي تربط عاصمة الدولة بمختلف ولاياتها . وهنا أيضاً في غرب الأوغسطيوم أنشئ ميدان السباق العظيم ، وبينه وبين كنيسة أيا صوفيا كان يمتد القصر الإمبراطوري أو القصر المقدس ، وهو بناء معقد من الرخام تحيط به مائة وخمسون فداناً من الحدائق والأبواب ذات العمد . وانتشرت في انحاء مختلفة من المدينة وضواحيها بيوت الأشراف . وفي الشوارع الجانبية الضيقة الملتوية المزدحمة بالسكان كانت حوانيت التجار ومساكن العامة على اختلاف أنواعها . وكان الطريق الأوسط ينتهي عند طرفه الغربي « بالباب الذهبي » في سور قسطنطين ، ويطل من هذا الباب على بحر مرمرة . وكانت القصور تقوم على الشواطئ الثلاثة وتضطرب ظلالها الفخمة في أمواج البحار .

وكان جل أفراد الطبقة العليا من سكان المدينة من الرومان ، أما الكثرة الساحقة من غير هذه الطبقة فكانوا من اليونان . وكان هؤلاء وأولئك وغيرهم من السكان يسمون أنفسهم « يونانا » . وكانت اللاتينية لغة الدولة الرسمية ، ولكن اليونانية ظلت لغة الشعب حتى حلت قبيل مستهل القرن السابع محل اللاتينية في المصالح الحكومية نفسها . وكانت تلي طبقة كبار الموظفين وأعضاء مجلس الشيوخ طبقة من الأشراف قوامها ملاك الأراضي الذين يقيمون في المدينة تارة وفي ضياعهم في الريف تارة أخرى . وكانت هناك طبقة أخرى هي طبقة التجار تحتقرها الطبقات السالفة الذكر ولكنها تنافسها في الثراء . وكان هؤلاء التجار يستبدلون ببضائع القسطنطينية والإقليم الذي من خلفها غلات بلاد العالم . ويلي طبقة التجار في المدينة طبقة أخرى مطردة الزيادة من موظفي الحكومة ، ومن تحتهم أصحاب الحوانيت ورؤساء الصناع الذين يعملون في مختلف الحرف ، وتليهم طبقة يعد أفرادها عمالا أحراراً من الوجهة الرسمية الشكلية ، لا حق لهم في الانتخابات العامة ، جبلوا على الشغب والاضطراب ، أذلهم الجوع وخضعوا

عادة لرجال الشرطة ، يشترى هدوءهم بالألعاب وسباق الخيل ، وبما يوزع عليهم فى كل يوم من الخبز أو الحبوب التى تبلغ ثمانين ألف مكيال ، ليظلوا هادئين مسالمين . وكانت أحط طبقات المجتمع فى القسطنطينية ، كما كانت أحطها فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، طبقة الأرقاء ، وكان عددهم وقتئذ أقل من عددهم فى رومة أيام قيصر ، وكانوا يلقون من المعاملة خيراً مما كانوا يلقونه فى أيامه بفضل شرائع قسطنطين وتأثير الكنيسة التى خففت عن كاهلهم كثيراً من الأعباء ، وأشعرت سادتهم الرحمة بهم والإشفاق عليهم .

وكان السكان الأحرار يخرجون من أعمالهم فى مواسم معينة ، ويجتمعون فى ميدان السباق ، فيَتَغَصُّص بهم على سعته . وكان فى هذا الميدان مدرج طوله خمسمائة وستون قدماً وعرضه ثلثمائة وثمانون ، وتتسع مقاعده لعدد من النظارة يتراوح بين ثلاثين ألفاً وسبعين[٧] ، يحميهم عن المجتلد خندق ذو شكل إهليلجى ؛ وكان فى وسعهم خلال الفترات التى بين الألعاب أن يتنزهوا فى طريق ظليل ذى خطار من الرخام طوله ٢٧٦٦ قدماً[٨] . وكان يخترق مضمار السباق جدار منخفض يمتد فى وسطه فى أكبر طوليه من إحدى نهايتيه إلى الأخرى ويسمى الأسبينا spina أو عموده الفقرى ؛ وقد صفت التماثيل على جانبيه ، وقامت فى وسطه مسلة من مسلات الملك تحتمس الثالث جىء بها من مصر . وكان فى طرفه الجنوبى عمود مكون من ثلاث جهات من البرنز ملتوية بعضها على بعض . أقيم فى بادئ الأمر فى دلفى تخليداً لذكرى معركة پلاتيه plataea (٤٧٩ ق . م) ؛ ولا تزال المسلة والعمود قائمين حتى الآن . وقد ازدانت الكاثزما Kathisma أى مقصورة الإمبراطور فى القرن الخامس بتماثيل لأربعة جياد من البرنز المذهب من عمل ليسيوس فى الزمن القديم . وفى هذا المضمار كان يحتفل بالأعياد القومية العظيمة ، فتسير فيه المواكب ، وتقام المباريات الرياضية ، والألعاب البهلوانية ، وتقتتل الحيوانات وتصاد ، وتعرض الوحوش والطيور الأجنبية الغريبة . وبفضل التقاليد

اليونانية والعاطفة المسيحية كانت أسباب التسلية واللهو فى القسطنطينية أقل قسوة من نظائرها فى رومة ، وشاهد ذلك أننا لا نسمع فى العاصمة الجديدة عن قتال المجالدين ؛ ومع هذا فإن أشواط سباق الجياد والعربات البالغة أربعة وعشرين شوطاً ، وهى الجزء الأهم من منهاج الاحتفالات ، كانت تثير فى نفوس الجماهير ما تثيره حفلات الأعياد الرومانية فى نفوس الرومان من حماسة بالغة . وكان ركاب الخيل والعربات المحترفون يقسمون إلى فئات زرق ، أو خضر ، أو حمر ، أو بيض حسب من يستخدمونهم من أصحاب الخيل والعربات ، وحسب ما يرتدون من ثياب ؛ وعلى هذا النحو أيضاً ينقسم النظارة ، بل وينقسم سكان المدينة على بكرة أبيهم . وكان الحزبان الرئيسيان — الزرق والخضر — يقتتلان بالخناجر فى المضمار وبالخناجر أحياناً فى شوارع المدينة ؛ ولم يكن فى وسع السكان أن يعبروا عن مشاعرهم إلا فى أثناء هذه الألعاب والمباريات ، ففيها كانوا يطالبون بحقهم فى أن ينالوا رعاية الحكام ، أو فيما يريدونه من ضروب الإصلاح ، أو فى الشكوى من ظلم الحكام ، وكانوا فى بعض الأحيان يعتبون على الإمبراطور نفسه وهو جالس فى مقعده الأمين الرفيع الذى كان يتصل بقصره بمخرج يقوم عليه حراس مدججون بالسلاح .

أما فيما عدا هذا فقد كانت جمهرة السكان لا حول لها ولا طول من الناحية السياسية . ذلك أن دستور قسطنطين ، الذى لم يكن فى واقع الأمر إلا استمراراً لدستور دقلديانوس ، كان دستور دولة ملكية مطلقة سافرة : وقد كان فى وسع مجلسى الشيوخ فى القسطنطينية وفى رومة أن يناقشا المسائل المعروضة عليهما ، وأن يشرعا ، ويفصلا فى بعض القضايا ، ولكن هذا كله كان يخضع لحق الرفض المخول للإمبراطور . وقد استحوذ على حقوقهما التشريعية مجلس الحاكم الاستشارى المعروف باسم المجلس التشريعى الأعلى المقدس : يضاف إلى هذا أنه كان من حق الإمبراطور أن يسن القوانين بمراسيم يصدرها بنفسه ، كما أن إرادته كانت هى

القانون الأعلى . وكان الأباطرة يرون أن الدمقراطية قد أخفقت فى تحقيق أغراضها ، وأنها قد قضت عليها الإمبراطورية التى ساعدت هى على إقامتها . نعم إنه قد يكون فى وسعها أن تحكم مدينة ، ولكنها عجزت عن حكم مائة ولاية مختلفة الأوضاع . ولقد أسرفت فى الحرية حتى جعلتها إباحية ، ثم أسرفت فى الإباحية حتى أصبحت فوضى ، وحتى هددت حروبها الأهلية وحروب الطبقات الحياة الاقتصادية والسياسية لعالم البحر المتوسط ، وانتهى دقلديانوس وقسطنطين إلى أن النظام لا يمكن أن يعود إلا بقصر المناصب العليا على الأشراف ما بين كنت Conites ودوق Duces ، لا يختارون على أساس مولدهم ، بل يعينهم الإمبراطور الذى يتحمل تبعة الحكم كاملة ، ويستمتع بالسلطه كاملة ، والذى تحيط به هالة رهيبة من المهابة ، والترفع ، والعزلة عن الشعب ، والأبهة الشرقية ، وما تخلعه عليه الكنيسة من مراسم التتويج ، والتقديس ، والتأييد . ولعل هذا النظام كان له ما يبرره من الظروف المحيطة بالدولة فى ذلك الوقت ، ولكنه لم يفرض على إرادة الحاكم قيوداً إلا مشورة أعوان يهمهم أن يرضوه ، وإلا خوفه من الموت المفاجئ . نعم إن هذا النظام قد أوجد أداة إدارية وقضائية قديرة إلى أقصى حدود القدرة ، وأطال حياة الإمبراطورية البيزنطية نحو ألف عام كاملة ، ولكنها اشترت هذه الحياة بالركود السياسى وبالجمود فى كل مناحى الحياة العامة ، وبمؤامرات الحاشية ، ودسائس الخصيان ، وحروب الوراثة ، وبعشرات الثورات التى شبت نارها فى القصر ، والتى رفعت إلى العرش أباطرة كفاة فى بعض الأحيان ، ولكنها قلما رفعت إليه أباطرة ذوى استقامة خلقية ؛ وما أكثر من رفعت إليه من المغامرين الذين لا ضمير لهم ، أو من العصابات الألجركية ، أو من الحمقى البلهاء .

الفصل الثانى

المسيحيون واليهود

فى القرن الرابع الميلادى كانت الشئون الكنسية ، فى عالم البحر المتوسط الذى تعتمد فيه الدولة اعتماداً كبيراً على الدين ، قلقة مضطربة إلى حد شعرت الحكومة معه أن لا بد لها من أن تتدخل فى أسرار الدين وخفاياه : ذلك أن مجمع نيقية الذى عقد فى عام ٣٢٥ لم يضع حداً للنقاش الحاد الذى احتدم أواره بين أثناسيوس وأريوس ، بل ظل كثير من الأساقفة — كانوا هم الكثرة الغالبة فى الشرق[٩] — يناصرون أريوس سراً أو جهراً ؛ أى أنهم كانوا يرون أن المسيح ابن الله ، ولكنه لا يشترك مع الأب فى مادته ولا فى خلوده . ولم يستنكف قسطنطين نفسه ، بعد أن قبل قرار المجمع ، وطرد أريوس من البلاد ، أن يدعوه إلى اجتماع شخصى معه (٣٣١) ؛ فلما اجتمع به لم يجد فى أقواله ما يستطيع أن يعده خروجاً على الدين ، وأوصى بأن ترد إلى أريوس وأتباعه كنائسهم . واحتج أثناسيوس على ذلك ، فاجتمع فى صور مجلس من أساقفة الشرق وقرر خلعه من كرسى الإسكندرية الدينى (٣٣٥) ، وظل عامين طريداً فى غاله . أما أريوس فقد زار قسطنطين مرة أخرى ، وأعلن قبوله للعقيدة التى قررها مؤتمر نيقية بعد أن أضاف إليها تحفظات دقيقة لا ينتظر من إمبراطور أن يفهمها . وآمن قسطنطين بأقواله ، وأمر الإسكندر بطرق القسطنطينية أن يقبله فى العشاء الربانى . وفى هذا يقص سقراط المؤرخ الكنسى هذه القصة المحزنة المؤلمة :

«كان ذلك يوم السبت ، وكان أريوس يتوقع أن يجتمع بالمصلين فى اليوم الذى يليه ، ولكن القصاص الإلهى عاجله فأحبط عمله الإجرامى الجرىء . ذلك

أنه لما خرج من القصر الإمبراطورى . . . واقترب من العمود السماقى المقام فى سوق قسطنطين ، تملكه الرعب ، وأصيب بإسهال شديد . . . خرجت فيه أمعاؤه من بطنه ، وأعقبه نزيف حاد ، ونزلت أمعاؤه الدقاق . ومما زاد الطين بلة أن طحاله وكبده قد انفصلا من حدة النزيف ومات لساعته[١٠] » .

ولما بلغ هذا التطهير العاجل مسامع قسطنطين بدأ يسائل نفسه : ألم يكن أريوس فى واقع الأمر كافراً زنديقاً ؟ لكنه لما مات فى السنة التالية تلقى مراسم التعميد على يد صديقه ومشيره يوسبيوس أسقف نقوميديا ، وهو من أتباع أريوس نفسه .

وعنى قنسطنطيوس بشئون الدين عناية أكثر جدية من عناية أبيه ، فشرع يبحث بنفسه أبوة المسيح ، وخرج من هذا البحث باعتناق مذهب أريوس ، وشعر بأن واجبه الأدبى يحتم عليه أن يعرض هذه الآراء على جميع العالم المسيحى . وطرد أثناسيوس من كرسى الإسكندرية مرة أخرى (٣٣٩) ، وكان قد عاد إليه بعد موت قسطنطين . ودعيت مجالس الكنائس تحت إشراف الإمبراطور الجديد ، وأيدت تشابه المسيح والأب دون اتحادهما فى المادة . وأخرج الكهنة الذين استمسكوا بعقائد مجمع نيقية من كنائسهم ، وكان الغوغاء فى بعض الأحيان هم الذين يخرجونهم منها ، وأتى على المسيحية نصف قرن من الزمان لاح فيه أنها ستؤمن بالتوحيد وتتخلى عن عقيدة ألوهية المسيح . وكان أثناسيوس فى هذه الأيام العصيبة يقول عن نفسه إنه يقف وحده فى وجه العالم كله ، فقد كانت جميع قوى الدولة تقاومه ، بل إن أتباع كنيسة الإسكندرية خرجوا عليه واضطر فى خمس مرات مختلفة أن يفر من كرسيه معرضاً حياته فى معظمها لأشد الأخطار ، وأن يهيم على وجهه فى البلاد الأجنبية . وظل خمسين عاماً (٣٢٣ — ٣٧٣) صابراً يكافح ويدافع عن عقيدته كما حددها مجمع نيقية بزعامته ، مستعيناً على ذلك بمهارة الدبلوماسى وعنف الرجل البليغ . ولم تلن له قناة حتى بعد أن ضعف البابا

ليبريوس واستسلم . وإليه يرجع معظم الفضل فى استمساك الكنيسة بعقيدة التثليث .

وعرض أثناسيوس قضيته على البابا يوليوس الأول (٣٤٠)، فرده يوليوس إلى كرسيه ، ولكن مجمعاً من أساقفة الشرق عقد فى أنطاكية (٣٤١) ، وأنكر على البابا حقه فى هذا الحكم، ورشح جريجورى ، وهو رجل من أتباع أريوس، أسقفاً لكرسى الإسكندرية . لكن جريجورى لم يكد يصل إلى تلك المدينة حتى أثارت أحزابها المتنافسة فتنة صماء قتل فيها عدد كبير من الأهلين ، واضطر أثناسيوس على أثرها إلى التخلى عن كرسيه حقناً للدماء (٣٤٢)[11] . وثارت فى القسطنطينية فتنة أخرى من نوعها ؛ كان سببها أن قنسطنطيوس أمر أن يستبدل ببولس ، الرجل الوطنى المستمسك بالدين القويم، مقدونيوس الأريوسى ، فهب جماعة من مؤيدى بولس يقاومون جند الإمبراطور، وقتل فى الاضطرابات التى أعقبت هذه المقاومة ثلاثة آلاف شخص، وأكبر الظن أن الذين قتلوا من المسيحيين بأيدى المسيحيين فى هذين العامين (٣٤٢ — ٣٤٣) يزيد عددهم على من قتلوا بسبب اضطهاد الوثنيين للمسيحيين فى تاريخ رومة كله. واختلف المسيحيون وقتئذ فى كل نقطة عدا نقطة واحدة ، هى أنه يجب إغلاق الهياكل الوثنية ، ومصادرة أملاكها ، واستخدام أسلحة الدولة التى كانت توجه من قبل لقتال المسيحية فى قتال هذه المعابد وقتال من يتعبدون فيها[12] . وكان قسطنطين قد قاوم القرابين والاحتفالات الوثنية وإن لم يكن قد حرمها تحريماً باتاً ؛ فلما جاء قنسطانس حرمها وأنذر من يعصى أمره بالموت ؛ ثم جاء قنسطنطيوس فأمر بإغلاق جميع الهياكل الوثنية فى الدولة، ومنع جميع الطقوس الوثنية، وأنذر من يعصى أمره بقتله ومصادرة أملاكه، كما فرض هاتين العقوبتين بعينهما على حكام الولايات الذين يهملون تنفيذ هذا الأمر[13]. ومع هذا كله فقد بقيت جزائر وثنية متفرقة فى بحر المسيحية الآخذ فى الاتساع، فكان فى المدن القديمة — أثينة، وأنطاكية ؛ وأزمير ، والإسكندرية

وروما — وبخاصة بين الأشراف وفى المدارس طوائف كبيرة من الوثنيين متفرقين فى أحيائها المختلفة . وظلت الألعاب تقام فى أولمپيا إلى أيام ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ — ٣٩٥) ، والطقوس الخفية يحتفل بها فى إلوسيس ، حتى جاء ألريك فهدم هيكلها فى عام ٣٩٦؛ ولم تنقطع مدارس أثينة عن إذاعة تعاليم أفلاطون ، وأرسطو ، وزينون ، وإن فسرتها تفسيرات تلطف من وثنيتهم . (أما تعاليم أبيقور فقد حرمت وأصبح اسم هذا الفيلسوف مرادفاً للكفر) : وظل قسطنطين وولده يؤديان ما كان مقرراً من رواتب لرؤساء المدارس الفلسفية وأساتذتها الذين يكونون ما يمكن أن نسميه ببعض التساهل جامعة أثينة ؛ كما ظل المحامون والخطباء يهرعون إلى تلك المدينة ليتعلموا فيها أساليب الخطابة وحيلها ؛ وكان السوفسطائيون الوثنيون — أو معلمو الحكمة — يعرضون بضاعتهم على كل من يستطيع شراءها : وكانت أثينة كلها مولعة ومعجبة ببروهيرسيوس Prohaeresius ، الذى جاءها شابا فقيراً ، واشترك مع طالب آخر فى فراشه ورادائه ، وما زال يرتقى حتى شغل كرسى البلاغة الرسمى ، واحتفظ حتى سن السابعة والثمانين بوسامته ، وقوته ، وفصاحته ، احتفاظاً جعل تلميذه يونپيوس يرى أنه « إله لا يهرم ولا يموت »(١٤) :

ولكن حامل لواء السوفسطائيين فى القرن الرابع هو ليبانيوس Libanius ؛ وكان مولده فى أنطاكية عام ٣١٤ ، ولكنه انتزع نفسه من أمه المولعة به ، ووفد إلى أثينة للتعلم والدرس ، ولما عرض عليه فى بلده أن يتزوج من وارثة غنية إذا بقى فيها قال إنه يرفض الزواج من إلهة إذا حال ذلك بينه وبين رؤية دخان أثينة(١٥) . ولم يكن يرى أن معلميه فى هذه المدينة أنبياء ملهمون بل كان يراهم مجرد منبهين إياه للتأمل والتفكير ، ولهذا فقد علم هو نفسه وسط متاهة من الأساتذة والمدارس . وبعد أن ظل يحاضر وقتا ما فى القسطنطينية ونقوميديا عاد إلى أنطاكية (٣٥٤) ، وأقام فيها مدرسة ظلت مدى أربعين عاما أشهر مدارس الإمبراطورية وأكثرها طلابا . وقد بلغ من الشهرة (كما يؤكد لنا هو نفسه) حداً جعل الناس يتغنون بالفقرات الأولى من تعاليمه(١٦) وكان من بين تلاميذه أميانس مرسلينس

Ammianus Marcellinus والقديس يوحنا كريسستوم St. JohnChrysostom والقديس باسيلى St. Basil . وكان يستمتع برضاء الأمراء المسيحيين ، وإن كان يخطب ويكتب فى الدفاع عن الوثنية ، ويقرب القرابين فى الهياكل . ولما أضرب خبازو أنطاكية عن العمل اختاره الطرفان المتنازعان حكماً بينهما ؛ ولما ثارت أنطاكية على ثيودوسيوس الأول اختارته المدينة المعذبة ليدافع عن قضيتها أمام الإمبراطور(١٧) . وقد طالت حياته ما يقرب من جيل كامل بعد أن اغتيل صديقه يوليان ، وبعد أن انهارت دعائم النهضة الوثنية .

وتشكلت وثنية القرن الرابع بأشكال مختلفة : فكان منها المثراسية ، والأفلاطونية الجديدة ، والرواقية ، والكلبية ، وكان منها الطقوس المحلية التى تقام لآلهة المدن أو الريف ، ثم فقدت المثراسية مكانتها ، ولكن الأفلاطونية الجديدة ظلت ذات قوة وأثر فى الدين والفلسفة . وكان للعقائد التى كساها أفلوطين ظلا من الحقيقة — كالقول بوجود نفس ثلاثية تؤلف بين الحقائق كلها وتربطها برباط واحد ؛ وبالعقل أو الإله الوسيط الذى قام بعملية الخلق ، والروح وهى بوصفها الجزء القدسى ، والمادة وهى الجسم ومبعث الشر ، وبمناطق الوجود التى هبطت على درجاتها غير المنظورة النفس البشرية من الله إلى الإنسان ، والتى تستطيع أن ترقى عليها من الإنسان إلى الله — كان لهذه العقائد والأفكار الصوفية الخفية أثرها فى آراء الرسولين بولس ويوحنا وفى كثير ممن حذا حذوهما من المسيحيين ، وفى تشكيل كثير من العقائد المسيحية الخارجة على الدين القويم(١٨) . وقد ضم أيمبلقوس Iamblichus من أهل خلقيس Chalcis السورية المعجزات إلى الشعائر الخفية فى الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فقال إن الرجل المتصوف لا يكتفى بإدراك الأشياء التى لا تدركها الحواس بل إنه — بفضل اتصاله بالله فى أثناء نشوته — قد أصبحت له مواهب ربانية من السحر والاطلاع على الغيب . ثم جمع مكسموس الصورى تلميذ أيمبلقوس بين دعوى المواهب الصوفية

والوثنية المؤمنة المخلصة الفصيحة التى انتصرت على يوليان وأخضعته لسلطانها ؛ وإلى القارئ فقرة من أقوال مكسموس يدافع فيها عن استخدام الأوثان فى العبادات الوثنية ويرد على استهزاء المسيحيين بها :

« الله الأب الذى صور كل ما هو كائن أقدم من الشمس ومن السماء ، وأعظم من الزمان ، ومن الخلود ومن مجرى الكينونة ، لا يستطيع أن يسميه مشترع أو أن ينطق به صوت ، أو أن تراه عين ، لكننا نحن لعجزنا عن إدراك جوهره نستعين بالأصوات ، والأسماء ، والصور ، وبالذهب المطروق ، والعاج ، والفضة ، وبالنبات ، والأنهار ، وبالسيول ، وقلل الجبال فى إشباع حنيننا إلى معرفته ؛ ونداري عجزنا بأن ننحت من طبيعته أسماء لكل ما هو جميل فى هذا العالم . . . فإذا ما تاق يونانى لأن يتذكر الله حين يبصر تحفة فنية من عمل فدياس أو تاقت نفس مصرى لهذه الذكرى فعبد الحيوان ، أو مجد غيرهما ذكراه بعبادة نهر أو نار ، فإن اختلافهم عنى لا يغضبنى ؛ وكل ما أطلبه إليهم أن يلاحظوا وأن يذكروا ، وأن يحبوا[19] .

وكانت فصاحة ليبانيوس ومكسموس من الأسباب التى جعلت يوليان يرتد من المسيحية إلى الوثنية ، ولما أن اعتلى تلميذهما عرش الإمبراطورية هرع مكسموس إلى القسطنطينية ، وأنشد ليبانيوس فى أنطاكية نشيد النصر والفرح : « هانحن أولاء قد عدنا حقاً إلى الحياة ، وهب على الأرض كلها نسيم السعادة لما أن حكم العالم إله حق فى صورة إنسان » [20] .

الفصل الثالث

قيصر الجديد

ولد فلافيوس كلوديوس يوليانوس Flavius Claudius Julianus فى القصر الإمبراطورى فى القسطنطينية فى عام ٣٣٢ ، وكان ابن أخى قسطنطين . وقد قتل أبوه ، وأخوه الأكبر ، ومعظم أبناء عمه ، فى المذبحة التى حدثت أيام حكم أبناء قسطنطين . وأرسل هو إلى نقوميديا ليتلقى فيها العلم على الأسقف يوسبيوس ؛ ولقن من علوم اللاهوت المسيحية أكثر ما يطيقه عقله ، وظهرت عليه سمات تدل على أنه سيكون قديسا . ولما بلغ السابعة من عمره بدأ يدرس الآداب القديمة على مردونيوس Mardonius ، وسرى حب هومر وهزيود والتحمس لآدابهما من الخصى الهرم إلى تلميذه ، ودخل يوليان إلى عالم الأساطير اليونانية الشعرى الزاهر بدهشة وبهجة عظيمتين .

وفى عام ٣٤١ نفى يوليان وأخوه جالوس Gallus إلى كبدوكيا لأسباب لا نعلمها الآن ، وظلا ست سنين يكادان أن يكونا فيها سجينين فى حصن ماسلوم Macellum ولما أطلق سراحهما سمح ليوليان أن يعيش وقتاً ما فى القسطنطينية ولكن مرح الشباب ، وما امتاز به من إخلاص وذكاء حبباه إلى الشعب حباً أقلق بال الإمبراطور ؛ فأرسله مرة أخرى إلى نيقوميديا حيث أخذ يدرس الفلسفة . ولما أراد أن يستمع فيها إلى محاضرات ليبانيوس حرم عليه هذا ، ولكنه استطاع أن يحصل على مذكرات وافية لدروس هذا المعلم . وكان وقتئذ شابا فى السابعة عشرة من عمره ، بهى الطلعة ، جياش القلب بالعواطف ، متأهباً لأن يبهره سحر الفلسفة الخطر ، وبينما كانت الفلسفة ، وبينما كان التفكير الحر يأتيان إليه بكل مافيهما من إغراء ، كانت المسيحية تعرض عليه بوصفها مجموعة من العقائد التعسفية

التى لا تقبل الجذل ، وكنيسة تمزقها الفضائح ، منقسمة على نفسها بسبب منازعات أريوس وأتباعه ، وبسبب تبادل اللعنات بين الشرق والغرب ، وتكفير كل منهما الآخر .

وفى عام ٣٥١ جعل جالوس قيصراً أى ولياً للعهد — وعهد إليه حكم أنطاكية ؛ وأحسن يوليان وقتاً ما بأنه آمن من ريبة الإمبراطور فأخذ يتنقل من نيقوميديا إلى برجوم ثم إلى إفسوس ، يدرس فيها الفلسفة على إدسيوس Edesius ، ومكسموس ، وكريسنثيوس Chrysanthius وقد أتم هؤلاء تحويله سراً إلى الدين الوثنى . وفى عام ٣٥٤ استدعى قسطنطين جالوس ويوليان إلى ميلان حيث كان يعقد محكمة للنظر فى أمرهما . ذلك أن جالوس تعدى حدود السلطة المخولة له ، وحكم الولايات الأسيوية حكماً بلغ من استبداده وقسوته أن ارتاع له قسطنطين نفسه . وحوكم الرجل أمام الإمبراطور ، ووجهت إليه عدة تهم ، وأدين ، وصدر عليه الحكم بالإعدام ، ونفذ على الفور : وأما يوليان فقد ظل تحت الحراسة فى إيطاليا عدة أشهر ، حتى أفلح أخيراً فى أن يقنع الإمبراطور المرتاب أن السياسة لم تكن له على بال فى يوم من الأيام ، وأن اهتمامه كله موجه إلى الفلسفة ؛ واطمأن قنسطنطيوس إذ عرف أن غريمه ليس إلا وجلا فيلسوفاً ، فنفاه إلى أثينة (٣٥٥) . وإذ كان يوليان قبل هذا النفى يتوقع الإعدام ، فإنه لم يجد صعوبة فى الرضا بالنفى إلى بلد هو منبع العلم ، والدين ، والتفكير الوثنى ؛

وقضى فى تلك المدينة ستة أشهر ، كانت من أسعد أيام حياته ، يدرس الفلسفة فى الغياض التى استمعت إلى صوت أفلاطون فى الزمن القديم ، وعقد فيها أواصر الصداقة مع ثامسطيوس Themistius وغيره من الفلاسفة المخلدين والمنسيين ، الذين أعجبوا بشغفه بالعلم ، وكسب قلوب أهل المدينة برقة شمائله ، وتواضعه ، وجميل مسلكه . وكان يُشَبِّه هؤلاء الوثنيين المثقفين المهذبين الذين ورثوا ثقافة قرون عشرة بعلماء الدين الوقورين الذين كانوا يحيطون به فى نقوميديا

أو بأولئك الساسة والحكام الأتقياء الذين رأوا من الواجب عليهم أن يقتلوا أباه وإخوته وكثيرين غيرهم من خلق الله ؛ وخاص من هذا كله إلى أنه ليس ثمة وحوش أكثر تعطشاً للدماء من المسيحيين[٢١] . وكان إذا سمع أن معابد مشهورة قد دمرت ، وأن كهنة وثنيين قد حكم عليهم بالإعدام ، وأن أملاكهم قد وزعت على الخصيان وأشياع السلطان أجهش بالبكاء[٢٢]. وكان هذا فى أغلب الظن هو الوقت الذى قبل فيه أن يتعلم سراً وفى حذر شديد طقوس إليسيز الخفية وأسرارها ؛ وكانت المبادئ الأخلاقية الوثنية تتجاوز عما لجأ إليه فى ارتداده من مخادعة ورياء . هذا إلى أن أصدقاءه ومعلميه المطلعين على سره لم يكونوا يوافقون على أن يجهر بهذا الارتداد ، فقد كانوا يعرفون أنه إذا فعل سيتوجه قنسطنطيوس فى غير الوقت الملائم ، بتاج الشهداء . وكانوا هم يتطلعون إلى الوقت الذى يرث فيه صنيعتهم عرش الإمبراطورية ، ويعيد إليهم رواتبهم وآلهتهم . ولهذا قضى يوليان عشر سنين كاملة يؤدى جميع الشعائر والعبادات المسيحية الظاهرة ، بل لقد بلغ من أمره أن كان يقرأ الكتاب المقدس علناً فى الكنيسة[٢٣] .

وفى وسط هذا التخفى والخوف استدعى مرة أخرى إلى المثول بين يدى الإمبراطور فى ميلان ؛ وتردد أول الأمر فى الذهاب خشية العقاب ، لكن الإمبراطورة يوزيبيا أرسلت إليه تبلغه أنها دافعت عنه لدى الإمبراطور ، وأنه لن يصاب بمكروه ، وما كان أشد دهشته حين زوجه الإمبراطور من أخته هلينا Helena ، وخلع عليه لقب قيصر ، وعهد إليه حكم غالة (٣٥٥) . وارتدى الرجل الأعزب الحيى الذى قدم على الإمبراطور فى ثياب الفيلسوف الخشنة حلة القائد الرسمية على مضض ، وقام بواجبات الزوجية . وما من شك فى أنه قد ضايقه فوق هذا وحيره أن يعرف أن الألمان قد اغتنموا فرصة اشتعال نيران الحرب الأهلية التى كادت تقضى على ما للإمبراطورية فى الغرب من قوة حربية ، فغزوا الولايات الرومانية الممتدة على ضفاف الرين ، وشتتوا شمل جيش رومانى ، ونهبوا المستعمرة الرومانية

القديمة فى كولونى ، واستولوا على أربع وأربعين مدينة غيرها ، وفتحوا الألساس كلها ، وتقدموا مدى أربعين ميلا فى غالة . ولما أن واجه قنسطنطيوس هذه الأزمة العصيبة ، طلب إلى الشاب الذى يرتاب فيه ويزدريه أن يبدل نفسه من فوره فيجعل منها نفس جندى محارب وإدارى حازم . وأعطى يوليان حرساً مؤلفاً من ثلثمائة وستين رجلا ، وكلفه بإعادة تنظيم الجيش المرابط فى غالة ، وأمره بعبور جبال الألب .

وقضى يوليان الشتاء فى ڤين Vienne ويانه على نهر الرون ، يدرب نفسه التدريب العسكرى ، ويدرس فنون الحرب دراسة الرجل المجد المتحمس لأداء واجبه . وفى ربيع عام ٣٥٦ جمع جيشاً عند ريمس Reims صد به الغزاة الألمان واسترد منهم كولونى ؛ ولما حاصرته قبيلة الألمانى — التى أصبح اسمها علما على ألمانيا كلها — فى سنس Sens ظل يصد هجمات المحاصرين ثلاثين يوما ، واستطاع أن يحصل على ما يحتاجه جنوده وأهل المدينة من المؤن حتى نفد صبر الأعداء . ثم زحف نحو الجنوب والتقى بجيش قبيلة الألمانى الأكبر عند استرسبورج ، ونظم جيشه على شكل إسفين هلالى ، وقاده قيادة الرجل العارف بأفانين الحرب ، المملوء القلب بالشجاعة ، فانتصر نصراً على قوات العدو التى تفوق قواته عددا[٢٤] ، وتنفست غالة الصعداء بعد هذا النصر المؤزر ؛ ولكن قبائل الفرنجة الضاربة فى الشمال كانت لا تزال تعيث فساداً فى وادى الموز Meuse ، فزحف عليها يوليان بنفسه ، وأوقع بها هزيمة منكرة ، وأرغمها على عبور الرين ، ثم عاد إلى باريس عاصمة الولاية متوجا بأكاليل النصر ، ورحب به أهل غالة ، وشكروا له حسن صنيعه ، ورأوا فى قيصر الصغير يوليوسا Julius جديداً ؛ وما لبث جنوده أن جهروا بأملهم فى أن يجلس عما قريب على عرش الإمبراطورية .

وبقى فى غالة خمس سنين ، يعمر الأرض المخربة بالسكان ، ويعيد تنظيم وسائل الدفاع عن نهر الرين ، ويمنع استغلال الأهلين الاقتصادى والفساد

السياسى ، ويعيد الرخاء إلى الولاية ، ويملأ خزائنها بالمال ، ويخفض فى الوقت عينه ما كان مفروضا على البلاد من الضرائب . وعجب الناس كيف استطاع هذا الشاب الغارق فى التفكير ، الذى لم ينتزع من بين كتبه إلا من وقت قريب ، أن يبذل نفسه فيجعل منها — كأنما قد مسته عصا ساحر — قائداً محنكا ، وحاكما عظيما ، وقاضيا عادلا رحيما[٢٥] . وكان هو الذى وضع فى القضاء ذلك المبدأ القائل بأن المتهم يعد بريئاً حتى تثبت إدانته . وكان سبب تقرير هذا المبدأ أن نومريوس Numerius أحد حكام غالة النربونيه السابقين اتهم باختلاس الأموال التى عهد إليه تحصيلها ؛ ولكنه أنكر التهمة ، ولم يكن من المستطاع دحض حجة من الحجج التى أدلى بها . واغتاظ القاضى دلفديوس Delfedius لنقص الأدلة التى تثبت التهمة عليه فصاح قائلا : « أى قيصر العظيم ! هل يمكن أن يدان إنسان إذا كان مجرد إنكاره التهمة يكفى لبراءته ؟ » فكان جواب يوليان . وهلا يمكن أن يبرأ إنسان إذا كان كل ما فى الأمر أنه اتهم ؟ » « وكان هذا » كما يقول أمنيانوس « شاهداً من الشواهد الكثيرة ، الدالة على رحمته »[٢٦] .

غير أن إصلاحاته قد خلقت له أعداء . فالموظفون الذين كانوا يخشون بحثه وتنقيبه ، أو يحسدونه لحب الناس له ، أخذوا يتهمونه سراً لدى قنسطنطيوس بأنه يعمل للاستيلاء على عرش الإمبراطورية : فلما علم بذلك يوليان رد عليهم بأن كتب يمتدح الإمبراطور مدحا فيه كثير من المبالغة . ولكن ذلك لم يبدد شكوك قنسطنطيوس ، فاستدعى إليه سالست Sallust الذى كان من أخلص أعوان يوليان . وإذا جاز لنا أن نصدق أميانوس فإن الإمبراطورة يوزيبيا ، التى لم يكن لها ولد ، والتى كانت الغيرة من يوليان وزوجته تأكل قلبها ، قد رشت بعض حاشية زوجة يوليان بأن يعطوها عقارا مجهضا كلما حملت . ولما أن وضعت هلينا ، على الرغم من هذا ، طفلا ذكراً ، قطعت القابلة حبل سرته قريبا من جسمه إلى حد

نزف منه الدم حتى مات(٢٧) . وبينما كانت هذه المتاعب كلها تحيط بيوليان تلقى فى عام ٣٦٠ أمراً من قنسطنطيوس بأن يبعث بخير عناصر جيوشه فى غالة لينضموا إلى الجيش الذى يحارب فارس . .

وكان لعمل قنسطنطيوس هذا ما يبرره . فقد طالب شابور الثانى أن ترد إليه بلاد النهرين وأرمينية (٣٥٨) ، فلما رفض قنسطنطيوس هذا الطلب حاصر شابور أميدا Amida (ديار بكر الحالية فى ولاية كردستان التركية) . ونزل قنسطنطيوس الميدان وأمر يوليان أن يمد الجيوش الإمبراطورية بثلثمائة رجل من كل فيلق من الفيالق الغالية لتشترك فى هذه الحرب الأسيوية . ورد يوليان على هذا الطلب بأن هؤلاء الجنود قد تطوعوا فى تلك الفيالق على ألا يدعوا إلى الخدمة وراء حدود جبال الألب ، وحذر الإمبراطور من عاقبة هذا العمل قائلا إن غالة لن تأمن على نفسها إذا ما تعرض جيشها لهذا النقص الكبير ، (وقد حدث أن نجح الألمان فى غزو غالة بعد ست سنين من ذلك الوقت) ولكنه مع ذلك أمر جنوده أن يطيعوا رسل الإمبراطور ، غير أن الجنود عصوا هذا الأمر ، وأحاطوا بقصر يوليان ، ونادوا به أغسطسا Augutus أى إمبراطوراً ، ورجوه أن يستبقيهم فى غالة ، فنصحهم مرة أخرى بإطاعة أمر الإمبراطور ، ولكنهم أصروا على الرفض ، وأحس يوليان ، كما أحس قيصر آخر من قبله ، أن الأقدار قد قررت مصيره ، فقبل اللقب الإمبراطورى ، واستعد للقتال لإنقاذ الإمبراطورية وإنقاذ حياته ، وأقسم الجيش الذى أبى قبل أن يغادر غالة ، أن يزحف على القسطنطينية ويجلس يوليان على العرش .

وكان قنسطنطيوس فى كليكية حين بلغته أنباء الفتنة ، وظل عاما آخر يقاتل الفرس ، معرضاً عرشه للضياع فى سبيل الدفاع عن بلاده . ثم عقد هدنة مع شابور وزحف بفيالقه غرباً لملاقاة ابن عمه . وتقدم يوليان نحوه ومعه قوة صغيرة ، ثم وقف بعض الوقت عند سرميوم Sirmium (بالقرب من بلغراد الحالية) ، وفيها

أعلن إلى العالم اعتناقه الوثنية ، وكتب إلى مكسموس رسالة حماسية قال فيها : « إننا الآن نجهر بعبادة الأرباب ، وكذلك يخلص فى عبادتها جميع الجنود الذين اتبعونى »[٢٨]. وقد ساعده الحظ فأنجاه من مأزق حرج : ذلك أن قنسطنطيوس توفى فى نوفمبر من عام ٣٦١ على أثر حمى أصيب بها فى طرسوس ، وكانت وفاته فى الخامسة والأربعين من عمره . وبعد شهر من وفاته دخل يوليان القسطنطينية وجلس على العرش دون أن يلقى مقاومة ، وأشرف على جنازة ابن عمه قنسطنطيوس بجميع مظاهر الحب .

الفصل الرابع

الإمبراطور الوثنى

وكان يوليان وقتئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، ويصفه أميانوس الذى كان يراه كثيراً بقوله :

كان متوسط القامة ، وكان شعره مرسلا ناعماً كأنه قد عنى بتمشيطه ، وكانت لحيته كثة مستدقة ، وعيناه براقتين تومضان ناراً ، وتكشفان عن حدة ذهنه . وكان حاجباه دقيقين وأنفه معتدلا ، وفمه كبيراً بعض الشىء ، وشفته السفلى ممتلئة ، ورقبته غليظة منحنية ، ومنكباه كبيرين عريضين : وكان جسمه كله من أعلى رأسه إلى أطراف أصابع قدميه حسن التناسب ، ولهذا كان قوياً سريع العدو(٢٩) .

غير أن الصورة التى يصور هو بها نفسه لم تكن بهذا الحسن فهو يقول : إن الطبيعة لم تخلع على وجهى كثيراً من الوسامة ، ولم تهبه نضرة الشباب ، ومع هذا فإنى بعنادى قد أضفت إليه هذه اللحية الطويلة . . . ولم أعبأ بالقمل الذى كان يسرح فيها ويمرح كأنها أجمة للوحوش البرية . . . أما رأسى فمنكوش ، لأنى قلما أقص شعرى أو أقلم أظافرى ، وأصابعى لا تكاد ترى إلا سوداء ملوثة بالحبر(٣٠) .

وكان يفخر بأنه يحتفظ ببساطة الفيلسوف وسط ترف البلاط . وما كاد يجلس على العرش حتى تخلص من الخصيان ، والحلاقين ، والجواسيس ، الذين كانوا فى خدمة قنسطنطيوس . ولما ماتت زوجته فى شبابها صمم على ألا يتزوج بعدها أبداً ، ولهذا لم يكن فى حاجة إلى الخصيان ، وكان يشعر أن فى وسع حلاق واحد أن يعنى بجميع موظفى القصر ؛ أما الطهاة فلم يكن فى حاجة إليهم لأنه لم يأكل

إلا أبسط الأطعمة التى يستطيع أن يعدها أى إنسان[٣١]. وكان هذا الإمبراطور الوثنى يعيش عيشة الرهبان ويلبس كما يلبسون ، ويلوح أنه لم يتصل اتصالا جنسياً بالنساء بعد أن ماتت زوجته ، وكان ينام على قش خشن فى حجرة غير مدفأة[٣٢] ، ولا يسمح بتدفئة أية حجرة من حجراته طوال فصل الشتاء « لكى يعتاد تحمل البرد » . ولم يكن يميل إلى اللهو والتسلية ، فكان يهاب دور التمثيل ، وما فيها من مسرحيات صامتة مثيرة للغريزة الجنسية ، وأثار غضب العامة بالابتعاد عن ميدان السباق ؛ فقد كان فى الاحتفالات الكبرى يقضى فيه قليلاً من الوقت ، ولكنه يجد أن لا فرق بين سباق وسباق ، فلا يلبث أن يغادره . وقد أكبر الشعب فى بادئ الأمر فضائله ، وزهده ، وانهماكه فى العمل ، وفى أزمات الحكم ؛ وكانوا يشبهونه بتراجان فى حسن قيادته العسكرية ، وبأنطونينس پيوس فى تقواه وصلاحه ، وبماركس أورليوس فى الجمع بين الملكية والفلسفة[٣٣]. وإنا ليدهشنا أن نرى هذا الوثنى الشاب قد رضيت عنه على الفور مدينة ودولة لم تعرفا منذ جيل من الزمان إلا أباطرة مسيحيين .

وقد أرضى مجلس شيوخ بيزنطية بمحافظته على تقاليده وحقوقه دون أن يفخر بذلك أو يمن به عليه . وكان يقوم من مقعده ليحيى القناصل ، ويمثل جميع المظاهر التى يتصف بها الإمبراطور من الوجهة النظرية ، وهى أنه خادم لشيوخ الأمة وشعبها ومندوب عنهم . وقد حدث مرة أن اعتدى من غير قصد على أحد الامتيازات الخاصة بمجلس الشيوخ ، فما كان منه إلا أن حكم على نفسه بغرامة قدرها عشرة أرطال من الذهب ، وأعلن أنه يخضع كما يخضع كل المواطنين لجميع قوانين الإمبراطورية وتقاليدها . وكان يقضى وقته من الصباح إلى المساء يكدح فى أداء واجبات الحكم ، لا ينقطع عن ذلك إلا فترة صغيرة بعد الظهر ، يخصها بالدرس . ويحدثنا المؤرخون أنه كان يتناوله من طعام خفيف قد أكسب جسمه وعقله نشاطاً عصبياً ، كان يستطيع بفضله أن يتنقل من واجب إلى واجب

ومن زائر إلى زائر ، وأن يرهق بالعمل ثلاثة من أمناء السر فى كل يوم . وكان يظهر فى قيامه بواجبات القاضى منتهى النشاط والجلد والاهتمام ؛ ويكشف فى أثناء ذلك عن سفسطة المحامين ، ويخضع فى تواضع وأدب جم لآراء القضاة المدعمة بالبراهين والتى تخالف آراءه هو ، وأعجب الناس جميعاً بعدالة أحكامه . ومن أعماله أنه خفض الضرائب المفروضة على الفقراء ، ورفض التيجان الذهبيـــة التى كانت التقاليد تقضى بأن تقدمها كل ولاية للإمبراطور الجديد ، وألغى ما تجمع على إفريقية من الضرائب المتأخرة ، وتجاوز عن الجزية الباهظة التى كانت مفروضة حتى ذلك الوقت على اليهود(٣٤). وأصر على إلزام كل من يريد ممارسة مهنة الطب أن يحصل على ترخيص بممارستها ، واشتد فى تنفيذ ذلك كثيراً ، وقصارى القول أنه توج انتصاراته العسكرية بنجاحه فى الأعمال الإدارية . ويقول أميانوس إن « شهرته أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً حتى عمت جميع بقاع العالم »(٣٥).

ومع هذا النشاط الجم فى شئون الحكم كان أهم ما يولع به هو الفلسفة ، وكانت غايته التى لم يغفل عنها يوماً ما هى أن يعيد الشعائر الدينية القديمة إلى سابق عهدها . ولكى يحقق هذه الغاية أمر بإصلاح الهياكل الوثنية وفتحها ، ورد ما صودر من أملاكها ، وإعادة ما كان لها من موارد . كذلك بعث بالرسائل إلى كبار الفلاسفة فى عهده يدعوهم إلى القدوم إليه ليعيشوا ضيوفاً عليه فى بلاطه . ولما أن قدم مكسموس ، وكان يوليان يلقى خطبة فى مجلس الشيوخ ، قطع خطبته ، وجرى بأسرع ما يستطيع ليحيى أستاذه ، وقدمه إلى المجلس ، وأثنى عليه الثناء المستطاب ، وعبّر له عن شكره واعترافه بفضله . واغتنم مكسموس تحمس الإمبراطور فارتدى أحسن الثياب ، وعاش عيشة الترف حتى أثار حوله الريب ، ولما أن مات يوليان حوسب حساباً عسيراً على الوسائل التى جمع بها تلك الثروة الطائلة فى هذا الوقت القصير(٣٦). لكن يوليان لم يكن يلقى بالا إلى المتناقضات التى بدت فى حياة الرجل لأن حب الفلسفة قد ملك عليه كل تفكيره . ولهذا

لم يصرفه عنها أى نقص فى سلوك الفلاسفة . . وقد كتب فى ذلك إلى يومنيوس يقول : « إذا جاءك أحد من الناس ليقنعك بأن ثمة شيئاً أعظم نفعاً للجنس البشرى من دراسة الفلسفة على مهل ومن غير أن يعوقه عن دراستها عائق ، فاعلم أنه مخدوع يريد أن يخدعك »[٣٧] .

وكان مولعاً بالكتب ، يحمل معه مكتبته فى حروبه ، وقد وسع دار الكتب التى أنشأها قسطنطين ، وأنشأ غيرها من الدور . وكتب فى ذلك يقول : « من الناس من هو مولع بالخيل ، ومنهم من هو مولع بالطير أو بالوحوش البرية ؛ أما أنا فقد كنت منذ نعومة أظفارى مولعاً أشد الولع باقتناء الكتب »[٣٨] . وكان يفخر بأنه مؤلف وحاكم سياسى معاً ، فصرف غير قليل من جهده فى تبرير خططه السياسية بمحاورات على طريقة لوشيان Lucian ، أو خطب من طراز خطب لبانيوس ، أو رسائل لا تكاد تقل سحراً وطرافة عن رسائل شيشرون ، أو مقالات فلسفية طوال . وقد شرح عقيدته الوثنية الجديدة فى « ترنيمة لابن ملك » ؛ وأوضح فى مقاله « ضد أهل الجليل » الأسباب التى من أجلها ارتد عن المسيحية ، وكتب فى مقال له من النقد العالى يقول إن الأناجيل يناقض بعضها بعضاً ، وإن أهم ما تتفق فيه هو أنها أبعد ما تكون عن العقل ؛ فإنجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الثلاثة الأناجيل الأخرى فى روايتها وفيما تحتويه من أصول الدين ، وقصة الخلق التى جاءت فى سفر التكوين تفترض تعدد الآلهة .

« فإذ لم تكن كل قصة من هذه القصص (الواردة فى سفر التكوين) أسطورة لا أكثر ، وإذا لم يكن لها ، كما أعتقد بحق ، تفسير يخفى على الناس ، فهى مليئة بالتجديف فى حق الله . ذلك أنها تمثله ، أول ما تمثله ، جاهلا بأن التى خلقها لتكون عوناً لآدم ستكون سبب سقوطه . ثم تمثله ثانياً إلهاً حقوداً حسوداً إلى أقصى الحقد والحسد ، وذلك بما تعزوه إليه من أنه يأبى على الإنسان أن يعرف الخير والشر (وهى دون غيرها المعرفة التى تؤلف بين عناصر

العقل البشرى وتجعله وحدة متناسقة) ، وأنه يخشى أن يصبح الإنسان مخلداً إذا طعم من شجرة الحياة . ولمَ يكون إلهكم غيوراً حسوداً إلى هذا الحد فيأخذ الأبناء بذنوب الآباء ؟ ... ولم يغضب الإله العظيم ذلك الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والآدميين ؟ ألا فوازنوا بين سلوكه وسلوك ليقورغ نفسه والرومان أنفسهم إزاء من يخرجون على القوانين . يضاف إلى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ويتطلبها كما تقرها وتتطلبها الوثنية) ... ولم لا تقبلون الشريعة التى نزلها الله على اليهود ؟ ... تقولون إن الشريعة الأولى ... كانت مقصورة على زمان ومكان معينين ، ولكن فى وسعى أن أنقل إليكم من أسفار موسى عشرات الآلاف — لا العشرات فقط — من الفقرات التى تقول إن الشريعة نزلت ليعمل بها فى جميع الأزمان[٣٩] »

ولما أراد يوليان أن يعيد الوثنية وجد أنها لا تناقض بعضها بعضاً فى العقائد والعبادات فحسب ، بل أنها فوق ذلك تحتوى فى جميع أجزائها من المعجزات والأساطير التى لا يقبلها العقل أكثر مما تحتويه المسيحية ؛ وأدرك من ثم أنه ما من دين يأمل أن يستميل إليه النفس البشرية العادية ويحركها إلا إذا خلع على مبادئه الأخلاقية غلالة من خوارق العادات ، والقصص والطقوس التى تبهر العقول . ولشد ما تأثر بقدم الأساطير وبانتشارها بين أمم العالم أجمع . ومن أقواله فى هذا : « إن الإنسان لعاجز عن أن يعرف متى اخترعت الأساطير أول الأمر ... عجزه عن أن يعرف من هو أول رجل عطس[٤٠]، ولهذا كله أسلم نفسه لدراسة الأساطير ، ولم ير عيباً فى أن تستخدم فى غرس المبادئ الأخلاقية الفاضلة فى عقول غير المتعلمين[٤١] ؛ ولم يستنكف هو نفسه أن يكرر قصة سيبيل Cybele ، وكيف جىء بالأم العظمى فى صورة حجر أسود من فريجيا إلى رومة ؛ وليس فى مقدور أى إنسان يقرأ قصته أن يظن أنه يشك فى ألوهية الحجر ، أو فى قدرته على أن يستحيل أما عظمى . ولقد تبين شدة الحاجة إلى الرموز الحسية لتنقل إلى الناس

المبادىء الروحية . وكان يعد العبادة المثراسية للشمس ديناً يحل عند عامة الشعب محل إجلال الفلاسفة للعقل والاستنارة . ولم يكن عسيراً على هذا المليك — الشاعر أن يكتب ترنيمة هليوس الملك ، الشمس مصدر الحياة كلها ، وواهب النعم التى لا تحصى للخلق . ويقول إن هذا هو الكلمة المقدسة التى خلقت العالم والتى هى الآن سنده ودعامته ؛ وقد أضاف يوليان إلى هذا المبدإ الأسمى والعلة الأولى ، فى الأديان الوثنية القديمة من أرباب وجن يخطئهم الحصر ، وكان يظن أن الفيلسوف المتسامح لا يجد حرجاً من قبولهم بقضهم وقضيضهم .

وإنا لنخطئ إذا صورنا يوليان فى صورة الرجل الحر التفكير الذى يستبدل العقل بالأساطير ؛ ذلك أنه كان يشنع بالكفر ويعده من الحيوانية(٤٢) ، ويعلم الناس مبادىء لا تقل بعداً عن الأمور الطبيعية المعقولة عما نجده فى أى دين من الأديان ؛ وقلما كتب إنسان من السخف مثل ما كتب يوليان فى ترنيمته للشمس ؛ وقد قبل التثليث الذى تقول به الأفلاطونية الحديثة ، وقال إن الأفكار الخلاقة الأولى التى يقول بها أفلاطون هى بعينها عقل الله ؛ وكان يرى أنها هى الحكمة التى صنعت كل شىء ، وينظر إلى عالم المادة والجسم كأنه عقبة من فعل الشيطان يضعها فى طريق الفضيلة المؤدى إلى تحرير الروح السجينة ؛ وفى اعتقاده أن النفس البشرية ، إذا ما سلكت طريق التقى والصلاح والفلسفة ، قد تتحرر من سجنها هذا وتسمو إلى آفاق التفكير فى الحقائق والشرائع الروحية ، وتندمج بهذا فى الحكمة الإلهية ، بل ربما اندمجت فى الله الأزلى نفسه . ولم تكن أرباب الشرك الكثيرة ، فى اعتقاد يوليان ، إلا قوى غير شخصية ؛ كما أنه لم يكن فى وسعه أن يؤمن بها فى صورها المجسدة البشرية كما يؤمن عامة الناس ، ولكنه كان يعرف أن الناس قلما تسمو بهم أفكارهم إلى التجريدات التى تسمو إليها عقول الفلاسفة ، أو إلى الرؤى الصوفية التى يراها القديسيون ؛ وكان يمارس الشعائر القديمة فى السر والعلن ، وبلغ ما ضحى به من الحيوانات للآلهة من

الكثرة حداً جعل المعجبين به أنفسهم يغضون أبصارهم حياء من هذه المجازر[٤٣] . وكان فى أثناء حروبه ضد الفرس يستشير مهابط الوحى ، ويتفاءل ويتطير كما كان يفعل القواد الرومان ، ويعنى أشد العناية بالاستماع إلى تفسير الأحلام ، ويبدو أنه كان يؤمن بسحر مكسموس .

وكان يرى كما يرى كل مصلح أن العالم فى حاجة إلى تجديد من الناحية الأخلاقية ؛ ولكى يصل إلى هذه الغاية لم يقصر همه على سن القوانين الخارجية بل سعى إلى أن يتقرب عن طريق الدين إلى قلوب الناس وسرائرهم . وقد تأثر أشد التأثر بطقوس إليوسيز وإفسوس الرمزية ، وكان يرى أنه ليس ثمة طقوس أصلح منها لأن تبعث فى قلوب الناس حياة جديدة أنبل من حياتهم السابقة ، ويأمل أن المراسم المتبعة مع من يريد الاندماج فى أصحاب هذه الطقوس وفى رسامتهم يمكن أن تتسع فتتعدى القلة الأرستقراطية إلى طائفة كبيرة من الشعب . ويحدثنا ليبانيوس أنه «كان يفضل أن يسمى قساً من أن يسمى إمبراطوراً[٤٤] » . وكان يحسد السلطة الكهنوتية المسيحية ، على نظمها الحسنة وعلى إخلاص قساوستها ونسائها ، وروح المساواة التى تسود المصلين والمتعبدين فى كنائسها ، والصدقات التى تؤلف بين قلوب أهل ذلك الدين وتستميل نفوسهم إليه . ولم يكن يترفع عن أن يأخذ خير ما فى الدين الذى يرجو أن يقوض أركانه ويستبدل به غيره ، وقد أدخل عناصر جديدة فى الكهانة الوثنية ، ونظم كنيسة وثنية وضع نفسه على رأسها ، وألح على من دونه من الكهنة أن يجادلوا رجال الدين المسيحيين ويتفوقوا عليهم فى تعليم الشعب ، وتوزيع الصدقات على الفقراء ، وفى استضافة الغرباء ، وفى ضرب أحسن الأمثلة للناس فى التقى والصلاح[٤٥] . وقد أنشأ فى كل مدينة مدارس تلقى فيها المحاضرات فى الدين الوثنى وتعرض فيها مبادئه . وكان يكتب لكهنته الوثنيين كما كتب من بعده القديس فرنسيس لأتباعه من الرهبان فيقول :

« عاملونى بما تظنون أنى سأعاملكم به ، ودعونا نتعاهد فيما بيننا على أن أبين

لكم آرائى فى جميع شئونكم ، وأن تفعلوا أنتم معى فى مقابل هذا نفس العمل فيما يختص بأقوالى وأعمالى ، وفى اعتقادى أن ليس ثمة شىء أعظم قيمة من تبادل الرأى على هذا النحو ....[٤٦] ومن واجبنا أن نقتسم مالنا مع الناس جميعاً ، وعلى الأخص مع الصالحين ، والضعفاء والفقراء . وأصار حكم القول ، وإن بدا لكم أن فى قولى هذا تناقضاً ، إن من الأعمال الدالة على التقى والصلاح أن نقتسم ثيابنا وطعامنا مع الأشرار ؛ ذلك أننا حين نعطى إنما نعطى الإنسانية الممثلة فى الناس ، ولا نعطى خلقه طيبين كانوا أو خبيثين[٤٧] .

والحق أن هذا الرجل الوثنى كان مسيحياً فى كل شىء عدا عقيدته ؛ ونحن إذا ما قرأنا ما كتبه ، وغضضنا النظر عن أساطيره المجردة من الحياة ، خيل إلينا أنه مدين بكثير من تطورات خُلُقه إلى المبادئ الأخلاقية المسيحية التى لُقِّنها فى طفولته وشبابه المبكر . فكيف كان مسلكه إذن إزاء الدين الذى ربى فى أحضانه ؟ لقد ترك للمسيحية كامل حريتها فى الوعظ ، والعبادة ، وممارسة جميع شعائرها ، وأعاد الأساقفة المستمسكين بدينهم القويم ، والذين نفاهم قنسطنطيوس . لكنه منع عن الكنيسة المسيحية ما كانت تقدمه لها الدوله من إعانات مالية ، وحرم على المسيحيين أن يشغلوا كراسى البلاغة ، والفلسفة ، والأدب فى الجامعات ، وكانت حجته فى ذلك أن هذه الموضوعات لا يمكن أن تجد مدرسين يعطفون عليها إلا من بين الوثنيين[٤٨] ؛ ووضع حداً لإعفاء رجال الدين المسيحيين من الضرائب وغيرها من الفروض المدنية المرهقة ، ولحق القساوسة فى أن ينتفعوا من غير أجر بالمزايا والتسهيلات المخولة للموظفين العموميين . كذلك حرم الوصية بالمال للكنائس ، كما حرم المناصب الحكومية على المسيحيين[٤٩] ، وأمر الجماعات المسيحية فى كل بيئة أن يعوضوا الهياكل الوثنية تعويضاً كاملا عما أنزلوه بها من الأضرار فى أثناء حكم الأباطرة السابقين ؛ وأجاز هدم الكنائس المسيحية المقامة على الأراضى التى اغتصبت ظلماً وعدواناً من المزارات والأضرحة الوثنية . ولما أن

وقع الاضطراب والظلم والشغب نتيجة لهـذا المنطق المتهور حاول يوليان إن يرد الأذى عن المسيحيين ، ولكنه أبى أن يلغى ما سنه من القوانين . ولقد أظهر قدرته على السخرية التى قلما تليق بفيلسوف مثله ، حين ذكّر بعض المسحيين الذين وقع عليهم العدوان بأن «كتابهم المقدس يهيب بهم أن يصبروا على الأذى (٥٠)» وعوقب المسيحيون الذين ردوا على هذه القوانين بالعنف أو الإهانات عقاباً صارماً ، أما الوثنيون الذين لجأوا إلى الإهانة فى معاملتهم للمسيحيين فقد عوملوا باللين(٥١) . من ذلك أن العامة من الوثنيين أهل الإسكندرية كانوا يحقدون أشد الحقد على جورج ، الأسقف الأريوسى الذى اغتصب كرسى أثناسيوس ، لأنه أثار حفيظتهم بموكب عام سخر فيه من الطقوس المثراسية ، فقبضوا عليه ومزقوا جسمه إرباً ؛ ومع أن المسيحيين ، إلا قلة منهم لا تستحق الذكر ، لم يهتموا بالدفاع عنه ، فقد قتل أو جرح كثيرون من المسيحيين فيما صحب هذه الفتنة من اضطراب (٣٦٢) . وأراد يوليان أن يعاقب من أحدثوا الشغب ، ولكن مستشاريه أقنعوه بأن يكتفى بإرسال خطاب احتجاج شديد إلى أهل الإسكندرية . وفى هذا الوقت خرج أثناسيوس من مخبئه واستعاد كرسى أسقفيته ، ولكن يوليان أنكر عليه هذا العمل قائلا إنه لم يؤخذ فيه رأيه ، وأمر أثناسيوس أن يعتزل منصبه . وصدع الأسقف الشيخ بالأمر ، ولكن الإمبراطور توفى فى السنة التالية ، وعاد البطرق رمز أهل الجليل المنتصرين إلى كرسيه ، ولبث فيه إلى أن مات فى الثمانين من عمره ، بعد عشر سنين من ذلك الوقت ، مثقلا بمظاهر الشرف ومثخناً بالجراح .

وكان اندفاع يوليان ومثابرته الشديدة على تنفيذ منهجه سبباً فى إخفاقه آخر الأمر . ذلك أن من أساء إليهم كانوا يقاومونه بإصرار ومعاندة ، ومن اجتباهم لم يستجيبوا له فى حماسة . ومرد هذا أن الوثنية كانت قد ماتت من الناحية الروحية ، ولم يبق فيها ما يجدد شبابها ، أو يواسيها فى أحزانها ، أو يبعث فى

أهلها الأمل فى الدار الآخرة ، نعم إن بعض الناس قد اعتنقوها فى تلك الأيام الأخيرة ، ولكن معظمهم لم يفعلوا ذلك إلا لما كاوا ينتظرون أن ينالوه من المطامع السياسية أو الذهب الإمبراطورى . كذلك عادت بعض المدن إلى تقديم القرابين الرسمية ، ولكنها كانت تؤدى بهذا ثمن ما تناله من العطف عليها والعناية بمصالحها. وقد اضطر يوليان فى پسينس Pessinus نفسها ، وهى بيت سيبيل ، أن يرشو أهلها لكى يعظموا الأم العظمى. وقام كثير من الوثنيين يفسرون الوثنية بأنها مراعاة الذمة والضمير فى انتهاب الملذات ؛ وساءهم أن يجدوا يوليان أكثر تزمتاً من المسيح ، فقد كان هذا الرجل الحر فى التفكير أتقى رجل فى الدولة ، وكان أصدقاؤه أنفسهم يجدون من أصعب الأشياء عليهم أن يجاروه فى ورعه ، ومنهم من كانوا متشككة يسخرون سراً من أربابه الذين ولى زمانهم ومن الذبائح التى كان يستعطف بها أولئك الأرباب . ذلك أن عادة التضحية بالحيوان على المذابح كانت قد ماتت أوكادت تموت فى الشرق ، وفى كل ما عدا رومة من بلاد الغرب ، وشرع الناس ينظرون إليها على أنها عمل يجلل صاحبه العار ، أو أنها فى القليل طعام يشترك فى أكله الناس . وكان يوليان يسمى حركته هذه « الهلينية » ، ولكن هذه التسمية قد اشمأزت منها نفوس الوثنيين الطليان ، الذين كانوا يحتقرون كل شىء يونانى غير ميت . وكان يفرط فى الاعتماد على الجدل الفلسفى الذى لم يصل فى يوم من الأيام إلى أن يكون الأساس العاطفى للدين ؛ كذلك لم يكن أحد يفهم مؤلفاته إلا الفئة المتعلمة ، التى كان تعليمها يحول بينها وبين قبول ما فى هذه المؤلفات من الأفكار ، ولم تكن عقائده إلا توفيقاً مصطنعاً بين متناقضات ، وكانت خالية من الجذور التى تمتد إلى آمال الناس أو خيالهم. ولقد لاحت بوادر إخفاقه حتى قبل وفاته ، ولم يستنكف الجيش الذى أحبه وحزن عليه أن يرشح مسيحياً ليخلفه على العرش .

الفصل الخامس

خاتمـــة المطاف

وكان حلمه الأخير العظيم أن يفعل ما فعله الإسكندر وتراجان: فيرفع العلم الرومانى على العواصم الفارسية ، ويقضي القضاء النهائى على الخطر الفارسي الذى كان يهدد أمن الدولة الرومانية وسلامتها . وللوصول إلى هذه الغاية عنى أعظم عناية بتنظيم الجيش ، وباختيار ضباطه ، وترميم الحصون المشيدة على التخوم وخزن المؤن فى المدن القائمة على طريق نصره . فلما تم له ذلك جاء إلى أنطاكية فى خريف عام ٣٦٢ ، وجمع فيها جنوده ؛ واغتنم تجار المدينة احتشاد الجند فيها فرفعوا أسعار الحاجيات ، وشكا الناس قائلين « إن كل شيء موفور ولكن كل شيء غالى الثمن » . فما كان من يوليان إلا أن استدعى إليه رؤساء الأعمال الاقتصادية وأخذ ينصحهم بالحد من مكاسبهم ، فوعدوه بذلك ولكنهم لم يوفوا بوعدهم ؛ فلما يئس منهم « حدد ثمناً عادلا لكل سلعة وأعلنه للناس جميعاً » ، ثم عمل على استيراد أربعمائة ألف موديوس(*) من القمح من بلدان سوريا ومصر[٥٢] واحتج التجار بأن الأثمان التى حددها لم تترك لهم شيئاً من الأرباح ، وابتاعوا فى الخفاء القمح المستورد ، ونقلوه هو وبضاعتهم إلى مدن أخرى ، ووجدت أنطاكية نفسها تزخر بالنقود وتفتقر إلى الطعام . وسرعان ما قام العامة يندون بيوليان لتدخله فى هذه الشئون ، وأخذ الفكهون يسخرون من لحيته ومن انهماكه فى خدمة الآلهة الأموات . ورد عليهم يوليان بنشرة أصدرها سماها « كاره اللحى » (Misopogon) حوت من الفكاهة والمتعة ما لا يتفق مع مقام إمبراطور . فقد اعتذر فى سخرية عن لحيته ، وعنف أهل أنطاكية على وقاحتهم ،

(*) تعادل نحو ١٨٣٦٠ إردبا مصرياً . (المترجم)

وطيشهم ، وإسرافهم ، وفساد أخلاقهم ، واستخفافهم بآلهة اليونان . وكانت الحديقة الشهيرة المعرفة باسم دافنى Daphne ، والتى كانت من قبل مزاراً مقدساً لأپلو ، قد حولت إلى مكان للهو والتسلية ، فأصدر يوليان أمره أن يمنع اللهو منها وأن تعود مزاراً مقدساً كما كانت من قبل ؛ وما كاد هذا العمل يتم حتى التهمتها النيران ؛ وظن يوليان أن الحريق من فعل المسيحيين فأغلق كنيسة أنطاكية ، وصادر أملاكها ، وعذب كثيرين من الشهود ، وقتل أحد القساوسة[٥٢] . ولم يجد الإمبراطور أنطاكية سلوى إلا « وليمة العقل » التى اجتمع فيها بليبانيوس .

وأخيراً تأهب الجيش للنزول إلى الميدان ، وبدأ يوليان الحرب فى شهر مارس من عام ٣٦٣ ، فسار على رأس جيوشه وعبر نهر الفرات ، ثم نهر دجلة ، وطارد الفرس المتقهقرين ، ولكنه لاقى الأمرين ، وكاد يلاقى الهزيمة من جراء « إجداب الأرض » وهى الخطة التى اتبعها الفرس وأرادوا بها إحراق جميع المحصولات فى كل جزء يخلونه من البلاد ، حتى كان جنود يوليان يموتون من الجوع مرة بعد مرة . وقد أظهر الإمبراطور فى هذه الحروب المضنية أحسن ما اتصف به من خلال ، فكان يشارك جنوده كل ما يعترضهم من صعاب ، ويكتفى مثلهم بالقليل وبأقل من القليل ويسير مثلهم على قدميه فى القيظ ، ويخوض مجارى المياه ، ويحارب فى الصفوف الأولى فى جميع المعارك . وكان من بين الأسرى فارسيات ذوات جمال فى نضرة الشباب ، ولكنه لم يقتحم عليهن خلوتهن ، ولم يسمح لإنسان أن يمس بأذى شرفهن . وتقدم الجنود تحت قيادته القديرة حتى طرقوا أبواب طشقونة Ctesiphon ، وضربوا عليها الحصار ، ولكنهم اضطروا إلى الارتداد عنها لعجزهم عن الحصول على الطعام . واختار شابور الثانى رجلين من أشراف الفرس وجدع أنفيهما وأمرهما أن يذهبا إلى يوليان ويدعيا أنهما قد فرا من عند الملك لقسوته عليهما واعتدائه الصارخ على كرامتهما ، ثم يقودانه هو وجيشه إلى صحراء جدباء . وفعل الرجلان ما أمرا به ، وصدقهما يوليان وسار خلفهما هو

وجيشه مسافة عشرين ميلا حتى وجد نفسه فى صحراء جدباء لا ماء فيها ولا نبات ، وبينا كان يحاول إنقاذ رجاله من هذا الفخ الذى نصب له هاجمته قوة من الفرس ، ولكنه صد هجومها وردها على أعقابها ، وفر الفرس لا يلوون على شىء . وكان يوليان فى مقدمة المطاردين غير عابئ بأنه ليس على جسمه دروع ، فأصابته حربة فى جنبه نفذت إلى كبده ، فسقط عن ظهر جواده وحمل إلى خيمة ، وأنذره طبيبه بأنه لن تطول حياته أكثر من بضع ساعات . ويقول ليبانيوس إن الذى رماه بالحربة رجل مسيحى ، ومما هو جدير بالذكر أن أحداً من الفرس لم يطالب بالمكافأة التى وعد بها شابور من يقتل الإمبراطور . ومن المسيحيين من يؤيد رواية ليبانيوس ويثنى على القاتل « الذى أقدم على هذا العمل الجرىء حباً فى الله وفى الدين »[٥٤] ، ومن هؤلاء سوزومين Sozomen . وكانت الساعة الأخيرة من حياة يوليان خليقة بتقاليد سقراط وسنكا ، وقد وصفها أميانوس فقال : إن يوليان وهو مسجى فى خيمته خاطب رفاقه المحزونين الذين ملك الأسى قلوبهم بقوله : « أيها الأصدقاء ، إن هذه الساعة لهى أنسب الأوقات التى أغادر فيها هذه الحياة ، وأردها إلى الطبيعة بعد أن طلبت ردها إليها » . . . وبكى جميع الحاضرين فلامهم على بكائهم محتفظاً حتى فى تلك الساعة بسلطانه عليهم ، وقال لهم إنه لا يليق بهم أن يحزنوا من أجل زعيم دعى للاتحاد بالسماء وبالنجوم . ولما أن أسكتهم بقوله هذا دخل مع الفيلسوفين مكسموس وبرسكوس فى حوار دقيق عن شرف النفس ونبلها . وفى أثناء هذا النقاش اتسع الجرح الذى فى جانبه فجاءة ، وحال ضغط الدم المتدفق بينه وبين التنفس ؛ وبعد أن تناول جرعة من الماء البارد طلبها إلى الحاضرين أسلم الروح وكان فى الثانية والثلاثين من عمره[٥٥](*).

(*) وقد ذكرت القصة القائلة بأنه صاح عند موته : « غلبت ياجليلى » لأول مرة فى كتاب ثيودريت Theodoret المؤرخ المسيحى من رجال القرن الخامس ، ولكن العلماء الآن مجمعون على رفضها ويعدونها مجرد خرافة[٥٦] .

كان الجيش لا يزال معرضاً للخطر وفى حاجة إلى قائد ، فاختار زعماؤه جوفيان Jovian قائد الحرس الإمبراطورى . وعقد الإمبراطور الجديد الصلح مع فارس ، بأن رد إليها أربعا من الولايات الخمس التى انتزعها منها دقلديانوس منذ سبعين عاماً . ولم يضطهد جوفيان إنساناً ، ولكنه لم يلبث أن حول تأييده من الهياكل الوثنية إلى الكنيسة المسيحية . واحتفل مسيحيو أنطاكية بموت الإمبراطور الوثنى احتفالا عاماً أظهروا فيه الفرح والابتهاج(٥٧) ، وإن كان زعماء المسيحيين المنتصرين كانوا فى معظم الأحوال يحضون جماعات المصلين أن يكونوا كراماً ، وأن ينسوا ما أصاب المسيحية من أذى(٥٨) . وانقضت بعد ذلك أحد عشر قرناً قبل أن تشهد المسيحية يوماً آخر كهذا اليوم .

الباب الثانى

انتصار البرابرة

٣٢٥ – ٤٧٦

الفصل الأول

التخـــوم المهددة

لم تكن بلاد الفرس إلا قطاعاً من تخوم يبلغ طولها عشرة آلاف ميل، تتعرض فيها الإمبراطورية الرومانية المؤلفة من مائة أمة مختلفة للغزو فى أية نقطة وفى أية ساعة على أيدى قبائل لم تفسدها الحضارة ، ولكنها تطمع فى ثمارها . وكان الفرس وحدهم مشكلة مستعصية على الحل ، فقد كانوا يزدادون قوة لا ضعفاً ؛ ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى استعادوا كل ما كان دارا الأول يبسط عليه سلطانه قبل ألف عام من ذلك الوقت — إلا قليلا منه . وكان فى غرب بلادهم العرب ، ومعظمهم من البدو الفقراء ؛ ولو أن إنساناً فى ذلك الوقت قد قال إن أولئك الأقوام الرحل الواجمين قد كتب لهم أن يستولوا على نصف الإمبراطورية الرومانية وعلى بلاد الفرس كلها لسخر من قوله هذا أحكم الساسة وأنفذهم بصيرة . وكان فى جنوب الولايات الرومانية الإفريقية الأحباش ، واللوبيون ، والبربر ، والنوميديون ، والمغاربة ؛ وكان هؤلاء كلهم يتربصون بالإمبراطورية الدوائر ، وينتظرون على أحر من الجمر تداعى الحصون الإمبراطورية أو قوى البلاد المعنوية . ولاح أن أسبانيا ستظل رومانيـــة آمنة من الغزو وراء جبالها المنيعة وبحارها التى لا يستطيع المغيرون اجتيازها ؛ ولم يكن أحد يظن أنها

ستصبح فى هذا القرن الرابع ألمانية ، وفى القرن الثامن بلاداً إسلامية . أما غالة فقد كانت وقتئذ تفوق إيطاليا اعتزازاً برومانيتها ، كما تفوقها فى النظام وفى الثراء ، وفى الآداب اللاتينية من شعر ونثر ؛ ولكنها كان عليها فى كل جيل أن تدفع عن نفسها غارات النيوتون الذين كانت نساؤهم أعظم خصباً من حقولهم . ولم يكن فى وسع الدولة الرومانية أن تستغنى إلا عن حامية قليلة لتدفع بها عن بريطانيا غارات الاسكتلنديين والپكتيين من الغرب والشمال ؛ وغارات أهل الشمال والقراصنة السكسون من الشرق أو الجنوب ؛ فقد كانت شواطئ النرويج بجميع أجزائها معششاً لهؤلاء القراصنة ، وكان أهلها يرون الحرب أقل مشقة من حرث الأرض ، ويعتقدون أن الإغارة على السواحل الأجنبية عملا شريفاً لذوى البطون الخاوية وفى أيام الفراغ . ويدعى القوط أن موطنهم الأول هو جنوبى السويد وجزائرها الصغرى ، ولا يبعد أن يكون ذلك الموطن هو الإقليم المحيط بنهر الفستيولا Vistula ؛ ولكنهم أياً كان موطنهم انتشروا باسم القوط الغربيين نحو نهر الدانوب الجنوب ، واستقروا باسم القوط الشرقيين بين نهرى الدنيستر Dniester والدن Don . وفى قلب أوربا — الذى تحده أنهار الفستيولا والدانوب والرين — كانت تجول قبائل قدر لها أن تغير خريطة أوربا وتبدل أسماء أممها : هى قبائل الثورنجيين Thuringians ، والبرغنديين ، والإنجليز ، والسكسون ، والچوت ، والفريزيين Frisians ، والچپيديين Gipidae ، والكوادى Quadi ، والوندال ، والألمانى ، والسوبفى Suevi ، واللمبارد ، والفرنجة . ولم يكن للإمبراطورية كلها — عدا بريطانيا — أسوار تصد تيار هذه الأجناس ، وكل ما كان لها من هذا القبيل هو حصون أو حاميات فى أماكن متفرقة على طول الطرق البرية أو مجارى الأنهار التى كانت فى أطراف الدولة الرومانية . وكانت تفوق البلاد الخارجية عن حدود الدولة الرومانية فى نسبة مواليدها ، وتفوقها هى على هذه البلاد فى مستوى معيشة أهلها ، مما جعل الهجرة

إليها أو الإغارة عليها قضاء محتوماً لا مفر لها منه فى ذلك الوقت ، كما أنهما الآن قضاء محتوم على أمريكا الشمالية .

ولعل من واجبنا أن نعدل بعض التعديل تلك الرواية التى تصف تلك القبائل الألمانية بأنها قبائل متبربرة . نعم إن اليونان والرومان حين أطلقوا على أولئك الأقوام لفظ برابرة barbari لم يكونوا يقصدون بذلك الثناء عليهم ، وأكبر الظن أن هذا اللفظ يقابل لفظ ڤرڤارا varavar فى اللغة السنسكريتية ، ومعناه اللفظ الجاف ، غير المثقف[1] ؛ وهو شديد الصلة أيضاً بلفظ بربر berber ؛ ولكن اتصال الألمان مدى خمسة قرون بالحضارة الرومانية عن طريق التجارة والحرب كان لا بد أن يترك فيهم أثراً قوياً ؛ وقبل أن يحل القرن الرابع بزمن طويل كانوا قد تعلموا الكتابة وأقاموا لهم حكومة ذات قوانين ثابتة . وكانت مبادئهم الأخلاقية من الناحية الجنسية أرقى منها عند الرومان واليونان(*) إذا استثنينا منهم قبائل الفرنجة المروفنجيين ؛ وكثيراً ما كانوا يفوقون الرومان فى الشجاعة ، وكرم الضيافة ، والأمانة ، وإن كانت تعوزهم رقة الحاشية ودماثة الخلق ، وهما الخلتان اللتان يتصف بهما المثقفون . ولسنا ننكر أنهم كانوا قساة القلوب ، ولكنهم لم يكونوا أشد قسوة من الرومان ؛ وأكبر الظن أنهم قد روعهم أن يعرفوا أن الشريعة الرومانية كانت تجيز تعذيب الأحرار لتنتزع منهم الشهادات أو الاعترافات[2] . وكانت نزعتهم فردية إلى حد الفوضى ، على حين أن الرومان كانوا فى الوقت الذى نتحدث عنه قد رُوِّضوا على حسن المعاشرة

(*) وعمدتنا فى هذا أيضا هو تاسيتوس Tacitus صاحب النزعة الأخلاقية (فى كتابه جرمانيا ص ١٨ — ١٩) ، ولكنا نحيل القارئ أيضا إلى رسالة للأسقف بنيفاس Boniface (حوالى ٧٥٦) يقول فيها : « وكان من عادة الأهلين فى سكسونيا القديمة : إذا ارتكبت جريمة الزنا عذراء فى بيت أبيها أو امرأة متزوجة تحت حماية زوجها ، أن يحرقوها حية ، أو يخنقوها بيديها ، ويشنقوا من زنى بها فوق قبرها ؛ أو أنهم كانوا يشقون أثوابها حتى وسطها ويسلطون عليها نساء شريفات جاوزن سن الشباب فيضربنها بالسياط ويطعنها بالسكاكين حتى يقضين عليها »[3] . وتلك طريقة شنيعة فى التعذيب .

والميل إلى السلم : وكان أهل الطبقات العليا منهم يقدرون الآداب والفنون بعض التقدير ، وقد اندمج منهم استلكو Stilicho ، ورسمر Ricimer ، وغيرهما من الألمان فى الحياة الثقافية العليا التى كانت تسود المجتمعات فى رومة ، وكتبوا أدباً لاتينيا أقر سماكوس Simmachus أنه وجد فيه كثيراً من المتعة . وكان الغزاة بوجه عام — وخاصة القوط — يبلغون من الحضارة درجة تمكنهم من أن يعجبوا بالحضارة الرومانية ويعترفوا أنها أرقى من حضارتهم ، ويسعون لاكتسابها لا لتدميرها ؛ وظلوا قرنين من الزمان لا يطلبون أكثر من أن يسمح لهم بالدخول فى بلاد الإمبراطورية والاستقرار فى أراضيها المهملة ؛ وطالما اشتركوا فى الدفاع عنها بجد ونشاط. ولهذا فإنا إذا ما ظللنا نستخدم لفظ البرابرة فى حديثنا عن القبائل الألمانية فى القرنين الرابع والخامس ، فإنما نفعل ذلك بحكم العادة التى جعلت هذا اللفظ يجرى به القلم ، مع مراعاة هذه التحفظات والاعتذارات السالفة للذكر :

وكانت هذه القبائل التى تكاثر أفرادها قد دخلت بلاد الإمبراطورية فى جنوب نهر الدانوب وجبال الألب بطريق الهجرة السلمية وبدعوة من الأباطرة فى بعض الأحيان . وقد بدأ أغسطس هذه السياسة ، فسمح للبرابرة أن يستقروا داخل حدود الإمبراطورية ليعمروا ما خلا من أرضها ، ويسدوا ما فى فيالقها من ثغرات بعد أن عجز الرومان عن تعمير أولاها وسد ثانيتها لقلة تناسلهم وضعف روحهم العسكرية . وجرى على هذه السنة نفسها أورليوس ، وأورليان ، وبروبوس . وقبل أن ينصرم القرن الرابع كانت كثرة السكان فى بلاد البلقان وفى غالة الشرقية من الألمان . وكذلك كان الجيش الرومانى ، وكانت مناصب الدولة السياسية منها والعسكرية فى أيدى التيوتون . وكانت الإمبراطورية فى وقت من الأوقات قد صبغت أولئك الأقوام بالصبغة الرومانية ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإنهم هم الذين بربروا الرومان(٥) ؛ فقد أخذ الرومان أنفسهم يرتدون

ملابس من الفراء على طراز ملابس البرابرة ، وأخذوا كذلك يرسلون شعورهم مثلهم ؛ ومنهم من لبسوا السراويل ، (البنطلون) ، واستثاروا بذلك غضب الأباطرة ، فأصدروا فى غيظهم مراسيم بتحريم هذه الثياب . (٣٩٧ ، ٤١٦)[٦] . وجاءت القوة التى دفعت هذه القبائل إلى غارتها الكبرى على الإمبراطورية الرومانية من سهول المغول النائية . وتفصيل ذلك أن الزيونج نو Hsiung-nu أو الهيونج — نو Hung-nu أو الهون Hun — وهم فرع من الجنس الطورانى ، كانوا فى القرن الثالث الميلادى يحتلون الأصقاع الواقعة فى شمال بحيرة بلكاش وبحر آرال . وكانت سحنتهم ، كما يقول چردانيس Jordanes هى أقوى أسلحتهم :

فقد كانت ملامحهم الرهيبة تلقى الرعب فى قلوب أعدائهم ؛ ولعلهم هم لم يكونوا أقدر على الحروب من هؤلاء الأعداء . فقد كان أعداؤهم يستولى عليهم الفزع فيفرون من أمامهم لأن وجوههم الكالحة كانت تقذف الرعب فى القلوب . . ولأنهم كانت لهم فى مكان الرأس كومة لا شكل لها فيها ثقبان بدل العينين . وهم يقسون على أولادهم من يوم مولدهم ، لأنهم يقطعون خدود الذكور بالسيف حتى يعودهم تحمل ألم الجروح قبل أن يذوقوا طعم اللبن ، ولهذا فإنهم لا تنبت لهم لحى إذا كبروا وتشوه ندب جروح السيوف وجوههم . وهم قصار القامة ، سريعو الحركة ، خفاف مهرة فى ركوب الخيل ، بارعون فى استعمال الأقواس والسهام ، عراض الأكتاف صلاب الرقاب ؛ منتصبوا الأجسام على الدوام[٧] .

وكانت الحرب صناعتهم ، ورعاية الماشية رياضتهم و « بلادهم » كما ورد فى أحد أمثالهم « هى ظهور خيلهم »[٨] . وتقدم أولئك الأقوام إلى الروسيا حوالى عام ٣٥٥ ، مسلحين بالأقواس والسهام ، مزودين بالشجاعة والسرعة ، يدفعهم من خلفهم جدب بلادهم وضغط أعدائهم الشرقيين ، فهزموا فى زحفهم قبائل الألانى Alani ، وعبروا نهر الفلجا (٣٧٢ ؟) ، وهاجموا فى أكرانيا القوط الشرقيين الذين كادوا أن يصبحوا أقواماً متحضرين . وقاومهم إرمنريك

Ermanaric المعمر ملك القوط الشرقيين مقاومة الأبطال ، ولكنه هزم ومات بيده لا بيد أعدائه كما يقول بعض المؤرخين . واستسلم بعض القوط الشرقيين وانضووا تحت لواء الهون ، وفر بعضهم متجهين نحو الغرب إلى أراضى القوط الغربيين الواقعة شمال الدانوب . والتقى جيش من القوط الغربيين بالهون الزاحفين عند نهر الدنيستر ، فأوقع به الهون هزيمة منكرة ، وطلب بعض من نجوا من القوط الغربيين إلى ولاة الأمور الرومان فى البلاد الواقعة على نهر الدانوب أن يأذنوا لهم بعبور النهر والإقامة فى موئيزيا Moesia وتراقية . وأرسل الإمبراطور ڤالنز Valens إلى عماله أن يجيبوهم إلى طلبهم على شرط أن يسلموا أسلحتهم ويقدموا شبانهم ليكونوا رهائن عنده . وعبر القوط الغربيون الحدود ، ونهب موظفو الإمبراطورية وجنودها أموالهم غير مبالين بما يجللهم عملهم هذا من عار . واتخذ الرومان الذين افتتنوا ببناتهم وغلمانهم أولئك الغلمان والبنات عبيداً لهم وإماء ، ولكن المهاجرين استطاعوا بفضل الرشا التى نفحوا بها ولاة الأمور الرومان أن يحتفظوا بأسلحتهم . وبيع لهم الطعام بما يباع به فى أيام القحط ، فكان القوط الجياع يبتاعون شريحة اللحم أو رغيف الخبز بعشرة أرطال من الفضة أو بعبد ، بل إن القوط قد اضطروا فى آخر الأمر أن يبيعوا أطفالهم بيع الرقيق لينجوا من الهلاك جوعاً[٩] . ولما بدت عليهم أمارات التمرد دعا القائد الرومانى زعيمهم فرتچيرن Fritigern إلى وليمة وفى نيته أن يقتله ؛ ولكن فرتچيرن نجا وأثار حمية القوط المستيئسين وحرضهم على القتال ، فأخذوا ينهبون ، ويحرقون ، ويقتلون ، حتى أصبحت تراقية كلها تقريباً خراباً يباباً تعانى الأمرين من جوعهم وغيظهم . وأسرع ڤالنز من بلاد الشرق لملاقاتهم والتحم بهم فى سهول هدريانوپل Hadrianople ، ولم يكن معه إلا قوة صغيرة معظم رجالها من البرابرة الذين كانوا فى خدمة رومة (٣٧٨) . وكانت النتيجة ، كما يقول أميانوس « أشنع هزيمة حلت بجيوش الرومان منذ واقعة كانى Cannae » التى حدثت قبل ذلك اليوم

بخمسمائة وأربع وتسعين سنة[١٠] . وفيها تفوق الفرسان القوط على المشاة الرومان ، وظلت حركات الفرسان وفنونهم العسكرية من ذلك اليوم حتى القرن الرابع عشر هى المسيطرة على فن الحرب الآخذ فى الاضمحلال . وهلك فى هذه المعركة ثلثا الجيش الرومانى ، وأصيب ڤالنز نفسه بجرح بالغ ، وأشعل القوط النار فى الكوخ الذى آوى إليه ، ومات الإمبراطور ومن كان معه محترقين بالنار . وزحفت الجموع المنتصرة على القسطنطينية ، ولكنها عجزت عن اختراق وسائل الدفاع التى أقامتها ومنيكا أرملة ڤالنز . وأخذ القوط الغربيون ، ومن انضم إليهم من القوط الشرقيين والهون الذين عبروا الحدود غير المحمية عند نهر الدانوب ، يعيثون فساداً فى بلاد البلقان من البحر الأسود إلى حدود إيطاليا .

الفصل الثانى

الأباطرة المنقذون

٣٦٤ — ٤٠٨

ولم تُقفر الإمبراطورية فى هذه الأزمة من الحكام القادرين : فقد نقل الجيش ومجلس الشيوخ تاج الإمبراطورية إلى ڤلنتنيان وهو جندى فظ مقطوع الصلة بالثقافة اليونانية يذكرنا بڤسپازيان . وعين ڤلنتنيان أخاه الأصغر ڤالنز ، بموافقة مجلس الشيوخ ، أوغسطس وإمبراطوراً على الشرق ، واختار هو لنفسه الغرب الذى كان يبدو وقتئذ أشد خطراً من الشرق . ثم أعاد تحصين حدود إيطاليا وغالة ، وأعاد إلى الجيش قوته ونظامه ، وصد مرة أخرى الغزاة الألمان إلى ما وراء نهر الرين ، وأصدر من عاصمته ميلان تشريعات مستنيرة حرم فيها على الآباء قتل الأبناء ، وأنشأ الكليات الجامعية ، ووسع نطاق المساعدات الطبية الحكومية فى رومة ، وخفض الضرائب ، وأصلح النقد الذى كان قد انخفضت قيمته ، وقاوم الفساد السياسى ، ومنح جميع سكان الإمبراطورية حرية العقيدة والعبادة . وكان لهذا الإمبراطور عيوبه ونقاط ضعفه . من ذلك أنه كان يقسو أشد القسوة على أعدائه ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق سقراط المؤرخ فإنه شرع الزواج باثنتين لكى يجيز لنفسه أن يتزوج جستينا[١١] ، التى غالت زوجته فى وصف جمالها له . ومع هذا كله فقد كان موته العاجل (٣٧٥) مأساة كبرى حلت برومة . وخلفه ابنه جراتيان Gratian على عرش الإمبراطورية فى الغرب ، وسار فيها سيرة أبيه عاماً أو عامين ، ثم أطلق العنان للهو والصيد ، وترك أزمة الحكم إلى موظفين فاسدين عرضوا جميع المناصب والأحكام للبيع . لهذا خلعه القائد ألكسموس عن العرش وغزا إيطاليا ليحاول تنحية ڤلنتنيان الثانى خلف

جراتيان وأخيه غير الشقيق عن ولاية الملك ، ولكن ثيودوسيوس الأول الأكبر الإمبراطور الجديد على الشرق زحف غرباً ، وهزم الغاصب ، وثبت الشاب ڤلنتنيان على عرشه فى ميلان (٣٨٨) .

وكان ثيودوسيوس من أصل أسبانى ، أظهر مواهبه الحربية ومهارته فى القيادة فى أسبانيا ، وبريطانيا ، وتراقية . وكان قد أقنع القوط المنتصرين بالانضواء تحت لوائه بدل أن يحاربوه ، وحكم الولايات الشرقية بحكمة وروية فى كل شىء إلا فى عدم تسامحه الدينى ؛ فلما تولى الملك روع نصف العالم بما اجتمع فيه من صفات متناقضة هى جمال خلقه ، ومهابته ، وغضبه السريع ورحمته الأسرع ، وتشريعاته الرحيمة ، وتمسكه الصارم بمبادئ الدين القويم . وبينا كان الإمبراطور يقضى الشتاء فى ميلان حدث فى تسالونيكى (سالونيكا) اضطراب كان من خصائص تلك الأيام . وكان سببه أن بُتريك Botheric نائب الإمبراطور فى ذلك البلد قد سجن سائق عربة محبوب من أهل المدينة جزاء له على جريمة خلقية فاضحة ، فطلب الأهلون إطلاق سراحه ، وأبى بتريك أن يجيبهم إلى طلبهم ، وهجم الغوغاء على الحامية وتغلبوا عليها ، وقتلوا الحاكم وأعوانه ومزقوا أجسامهم إرباً ، وطافوا بشوارع المدينة متظاهرين يحملون أشلاءهم دلالة على ما أحرزوه من النصر . ولما وصلت أنباء هذه الفتنة إلى مسامع ثيودوسيوس فاستشاط غضباً وبعث بأوامر سرية تقضى بأن يحل العقاب بجميع سكان تسالونيكى . فدعى أهل المدينة إلى ميدان السباق لمشاهدة الألعاب ، ولما حضروا انقض عليهم الجند المترصدون لهم وقتلوا منهم سبعة آلاف من الرجال والنساء والأطفال ، (٣٩٠)[١٢] . وكان ثيودوسيوس قد بعث بأمر ثان يخفف به أمره الأول ولكنه وصل بعد فوات الفرصة .

وارتاع العالم الرومانى لهذا الانتقام الوحشى وكتب الأسقف أمبروز Ambrose الذى كان يجلس على كرسى ميلان ويصرف منه شئون الأبرشية

الدينية بالجرأة والصلابة الخليقتين بالمسيحية الحقة ، كتب إلى الإمبراطور يقول إنه (أى الأسقف) لا يستطيع بعد ذلك الوقت أن يقيم القداس فى حضرة الإمبراطور إلا إذا كفر ثيودوسيوس عن جرمه هذا أمام الشعب كله . وأبى الإمبراطور أن يحط من كرامة منصبه بهذا الإذلال العلنى وإن كان فى خبيئة نفسه قد ندم على ما فعل ، وحاول أن يدخل الكنيسة ، ولكن أمبروز نفسه سد عليه الطريق ، ولم يجد الإمبراطور بداً من الخضوع بعد أن قضى عدة أسابيع يحاول فيها عبثاً أن يتخلص من هذا المأزق ، فجرد نفسه من جميع شعائر الإمبراطورية ، ودخل الكنيسة دخول التائب الذليل ، وتوسل إلى الله أن يغفر له خطاياه (٣٩٠) . وكان هذا الحادث نصراً وهزيمة تاريخيين فى الحرب القائمة بين الكنيسة والدولة .

ولما عاد ثيودوسيوس إلى القسطنطينية تبين أن ڤلنتنيان الثانى ؛ وهو شاب فى العشرين من عمره ، عاجز عن حل المشاكل التى تحيط به . فقد خدعه أعوانه وجمعوا السلطة كلها فى أيديهم المرتشية ، واغتصب أربوجاست Arbogast الفرنجى الوثنى قائد جيشه المرابط السلطة الإمبراطورية فى غالة ، ولما قدم ڤلنتنيان إلى ڤين ليؤكد فيها سيادته قتل غيلة (٣٩٢) . ورفع أربوجاست على عرش الغرب تلميذاً وديعاً سلس القياد يدعى أوچينوس Eugenius وبدأ بعمله هذا سلسلة من البرابرة صانعى الملوك . وكان أوچينوس مسيحياً ، ولكنه كان وثيق الصلة بالأحزاب الوثنية فى إيطاليا إلى حد جعل أمبروز يخشى أن يصبح يوليانا ثانياً . وزحف ثيودوسيوس مرة أخرى نحو الغرب ليعيد إلى تلك الأنحاء السلطة الشرعية ويردها إلى الدين القويم . وكان تحت لوائه جيش من الهون والقوط ، والألانى ، وأهل القوقاز ، وأيبيريا ، وكان من بين قواده جيناس Gainas القوطى الذى استولى فيما بعد على القسطنطينية ، واستلكو الوندالى الذى دافع فى المستقبل عن رومة ، وألريك القوطى الذى نهبها . ودارت بالقرب من أكويليا معركة

دامت يومين ، هزم فيها أربوجاست وأوجنيوس (٣٩٤) ؛ فأما أوجنيوس فقد ذبح بعد أن أسلمه جنوده ، وأما أربوجاست فقد قتل نفسه بيده . واستدعى ثيودوسيوس ابنه هونوريوس Honorius وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره ليقيمه إمبراطوراً على الغرب ، ورشح ابنه أركاديوس Arcadius البالغ من العمر ثمانى عشرة سنة ليكون إمبراطوراً معه على الشرق ثم مات بعدئذ فى ميلان منهوكاً من كثرة الحروب (٣٩٥) ولما يتجاوز الخمسين من عمره . وانقسمت بعد موته الإمبراطورية التى طالما وحدها ، ولم يجتمع شملها مرة أخرى بعد ذلك الوقت إلا فى فترة قصيرة تحت حكم جستنيان .

وكان ولدا ثيودوسيوس شخصين ضعيفين مخنثين ، درجا فى مهد الأمن والدعة الموهن للعزيمة ، فلم يكونا خليقين بأن يوجها سفينة الدولة فيما يحيط بها من عواصف ، وإن كانت أخلاقهما لا تقلان طيبة عن نواياهما ، وسرعان ما أفلت زمام الأمور من أيديهما ، وأسلما أعمال الدولة الإدارية والسياسية — إلى وزيرهما — إلى روفينوس Rufinus المرتشى الشره فى الشرق ، وإلى استلكو القدير المجرد من الضمير فى الغرب . ولم يلبث هذا الشريف الوندالى أن زوج ابنته مارية Maria بهونوريوس فى عام ٣٩٨ راجياً أن يصبح بهذا الزواج جداً لإمبراطور وصهراً لآخر . ولكن هونوريوس أثبت أنه مجرد من العاطفة تجرده من الفطنة ، فكان يقضى وقته فى إطعام الدجاج الإمبراطورى ويحبو هذا الدجاج بحبه وعطفه ، حتى ماتت مارية عذراء بعد أن لبثت زوجة عشر سنين(١٣) .

وكان ثيودوسيوس قد جعل القوط يجنحون إلى السلم باستخدامهم فى الحرب ، وبتقديم معونة سنوية من المال لهم بوصفهم حلفاء له ؛ ولكن خافه قطع عنهم هذه المعونة ، ولما جاء استلكو سرح جنوده من القوط ؛ وقام المحاربون المتعطلون يطلبون المال والمغامرات وهيأ لهم ألريك زعيمهم الجديد كليهما واستعان على ذلك

بمهارة بزَّ بها الرومان فى الحرب وفى السياسة على السواء ، وقال لأتباعه إنه لا يدرى كيف يخضع القوطُ ذوو الأنفة والرجولة ويعملون أجراء عند الرومان أو اليونان الضعفاء المنهوكين ، بدلاً أن يعتمدوا على بسالتهم وقوة سواعدهم فيقتطعوا من الإمبراطورية المتداعية المحتضرة مملكة لهم ؟ وقاد ألريك فى السنة التى مات فيها ثيودوسيوس قوط تراقيه كلهم تقريباً وزحف بهم على بلاد اليونان ، واجتاز ممر ترموبيلى دون أن يلقى مقاومة ، وذبح كل من لقى فى طريقه من الرجال الذين فى سن العسكرية ، وسبى النساء ، وخرب بلاد البلوبونيز ، ودمر هيكل دمتر فى إليوسيز ، ولم يبق على أثينة إلا بعد أن افتدت نفسها بفدية استنفدت معظم ثروتها غير العقارية (٣٩٦) . وجاء استلكو لينقذها ولكنه وصل إليها بعد فوات الفرصة ، فاستدرج القوط إلى موقع غير حصين ، ولكن ثورة شبت فى إفريقية اضطرته إلى أن يعقد معهم هدنة عاد بعدها إلى الغرب . ثم وقع ألريك ميثاق حلف مع أركاديوس أجاز فيه ثانيهما للأول أن يستقر أتباعه من القوط فى إبيروس ، وبسط السلم لواءه بعدئذ على الإمبراطورية أربع سنين .

وفى هـذه السنين الأربع ألقى سينيسيوس القوريني ، وهو أسقف نصف مسيحى وفيلسوف نصف وثنى ، خطاباً فى القسطنطينية أمام حاشية أركاديوس المترفة وصف فيها فى وضوح وقوة المشكلة التى تواجهها رومة وبلاد اليونان والتى لا بد لها أن تختار فيها واحدة من اثنتين . وكان مما قاله فى هذه الخطبة : كيف تستطيع الإمبراطورية البقاء إذا ظل أهلها يتهربون من الخدمة العسكرية ، ويكلون الدفاع عنها إلى الجنود المرتزقة تجندهم من الأمم التى تهدد كيانها ؟ وعرض على ولاة الأمور أن يضعوا حداً للترف والنعيم ، وأن يجيشوا جيشاً من أهل البلاد بالتطوع أو التجنيد الإجبارى يدافع عنها وعن حريتها ؛ وأهاب بأركاديوس وهونوريوس أن ينفضا عنهما غبار الخمول وأن يوجها ضربة قاصمة إلى جموع البرابرة الوقحين الذين فى داخـل الإمبراطورية ، وأن يردوهم إلى مرابضهم

وراء البحر الأسود ونهرى الدانوب والرين . وصفق رجال الحاشية إعجاباً بما حواه خطاب سينيسيوس من عبارات منمقة بليغة ، ثم عادوا من فورهم إلى ولائمهم(١٤) . وكان ألريك فى هذه الأثناء يرغم صناع الأسلحة فى أبيروس على أن يصنعوا لرجاله القوط كل ما هم فى حاجة إليه من الحراب والسيوف والخوذ والدروع .

وفى عام ٤٠١ غزا إيطاليا ، بعد أن نهب كل ما مر به فى طريقه من البلاد ، وهرع آلاف من اللاجئين إلى ميلان ورافنا ، ثم فروا منهما إلى رومة . واحتمى الزراع فى داخل المدن المسورة ، وجمع الأغنياء كل ما استطاعوا نقله من ثروتهم ، وحاولوا وهم فى شدة الذعر أن يعبروا البحر إلى كورسكا ، وسردينية ، وصقلية . وجرد استلكو ولايات الدولة من حامياتها ليجمع منها جيشاً يستطيع صد تيار القوط الجارف ، وانقض به عليهم فى پولنتيا Pollentia فى صباح يوم عيد القيامة من عام ٤٠٢ حين وقفوا أعمال النهب ليؤدوا الصلاة . ونشبت بين الجيشين معركة لم تكن فاصلة ، ارتد على أثرها ألريك إلى رومة التى لم تكن فيها من يدافع عنها ، ولم يغادر إيطاليا إلا بعد أن نفحه هونوريوس برشوة سخية .

وكان الإمبراطور الوجل قد فكر أثناء زحف ألريك على ميلان أن ينقل عاصمته إلى غالة ، أما الآن فقد أخذ يبحث له عن مكان آخر أعظم منها أمناً ، فوجد ذلك المكان فى رافنا ، التى تجعلها المناقع والبحيرات الضحلة ، منيعة من البر ، والشواطىء الرقراقة مستعصية على العدو من جهة البحر . ولكن العاصمة الجديدة أخذت ترتجف من الخوف كالعاصمة القديمة حين زحف ردجيسيوس Radagaisus البربرى بجيش تبلغ عدته مائتى ألف مقاتل من الألانى ، والكوادى ، والقوط الشرقيين ، والوندال ، وعبر بهم جبال الألب ، وهاجم مدينة فلورنتيا الناشئة . وفى هذه الساعة العصيبة برهن استلكو مرة أخرى على براعته فى القيادة ، فهزم الجحفل المختلط بجيش أقل منه عدداً ، وساق ردجيسيوس مكبلا بالأغلال أمام هونوريوس . وتنفست إيطاليا الصعداء مرة أخرى ، وعادت

حاشية الإمبراطور ، من أشراف وأميرات ، وأساقفة ، وخصيان ، وطيور داجنة وقواد إلى ما ألفته من ترف ، وفساد ، ودسائس .

وكان أولمپيوس وزير الإمبراطور ، يغار من استلكو ويرتاب فى نواياه . فقد ساءه أن يتغاضى القائد العظيم ، كما بدا له ، عن هرب ألريك المرة بعد المرة . وخيل إليه أنه قد كشف ما بين القائد الألمانى والغزاة الألمان من عطف كامن . واحتج على الرشا التى نفح بها ألريك أو وعد بها بناء على طلب استلكو . وتردد هونوريوس فى إقصاء الرجل الذى لبث ثلاثة وعشرين عاماً يقود جيوش رومة من نصر إلى نصر ، والذى أنجى الغرب مما كان يتهدده من أخطار ؛ فلما أن أقنعه أولمپيوس بأن استلكو يأتمر به ليجلس ابنه هو على العرش ، وافق الشاب الوجل على قتل قائده ، وأرسل أولمپيوس من فوره سرية من الجند لينفذوا قرار الإمبراطور . وأراد أصدقاء استلكو أن يقاوموا ولكنه أمرهم ألا يفعلوا ومد رقبته للسيف (٤٠٨) .

وبعد بضعة أشهر من هذا الحادث عاد ألريك إلى إيطاليا .

الفصل الثالث

ما كان يحدث في إيطاليا

كانت الدولة الرومانية الغربية فى أواخر القرن الرابع تطالعنا بصورة معقدة مركبة من الانتعاش والاضمحلال ، ومن النشاط والعقم الأدبى ، ومن الأبهة السياسية والانحلال العسكرى . وكانت غالة فى هذه الأثناء تزدهر ويعمها الرخاء ، وتنازع إيطاليا سيادتها فى جميع الميادين ؛ فقد كان عدد الغاليين فى الإمبراطورية عشرين مليوناً أو يزيدون من سكانها الذين يقربون من سبعين مليوناً ، فى حين أن الإيطاليين لا يكادون يبلغون ستة ملايين(١٥) ؛ وأما من عدا هؤلاء وأولئك فكانت كثرتهم من الشرقيين الذين يتكلمون اللغة اليونانية . وقد استحالت رومة نفسها منذ بداية القرن الثانى بعد الميلاد مدينة شرقية من حيث الأجناس التى تسكنها . لقد كانت رومة من قبل تعتمد فى حياتها على الشرق كما كانت أوربا الحديثة تعتمد فى حياتها على فتوحها ومستعمراتها إلى أواسط القرن العشرين ؛ وكانت الفيالق الرومانية تستحوذ على غلات ولاياتها التى تزيد على عشر ، وتنتزع منها معادنها الثمينة التى كانت تنساب فى قصور الظافرين وخزائنهم . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد انقضى عهد الفتوح وبدأ عهد التقهقر والتراجع ، واضطرت إيطاليا إلى الاعتماد على مواردها البشرية والمادية التى اضمحلت اضمحلالا ينذر بأشد الأخطار من جراء تحديد النسل ، والقحط والوباء ، والضرائب الفادحة ، والإتلاف والحرب. ولم تزدهر الصناعة يوماً ما فى شبه الجزيرة الطفيلية ؛ والآن وقد أخذت تفقد أسواقها فى الشرق وفى غالة ، لم يعد فى وسعها أن تعول سكان المدن الذين كانوا يحصلون على الكفاف من العيش بالكدح فى الحوانيت وفى البيوت . وكانت الكليچيا Collegia أو نقابات أصحاب الحرف تعانى الأمرين

من جراء عجز أفرادها عن بيع أصواتهم فى دولة ملكية مطلقة كان التصويت فيها نادراً . وكسدت التجارة الداخلية ، وانتشر قطاع الطرق ، وأخذت الطرق التى كانت من قبل مضرب الأمثال فى العظمة تضمحل وتتحطم وإن ظلت وقتئذ أحسن من أى طريق فى العالم كله قبل القرن التاسع عشر.

وكانت الطبقات الوسطى قبل ذلك الوقت عماد حياة المدن فى إيطاليا ؛ أما الآن فقد ضعفت هى الأخرى من جراء الانحلال الاقتصادى والاستغلال المالى ؛ فقد كان كل ذى مال يخضع لضرائب مطردة الزيادة لإعالة بيروقراطية آخذة فى الاتساع ، أهم ما تقوم به من الأعمال هو جباية الضرائب . وكان الهجاءون الفكهون حين يشكون من هذه الحال يقولون إن « الذين يعيشون على الأموال العامة أكثر عدداً من الذين يمدونهم بهذه الأموال[١٦] .

وكانت الرشا تستنفد الكثير مما يجبى من الضرائب ؛ وسن ألف قانون وقانون لمقاومة اختلاس إيرادات الحكومة أو أملاكها ، والكشف عن هذه الاختلاسات ومعاقبة مرتكبيها ، وكان الكثيرون من الجباة يفرضون على البسطاء أكثر مما يجب أن يؤدوه ، ويحتفظون بالزيادة لأنفسهم ؛ وكان فى وسعهم فى مقابل هذا أن يخففوا الضرائب عن الأغنياء نظير جعل يأخذونه منهم[١٧] .

وكان الأباطرة يبذلون غاية جهدهم لكى تراعى الأمانة فى جبايتها ؛ من ذلك أن فلنتيان الثانى عين فى كل بلدة موظفاً يسمى « المدافع عن المدينة » ليحمى أهلها من حيل الجباة ، وأعفى هونوريوس المدن التى كانت تعانى الأزمات المالية مما كان متأخراً عليها من الضرائب . ومع هذا فإن بعض سكان المدن — إذا صدقنا قول سلفيان Salvian — كانوا يفرون إلى خارج الحدود ليعيشوا تحت حكم الملوك البرابرة الذين لم يتعلموا بعد فن جباية الضرائب كاملا ، فقد بدا لهم أن عمال الخزانة أشد رهبة من العدو »[١٨] . وكان من أثر هذه الظروف أن قلت الرغبة فى النسل فأخذ عدد السكان فى النقصان ، وبقيت آلاف الأفدنة من الأراضى

الصالحة للزراعة بوراً لا تجد من يفلحها ، فنشأ من ذلك فراغ اقتصادى اجتمع إلى ما بقى فى المدن من ثروة فأدى إلى اجتذاب البرابرة الذين كانوا فى أشد الحاجة إلى تملك الأرض . ووجد كثيرون من أصحاب الأراضى الزراعية أنهم عاجزون عن أداء الضرائب أو الدفاع عن مساكنهم ضد الغزاة أو اللصوص ، فتخلوا عن أملاكهم لمن هم أكبر منهم من الملاك أو أعظم قوة ، وعملوا عندهم زراعاً (Coloni) ، وأخذوا على أنفسهم أن يقدموا لسادتهم قدراً معيناً من غلة الأرض ومن العمل والوقت ، على أن يضمن لهم أولئك السادة ما يكفيهم من العيش ، ويحموهم فى وقتى السلم والحرب . وبهذا كانت إيطاليا ، التى لم تعرف فيها بعد الإقطاع بمعناه الكامل ، من أوائل الأمم التى أعدت أسس هذا الإقطاع . وكانت خطة شبيهة بهذه تحدث فى مصر وإفريقية وغالة .

وكان الاسترقاق آخذاً فى الزوال على مهل ، وسبب ذلك ألا شىء فى الحضارة الراقية يعدل أجر الرجل الحر أو مرتبه أو مكسبه من حيث هو دافع اقتصادى للعمل والإنتاج . ولم يكن كدح الأرقاء مجزياً من هذه الناحية إلا حين يكثر عددهم ؛ وكانت أعباء الاحتفاظ بهم قليلة ؛ ولكن نفقات الحصول عليهم زادت حين لم تعد الفيالق الرومانية تنقل إلى بلادها ثمار النصر من الآدميين ؛ يضاف إلى هذا أن فرار الأرقاء من سادتهم أصبح الآن أمراً يسيراً بسبب ضعف الحكومة ؛ هذا إلى أنه كان لابد من العناية بهم إذا مرضوا أو تقدمت بهم السن . ولما أن زادت تكاليف الأرقاء رأى سادتهم أن يحافظوا على الأموال التى استثمروها فيهم بحسن معاملتهم لهم ؛ ولكن أولئك الأسياد كان لا يزال لهم على عبيدهم حق الحياة والموت ، وإن كان هذا الحق مقيداً ببعض القيود[١٩] ، كما كان فى مقدور السيد أن يستعين بالقانون للقبض على العبد الآبق ، وأن يشبع شهوته الجنسية مع من يهوى منهم رجالا كانوا أو نساء ؛ وهل أدل على هذا من أن پولينوس البلائى Paulinus of Pella كان يفخر بطهارة ذيله فى شبابه

حين « كبحت جماح شهواتى . . . فلم أستجب لعشق امرأة حرة . . . واكتفيت بالإماء اللاتى كن فى بيتى »[٢٠] .

وكان معظم الأغنياء يعيشون الآن فى بيوتهم الريفية بمنجاة من ضجيج المدن وغوغائها ، غير أن الجزء الأكبر من ثروة إيطاليا كان لا يزال ينصب فى رومة ؛ ولم تكن المدينة العظيمة ، كما كانت من قبل ، عاصمة الدولة ، وقلما كانت ترى الإمبراطور ، ولكنها ظلت مركز الحياة الاجتماعية والذهنية فى الغرب . وفى رومة كانت أعلى درجات الطبقة الأرستقراطية الإيطالية الجديدة . ولم تكن هذه ، كما كانت من قبل ، طبقة وراثية ، بل كانت طائفة يختارها الأباطرة بين الفينة والفينة على أساس الملكية العقارية . وكان أعضاء مجلس الشيوخ يعيشون بأعظم مظاهر الأبهة والفخامة وإن كان مجلسهم قد فقد بعض هيبته وكثيراً من سلطانه . وكانوا يشغلون بعض المناصب الإدارية الهامة ويظهرون فيها كثيراً من المقدرة والكفاية ، ويقيمون الألعاب العامة على نفقتهم الخاصة . وكانت بيوتهم غاصة بالخدم مملوءة بالأثاث الغالى الثمن ، وليس أدل على ذلك من أن طنفسة واحد قد كلفت صاحبها ما قيمته أربعمائة ألف ريال أمريكى[٢١] . وتكشف رسائل سماكوس Symmacus وسيدنيوس Sidonius . كما يكشف شعر كلوديان عن الناحية الطيبة من حياة أولئك الأشراف الجدد ، وما تمتاز به من نشاط اجتماعى وثقافى ، وخدمة للدولة وولاء لها ، وما كان بينهم من صداقة ورقة ، وإخلاص متبادل بينهم وبين أزواجهم ، وحب لأبنائهم وعطف عليهم .

لكن قساً من مرسيلية عاش فى القرن الخامس قد صور الحالة فى إيطاليا وغالة بصورة أقل جاذبية من الصورة السابقة . فقد عالج سلفيان Salvian فى كتابه « عن حكومة الله » (حوالى ٤٥٠) نفس المشكلة التى أوحت إلى أوغسطين بكتابه « مدينة الله » وإلى أورسيوس Arosius بكتابه « التاريخ ضد الوثنيين » — وهى كيف يستطاع التوفيق بين الشرور الناجمة من غزوات البرابرة وبين

«العناية الإلهية الرحيمة الخيرة ؟ وقد أجاب سلفيان عن هذا السؤال بأن الآلام «التى يقاسيها سكان الإمبراطورية إن هى إلا قصاص عادل لما كان متفشياً فى «العالم الرومانى من استغلال اقتصادى ، وفساد سياسى ، واستهتار أخلاقى ؛ ويؤكد لنا أنا لا نستطيع أن نجد بين البرابرة مثل ما نجده بين الرومان من ظلم الأغنياء للفقراء ، لأن قلوب البرابرة أرق من قلوب الرومان ؛ ولو أن الفقراء وجدوا وسيلة للانتقال لهاجروا بقضهم وقضيضهم ليعيشوا تحت حكم البرابرة[٢٢] . ويواصل هذا الواعظ الأخلاقى وصفه فيقول إن الأغنياء والفقراء ، والوثنيين والمسيحيين ، فى داخل الإمبراطورية كلهم غارقون فى حمأة من الفساد لا يكاد التاريخ يعرف لها مثيلا ؛ فالزنى ، وشرب الخمر قد أصبحا من الرذائل المألوفة فى هذه الأيام ، كما أضحت الفضيلة والاعتدال مثار السخرية ومبعث الآلاف من الفكاهات القذرة ؛ وصار اسم المسيح لفظاً تدنسه أفواه الذين يسمونه إلهاً[٢٣] . ويمضى هذا التاستس Tacitus الثانى(*) فيدعونا إلى أن ننظر إلى الفرق بين هذا كله وبين ما يتصف به الألمان من قوة وشجاعة ، ومن مسيحية مليئة بالتقى خالية من التعقيد ، ومن لين فى معاملتهم للرومان المغلوبين ، ومن ولاء متبادل بينهم ، ومن عفة قبل الزواج ، ووفاء بعده . لقد ذهل جيسريك Gaiseric الزعيم الوندالى إذ وجد حين استولى على قرطاجنة المسيحية أنه لا يكاد يخلو ركن فيها من بيت للدعارة ، فما كان منه إلا أن أغلق هذه المواخير وخير العاهرات بين الزواج والنفى . وجملة القول أن العالم الرومانى سائر إلى الانحطاط جسمياً ، وقد فقد كل ما كان يتصف به من شجاعة أدبية ، وترك الدفاع عنه إلى الأجانب المأجورين . ويختم سلفيان هذا الوصف بقوله إن الإمبراطورية الرومانية « إما أن تكون قدماتت وإما أنها تلفظ آخر أنفاسها » ؛ وإذا كنا نراها فى ذروة ترفها وألعابها ، فإنها تضحك حين تموت Moritur et ridet[٢٤] .

(*) أى الذى ينحو منحى تاستس فى نهجه . (المترجم)

تلك صورة مروعة ، ظاهر فيها الغلو ، لأن البلاغة قلما تصحبها الدقة ، وما من شك فى أن الفضيلة قد توارت حياء فى ذلك الوقت كما تتوارى الآن ، وأفسحت الطريق للرذيلة ، والبؤس ، والسياسة ، والجريمة . ويرسم أوغسطين صورة لا تقل عن هذه الصورة قتاما يهدف بها إلى مثل هذه الغاية الأخلاقية ؛ فهو يشكو من أن الكنائس كثيراً ما تخلو من المصلين لأن البنات الراقصات فى دور التمثيل يجتذبن الناس منها بما يعرضنه من فتنتهن السافرة[٣٥].

وكانت الألعاب العامة لا تزال تشهد قتل الأسرى والمجرمين ليستمتع الناس بهذه المناظر البشعة فى أعيادهم . وفى وسعنا أن نتصور ما فى هذه المناظر من قسوة حين نقرأ ما يقوله سماكوس من أنه أنفق ما قيمته ٩٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى فى إقامة حفلة واحدة ، ومن أن المجالدين السكسون التسعة والعشرين الذين وقع الاختيار عليهم ليقاتلوا فى المجتلد قد فوتوا عليه غرضه بأن خنقوا بعضهم بعضاً فانتحروا جميعاً قبل أن تبدأ الألعاب[٣٦]. وكان لرومة فى القرن الرابع ١٧٥ عيداً فى العام ، منها عشرة تقام فيها مباريات المجالدين ، وأربعة وستون تعرض فيها ألعاب الوحوش ، وما بقى منها بعد ذلك تعرض فيه مناظر فى دور التمثيل[٣٧] . واغتنم البرابرة فرصة ولع الرومان بهذه المعارك الزائفة فانقضوا على قرطاجنة ، وأنطاكية ، وترير Trier حين كان الأهلون منهمكين فى مشاهدتها فى المدرجات أو حلبات اقتتال الوحوش[٣٨] . وحدث فى عام ٤٠٤ أن أقيمت فى رومة ألعاب للمجالدين احتفالا بذكرى انتصار استلكو فى پولنتيا نصراً مشكوكاً فيه . وحين بدأ الدم يراق قفز راهب شرقى يدعى تلمكس Telemachus من مقاعد النظارة إلى المجتلد ونادى بوقف القتال . ولكن النظارة استشاطوا غضباً فأخذوا يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه ؛ وأثر هذا المنظر فى الإمبراطور هونوريوس فأصدر مرسوماً بإلغاء

ألعاب المجالدين(*) . أما السباق فقد بقى حتى عام ٥٤٩ حين قضى عليه استنزاف الحروب القوطية لثروة المدن .

أما من الناحية الثقافية فلم تشهد رومة منذ أيام پلنى وتاستوس عصراً نشطت فيه الثقافة مثل ما نشطت فى ذلك الوقت . لقد كان كل إنسان مولعاً بالموسيقى حتى لقد شكا أميانوس(٢٩) من أنها قد حلت محل الفلسفة ، وأنها قد « حولت دور الكتب إلى مقابر » ؛ وهو يصف لنا أراغن مائية ضخمة ، وقيثارات فى حجم المركبات . وكانت المدارس كثيرة العدد ، ويقول سياكوس إن كل إنسان كان يجد الفرصة سانحة لتنمية ملكاته(٣٠) . وكانت « جامعات » الأساتذة الذين تؤدى لهم الدولة رواتبهم تعلم النحو ، والبلاغة ، والأدب ، والفلسفة لطلاب جاءوا إليها من جميع الولايات الغربية ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه البرابرة المحيطون بالدولة يدرسون فنون الحرب . إن كل حضارة ثمرة من ثمار شجرة الهمجية الصلبة وهى تسقط حين تسقط عند أبعد نقطة من جزع هذه الشجرة .

وجاء إلى المدينـــة التى يبلغ عدد سكانها مليوناً من الأنفس حوالى عام ٣٦٥ يونانى سورى ، كريم المحتد ، وسيم الخلق ، يدعى أميانوس مرسلينوس الأنطاكى . وكان من قبل جندياً تحت قيادة أرسينوس Ursinus فى أرض الجزيرة ، واشترك بنشاط فى حروب قنسطنطيوس ويوليان ، وجوڤيان . وقد عاش هذا الرجل عيشة الجد والعمل قبل أن يشتغل بالكتابة . ولما عاد السلام إلى ربوع الشرق ارتحل إلى رومة وأخذ على عاتقه إتمام العمل الذى بدأه ليڤى وتاستوس ، وذلك بكتابة تاريخ الإمبراطـــورية من عهد نيفا إلى عهد ڤالنز . وكتب بلغة لاتينية عسيرة معقدة ، تشبه اللغة الفرنسية إذا ما كتبها ألمانى ؛ وكان من أسباب هذا العسر والتعقيد فى

(*) ومرجعنا الوحيد فى هذا هو « التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica » (فى المجلد العشرين) تأليف ثيودريت الأنطاكى . وقد تكون هذه القصة من الأكاذيب التى توحى بها التقوى للمؤرخين .

كتاباته كثرة ما قرأه من كتابات تاستوس وطول الزمن الذى كان يتكلم فيه اللغة اليونانية . وكان هذا الرجل وثنياً سافراً ، من المعجبين بيوليان ، ومن الذين يزدرون الترف الذى كان يعزوه إلى أساقفة رومة ؛ ولكنه رغم هذا كله كان بوجه عام منزها عن الهوى فيما كتب ، يمتدح كثيراً من فضائل المسيحية ، ويلوم يوليان على تقييده الحرية العلمية ، ويقول إن هذا خطأ يجب « أن يقضى عليه بالسكوت الأبدى »(٣١) . وكان قد حصل من العلم أقصى ما يسمح وقت الجندى له بتحصيله . وكان يؤمن بالشياطين والسحر ، ويقتبس من شيشرون أكبر المعارضين للقدرة على معرفة الغيب ما يؤيد به هذه العقيدة(٣٢) . ولكنه كان إلى حد كبير رجلا شريفاً لا يداجى ولا يجامل ، عادلا مع جميع الناس وجميع الأحزاب ؛ « لا أزين قصتى بالألفاظ الخداعة ، أمين على الحقائق إلى أبعد حدود الأمانة »(٣٣) . وكان يكره الظلم ، والبذخ ، والمظاهر الكاذبة ، ويجهر برأيه فيها أينما وجدت ؛ وكان آخر المؤرخين اليونان والرومان الأقدمين ، وكان كل من جاء بعده فى العالم اللاتينى مجرد إخباريين ..

لكن مكروبيوس Macerobius قد وجد فى هذه المدينة نفسها ، أى فى رومة ، التى كانت أخلاقها فى نظر أميانوس وضيعة متعاظمة فاسدة ، مجتمعاً من الناس ، يجملون ثراءهم باللطف والكياسة ، والثقافة ، ومحبة الناس . وكان مكروبيوس هذا فى أول الأمر من رجال العلم مولعاً بالكتب وبالحياة الهادئة ، لكننا نجده فى عام ٣٩٩ يعمل مبعوثاً للإمبراطور فى أسپانيا . وقد أصبح تعليقه على كتاب شيشرون المسمى « أحلام سپيو » الوسيلة التى انتقل بها تصوف الأفلاطونية الجديدة وفلسفتها إلى عامة الشعب . وخير كتبه على الإطلاق هو كتاب الساترناليا Saturnalia أو عيد زحل الذى لا يكاد كتاب تاريخى فى الخمسة عشر قرناً الأخيرة يخلو من مقتبسات منه . وهو مجموعة من (غرائب الأدب) أورد فيه المؤلف ما حصله من معلومات غير متجانسة فى أيام جده ودراسته ،

ولياليه الطوال التي قضاها ينقب في بطون الأسفار . وقد تفوق في كتاباته على ألوس جليوس Oulus Gellius في الوقت الذي كان يسطو عليه ، ذلك بأنه صاغ المادة التي أخذها عنه في صورة حوار خيالي بين رجال حقيقيين هم بريتكستاتوس Proetextatus وسياخوس Symmachus ، وفلاڤيان ، وسرڤيوس وغيرهم ممن اجتمعوا ليحتفلوا بعيد الساترناليا بالخمر الطيب ، والطعام الشهى ، والنقاش العلمى . وألقيت فى هذا النقاش على الطبيب ديزاريوس Disarius أسئلة علمية منها : هل الطعام البسيط خير من الطعام المتعدد الألوان ؟ ولم يندر أن ترى امرأة سكرى ؟ ولم يسكر المسنون من الرجال على الدوام ؟ هل طبيعة الرجال أقل أو أكثر حرارة من طبيعة النساء ؟ . ويدور النقاش حول التقويم ، وفيه تحليل طويل لألفاظ ڤرچيل ، ونحوه ، وأسلوبه ، وفلسفته ، وسرقاته ؛ وفيه فكاهات مأخوذة من جميع العصور ؛ ورسالة عن الولائم الدسمة ، والأطعمة النادرة . وتبحث فى المساء مسائل أخف من هذه يتسلى بها هؤلاء العلماء منها : لم تحمر وجوهنا من الخجل وتصفر من الخوف ؟ — ولم يبدأ الصلع من أعلى الرأس ؟ وأيهما أسبق من الآخر الفرخ أو البيضة ؟

ونجد فى مواضع متفرقة من هذا الخليط المهوش فقرات سامية كالتى يتحدث فيها بريتكستاتوس عن الرق فيقول :

لن أقدِّر الناس بمراكزهم بل بآدابهم وأخلاقهم ، لأن الثانية ثمرة طباعنا أما الأولى فهى نتيجة الصدفة . . وينبغى لك يا إفنجيلوس أن تبحث عن أصدقائك فى منزلك لا فى السوق العامة ولا فى مجالس الشيوخ . عامل عبدك بالرفق والحسنى ، وأشركه فى حديثك ، وأدخله أحياناً فى مجالسك الخاصة . وقد عمل آباؤنا على محو الكبرياء من نفس السيد والخجل من نفس العبد بأن سموا الأول « والد الأسرة » وسموا الثانى « أحد أفراد الأسرة » وإن عبيدك ليبادرون إلى احترامك أكثر من مبادرتهم إلى خوفك(٣٥) .

وكانت ندوة شبيهة بهذه الندوة هى التى رحبت فى عام ٣٩٤ بأن ينضم إليها شاعر شاءت الأقدار أن يتغنى بمجد رومة فى ساعة احتضارها . ولد كلودبوس كلوديانوس Claudius Claudianus كما ولد أميانوس ، فى بلاد الشرق ، وكانت لغته الأصلية هى اللغة اليونانية . ولكنه تعلم اللاتينية بلا ريب فى حداثة سنه ، لأنه كان يكتب بها بأسلوب سلس . وبعد أن أقام فى رومة زمناً قصيراً نزح إلى ميلان ، واستطاع أن يجد له مكاناً فى أركان حرب استلكو ، ثم صار شاعراً غير رسمى لبلاط الإمبراطور هو نوريوس ، وتزوج سيدة ذات ثراء من أسرة شريفة . وكان كلوديوس يترقب أن تواتيه الفرصة الكبرى ولا يحب أن يموت وهو خامل الذكر . ولذلك كان يمدح استلكو بقصائد عصماء ويهاجم أعداءه بقصائد أخرى حوت أقذع الألفاظ . وعاد إلى رومة فى عام ٤٠٠ ولقى منها أعظم آيات الشكر والترحاب حين مدح المدينة الخالدة فى قصيدة « عن قنصلية استلكو » لا تقل روعة عن قصائد فرجيل نفسه :

أيا قنصل الناس جميعاً ، ويا من تضارع الآلهة فى المنزلة ، وأنت حامى المدينة التى لا تدانيها مدينة يحيط بها الهواء الذى على سطح الأرض ، ولا تبلغ مداها العين ، ولا يتصور جمالها الخيال ، ولا يوفيها صوت مهما علا حقها من الثناء . إنها ترفع هامتها الذهبية تحت ما جاورها من النجوم ، وتحاكى بتلالها السبعة السبع السموات العلى . هى أم الجيوش والشرائع التى عنت لجبروتها الأرض بأجمعها وكانت أقدم مهد للعدالة على ظهر الأرض . تلك هى المدينة التى نشأت نشأة متواضعة ، ولكنها امتدت إلى القطبين وبسطت سلطانها من مكانها الصغير حتى بلغ مداه منتهى ما يصل إليه ضياء الشمس . . . فهى دون غيرها من البلاد قد فتحت صدرها لاستقبال من غلبتهم على أمرهم ، وعاملت الجنس البشرى معاملة الأم الرؤوم لا معاملة الحاكم المتغطرس ، فحمته وخلعت عليه اسمها ، ودعت من هزمتهم إلى مشاركتها فى حقوق المواطنية ، وربطت الشعوب البعيدة برباط

المحبة . وبفضل حكمها السلمى أصبح العالم كله وطناً لنا ، نعيش فيه أينما شئنا ، وأصبح فى مقدورنا أن نزور ثول Thule ونرتاد براريها التى كانت من قبل تقذف الرعب فى القلوب ، والتى أصبح ارتيادها الآن نزهة هينة ، وبفضلها يستطيع كل من أراد أن يشرب من مياه الرون ويعب من مجرى نهر العاصى ، وبفضلها صرنا كلنا شعبا واحدا(٣٦) .

وأراد مجلس الشيوخ أن يعبر لكلوديوس عن شكره واعترافه بفضله فأقام فى سوق تراجان تمثالا « لأجل الشعراء » الذى جمع بين سلاسة ڤرچيل ، وقوة هومر . وقضى كلوديان بعض الوقت يقرض الشعر فى موضوعات تدر عليه المال ، ثم وجه مواهبه وجهة أخرى فأنشأ قصيدته « اغتصاب برسبرين Brosperine » وقص فيها القصة القديمة وصور البر والبحر وأسبغ على تلك الصورة من رقيق النغم ما يعيد إلى الذاكرة روايات الحب اليونانية فى العصر الذى ظهرت فيه أول مرة . وبلغه فى عام ٤٠٨ أن استلكو قد قتل غيلة ، وأن الكثيرين من أصدقاء هذا القائد قد قبض عليهم وأعدموا . واختفى الرجل بعدئذ من ميدان التاريخ فلم نعرف باقى قصته .

وبقيت فى رومة كما بقيت فى الإسكندرية أقليات وثنية كبيرة العدد ، وكان فيها حتى نهاية القرن الرابع سبعمائة هيكل وثنى(٣٧) . ويبدو أن چوڤيان وڤلنتنيان الأول لم يغلقا الهياكل التى فتحها يوليان ؛ فظل القساوسة الرومان حتى عام ٣٩٤ يجتمعون فى مجامعهم المقدسة ، وظلت أعياد اللوپركاليا يحتفل بها بكل ما فيها من شعائر نصف همجية ، كما ظلت الطريق المقدسة تتردد فيها بين الفينة والفينة أصداء خوار الأثوار التى تساق للضحية .

وكان أعظم الناس إجلالا بين الوثنيين فى رومة فى أيامها الأخيرة هو فتيوس پريتكستاتوس ، زعيم الأقلية الوثنية فى مجلس الشيوخ . وكان الناس جميعا يعترفون بفضائله — باستقامته ، وعلمه ، ووطنيته ، وحياته العائلية اللطيفة . ومن

الناس من يقول إنه يماثل كاتو وسنسناتوس Cincinnatus ؛ ولكن الزمان يذكر أكثر منه صديقه سيماخوس (٣٤٥ — ٤١٠) ، الذى ترسم رسائله صورة رائعة ساحرة للأرسقراطية التى كانت تظن نفسها مخلدة وهى تحتضر . وحتى أسرته نفسها قد بدت أنها من المخلدين : فقد كان جده قنصلا فى عام ٣٦٤ ، وكان هو نفسه حاكماً فى عام ٣٨٤ ، وقنصلا فى عام ٣٩١ . وكان ابنه بريتورا ، وحفيده قنصلا فى عام ٤٨٥ بعد وفاة جده ، وكان اثنان من أحفاد أحفاده قنصلين فى عام ٥٢٢ . وكان سيماخوس ذا ثروة طائلة ؛ فقد كانت له ثلاثة قصور ريفية بالقرب من رومة ، وسبعة أخرى فى لاتيوم ، وخمسة على خليج نابلى ، فضلا عن قصور أخرى مثلها فى أماكن أخرى من إيطاليا ؛ وبفضل هذه القصور « كان فى وسعه أن يسافر من أقصى شبه الجزيرة إلى أقصاها ثم يأوى إلى منزله فى كل مكان يحل به[٣٨] » . ولا يذكر لنا التاريخ أن أحداً من الناس كان يحسده على ثرته ، لأنه كان ينفق منها بسخاء وينميها بحياة الدرس ، والخدمة العامة ، والأخلاق الفاضلة ، وأعمال البر والإنسانية ، التى لا تعرف فيها شماله ما تفعل يمينه . وكان من أصدقائه الأوفياء مسيحيون ووثنيون ، وبرابرة ورومان . ولعله كان يضع وثنيته قبل وطنيته ؛ فقد كان يظن أن الثقافة التى يمثلها ويستمتع بها وثيقة الصلة بالدين القديم ، وكان يخشى أن يؤدى سقوط أيهما إلى سقوط كليهما . ويعتقد أن المواطن بإخلاصه للشعائر القديمة يحس أنه حلقة فى سلسلة مترابطة متصلة أعجب اتصال — تمتد من رميولوس إلى ڤلنتنيان ، وأن هذا الإخلاص يبعث فى نفسه حب المدينة وحب الحضارة التى نشأت بفضل الأجيال المتعاقبة خلال ألف عام . وقد استحق كونتوس أورليوس سيماخوس بفضل خلاله الطيبة أن يختاره مواطنوه ممثلا لهم فى آخر كفاحهم الرائع فى سبيل آلهتهم .

وقد استطاع أمبروز أن يجعل الإمبراطور جراتيان مسيحياً متحمساً لدينه ، وأغراه تحمسه للدين القديم أن يعلن على الملأ أن العقيدة النيقية فريضة واجبة

« على جميع الشعوب الخاضعة لحكمنا الرحيم » ، وأن أتباع غيرها من العقائد « مفتونون مسلوبو العقول »[39] ، وفى عام ٣٨٢ أمر ألا تؤدى خزانة الإمبراطورية أو خزائن البلديات أية إعانات لإقامة الاحتفالات الوثنية ، أو للعذارى القستية أو الكهنة الوثنيين ، ثم صادر الأراضى التى تملكها الهياكل ، وجماعات الكهنة ، وأمر أتباعه بأن يرفعوا من قاعة مجلس الشيوخ فى رومة تمثال إلهة النصر الذى أقامه فيها أغسطس فى عام ٢٩ ق . م ، والذى ظل اثنا عشر جيلا من الشيوخ يقسمون بين يديه يمين الولاء للإمبراطور ؛ وانتدب مجلس الشيوخ وفدا برياسة سياخوس يشرح لجراتيان قضية تمثال النصر هذا ، ولكن جراتيان أبى أن يستقبل الوفد ، وأمر بنفى سياخوس من رومة (٣٨٢) ؛ وفى عام ٣٨٣ قتل جراتيان وبعث هذا الأمل فى مجلس الشيوخ فأرسل وفداً إلى خليفته على العرش ؛ وكانت الخطبة التى ألقاها سياخوس بين يدى فلنتنيان الثانى آية من آيات الدفاع البليغ ، وكان مما قاله فيها إنه ليس من الحكمة فى شىء أن يقضى هذا القضاء العاجل المفاجئ على شعائر دينية ظلت طوال ألف عام مرتبطة أشد الارتباط باستقرار النظام الاجتماعى وهيبة الدولة ، ثم قال : « ماذا يهمنا ، فى آخر الأمر ، أى طريق يسلكه إنسان ليصل به إلى الحقيقة ؟ والحق أن فى وسع الناس أن يصلوا إلى معرفة هذا السر العظيم من طريق واحد »[40] .

وتأثر فلنتنيان الشاب بهذا القول ، ويقول أمبروز إن من كان فى المجلس الإمبراطورى من المسيحيين أنفسهم قد أشاروا على الإمبراطور بإعادة تمثال النصر إلى مكانه ، ولكن أمبروز ، وكان فى ذلك الوقت غائبا فى بعثة دبلوماسية للدولة ، تغلب على المجلس برسالة قوية مليئة بالكبرياء والغطرسة أرسلها إلى الإمبراطور . وعدد فيها حجج سياخوس حجة بعد حجة ، ثم دحضها كلها بما وهب من قوة وبلاغة . وقد حوت هذه الرسالة ما يعد فى الواقع تهديداً

للإمبراطور بإخراجهم من حظيرة الدين إذا أجاب الوفد إلى طلبه ، « قد يكون في وسعك أن تدخل الكنيسة ولكنك لن تجد فيها قساً يستقبلك ، أو أنك قد تجدهم فيها ليحرموا عليك دخولها »(٤١) . وكان من أثر ذلك أن رفض فلنتنيان طلب مجلس الشيوخ .

وبذل الوثنيون في إيطاليا مجهوداً آخر في عام ٣٩٣ ، فأعلنوا الثورة وخاطروا في سبيل غايتهم بكل شيء . وكان ثيودوسيوس قد أبى أن يعترف بالإمبراطور يوچنيوس نصف الوثني ، فرأى هذا الإمبراطور أن يستعين بوثني الغرب في دفاعه عن نفسه ، فأعاد تمثال النصر إلى مكانه . وتباهى بقوله إنه حين يتم له النصر على ثيودسيوس سيربط خيله في الكنائس المسيحية . وسار نقوماكس خوس فلاڤيانوس Nicomachus Flavianns زوج ابنة سياخوس ، على رأس جيش ليساعد به يوجنيوس ، فقاسمه الهزيمة وانتحر . وزحف ثيودوسيوس على رومة ، وأرغم مجلس الشيوخ على أن يعلن إلغاء الوثنية بجميع أشكالها (٣٩٤) . ولما نهب ألريك رومة حسب الوثنيون أن ما أصاب هذه المدينة التي كانت من قبل سيدة العالم من إذلال كان نتيجة غضب الآلهة الذين تخلت عنهم . وفككت حرب الأديان هذه وحدة الشعب وحطمت قواه المعنوية ، ولما أن وصل إليهم سيل الغزو الجارف لم يجدوا وسيلة يواجهونه بها إلا تبادل اللعنات والصلوات المتنافرة .

الفصل الرابع

تيار البرابرة الجارف

عقب أولمبيوس على الأمر القاضى بقتل استلكو بأمر آخر يقضى بقتل آلاف من أتباعه ومنهم رؤساء فيالقه البربرية . وكان ألريك يتحين الفرصة السانحة له وراء جبال الألب ، فوجد فى هذا فرصته السانحة ولم يدعها تفلت من يده ؛ فقال إن الأربعة الآلاف من الأرطال الذهبية التى وعد الرومان بأدائها إليه لم تصله بعد ، وقال إنه فى نظير هذا المال يرضى أن يقدم أنبل الشباب القوطى ضماناً لولائه فى مستقبل الأيام . فلما رفض هونوريوس طلبه اجتاز جبال الألب ونهب أكويليا وكرمونا ، وضم إليه ثلاثين ألفاً من الجنود المرتزقة الذين أغضبهم قتل زعمائهم ، وزحف بطريق فلامنيوس حتى وصل الى أسوار رومة (٤٠٨) . ولم يلق فى هذا الزحف مقاومة اللهم إلا من راهب واحد قال له إنه قاطع طريق ، فرد عليه ألريك بجواب حيره إذ قال له إن الله نفسه قد أمره بهذا الغزو . وارتاع مجلس الشيوخ كما ارتاع فى أيام هنيبال ، ودفعه الروع إلى ارتكاب أعمال وحشية . فقد ظن أن أرملة استلكو كانت تساعد ألريك فأمر بقتلها ؛ ورد ألريك على هذا بقطع كل الطرق التى يمكن أن يصل منها الطعام إلى العاصمة ، وسرعان ما أخذ الناس يموتون فيها من الجوع ، وشرع الرجال يقتل بعضهم بعضاً ، والنساء يقتلن أبناءهن ليتخذنهم طعاماً . وسار وفد من أهل المدينة إلى ألريك ليسأله عن شروط الصلح ؛ وهددوه بأن ألف ألف من الرومان على استعداد لمقاومته ، فتبسم ضاحكاً من قولهم وأجابهم « كلما ازداد سمك القش كان حصده أيسر » . ثم رق قلبه فرضى أن ينسحب إذا أعطى كل ما فى المدينة من ذهب وفضة ، وكل ما تحتويه من ثروة منقولة قيمة . ولما سأله المبعوثون : « وأى شىء بعد هذا يبقى لنا ؟ »

أجابهم فى ازدراء : « حياتكم » . وآثرت رومة أن تمضى فى المقاومة ؛ ولكن الجوع اضطرها أن تطلب شروطاً جديدة للاستسلام ؛ فقبل ألريك منها ٥٠٠٠ رطل من الذهب وثلاثين ألف رطل من الفضة ، وأربعة آلاف قباء من الحرير ، وثلاثة آلاف من جلود الحيوان ، وثلاثة آلاف رطل من الفلفل .

وفى هذا الوقت عينه فر عدد لا يحصى من البرابرة الأرقاء من أسيادهم الرومان وانضموا تحت لواء ألريك . وكأن الأقدار شاءت أن تعوض الرومان عن هذه الخسارة ، ففر من جيش ألريك قائد قوطى يدعى ساروس Sarus وانضم إلى هونوريوس ، وأخذ معه قوة كبيرة من القوط ، وهاجم بها جيش البرابرة الرئيسى . وعد ألريك هذا العمل نقضاً للهدنة التى وقعها الطرفان ، فعاد إلى حصار رومة . وفتح أحد الأرقاء أبواب المدينة للمحاصرين ؛ وتدفق منه القوط ، واستولى العدو على المدينة الكبرى لأول مرة فى ثمانمائة عام (٤١٠) . ولبثت ثلاثة أيام مسرحاً للسلب والنهب بلا تمييز بين أماكنها أو أهلها اللهم إلا كنيستى القديسين بطرس وبولس فلم يمسسهما أحد بسوء ، وكذلك نجا اللاجئون الذين احتموا فيهما . غير أنه لم يكن من المستطاع السيطرة على من كان فى الجيش البالغ عدده أربعين ألف مقاتل من الهون والأرقاء . فذبح مئات من أغنياء المدينة ، واغتصبت نساؤهم ثم قتلن ، وبلغ من كثرة القتلى أن لم يعد من المستطاع دفن الجثث التى امتلأت بها الشوارع . ووقع فى أيدى الغزاة آلاف من الأسرى بينهم أخت لهونوريوس غير شقيقة تدعى جلا بلاسيديا Galla Placidia . وأخذ الفاتحون كل ما وقع فى أيديهم من الذهب والفضة ؛ وصهرت التحف الفنية للاستيلاء على ما فيها من معادن نفيسة ، وحطم العبيد السابقون روائع فنى النحت والخزف وهم فرحون مغتبطون انتقاماً منهم لما كانوا يعانونه من فقر وكدح ، هما اللذان أثمرا هذا الجمال وهذه الثروة . ثم أعاد ألريك النظام وزحف بجيشه جنوباً ليفتح صقلية ؛ ولكنه أصيب بالحمى فى هذه السنة عينها ومات بها فى كوسنزا Cosenza . وحول الأرقاء

مجرى نهر بوسنتو Busento ليفسحوا مكاناً آمناً رحيباً ينشئون فيه قبره ، ثم أعيد النهر إلى مجراه الأصلى ، وقتل العبيد الذين قاموا بهذه الأعمال مبالغة فى إخفاء المكان الذى دفن فيه .

واختير أتلف Atilf (أدلف Adolf) صهر ألريك ليخلفه فى ملكه ورضى الملك الجديد أن يسحب جيشه من إيطاليا إذا تزوج بلاسيديا Placidia ، وأعطى القوط بوصفهم أحلاف رومة المتعاهدين معها غالة الجنوبية بما فيه نربونة Narbonne وطُلوشة (طولوز) ، وبردو ، ولتكون مملكة لهم يحكمونها مستقلة استقلالا ذاتياً . ورفض هونوريوس الشرط الخاص بالزواج ، لكن بلاسيديا قبلته ، وأعلن الزعيم القوطى أنه لا يبغى تدمير الإمبراطورية ، بل يريد المحافظة عليها وتقويتها ، وسحب جيشه من إيطاليا ، وأنشأ مملكة للقوط الغربيين فى غالة مستعيناً على إنشائها بمزيج من الدهاء السياسى والقوة الحربية . وكانت هذه المملكة من الوجهة النظرية خاضعة للإمبراطورية ، واتخذ طلوشة عاصمة لها (٤١٤) . وقتل الزعيم القوطى بعد سنة واحدة ، واعتزمت بلاسيديا من فرط حبها له أن تعيش من بعده أرملة طول حياتها ولكن هونوريوس وهبها للقائد قنسطنطيوس . ولما مات قنسطنطيوس (٤٢١) وهونوريوس (٤٢٣) أصبحت بلاسيديا وصية على ابنها فلنتنيان الثالث ، وحكمت الإمبراطورية الغربية ثلاثين عاماً حكماً يشرف بنات جنسها .

وكان الوندال حتى فى أيام ناستون ، أمة قوية كثيرة العدد تمتلك الأجزاء الوسطى والشرقية من روسيا الحالية . وكانوا قبيل حكم قسطنطين قد زحفوا جنوبا إلى بلاد المجر ، ولما بدد القوط الغربيون شملهم فى إحدى الوقائع الحربية ، طلب الباقون منهم أن يؤذن لهم بعبور الدانوب ودخول الإمبراطورية الرومانية . ووافق قسطنطين على طلبهم هذا ، وظلوا سبعين عاماً يتكاثرون ويتضاعف عديدهم فى

بنونيا Pannonia . وأثارت انتصارات ألريك حميتهم ؛ ولما سحبت الدولة فيالقها من وراء جبال الألب لتدافع بها عن إيطاليا ، تفتحت لهم أبواب الغرب واستهواهم بثروته ، حتى إذا كان عام ٤٠٦ زحفت جموع كبيرة من الوندال ، والألانى ، والسويڤى وعبرت نهر الرين وعاثت فساداً فى بلاد غالة ، ونهبوا مينز Manz وذبحوا كثيراً من أهلها ، ثم تحركوا شمالا إلى بلچيكا ، ونهبوا مدينة تيير Tier العظيمة وأحرقوها . ثم أقاموا الجسور على نهرى الموز Meause والآين Aisne ونهبوا ريمس Reims ، وأمين Amiens ، وأراس Arras ، وتورناى Tournai ، وواصلوا الزحف حتى كادوا يبلغون بحر المانش . ثم اتجهوا نحو الجنوب وعبروا نهرى السين Scine واللوار Loire ودخلوا أكوتانيا Aquitaine وصبوا جام غضبهم الوحشى على جميع مدنها تقريباً ما عدا طلوسة ، التى دافع عنها إكسبريوس Exuperius دفاع الأبطال . ووقفوا عند جبال البرانس ، ثم ولوا وجههم نحو الشرق ونهبوا نربونة ، وشهدت غالة من التخريب والتدمير الكامل ما لم تشهد له مثيلا من قبل .

وفى عام ٤٠٩ دخلوا أسپانيا وكان عددهم وقتئذ نحو مائة ألف . وكان الحكم الرومانى فى تلك البلاد قد أثقل كاهل أهلها بالضرائب ، وأدخل فيها إدارة منظمة ، وجمع الثروة ضياع واسعة ، وجعل الكثرة الغالبة من سكانها عبيداً ، أو رقيق أرض ، أو أحراراً يعانون ويلات الفقر المدقع . ولكن أسپانيا كانت بفضل ما فيها من استقرار وسلطان للقوانين أعظم ولايات الإمبراطورية رخاء ، وكانت مريدة ، وقرطاچنة ، وقرطبة ، وأشبيليه ، وطركونه Tarragona من أغنى مدائن الإمبراطورية وأغظمها ثقافة . وانقض الوندال والسويڤى والألانى على هذه الشبه الجزيرة التى كانت تبدو آمنة حصينة ، وأعملوا فيها السلب والنهب عامين كاملين حتى لم ينج فيها مكان من جبال البرانس إلى مضيق جبل طارق ، بل إن فتوحهم امتدت إلى سواحل إفريقية الشمالية . وأدرك هونوريوس أنه عاجز عن حماية

لأراضى الرومانية بالجيوش الرومانية ، فأغرى القوط الغربيين بالمال الوفير ليردوا إليه أسبانيا . وقام ملكهم القدير واليا Wallia بهذا العمل بعد عدة وقائع حربية أحكم خططها (٤٢٠) ، فارتد السويفى إلى شمالى أسبانيا ، كما ارتد الوندال إلى إقليم الأندلس (Andalusia) الذى لا يزال يسمى باسمهم حتى اليوم ، وأعاد ولاية أسبانيا إلى حوزة الإمبراطورية ، وكشف بذلك عما فى أخلاق ساسة الرومان من غدر ونكث بالعهود .

وكان الوندال لا يزالون يتوقون إلى الفتح والخبز ، فعبروا البحر إلى أفريقية (٤٢٩) . وإذا جاز لنا أن نصدق بروكپيوس Procopius[٤٣] ، وجردانيس Jordanes قلنا إنهم جاءوا إليها بدعوة من بنيفاس Boniface حاكم أفريقية الرومانى ليستعين بهم على منافسة إيتيوس Eetius الذى خلف استلكو ، لكن هذه القصة لا تعتمد على مصدر موثوق به . ومهما يكن من أمرها فإن ملك الوندال كان قادراً على خلق هذه الخطة . وكان جيرسيك ملك الوندال ابنا غير شرعى لعبد رقيق ، وكان أعرج لكنه قوى الجسم ، متقشفا زاهداً ، لا يهاب الردى فى القتال ، يتلهب غيظا إذا غضب ، ويقسو أشد القسوة على عدوه ولكنه عبقرى لا يغلب فى شئون الحرب والمفاوضة . ولما نزل إلى أفريقية انضم إلى من كان معه من الوندال ، والآلانى ، من جند ، ونساء ، وأطفال المغاربة الأفريقيين الذى ظلوا عهوداً طوالا حانقين على الحكم الرومانى ، كما انضم إليهم الدناتيون Donatist المارقون الذين كانوا يقاسون أشد أنواع الاضطهاد من المسيحيين أتباع الدين القويم . ورحب هؤلاء وأولئك بالغزاة الفاتحين وبالحكم الجديد . ولم يستطيع بينفاس أن يحشد من سكان شمالى أفريقية الرومانى البالغ عددهم ثمانية ملايين إلا عدداً ضئيلا يساعد جيشه الرومانى . ولما هزمته جحافل جيسريك هزيمة منكرة تقهقر إلى هبو Hippo حيث أثار القديس أوغسطين الطاعن فى السن حمية السكان فهبوا يدافعون عن بلدهم دفاع الأبطال ، وقاست المدينة أهوال الحصار أربعة عشر

شهراً كاملة (٤٣٠ — ٤٣١) ، انسحب بعدها جيسريك ليلقى جيشاً رومانياً آخر ، ولموقع به هزيمة منكرة اضطر على أثرها سفير فلنتنيان إلى أن يوقع شروط هدنة يعترف فيها باستيلاء الوندال على فتوحهم فى أفريقية . وحافظ جيسريك على شروط الهدنة حتى غافل الرومان وانقض على قرطاجنة الغنية واستولى عليها دون أن يلقى أية مقاومة (٤٣٩) . وجرد أشراف المدينة وقساوستها من أملاكهم ونفاهم أو جعلهم أقنان أرض . ثم استولى على كل ما وجده من متاع سواء منه ما كان لرجال الدين أو لغيرهم من الأهلين ، ولم يتردد فى الالتجاء إلى التعذيب للوقوف على مخابئه .

وكان جيسريك لا يزال وقتئذ فى شرخ الشباب ، وكان إدارياً قديراً أعاد تنظيم أفريقية وجعل منها دولة ذات ثراء تدر عليه المال الوفير ، ولكن أسعد أوقاته كان هو الوقت الذى يشتبك فيه فى القتال . وقد أنشأ له أسطولا ضخماً ، نهب به سواحل أسبانيا ، وإيطاليا ، وبلاد اليونان . وكان يفاجئ تلك البلاد حتى لم يكن أحد يدرى أى الشواطئ سترسو فيها سفنه المثقلة بالفرسان ، ولم تنتشر القرصنة فى غرب البحر المتوسط طوال أيام الحكم الرومانى دون أن تلقى مقاومة كما انتشرت فى تلك الأيام . واضطر الإمبراطور فى آخر الأمر أن يعقد الصلح مع ملك البرابرة ليحصل بذلك على القمح الذى تطعم منه رافنا ورومة ، ولم يكتف بذلك بل وعده أن يزوجه إحدى بناته . وكانت رومة فى هذه الأثناء لا تزال تضحك وتلعب لاهية عما سيحل بها بعد قليل من دمار .

وكانت ثلاثة أرباع قرن قد انقضت مذ دفع الهون أمامهم البرابرة الغزاة بعبورهم نهر الفلجا . ثم تباطأ بعد ذلك زحف الهون نحو الغرب فكان هجرة على مهل ، وكان أشبه بانتشار المستعمرين فى القارة الأمريكية منه بفتوح ألريك وجيسريك . وما لبثوا أن استقروا بعدئذ شيئاً فشيئاً فى داخل بلاد المجر ، وبالقرب منها ، وأخضعوا لحكمهم كثيراً من القبائل الألمانية .

ومات روا Rua ملك الهون حوالى عام ٤٣٣ وأورث عرشه بليدا Baleda وأتلا Atilla ابنى أخيه . ثم قتل بليدا — بيد أتلا كما يقول بعضهم — حوالى عام ٤٤٤ ، وتولى أتلا (ومعنى اللفظ باللغة القوطية الأب الصغير) حكم القبائل المختلفة الضاربة شمال نهر الدانوب من الدن إلى الرين . ويصفه جردانس المؤرخ القوطى وصفاً لا نعرف مقدار ما فيه من الدقة فيقول :

هو رجل ولد فى هذا العالم ليزلزل أقدام الأمم ، هو سوط عذاب سلط على الأرض ، روع سكان العالم أجمع بما انتشر حوله من الشائعات فى خارج البلاد ، وكان جباراً متغطرساً فى قوله ، يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ، يظهر فى حركات جسمه ما تنطوى عليه نفسه من قوة وكبرياء . وكان فى الحق أخا غمرات محباً للقتال ، ولكنه يتمهل فيما يقدم عليه من أعمال ، وكان عظيما فيما يسدى من نصح ، غفوراً لمن يرجو منه الرحمة ، رؤوفاً بمن يضع نفسه تحت حمايته . وكان قصير القامة ، عريض الصدر ، كبير الرأس ، صغير العينين ، رقيق شعر اللحية قد وخطه الشيب . وكان أفطس الأنف ، أدكن اللون ، تنم ملامحه على أصله(٢٦) .

وكان يختلف عن غيره من البرابرة فى أنه يعتمد على الختل أكثر من اعتماده على القوة . وكان يحكم شعبه باستخدامه خرافاته لتقديس ذاته العليا ، وكان يمهد لانتصاراته بما يذيعه من القصص المبالغ فيها عن قسوته ، ولعله هو الذى كان ينشئ هذه القصص إنشاء ، حتى لقد سماه أعداؤه المسيحيون آخر الأمر « بسوط الله » ، وارتاعوا من ختله ارتياعاً لم ينجهم منه إلا القوط . وكان أمياً لا يستطيع القراءة أو الكتابة ، ولكن هذا لم ينقص من ذكائه الفطرى . ولم تكن أخلاقه كأخلاق المتوحشين ، فقد كان ذا شرف ، وكان عادلا ، وكثيراً ما أظهر أنه أعظم كرماً وشهامة من الرومان . وكان بسيطاً فى ملبسه ومعيشته ، معتدلا فى مأكله ومشربه ، يترك الترف لمن هم دونه ممن يحبون التظاهر بما عندهم من آنية فضية وذهبية ، وسروج ، وسيوف وأثواب مزركشة تشهد بمهارة أصابع أزواجهم .

وكان لأتلا عدد كبير من أولئك الأزواج ولكنه كان يحتقر ذلك الخليط من وحدة الزواج والدعارة الذى كان منتشراً عند بعض الطوائف فى راقنا وورومة . وكان قصره بيتاً خشبياً ضخماً أرضه وجدرانه من الخشب المسوى بالمسحج ، ولكنه يزدان بالخشب الجميل الصقل والنحت ، فرشت فيه الطنافس والجلود ليتقى بها البرد . وكانت عاصمة ملكه قرية كبيرة أغلب الظن أنها كانت فى مكان بودا Buda الحالية ، وقد ظل بعض المجريين حتى هذا القرن يطلقون على هـــذه المدينة اسم إتزلنبرج Etzelnburg أى مدينة أتلا .

وكان الوقت الذى نتحدث عنه (٤٤٤) أقوى رجل فى أوربا ، وكان ثيودوسيوس الثانى إمبراطور الدولة الشرقية ، وفلنتنيان إمبراطور الغرب يعطيانه الجزية يشتريان بها السلام ، ويتظاهرون أمام شعوبهما بأنها ثمن لخدمات يؤديها أحد أقيالها . ولم يكن أتلا ، وهو القادر على أن ينزل إلى الميدان جيشا من خمسمائة ألف مقاتل ، يرى ما يحول بينه وبين السيادة على أوربا كلها وبلاد الشرق بأجمعها . ففى عام ٤٤١ عبر قواده وجنوده نهر الدانوب ، واستولوا على سرميوم Sirmium ، وسنجدبونوم Singidiunum (بلغراد) ونيسوس Naissus (نيش) وسرديكا Sardica (صوفيا) ، وهددوا القسطنطينية نفسها . وأرسل ثيودوسيوس الثانى جيشاً لملاقاتهم ، ولكنه هزم ، ولم تجد الإمبراطورية الشرقية بداً من أن تشترى السلم برفع الجزية السنوية من سبعمائة رطل من الذهب إلى ألفى رطل ومائة . وفى عام ٤٤٧ دخل الهون تراقية ، وتساليا ، وسكوذيا ، (جنوبى روسيا) ونهبوا سبعين مدينة وساقوا آلافا من أهلها أرقاء . وأضيفت السبايا إلى أزواج المنتصرين ، ونشأ من ذلك جيل اختلطت فيه دماء الفاتحين والمغلوبين ترك آثاراً من الملامح المغولية فى الأقاليم الممتدة من الشرق حتى باڤاريا Bavaria ، وخربت غارات الهون بلاد البلقان تخريبا دام أربعة قرون ، وأتى على نهر الدانوب

حين من الدهر لم يعد فيه كما كان طريق التجارة الرئيسى بين الشرق والغرب ، واضمحلت لهذا السبب المدن القائمة على شاطئيه .

ولما أن استنزف أتلا دماء الشرق بالقدر الذى ارتضاه ولى وجهه نحو الغرب وتذرع لغزوه بحجة غير عادية . وخلاصة تلك الحجة أن هونوريا Honoria أخت فلنتنيان الثالث كانت قد نفيت إلى القسطنطينية بعد أن اعتدى على عفافها أحد رجال التشريفات فى قصرها . وتلمست هونوريا أية وسيلة للخلاص من النفى فلم تر أمامها إلا أن تبعث بخاتمها إلى أتلا وتستجيره ليساعدها فى محنتها ، واختار الملك الداهية ، الذى كانت له أساليبه الخاصة فى الفكاهة ، أن يفسر إرسال الخاتم بأنه عرض منها للزواج بها ، فطالب من فوره بهونوريا وبنصف الإمبراطورية الغربية بائنة لها ، ولما احتج وزراء فلنتنيان على الطلب أعلن أتلا الحرب . هذا هو السبب الظاهرى ، أما السبب الحقيقى فهو أن مرسيان Marcian الإمبراطور الجديد فى الشرق أبى أن يستمر على أداء الجزية وأن فلنتنيان قد حذا حذوه .

وفى عام ٤٥٠ زحف أتلا ومعه نصف مليون رجل على نهر الرين ، ونهبوا تريير ومتز Metz وأحرقوهما وقتلوا أهلهما . فقذف ذلك الرعب فى قلوب غالة كلها فقد علموا أن الغزاة ليس على رأسهم جندى متمدين كقيصر ، أو مسيحى — ولو كان من أتباع أريوس — مثل ألريك أو جيسريك ، بل كان الزاحف عليهم هو الهونى الرهيب ، سقوط الله المبعوث لعذاب المسيحيين والوثنيين على السواء لما هنالك من فوق شاسع بين أقوالهم وأعمالهم . وجاء ثيودريك الأول Theadoric 1 ملك القوط المعمر لينقذ الإمبراطورية من محنتها ، وانضم إلى الرومان بقيادة إيتيوس ، والتقت الجيوش الضخمة فى حقول قطلونيا Catalaunia بالقرب من ترويس ، ودارت بينها معركة من أشد معارك التاريخ هولا ، جرت

فيها الدماء أنهارا ، حتى ليقال إن ١٦٢٫٠٠٠ رجل قد قتلوا فيها من بينهم ملك القوط البطل المغوار ، وانتصر الغرب فى هذه المعركة نصراً غير حاسم ، فقد تقهقر أتلا بانتظام ، وأنهكت الحرب الظافرين ، أو لعلهم كانوا منقسمين على أنفسهم فى خططهم ، فلم يتعقبوا أتلا وجنوده ولهذا غزا إيطاليا فى العام التالى .

وكانت أول مدينة استولى عليها فى زحفه هى أكويليا Aquileia ، وقد دمرها تدميراً قضى عليها قضاء لم تقم لها بعده قائمة حتى اليوم ، أما ڤرونا Verona وفيسنزا Vicenza فقد عوملتا بشىء من اللين والرحمة واشترت پاڤيا وميلان نفسيهما من الغزاة بتسليم كل ما فيهما من ثروة منقولة . وبعد هذا فتحت الطريق إلى رومة أمام أتلا ؛ وكان جيش إيتيوس قليل العدد لا يقوى على أية مقاومة جدية ، ولكن أتلا تباطأ عند نهر الپو ، وفر فلنتنيان الثالث إلى رومة ، ثم أرسل إلى ملك الهون وفداً مؤلفاً من البابا ليو الأول واثنين من أعضاء مجلس الشيوخ . وما من أحد يعلم ما جرى حين اجتمع هذا الوفد بأتلا . وكان ليو رجلا مهيب الطلعة ، يعزو إليه المؤرخون معظم ما أحرزه الوفد من نصر لم ترق فيه دماء . وكل ما يذكره التاريخ عن هذا النصر أن أتلا قد ارتد لأن الطاعون فشا بين جنوده ، ولأن مؤونتهم كانت آخذة فى النفاد ، ولأن مرسيان كان يرسل المدد من الشرق (٤٥٢) .

وقاد أتلا جحافله فوق جبال الألب وعاد بها إلى عاصمته فى بلاد المجر ، متوعداً إيطاليا بالعودة إليها فى الربيع التالى إذا لم ترسل إليه هونوريا ، ليتخذها زوجة له . وقد استعاض عنها فى هذه الأثناء بشابة تدعى إلديكو Ildico ضمها إلى نسائه . وكانت هذه الفتاة هى الأساس التاريخى الواهى لقصة Krienhild المسماة نيبل أنجليد Nibelungenlied . واحتفل بزفافها له احتفالا أثقلت فيها الموائد بالطعام والشراب . ولما أصبح الصباح وجد أتلا ميتاً فى فراشه إلى جانب زوجته

الشابة . وكان سبب موته انفجار أحد الأوعية الدموية ، فكتم الدم الذى تدفق منه نفسه وقضى عليه (٤٥٣)[٤٧] . وقسمت مملكته بين أولاده ، ولكنهم عجزوا عن المحافظه عليها ، فقد دبت الغيرة بينهم ورفضت القبائل التى كانت خاضعة لأبيهم أن تظل على ولائها لهؤلاء الزعماء المتنازعين ، ولم تمض إلا بضع سنين حتى تقطعت أوصال الإمبراطورية التى كانت تهدد بإخضاع اليونان والرومان والألمان والغاليين لحكمها ، وتطبع وجه أوربا وروحها بطابع آسية ، ومحيت اليونان من الوجود .

الفصل الخامس

سقوط رومة

توفيت پلاسيديا فى عام ٤٥٠ ، وانفرد ڤلنتنيان بالملك يخبط فيه خبط عشواء ، وكان من أوخم أخطائه عاقبة أن استمع إلى نصيحة پترونيوس مكسموس فقتل إيتيوس الذى وقف زحف أتلا عند ترويس كما استمع هونوريوس إلى أولمپيوس فقتل استلكو الذى وقف زحف ألريك عند پولنتيا . ولم يكن لڤلنتنيان ولد ذكر ولم يرتح إلى رغبة إيتيوس فى أن يزوج ابنه يودوشيا Budocia ابنة ڤلنتنيان . وانتابت الإمبراطور نوبة جنونية من الغضب فأرسل فى طلب إيتيوس ، وذبحه بيده (٤٥٤) . وقال له رجل من رجال الحاشية : « مولاى ، لقد قطعت يمينك بشمالك » ولم تمض على هذا العمل بضعة أشهر حتى استطاع پترونيوس أن يغرى رجلين من أتباع إيتيوس بقتل ڤلنتنيان ، ولم يهتم أحد بتعقب القاتلين لأن القتل كان قد أصبح من عهد بعيد البديل الوحيد للانتخاب . واختار پترونيوس نفسه للجلوس على العرش ، وأرغم يودكسيا Eudoxia أرملة ڤلنتنيان على أن تتزوجه ، كما أرغم يودوشيا على أن تتزوج ابنه پلاديوس . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال پروكپيوس[٤٨] ، فإن يودكسيا استعانت بجيسريك ، كما استغاثت هونوريا قبل ذلك بأتلا . وكان لدى جيسريك من الأسباب ما يجعله يلبى هذه الاستغاثة : فقد أصبحت رومة غنية مرة أخرى على الرغم من انتهاب ألريك لها ، ولم يكن الجيش الرومانى بالجيش القوى الذى يستطيع الدفاع عن إيطاليا . وأبحر ملك الوندال بأسطول قوى لا يغلب (٤٥٥) ، ولم يقف أحد بينه وبين أستيا Ostia ورومة إلا البابا ليو أعزل ومعه بعض قساوسة رومة . ولم يقو البابا ليو في هذه المرة على

إقناع الفاتح بالارتداد عن رومه ، وكل ما استطاع أن يحصل عليه منه هو وعده بأن يمتنع عن ذبح السكان وتعذيبهم وإحراق المدينة . وأسلمت المدينة أربعة أيام كاملة للجند ينهبون فيها ويسلبون ؛ ونجت الكنائس المسيحية ، ولكن كل ما كان باقياً فى المعابد من كنوز نقل إلى سفن الوندال ، وكان من بين هذه الغنائم المناضد الذهبية ، والماثلات ذات الشعب السبع ، وغيرها من الآنية المقدسة التى جاء بها تيتوس Titus من هيكل سليمان إلى رومة منذ أربعة قرون . ونهب كذلك كل ما كان فى القصر الإمبراطورى من المعادن الثمينة ، والحلى ، والأثاث وكل ما كان باقياً فى بيوت الأغنياء من أشياء ذات قيمة . واتخذ آلافا من الأسرى عبيداً ، وفرق بين الأزواج وزوجاتهم ، وبين الأبناء وآبائهم ، وأخذ جيسريك الإمبراطورة يودكسيا وابنتيهما معه إلى قرطاجنة ، وزوج يودوسيا ابنه هونريك Huneric ؛ وأرسل الإمبراطورة وپلاسيديا (صغرى ابنتيهما) إلى القسطنطينية استجابة لطلب الإمبراطور ليو الأول . ولم يكن انتهاب رومة على هذا النحو فى واقع الأمر تخريبا لا يراعى فيه عرف أو قانون ، بل كان يتفق كل الاتفاق مع الشرائع القديمة للحروب . لقد ثأرت قرطاجنة لنفسها من قسوة رومة عليها فى عام ١٤٦ وكانت فى انتقامها هذا رقيقة رحيمة .

وضربت الفوضى وقتئذ أطنابها فى إيطاليا . ذلك أن خمسين عاما من الغزو والقحط والوباء قد تركت آلاف الضياع مخربة ، وآلاف الأفدنة بورا ؛ ولم يكن هذا لأن تربتها أنهكت من الاستغلال ، بل لأن هذه الأراضى أعوزها الرجال ؛ وأخذ القديس أمبروز (حوالى عام ٤٢٠) يرثى لخراب بولونيا Bologna ومودينا Modena ، وبياسنزا Piacenza ونقص عامرها ، ووصف للبابا جلاسيوس Gelassius (حوالى ٤٨٠) أقاليم واسعة فى شمالى إيطاليا بأنها تكاد تكون مقفرة من الآدميين .

ونقص سكان رومة نفسها من مليون ونصف إلى ثلثمائة ألف فى قرن

واحد (٤٩)؛ واختص الشرق وقتئذ دون غيره بجميع المدائن الكبرى الإمبراطورية . وهجر الناس الكمپانيا Campagna المحيطة برومة والتي كانت من قبل ملأى بالضياع الخصبة والقصور الصغيرة ولجأوا إلى المدن المسورة ليحتموا فيها من غارات الأعداء ؛ وانكمشت المدن نفسها فلم تعد تزيد مساحة أرضها على أربعين فداناً أو نحوها كي تكفي موارد أهلها تسويرها وحمايتها من الأعداء ؛ وكثيراً ما كانت الأسوار تبنى على عجل من أنقاض دور التمثيل والباسلقات والهياكل التي كانت من قبل بهجة المدن الإيطالية وسبب رونقها . على أن رومة قد بقي فيها قليل من الثروة حتى بعد جيسريك ، وانتعشت هي وغيرها من المدن الإيطالية فيما بعد تحت حكم ثيودريك واللمباردين ؛ ولكن الفقر العام الذي حل في عام ٤٧٠ بالحقول والمدن ، وبأعضاء مجلس الشيوخ والعامة على السواء ، سحق أرواح الشعب الذي كان من قبل عظيماً وأذل نفسه ، فملك عليه اليأس والاستسلام قلبه ، وتشكك في الآلهة كلهم عدا پرياپوس Priapus(*) واستولى عليه وجل كوجل الأطفال جعله يهاب تبعات الحياة ، وجُبْنٌ غاضب ثائر يندد بكل استسلام ويفر من جميع الواجبات الحربية ، وكان يصحب هذا الانحطاط الاقتصادي والحيوي عفن ينخر سوسه في جميع طبقات الشعب ، في أرستقراطية في وسعها أن تخدم ولكنها عاجزة عن أن تحكم ، وفي رجال الأعمال المنهمكين في مكاسبهم الشخصية إنهماكاً يحول بينهم وبين العمل لإنقاذ شبه الجزيرة ، وفي قواد ينالون بالرشوة أكثر مما يستطيعون نيله بقوة السلاح ، وبيرقراطية متشعبة متضخمة خربت رواتبها خزائن الدولة ، وفسدت فساداً مستعصياً على العلاج وقصارى القول أن جذع هذه الشجرة العظيمة قد تعفن ، وآن لها أن تسقط .

وتوالت على عرش الإمبراطورية في السنين الأخيرة من حياتها طائفة من

(*) من آلهة الأقدمين وكان يمثل قوة التناسل عند الذكور ويقصد المؤلف بقوله هذا أن همهم كله كان في إشباع شهواتهم الجنسية . (المترجم)

الأباطرة ليس فيهم من هو فوق المتوسط . فقد أعلن القوط فى غالة قائداً لهم يدعى أڤتوس Avitus إمبراطوراً (٤٥٥) ، ولكن مجلس الشيوخ أبى أن يقره ، فاستحال أسقفاً ؛ ولم يدخر ماچوريان Magorian (٤٥٦–٤٦١) جهداً فى إعادة النظام ، ولكن رئيس وزرائه رسمر Ricimer القوطى الغربى أنزله عن العرش . وكان سفيروس (٤٦١ — ٤٥٦) آلة صماء فى يد رسمر يفعل به ما يشاء ، وكان أنثيميوس Antheimus (٤٦٧–٤٧٢) فيلسوفاً نصف وثنى لا يرضى عنه الغرب ؛ فما كان من رسمر إلا أن ضرب عليه الحصار وقبض عليه وأمر بقتله وحكم أوليبريوس Olybrius برعاية رسمر شهرين (٤٧٢) ؛ ثم مات ميتة غريبة فى ذلك الوقت إذ كانت ميتة طبيعية . وسرعان ما خلع جليسريوس (٤٧٣) ، وظلت رومة عامين يحكمها يوليوس نيبوس Julius Nepos . وبينا كانت هذه الأحداث جارية فى ايطاليا ، انقض عليها خليط آخر من البرابرة — الهرولى Heruli ، والاسكيرى Sciri ، والروجى Rugii وغيرهم من القبائل التى كانت من قبل تعترف بحكم أتلا . وقام فى الوقت نفسه پنونيانى Pannonian يدعى أرستيز Orestes فخلع نيپوس ، وأجلس ابنه رميولوس (الملقب أوغسطولس استهزاء به) على العرش (٤٧٥) . وطلب الغزاة الجدد إلى أرستيز أن يعطيهم ثلث إيطاليا ، فلما أبى ذبحوه وأجلسوا قائدهم أدوسر Odoacer على العرش بدل رميولوس (٤٧٦). ولم يكن هذا القائد — وهو ابن إدكون وزير أتلا — مجرداً من الكفايات . وقد بدأ بأن جمع مجلس الشيوخ المرتاع ، وعن طريقه عرض على زينون Zeno الإمبراطور الجديد فى الشرق أن تكون له السيادة على جميع الإمبراطورية على شرط أن يحكم أدوسر إيطاليا بوصفه وزيراً له ، ورضى زينون بهذا العرض وانتهت بذلك سلسلة الأباطرة الغربيين .

ويبدو أن أحداً من الناس لم يرى فى هذا الحادث « سقوطاً لرومة » بل بدا لهم على عكس هذا أنه توحيد مبارك للإمبراطورية وعودتها إلى ما كانت عليه .

فى عهد قسطنطين . وقد نظر مجلس الشيوخ فى رومة إلى المسألة هذه النظرة ، وأقام فى رومة تمثالا لزينون ، ذلك أن اصطباغ الجيش ، والحكومة ، والزراع ، فى إيطاليا بالصبغة الألمانية قد ظل يجرى زمناً بلغ من طوله أن بدت معه النتائج السياسية تحولا عديم الشأن على سطح الحياة القومية .

أما الحقيقة التى لا نزاع فيها فهى أن أدوسر كان يحكم إيطاليا بوصفه ملكاً عليها دون أن يعبأ بزينون . ذلك أن الألمان قد فتحوا فى واقع الأمر إيطاليا ، كما فتح جيسريك أفريقية ، وكما فتح القوط الغربيون أسپانيا ، وكما كان الإنجليز والسكسون يفتحون بريطانيا ، والفرنجة يفتحون غالة . ولم يعد للإمبراطورية العظمى فى الغرب وجود .

وترتبت على فتوح البرابرة هذه نتائج لا حصر لها ، لقد كان معناها من الناحية الاقتصادية تحول الحياة من المدن إلى الريف . ذلك أن البرابرة كانوا يعيشون على الحرث ، والرعى ، والصيد ، والحرب ، ولم يكونوا قد تعلموا بعد الأعمال التجارية المعقدة التى تنتعش بها المدن ؛ وكان انتصارهم إيذاناً بالقضاء على الصبغة المدنية للحضارة الغربية قضاء دام سبعة قرون . وأما من الوجهة العنصرية فإن هجرات البرابرة المتعددة أدت إلى امتزاج جديد بين العناصر البشرية — وإلى دخول دم ألمانى غزير فى إيطاليا ، ودم غالى فى أسپانيا ، ودم أسيوى فى روسيا والبلقان وبلاد المجر . ولم يعد هذا الامتزاج القوة والنشاط إلى الإيطاليين أو الغاليين بطريقة خفية معجزة الدرك ، بل إن ما حدث لم يزد على إفناء الأفراد والسلالات الضعيفة بسبب الحروب وغيرها من ضروب التنافس ، وعلى اضطرار كل إنسان لأن ينمى قوته ، وحيويته ، وشجاعته ، وصفات الرجولة التى طمس معالمها طول الاستسلام إلى الأمن والسلام ؛ وعلى تأثير الفقر فى عودة أساليب للحياة أصح وأكثر بساطة من الأساليب التى ولدها ترف المدن واعتماد الأهلين على الأرزاق التى تقدمها لهم الحكومة .

وأما من الوجهة السياسية فقد أحلت الفتوح صورة دنيا من الملكية محل صورة عليا منها . فقد زادت من سلطان الأفراد وقللت من سلطان القوانين ومن اعتماد الناس عليها لحمايتهم : واشتدت النزعة الفردية وازداد العنف : وفى الناحية التاريخية حطمت الفتوح الهيكل الخارجى لذلك الجسم الذى تعفن من الداخل ، وأزالت من الوجود ، بوحشية يؤسف لها ، نظاما من نظم الحياة ، شاخ ووهن وبلى ، وفقد كل قدرة على التجدد والنماء ، رغم ما كان فيه من فضائل النظام والثقافة ، والقانون ؛ وبهـذا أصبح من المستطاع أن تبدأ حياة جديدة غير متأثرة بالماضى . فانمحت إمبراطورية الغرب ولكن دول أوربا الحديثة قد ولدت — لقد دخل إيطاليا قبل المسيح بألف عام غزاة من الشمال ، أخضعوا أهلها لسلطانهم ، وامتزجوا بهم وأخذوا عنهم حضارتهم ، وبنوا وإياهم فى خلال ثمانية قرون حضارة جديدة ، وبعد المسيح بأربعمائة عام تكررت العملية نفسها ، ودارت عجلة التاريخ دورة كاملة ، وكانت البداية هى نفس النهاية ، ولكن النهاية كانت على الدوام بداية :

الباب الثالث

تقــــدم المسيحية

٣٦٤ – ٤٥١

احتضنت الكنيسة الحضارة الجديدة وبسطت عليها حمايتها . ذلك بأن جيشاً فذاً من رجال الكنيسة قام ليدافع بنشاط ومهارة عن الاستقرار الذى عاد إلى الوجود ، وعن الحياة الصالحة بعد أن اندكت معالم النظام القديم فى غمار الفساد والجبن والإهمال . وكانت مهمة المسيحية من الناحية التاريخية هى أن تعيد الأسس الكريمة للأخلاق وللمجتمع بما تفرضه من مثوبة ومعونة إلهيتين لمن يعملون وفق قواعد النظام الاجتماعى وإن خالفت أهواءهم أوكان فيها مشقة عليهم وأن تغرس فى نفوس البرابرة الهمج السذج مُثُلاً للسلوك أرق وأجمل من مثلهم الأولى ، عن طريق عقيدة تكونت تكوناً تلقائياً من الأساطير والمعجزات ، ومن الخوف والأمل والحب . لقــد كان الدين الجديد يجاهد للاستحواذ على عقول الخلق المتوحشين أو المنحلين الفاسدين وأن يُقيم منها دولة دينية عظمى تؤلف بينهم وتجمع ما تفرق من شملهم ، كما كان يجمعهم سحر اليونان أو عظمة الرومان . وإن فى هذا الجهاد لعظمة لا تقل عما نجده فى سير أبطال الملاحم وإن لوثته الخرافة والقسوة ، وليست النظم والعقائد إلا وليدة الحاجات البشرية ؛ فإذا شئنا أن نفهم هذه النظم والعقائد على حقيقتها وجب أن ندرسها فى ضوء هذه الحاجات .

الفصل الأول

تنظيم الكنيسة

إذا كان الفن هو تنظيم المادة فإن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أروع الآثار الفنية في التاريخ . ذلك أنها قد استطاعت أن تؤلف بين اتباعها المؤمنين برسالتها خلال تسعة عشر قرنا كلها مثقلة بالأزمات الشداد ، وأن تسير وراءهم إلى أطراف العالم وتقوم على خدمتهم ، وتكون عقولهم ، وتشكل أخلاقهم ، وتشجعهم على التكاثر ، وتوثق عقود زواجهم ، وتواسيهم في الملمات والأحزان ، وتسمو بحياتهم الدنيوية القصيرة فتجعل منها مسرحية أبدية ، وتستغل مواهبهم ، وتتغلب على كل ما يقوم في وجهها من زيغ وثورة ، وتعيد بناء كل ما يتحطم من سلطانها في صبر وأناة . ترى كيف نشأ هذا النظام الرائع الجليل ؟

لقد قام هذا النظام على ما كان هناك من خواء روحي يعانيه الرجال والنساء الذين أنهكهم الفقر ، وأضناهم الشقاق والنزاع ، وأرهبتهم الطقوس الخفية التي لا يدركون كنهها ، وتملكهم الخوف من الموت . وقد بعثت الكنيسة في أرواح الملايين من البشر إيماناً وأملا حببا إليهم الموت وجعلاه أمراً مألوفاً لديهم . ولقد أصبح هذا الإيمان أعز شيء عليهم يموتون في سبيله ويقتلون غيرهم من أجله ، وعلى صخرة الأمل هذه قامت الكنيسة . وكانت في بادئ أمرها هيئة بسيطة من المؤمنين تختار لها واحدا أو أكثر من الكبراء أو القساوسة ليرشدها ، وواحداً أو أكثر من القراء ، والسدنة ، والشمامسة ، ليساعدوا الكاهن . ولما كثر عدد العابدين ، وتعقدت شئونهم ، اختاروا لهم في كل مدينة قساً سموه إيسكوپس episcopos أي مشرفاً أو أسقفاً لينسق هذه الشئون . ولما زاد عدد الأساقفة أصبحوا هم أيضاً في حاجة إلى من يشرف على أعمالهم وينسقها ؛ ولهذا بدأنا نسمع

فى القرن الرابع عن كبار الأساقفة ، أو المطارنة المشرفين على الأساقفة والمسيطرين على الكنائس فى ولاية بأكملها . وكان يحكم هذا الطبقات من رجال الدين بطارقة يقيمون فى القسطنطينية ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية ، وروما . وكان الأساقفة وكبار الأساقفة يجتمعون بناء على دعوة البطرق أو الإمبراطور فى المجمع المقدس ، فإذا كان هذا المجمع لا يمثل إلا ولاية بمفردها سمى مجمع الولاية ، وإذا كان يمثل الشرق أو الغرب سمى المجمع الكلى ، وإذا ما مثلهما جميعاً كان مجمعاً عاما ، وإذا ما كانت قراراته ملزمة لجميع المسيحيين كان هو المجمع الأكبر . وكانت الوحدة الناشئة من هـــذا النظام هى التى أكسبت الكنيسة اسم الكاثوليكية أو العالمية .

وكان هذا النظام الذى تعتمد قوته فى آخر الأمر على العقيدة والهيئة يتطلب شيئاً من تنظيم الحياة الكنسية . ولم يكن يطلب إلى القس فى الثلاثة القرون الأولى من المسيحية أن يظل أعزب ، وكان فى مقدوره أن يحتفظ بزوجته إذا كان قد تزوج بها قبل رسامته ، ولكنه لم يكن يجوز له أن يتزوج بعد أن يلبس الثياب الكهنوتية ، ولم يكن يجوز لرجل تزوج باثنتين أو بأرملة ، أو طلق زوجته أو اتخذ له خليلة ، أن يصبح قسيساً . وكان فى الكنيسة ، كما كان فى معظم الهيئات المنظمة متطرفون يزعجونها بتطرفهم ، من ذلك أن بعض المتحمسين من المسيحيين ، فى ثورتهم على ما كان فى أخلاق الوثنيين من إباحية جنسية ، استنتجوا من فقرة إحدى رسائل القديس بولس أن كل اتصال بين الجنسين خطيئة ، ولذلك كانوا يعارضون فى الزواج بوجه عام ، وتستك مسامعهم من الهلع إذا سمعوا أن قساً تزوج . وقد أعلن مجلس جنجرا Gengra الدينى (حوالى ٣٦٢) أن هذه الآراء لا تتفق مع الدين ، ولكن الكنيسة مع ذلك ظلت تطالب

قساوستها وتلح عليهم إلحاحا متزايداً أن يظلوا بلا زواج . ولقد ظلت الأملاك توهب للكنائس ويزداد مقدارها زيادة مطردة ، وكان يحدث من آن إلى آن أن يوصى لقس متزوج ، وأن ينتقل المال الموصى له إلى ذريته من بعده . وكان زواج رجال الدين يؤدى في بعض الأحيان إلى الزنى أو غيره من الفضائح ، وإلى انحطاط مكانة القس فى أعين الشعب ، ولهذا فإن مجمعا مقدساً عقد فى عام ٣٨٦ أشار على رجال الدين بالعفة المطلقة ، وبعد عام من ذلك الوقت أمر البابا سريسيوس Siricius بتجريد كل قس يتزوج أو يبقى مع زوجته التى تزوج بها من قبل . وأيد جيروم ، وأمبروز ، وأوغسطين هذا المرسوم بقواتهم الثلاث ، وبعد أن لقى مقاومة متفرقة ، دامت جيلا بعد جيل من الزمان ، نفذ فى الغرب بنجاح قصير الأجل .

وكانت أخطر المشاكل التى لاقتها الكنيسة ، والتى تلى فى خطورتها مشكلة التوفيق بين مثلها العليا وبقائها ، هى الوسيلة التى تمكنها من الحياة مع الدولة ذلك أن قيام نظام كهنوتى إلى جانب موظفى الحكومة كان من شأنه أن يخلق نزاعا على السلطة لا يسود معه سلم إلا إذا خضعت إحدى الهيئتين للأخرى ؛ فأما فى الشرق فقد خضعت الكنيسة ، وأما فى الغرب فقد أخذت تحارب دفاعا عن استقلالها ، ثم أخذت بعدئذ تحارب تأييداً لسيادتها على الدولة . وكان اتحاد الكنيسة والدولة فى كلتا الحالتين يتضمن تعـديلا أساسيا فى المبادئ الأخلاقية المسيحية . من ذلك أن ترتليان Tertullian وأرجن Origen ، ولكتنتيوس Lactantius كانا يعلمان من قبل أن الحرب غير مشروعة فى جميع الأحوال ، أما الآن فإن الكنيسة ، وقد أصبحت تحت حماية الدولة ، قد رضيت بالحروب التى تراها ضرورية لحماية الدولة أو الكنيسة ، وكانت الكنيسة نفسها عاجزة

عن اصطناع القوة ، ولكنها إذا رأت أن القوة لازمة لها كانت تلجأ إلى القوة الدنيوية لفرض إرادتها . وكانت تتلقى من الدولة ومن الأفراد هبات قيمة من المال ، والمعابد والأراضي ، فأثرت وأصبحت فى حاجة إلى الدولة لتحمى كل ما كان لها من حقوق الملكية ، وظلت تحتفظ بثروتها حتى بعد أن سقطت الدولة . ذلك أن الفاتحين البرابرة ، مهما كان خروجهم على الدين ومخالفة أوامره قلما كانوا ينهبون الكنائس أو يجردونها من أملاكها لأن سلطان القول أصبح بعد قليل يضارع سلطان السيف ...

الفصل الثانى

المـــارقون

لقد كان أشق الواجبات التى واجهها التنظيم الكنسى هو منع تفتت الكنيسة بسبب تعدد العقائد المخالفة لتعاريف العقيدة المسيحية كما قررتها المجالس الدينية . ولم تكد الكنيسة تظفر بالنصر على أعدائها حتى امتنعت عن المناداة بالتسامح ، فكانت تنظر إلى الفردية فى العقيدة بنفس النظرة المعادية التى تنظر بها الدولة إلى الانشقاق عنها أو الثورة عليها ، ولم تكن الكنيسة ولا الخارجون عليها يفكرون فى هذا المروق على أنه مسألة دينية خالصة ، وكان المروق فى كثير من الحالات مظهراً فكرياً لثورة محلية تهدف إلى التحرر من سلطان الإمبراطورية فاليعقوبيون Monophsityes كانوا يريدون أن يحررا سوريا ومصر من سيطرة القسطنطينية وكان الدوناتيون(*) يرجون أن يحرروا أفريقية من نير رومة ، وإذ كانت الكنيسة والدولة قد توحدتا فى ذلك الوقت ، فقد كان الخروج على إحداهما خروجاً على الاثنتين معاً . وكان أصحاب العقيدة الدينية الرسمية يقاومون القومية ، كما كان المارقون يؤيدونها ويدافعون عنها ، وكانت الكنيسة تعمل جاهدة للمركزية وللوحدة ، أما المارقون فكانوا يعملون فى سبيل الاستقلال المحلى والحرية .

وأحرزت الآريوسية نصراً مؤزراً بين البرابرة بعد أن غلبت على أمرها فى داخل الإمبراطورية . وكانت المسيحية قد جاءت إلى القبائل التيوتونية على أيدى

(*) شيعة مسيحية قامت فى أفريقية فى القرنين الرابع والخامس كانت تعارض فى كل ما ينقص من الاحترام الواجب لشهداء الكنيسة ، وتعامل الخاطئين بمنتهى القسوة ، وتعيد تعميد من يعتنقون مبادئها من أتباع الكنيسة الكاثوليكية . وهى تنتسب إلى دوناتس Donatus أحد زعمائها . (المترجم)

الأسرى الرومان الذين قبض عليهم القوط أثناء غزوهم آسية الصغرى فى القرن الثالث . ولم يكن « الرسول » ألفلاس Alfilas (٣١١ ؟ — ٣٨١) رسولا بالمعنى الصحيح لهذا اللفظ ، بل كان من أبناء أسير مسيحى من كبدوكية ، ولد بين القوط الذين كانوا يعيشون فى شمال نهر الدانوب وتربى بين ظهرانيهم . وفى عام ٤٣١ رسمه يوسبيوس مطران نقوميديا الأريوسى أسقفا عليهم . ولما اضطهد أثنريك Athanaric الزعيم القوطى من كان فى أملاكه من المسيحيين أذن قنسطنطيوس الأريوسى لألفلاس أن يعبر بالجالية القوطية المسيحية القليلة العدد نهر الدانوب ، وينزلها فى تراقية ، وأراد أن يعلم معتنقى دينه من القوط أصول هذا الدين ، وأن يكثر عددهم ، فترجم فى صبر وأناة جميع أسفار الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية ما عدا أسفار الملوك فقد حذفها لأنها فى رأيه ذات نزعة عسكرية خطرة ؛ وإذ لم يكن للقوط وقتئذ حروف هجائية يكتبون بها ، فقد وضع لهم هذه الحروف معتمداً فى وضعها على الحروف اليونانية . وكانت ترجمته هذه أول عمل أدبى فى جميع اللغات التيوتونية . ووثق القوط بحكمة ألفلاس واستقامته لشدة إخلاصه وتمسكه بأهداب الفضيلة ، ثقة حملتهم على أن يقبلوا مبادئه المسيحية الأريوسية دون مناقشة . وإذا كان غير هؤلاء من البرابرة قد تلقوا أصول المسيحية فى القرنين الرابع والخامس عن القوط أنفسهم ، فقد كان جميع من غزوا الإمبراطورية ، إلا قليلا منهم ؛ من الأريوسيين ، كما كانت الممالك الجديدة ، التى أقامها فى البلقان ، وغالة وأسبانيا ، وإيطاليا ؛ وأفريقية أريوسية من الناحية الرسمية . ولم يكن الفرق بين دين الغالبين والمغلوبين إلا فرقاً ضئيلا : ذلك أن أتباع الدين القويم كانوا يعتقدون أن المسيح مطابق فى كينونته (homoousios) لله الأب ، أما الأريوسيون فكانوا يعتقدون أنه مشابه لا أكثر ، فى كينونته (homorousios) لله الأب . ولكن هـــذا الفرق الضئيل أصبح عظيم الأثر فى الشئون السياسية فى القرنين الخامس والسادس . وبفضل تتابع الحوادث على هذا النحو ثبتت الأريوسية حتى غلبيه

الفرنجة أتباعُ الدين القويم القوطَ الغربيين فى غالة ، وفتح بلساريوس Belisarius أفريقية الوندالية ، وإيطاليا القوطية ، وغير ريكارد Recared (٣٨٩) عقيدة القوط الغربيين فى أسپانيا .

وليس فى وسعنا الآن أن نشغل أنفسنا بجميع العقائد الدينية المختلفة التى كانت تضطرب بها الكنيسة فى تلك الفترة من تاريخها — عقائدُ اليونوميين Eunomians والأنوميـــين Anomeans والأبليناريين Appollinarians والمقدونيين ، والسبليين Sabellians ، والمساليين Maasalians ، والنوفاتيين Norvatians ، والبرسليانيين Priscillianists ، وكل ما فى وسعنا أن نفعله هو أن نرثى لهذه السخافات التى امتلأت بها حياة الناس ، والتى ستظل تملؤها فى المستقبل . ولكن من واجبنا أن نقول كلمة عن المانية Manicheism تلك العقيدة التى لم تكن مروقا من المسيحية بقدر ما كانت ثنائية فارسية تجمع بين الله والشيطان ، والخير والشر ، والضوء والظلام . وقد حاولت أن توفق بين المسيحية والزردشتية ، ولكن الدينين قاوماها مقامة شديدة . وقد واجهت هذه العقيدة بصراحة منقطعة النظير مشكلة الشر ، وما فى العالم الذى تسيطر عليه العناية الإلهية من عذاب وآلام كثيرة يبدو أن من ينوءون بها لا يستحقونها ، وشعرت بأن ليس أمامها إلا أن تفترض وجود روح خبيثة ، أزلية ، كالروح الخيرة . واعتنق المانية كثيرون من الناس فى الشرق والغرب ، ولجأ بعض الأباطرة فى مقاومتها إلى وسائل غاية فى القسوة ، وعدها جستنيان من الجرائم الكبرى التى يعاقب عليها بالإعدام ؛ ثم ضعف شأنها شيئاً فشيئاً وأخذت فى الزوال ، إلا أنها تركت بعض آثارها فى بعض الطوائف المارقة المتأخرة كالپوليسية Paulicians ، والبجوميلية Bogomiles ، والألبجنسـية Albegensians . وقد اتهم أسقف أسبانى يدعى پرسليان Pricilian فى عام ٣٨٥ بأنه يدعو إلى المانية وإلى العزوبة العامة ؛ وأنكر الرجل التهمة ، ولكنه

حوكم أمام مكسموس الإمبراطور المغتصب فى ترير ، وكان اللذان اتهماه اثنين من الأساقفة ، وأدين الرجل وحرق هو وعدد من رفاقه فى عام ٣٨٥ بالرغم من احتجاج القديسين أمبروز ومارتن .

وبينما كانت الكنيسة تواجه كل أولئك المهاجمين ، إذ وجدت نفسها يكاد يغمرها سيل المارقين الدوناتيين فى أفريقية . وتفصيل ذلك أن دوناتوس Donatus ، أسقف قرطاجنة (٣١٥) ، كان قد أنكر ماللعشاء الربانى الذى يقدمه القساوسة من أثر فى الخطيئة ، ولم تشأ الكنيسة أن تنتزع من رجالها هذه الميزة الكبيرة فهدتها حكمتها إلى عدم الأخذ بهذه الفكرة . ولكن هذه العقيدة المارقة أخذت تنتشر على الرغم من هذا انتشاراً سريعاً فى شمالى أفريقية ؛ وتحمس لها الفقراء من الأهلين ، واستحال هذا الانحراف الدينى إلى ثورة اجتماعية ، وغضب الأباطرة أشد الغضب على هذه الحركة ، وأصدروا المراسيم المتعاقبة ضد من يستمسكون بها ، وفرضوا عليهم الغرامات الفادحة ، وصادروا أملاكهم ، وحرموا على الدوناتيين حق التصرف فيما يمتلكون بالبيع أو الشراء أو الوصية ، وأخرجهم جنود الأباطرة من كنائسهم بالقوة ، وأعطيت هذه الكنائس للقساوسة أتباع الدين القويم . وسرعان ما تألفت عصابات مسيحية — شيوعية فى آن واحد — وسميت باسم الجوابين Circumcelliones ؛ وأخذت تندد بالفقر والاسترقاق ، فألغت الديون ، وحررت الرقيق ، وحاولت أن تعيد المساواة المزعومة التى كان يتمتع بها الإنسان البدائى . وكانوا إذا قابلوا عربة يجرها عبيد ، أركبوا العبيد العربة ، وأرغموا سيدهم على أن يجرها خلفه . وكانوا يقنعون عادة بالسرقة وقطع الطريق على المارة ، ولكنهم كانوا فى بعض الأحيان يغضبون من المقاومه ، فيعمون أعين أتباع الدين القويم أو أعين الأغنياء بمسحها بالجير ، أو يضربونهم بالعصى الغليظة حتى يموتوا . وكانوا إذا واجهوا الموت ابتهجوا به لأنه يضمن لهم الجنة . واستبد بهم التعصب الدينى آخر الأمر ، فكانوا يسلمون أنفسهم إلى ولاة

الأمور معترفين بأنهم مارقون من الدين ، ويطالبون بالاستشهاد . وكانوا يعترضون السابلة ، ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ، ولما أن تعب أعداؤهم أنفسهم من إجابتهم إلى ما يريدون أخذوا يطلبون الموت بالقفز في النيران المتقدة أو بإلقاء أنفسهم من فوق الأجراف العالية ، أو بالمشى فوق ماء البحر[٢] . وحارب أوغسطين الدوناتيين بكل ما كان لديه من الوسائل ، وبدا فى وقت من الأوقات أنه قد تغلب عليهم ؛ ولكن الدوناتيين عادوا إلى الظهور أكثر مما كانوا عددا حين جاء الوندال إلى أفريقية ، وسروا أعظم السرور لطرد قساوسة الدين القويم . وبقى الحقد الطائفى يأكل الصدور ، وينتقل من الأبناء إلى الآباء ، وهو أشد ما يكون قوة ، حتى جاء العرب إلى أفريقية فى عام ٦٧٠ فلم يجدوا فى البلاد قوة متحدة تقف فى وجههم .

وكان بلاجيوس Pelagius فى هذه الأثناء يثير قارات ثلاثاً بهجومه على عقيدة الخطيئة الأولى ، كما كان نسطوريوس يطلب الاستشهاد بما يجهر به من شكوك فى أم المسيح ، وكان نسطوريوس فى بدء حياته من تلاميذ ثيودور المبسوستيائى Theodore of Mopsuestia (٣٥٠ ؟ — ٤٢٨ ؟) الذى كاد أن يبتدع النقد الأعلى للكتاب المقدس . وكان من أقوال ثيودور هذا أن سفر أيوب إن هو إلا قصيدة مأخوذة بتعديل من مصادر وثنية ، وأن نشيد الإنشاد إن هو إلا إحدى أغانى الفرس ذات معنى شهوانى صريح ؛ وأن الكثير من نبوءات العهد القديم التى يزعم الزاعمون أنها تشير إلى يسوع ، لا تشير إلا إلى حوادث وقعت قبل المسيحية ؛ وأن مريم ليست أم الله ، بل هى أم الطبيعة البشرية فى يسوع[٣] . ورفع نسطوريوس نفسه إلى كرسي الأسقفية فى القسطنطينية (٤٢٨) ، والتفت حوله الجموع لفصاحته وذلاقة لسانه ، ولكنه خلق له أعداء بتعسفه فى عقائده ، وأتاح الفرصة لهؤلاء الأعداء بقبوله فكرة ثيودور غير الكريمة فى مريم . وكانت كثرة المسيحيين تقول : إذا كان المسيح إلها ، كانت مريم قد حملت فى الله theotokos

أى أنها أم الله ؛ ولكن نسطوريوس يقول إن هذا أكثر مما يطيق ويرد عليهم بقوله إن مريم لم تكن أم الطبيعة الإلهية فى المسيح بل أم طبيعته البشرية ، وإن خيراً من تسميتها بأم الله أن تسمى أم المسيح .

وألقى سيريل Cyril ، كبير أساقفة الإسكندرية ، موعظة فى يوم عيد القيامة من عام ٤٢٩ أعلن فيها العقيدة التى تدين بها كثرة المسيحيين ، وهى أن مريم ليست أم الله الحق بل هى أم كلمة الله ، المشتملة على طبيعتى المسيح الإلهية والبشرية معاً[٤] . واستشاط البابا سلستين Celestine الأول غضباً على أثر رسالة تلقاها من سيريل فعقد مجلساً فى رومة (٤٣٠) ، طالب بأن يرجع نسطوريوس عن آرائه أو يعزل من منصبه . فلما رفض نسطوريوس كلا المطلبين اجتمع فى إفسوس (٤٣١) مجلس عام ، لم يعزل نسطوريوس فحسب بل حرمه أيضاً من الكنيسة المسيحية ، واحتج على ذلك كثيرون من الأساقفة ، ولكن أهل إفسوس قاموا بمظاهرات صاخبة يعلنون فيها ابتهاجهم بقرار الحرمان ، وكانت مظاهرات أحيت بلا ريب ذكريات ديانا — أرتميس . وسمح لنسطوريوس أن يرتحل إلى أنطاكية ، ولكنه وهو فيها ظل يدافع عن آرائه ، ويطالب بالعودة إلى منصبه ، فنفاه الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى واحة فى صحراء ليبيا ، بقى فيها سنين كثيرة ، حتى أشفقت عليه حاشية الإمبراطور فى الدولة الشرقية فبعثت إليه بعفو إمبراطورى . فلما جاءه الرسول وجده يحتضر (حوالى ٤٥١) وانتقل أتباعه من بعده إلى شرق سوريا ، وشادوا لهم كنائس وأنشأوا مدرسة لتعليم مذهبهم فى الرها وترجموا التوراة وكتب أرسطو وجالينوس إلى اللغة السريانية ، وكان لهم شأن أيما شأن فى تعريف المسلمين بعلوم اليونان وطبهم وفلسفتهم . ولما اضطهدهم الإمبراطور زينون انتقلوا إلى فارس وأنشأوا مدرسة عظيمة الأثر فى نصيبين . وعلا شأنهم بسبب اضطهاد الفرس لهم ، وتكونت منهم جماعات فى بلخ وسمرقند وفى الهند والصين ؛ ولا يزالون حتى الآن يعيشون جماعات متفرقة فى آسية ، ولا يزالون ينكرون عبادة مريم .

وكانت آخر الشيع المارقة الكبرى فى ذلك العصر المضطرب وأعظمها أثراً فى تاريخ المسيحية هى التى أنشأها أوتيكيس Eutyches رئيس دير قريب من القسطنطينية . وكان أوتيكيس هذا يقول إن المسيح ليست له طبيعتان بشرية وإلهية ، بل إن له طبيعة واحدة هى الطبيعية الإلهية . ودعا فلاڤيان Flavian بطريق القسطنطينية مجمعاً محليا مقدساً أنكر هذه البدعة القائلة بالطبيعة الواحدة ، وحرم أوتيكيس من الكنيسة المسيحية . ولجأ الراهب إلى أسقف الإسكندرية وروما ؛ وأقنع ديوسكوراس ، الذى خلف سيريل ، الإمبراطور ثودوسيوس بأن يدعو مجاساً آخر فى إفسوس (٤٤٩) . وكان الدين وقتئذ خاضعاً للسياسة ؛ وكان كرسى الإسكندرية لا يزال يعارض كرسى القسطنطينية ؛ فبرئ أوتيكيس وهوجم فلاڤيان هجوماً خطابياً عنيفاً قضى على حياته(٥) . وأصدر المجلس قراراً بلعنة كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح . ولم يحضر البابا ليو الأول المجلس ، ولكنه بعث إليه بعدة رسائل يؤيد فيها فلاڤيان . وارتاع ليو من التقرير الذى أرسله إليه مندوبوه ، فأطلق على هذا المجلس اسم « مجمع اللصوص » وأبى أن يوافق على قراراته ثم عقد مجلس آخر فى خلقيدون Chalcedon عام ٤٥١ أيدى استحسانه لرسائل ليو وسخطه على أوتيكيس ، وأيد من جديد ازدواج طبيعة المسيح . ولكن القاعدة الثامنة والعشرين من القواعد التى أقرها المجلس أكدت مساواة سلطة أسقف القسطنطينية لسلطة أسقف رومة . وكان ليو قبل ذلك يدافع عن حقه فى أن تكون لكرسيه السلطة العليا لأنه يرى ذلك ضرورياً لوحدة الكنيسة وسلطانها . ولذلك رفض هذه القاعدة وبدأ بذلك نزاع طويل الأمد بين الكرسيين .

وزاد الاضطراب حتى أوفى على غايته حين رفضت كثرة المسيحيين فى سوريا ومصر عقيدة الطبيعتين فى شخص المسيح المفرد ، وظل رهبان سوريا يعلمون الناس عقائد اليعقوبيين ، ولما أن عين أسقف لكرسى الإسكندرية من أتباع الدين القويم قتل ومزق جسمه إرباً فى كنيسته فى يوم الجمعة الحزينة(٦) . وأصبحت

اليعقوبية من ذلك الحين الدين القومى لمصر واثيوبيا المسيحيتين ، ولم يحل القرن السادس حتى كانت لها الغلبة فى غربى سوريا ، وأرمينية ، بينما انتشرت النسطورية فيما بين النهرين وشرقى سوريا . وكان نجاح الثورة الدينية من أكبر العوامل فى نجاح الثورة السياسية ؛ ولما تدفق سيل العرب الجارف على مصر والشرق الأدنى فى القرن السابع رحب بهم نصف سكانهما ورأوا فيهم محررين لهم من استبداد العاصمة البيزنطية الدينى والسياسى والمالى .

الفصل الثالث

الغرب المسيحى

(ا) رومـــة

لم يظهر أساقفة رومة فى القرن الرابع بالمظهر الذى يشرف الكنيسة ، ويعلى من قدرها . فهاهو ذا سلفستر (٣١٤ — ٣٣٥) يعزى إليه فضل اعتناق قسطنطين المسيحية . ثم تقول الطائفة التقية المتدينة إنه تلقى من قسطنطين هبته المعروفة « بعطية قسطنطين » وهى غرب أوربا بأكمله تقريباً ، ولكنه لم يسلك مسلك من يمتلك نصف عالم الرجل الأبيض . وقد أكد يوليوس الأول (٣٣٧ — ٣٥٢) سلطة كرسى رومة العليا ، ولكن ليبريوس (٣٥٢ — ٣٦٦) خضع بسبب شيخوخته أو ضعفه إلى أوامر قسطنطين الأريوسية . ولما مات تنازع دماسوس Damasus ويورنسوس Urinsus البابوية ، وانقسم الغوغاء أيضاً فى تأييد المتنازعين بكل ما عرفته تقاليد الدمقراطية الرومانية من عنف يستطيع القارئ أن يتصوره إذا عرف أنه قتل فى يوم واحد وفى كنيسة واحدة ١٣٧ شخصاً فى نزاع قام بين أنصار الرجلين(٧) . وقد أدى هذا إلى أن نفى بريتكستاتوس ، حاكم رومة الوثنى ، يورنسوس منها ، فاستتب الأمر لدماسوس وظل يصرف الشئون الدينية بغير قليل من المتعة والحذق . وكان الرجل من علماء الآثار ، فأخذ يزين قبور الشهداء الرومان بالنقوش الجميلة ، وكان كما يقول بعض الوقحين ، من الذين « يخدشون آذان السيدات » أى أنه كان بارعاً فى جلب الهدايا إلى الكنيسة من نساء رومة الموسرات(٨) .

وجلس ليو الأول ، الملقب بليو الأكبر ، على عرش بطرس خلال جيل (٤٠٠ — ٤٦١) من الأزمات ، استطاع فيه بشجاعته وحسن سياسته أن يزيد

سلطة الكرسي الرسولي وهيبته . ولما أن رفض هيلارى أسقف پواتييه Hilary of Poitiers أن يذعن لحكمه فى نزاع شجر بينه وبين أسقف غالى آخر ، أرسل إليه ليو أوامر حاسمة عاجلة ، أيدها الإمبراطور فلنتنيان الثالث بمرسوم من أهم المراسيم الإمبراطورية يؤكد فيه سلطة أسقف رومة على جميع الكنائس المسيحية ، واعترف أساقفة الغرب بوجه عام بهذه السلطة العليا ، أما أساقفة الشرق فقاوموها . وقال بطارقة القسطنطينية وأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية إن لهم من السلطة ما لكرسي رومة ، وظل الجدل العنيف قائماً بين الكنائس الشرقية ، وكانت فى خلاله لا تطيع أوامر أسقف رومة إلا فى القليل النادر . واجتمعت صعاب النقل والاتصال مع اختلاف اللغة فزادت الفرقة بين الكنيسة الشرقية والغربية . لكن بابوات الغرب أخذوا يزيدون من نفوذهم حتى فى غير الشئون الدينية . لقد كانوا يخضعون فى غير الشئون الدينية إلى الدولة الرومانية وإلى حكام رومة ، وظلوا حتى القرن السابع يطلبون إلى الإمبراطور أن يعتمد اختيارهم لمنصبهم الديني . ولكن بعدهم عن أباطرة الشرق وضعف حكام الغرب قد تركا البابا صاحب السلطان الأعلى فى رومة ؛ ولما أن فر أعضاء مجلس الشيوخ وفر الإمبراطور من وجه الغزاة ، وتقوضت دعائم الحكومه المدنية ، وظل البابوات فى مناصبهم لم يرهبهم شيء من هذا كله ، لما حدث هذا ارتفعت مكانتهم إرتفاعاً سريعاً ، وزادت هيبتهم . ولما اعتنق البرابرة الغربيون المسيحية زاد ذلك من سلطة كرسي رومة ونفوذه زيادة كبرى .

ولما تركت الأسر الغنية والأرستقراطية الدين الوثني واعتنقت المسيحية كان للكنيسة الرومانية نصيب متزايد من الثروة التي جاءت إلى عاصمة الدولة الغربية ، ولشد ما دهش أميانوس حين وجد أن أسقف رومة يعيش عيشة الأمراء فى قصر لاتران Lateran ، ويمشي فى المدينة بمظاهر الأبهة الإمبراطورية[٩]. وازدانت المدينة وقتئذ بالكنائس الفخمة ، ونشأ فيها مجتمع ديني راق اختلط فيه رجال

الذين الظرفاء اختلاطاً ممتعاً بالغانيات الموسرات ، وساعدوهن على أن يكتبن وصاياهن .

وكانت جمهرة الشعب المسيحى تشترك مع البقية الباقية من الوثنيين فى مشاهدة التمثيل والسباق والألعاب ، ولكن أقلية منهم حاولت أن تحيا حياة تتفق مع ما جاء فى الأناجيل . وكان أثناسيوس قد جاء إلى رومة براهبين مصريين ، وكتب ترجمة لحياة أنطونيوس ، وكان روفينوس Rufinus قد نشر فى الغرب تاريخ الأديرة فى الشرق ، فتأثرت عقول أتقياء المسيحيين بما ذاع عن تدين أنطونيوس ، وشنوده ، وباخوم ، وأنشأ سكستوس الثالث Sextus III (٤٣٢ — ٤٤٠) وليو الأول أديرة فى رومة ، ورضيت كثير من الأسر أن تحيا حياة العفة والفقر التى يحياها الرهبان فى الأديرة ، وإن ظلت تقيم فى منازلها . وخرجت كثير من السيدات ذوات الثراء مثل مرسلا Marcella ، وبولا ، وثلاثة أجيال من أسرة ملانيا عن الجزء الأكبر من مالهن للصـــدقات ، وأنشأن المستشفيات والأديرة ، وحججن إلى رهبان الشرق ، وبلغ من تقشفهن وزهدهن أن مات بعضهن من الحرمان . وأخذت الدوائر الوثنية فى رومة تشكو من أن هذا النوع من المسيحية لا يتفق مع حياة الأسر ، أو مع نظام الزواج ، أو مع القوة التى تحتاجها الدولة ، وثار الجدل الشديد حول آراء زعيم الزاهدين فى الغرب ، وهو فى الوقت نفسه من أكبر العلماء وأنبه الكتاب الذين أنجبتهم الكنيسة المسيحية .

٢ — القديس چيروم

ولد حوالى عام ٣٤٠ فى استريدو Strido القريبة من أكويليا ، وأغلب الظن أنه من أصل دلماشى ، وكأنما كان أهله يتنبئون بما سيكون له من شأن فسموه يوسبيوس هيرونيموس سفرونيوس Eusebius Hieronymus Sophronius « أى الحكيم المبجل صاحب الاسم المقدس » ، ونال قسطاً كبيرا من التعليم فى ترير ورومة ، ودرس الكتب اللاتينية القديمة دراسة طيبة ، وأحبها حبا وصل

فى ظنه إلى حد الخطيئة . ولكنه مع هذا كان مسيحيا شديد التمسك بدينه ، عاملا بأوامره ، ساعياً إلى خيره ، انضم إلى روفينوس وغيره من أصدقائه فى تكوين جماعة من الإخوان الزهاد فى أكويليا . وكان يعظهم مواعظ يدعوهم فيها إلى الكمال ، حتى لامه أسقفه لقلة صبره على ما فى الطبيعة البشرية من أسباب الضعف . وكان جواب چيروم أن قال للأسقف إنه جاهل ، فظ ، آثم ، خليق بالقطيع العالمى الذى يقوده ، مرشد غير حاذق لسفينة ضالة[١٠] . وترك چيروم وبعض أصدقائه مدينة أكويليا تتردى فى خطاياها ، ورحلوا إلى الشرق الأدنى ودخلوا ديراً فى صحراء خلقيس بالقرب من أنطاكية (٣٧٤) ، ولكنهم لم يحتملوا حرها القاسى غير الصحى فمات اثنان منهم ، وأوشك چيروم هو أيضاً أن يموت . ولكن هذا لم يثنه عما أراده لنفسه ، فغادر الدير ليعيش عيشة النساك فى صومعة فى الصحراء ، وكان يرجع بين الفنية والفينة إلى فرچيل وشيشرون . ذلك أنه جاء معه بمكتبته ، ولم يكن فى وسعه أن يقطع صلته بالشعر والنثر اللذين كان جمالها يستهويه كما يستهوى جمال الفتيات غيره من الرجال . وإن ما يقوله هو نفسه عن هذا ليكشف عن طبيعة الناس فى العصور الوسطى ، فقد رأى فيما يراه النائم أنه مات :

« وجىء بى إلى مجلس القضاء الأعلى ، وطلب إلىّ أن أفصح عن أمرى ، فأجبت بأنى مسيحى . ولكن من كان يرأس الجلسة قال : « إنك لتكذب ، فما أنت بمسيحى ، ولكنك من أتباع شيشرون ، فحيثما يكون كنزك يكون أيضاً قلبك » فعقد لسانى من فورى ولم أحر جوابا ، « ثم شعرت » بضربات السوط لأنه أمر بى أن أجلد . . . وفى آخر الأمر خر من كانوا يشهدون المحاكمة سجدا بين يدى رئيس الجلسة وتوسلوا إليه أن يرحم شبابى ويتيح لى فرصة التوبة من ذنبى ، على أن يصب على أقصى أنواع العذاب إذا ما عدت إلى قراءة كتب المؤلفين غير المسيحيين ... ولم تكن هذه التجربة أضغاث أحلام لذيلة ... بل إنى

لأقر بأن جلد كتفى قد ازرق واسود من شدة الضرب ، وأنى ليثت أحس بالرضوض بعد أن صحوت بزمن طويل . . . وأخذت من ذلك الحين أقرأ كتب الله بحماسة أكثر من التى كنت أقرأ بها من قبل كتب بنى الإنسان »(١١) .

وعاد إلى أنطاكية فى عام ٣٧٩ ورسم فيها قسيساً . وفى عام ٣٨٢ نجده فى رومة أميناً للبابا دماسوس الذى كلفه بترجمة العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية ترجمة خيراً من التراجم الموجودة فى ذلك الوقت . وظل فى منصبه الجديد يلبس الثوب القاتم والجلباب اللذين كان يلبسهما أيام نسكه ، ويعيش عيشة الزهد فى بلاط البابا المترف ، وكانت مرسلا وپولا التقيتان تستقبلانه فى بيتيهما الأرستقراطيين وتهتديان بهديه الروحى ، وكان نقاده الوثنيون يظنون أنه يستمتع بصحبة النساء أكثر مما يليق برجل مثله يمدح بأقوى الألفاظ عزوبة الرجال ، وبقاء البنات عذارى . وقد رد عليهم بأن وجه إلى المجتمع الرومانى فى عصره هجاء بألفاظ سيظل يذكرها الناس إلى أبد الدهر قال :

أولئك النسوة اللائى يصبغن خدودهن بالأصباغ الحمراء ، ويكتحلن بالإثمد ويضعن المساحيق على وجوههن ... واللاتى لا تقنعهن السنون مهما طالت بأنهن قد تقدمت بهن السن ، واللاتى يكدسن الغدائر المستعارة ، على رءوسهن . ويسلكن أمام أحفادهن مسلك فتيات المدارس اللائى يرتجفن من الخوف . . . إن الأرامل الخارجات على الدين المسيحى يتباهين بأثوابهن الحريرية ، ويتحلين بالجواهر البراقة ، وتفوح منهن رائحة المسك . . . ومن النساء من يلبسن ملابس الرجال ، ويقصصن شعرهن . . . ويستحين من أنوثتهن ، ويفضلن أن يظهرن بمظهر الخصيان . . . ومن النساء غير المتزوجات من يستعن بالسوائل لمنع الحمل ، ويقتلن بنى الإنسان قبل أن يحملن بهم ، ومنهن من إذا وجدن أنهن قد حملن نتيجة لإثمهن ، يجهضن أنفسهن بما يتعاطين من العقاقير . . . لكن من النساء من

يقلن : « إن كل شيء طاهر عند الطاهرات . . . فلم إذن أحرم على نفسي ما خلقه الله لأستمتع به ؟ »(١٢) .

وهو يؤنب امرأة رومانية بعبارات تنم عن تقديره لجمال النساء :

« إن صدرتك مشقوقة عن عمد . . . وثدييك مشدودان بأربطة من التيل ، وصدرك سجين في منطقة ضيقة . . . وخمارك يسقط أحياناً حتى يترك كتفيك البيضاوين عاريتين ، ثم تسرعين فتغطين به ما كشفته عن قصد »(١٣) .

ويضيف چيروم إلى تحير الرجل الأخلاقي مغالاة الفنان الأديب الذي يصور عصراً من العصور ، والمحامي الذي يتبسط في ملخص دعوى . ويذكرنا هجاؤه بهجاء چوڤنال ، أو بما نقرأه من هجاء هذه الأيام . ومن الطريف أن نعرف أن النساء كن على الدوام ذوات سحر ودلال كما هن في هذه الأيام . ويشبه چيروم چوڤنال في أنه حين يطعن في أمر لا يرضيه يتقصاه بنزاهة وشجاعة . وقد روعه أن يجد التسري منتشراً حتى بين المسيحيين ، وروعه أكثر من هذا أن وجده يتخفى وراء ستار التعفف من أشق السبل . ومن أقواله في هذا : ترى من أي مصدر وجد هذا الوباء وباء « الأخت العزيزة المحبوبة » طريقه إلى الكنيسة ؟ ومن أين جاءت هذه الزوجات اللاتي لم يتزوج أحد بهن ؟ هذه السراري الحديثات ، وهذه العاهرات اللاتي اختص بهن رجل واحد ؟ إنهن يعشن مع أصدقائهن من الذكور في بيت واحد ويشغلن معهن حجرة واحدة ، وكثيراً ما يشتركن معهم في فراش واحد ؛ ومع هذا فهم يقولون عنا إننا نسيء بهن الظن إذا رأينا في هذا عيباً(١٤) » . وهو يهاجم القساوسة الرومان الذين كان في مقدورهم أن يرفعوه بتأييدهم إلى كرسي البابوية ، ويسخر من رجال الدين الذين يعقصون شعورهم ، ويعطرون ثيابهم ، ويترددون على المجتمعات الراقية ؛ والقسيسين الذين يجرون وراء الوصايا ويستيقظون قبل مطلع الفجر ليزوروا النساء قبل أن يقمن من فراشهن(١٥) ، ويندد بزواج القساوسة ، وبشذوذهم الجنسي ؛ ويدافع دفاعاً قوياً

عن بقاء رجال الدين بلا زواج ؛ ويقول إن الرهبان وحدهم هم المسيحيون الحقيقيون المبرءون من الملك والشهوات ، والكبرياء ؛ ويدعو چيروم الناس كافة ، ببلاغة لو سمعها كسنوڤا Casanova لتعلق به وصار من أتباعه ، لأن يخرجوا عن كل مالهم ويتبعوا المسيح ؛ ويطالب إلى الأمهات أن يهبن أول أبنائهن إلى الله ، لأن أولئك الأبناء من حقه عليهن حسب نص الشريعة[١٦] ؛ وينصح صديقاته من النساء أن يعشن عذارى فى بيوتهن إذا تعذر عليهن أن يدخلن الدير . ويكاد چيروم أن يعد الزواج من الخطايا ويقول : « إنى لا أمدح الزواج إلا لأنه يأتينى بالعذارى[١٧] » . ويريد أن « يقطع بفأس البكورية خشب الزواج»[١٨] ؛ ويفضل يوحنا الرسول الأعزب على بطرس الذى تزوج[١٩] . وأظرف رسائله كلها هى التى كتبها إلى فتاة (٣٨٤) تدعى أوستكيوم Eustochium فى لذة البكورية ، ويقول فيها إنه لا يعارض فى الزواج ، ولكن الذين يتجنبونه ينجون من سدوم Sodom ومن آلام الحمل ، وصراخ الأطفال ، ومتاعب البيوت ، وعذاب الغيرة . وهو يعترف بأن طريق العفة شاق أيضاً ، وأن ثمن البكورية هو اليقظة الدائمة :

« إن فكرة واحدة قد تكفى لضياع البكورية . . . فليكن رفاقك هم صفر الوجوه الذين هزلت أجسامهم من الصوم . . . وليكن صومك حادثاً يتكرر فى كل يوم ، اغسلى سريرك ، ورشى مخدعك كل ليلة بالدموع . . . ولتكن عزلة غرفتك هى حارسك على الدوام . . . ودعى الله عريسك هو الذى يلعب معك فى داخلها . . . فإذا غلبك النوم جاءك من خلف الجدار ، ومد يده من خلال الباب ، ومس بها بطنك ، فصحوت من النوم وقمت واقفة وناديته « إنى أهيم بحبك » فتسمعينه يقول : « إن أختى ، حبيبتى ، جنة مغلقة ، وعين ماء غير مفتوحة ، وينبوع مختوم »[٢٠] .

ويقول چيروم إنه لما نشرت هذه الرسالة : « حياها الناس بوابل من

الحجارة » ؛ ولعل بعض قرائها قد أحسوا فى هذه النصائح بلوعة سقيمة فى رجل يبدو أنه لم يسلم بعد من حرارة الشهوات . ولما ماتت بليسلا Blesilla الفتناة الزاهدة بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت (٣٨٤) ، أخذ الكثيرون يندون بالزهد الصارم الذى علمها إياه چيروم ، وأشار بعض الوثنيين بإلقائه هو وجميع رهبان رومة فى نهر التيبر . لكن چيروم لم يندم على ما فعل ، ووجه إلى أمها الثكلى ، التى كاد الحزن أن يذهب بعقلها ، رسالة تعزية وتقريع . ولما توفى البابا دماسوس فى ذلك العام نفسه لم يجدد خلفه تعيين چيروم أميناً لسره ، فخرج من رومة فى عام ٣٨٥ ولم يعد إليها أبداً ، وصحب معه پولا Paula أم بليسلا وأوستكيوم أختها . وأنشأ فى بيت لحم ديراً للرهبان صار هو رئيسه ، وآخر للراهبات تولت رياسته پولا ومن بعدها أوستكيوم ، كما أنشأ كنيسة ليتعبد فيها الرهبان والراهبات مجتمعين ، ومضيفة لحجاج الأراضى المقدسة .

واتخذ له خلوة فى كهف جمع فيها كتبه وأوراقه ، وقضى وقته كله فى الدرس والكتابة ، وتعليم الناس الأسرار القدسية ، وأقام فيها الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من حياته . وكان يجادل بقلمه كريسستوم ، وأمبروز ، وپلاجيوس ، وأوغسطين . وكتب نحو خمسين كتابا فى المشكلات الدينية ، وفى تفسير الكتاب المقدس ، تمتاز كلها بقوة العقيدة التى لاتقبل جدلا ، وكان أعداؤه وأصدقاؤه على السواء يحرصون على قراءة كتبه . وقد أنشأ مدرسة فى بيت لحم ، كان هو نفسه يعلم فيها الأطفال من غير أجر وبتواضع منقطع النظير كثيراً من الموضوعات المختلفة ، منها اللغة اللاتينية واليونانية . والآن وقد أصبح قديساً ثابت العقيدة أحس بأن لاحرج عليه فى أن يقرأ مرة أخرى الكتب القديمة التى حرمها على نفسه فى شبابه . وواصل دراسة اللغة العبرية ، وكان قد بدأ يدرسها حين أقام فى بلاد الشرق أول مرة ، وأخرج بعد ثمانية عشرعاماً من الجلد والدرس تلك الترجمة اللاتينية العظيمة الرائعة للكتاب المقدس ، وهى الترجمة اللاتينية الشائعة

التى تعد حتى الآن أهم الأعمال الأدبية التى تمت فى القرن الرابع وأعظمها أثراً . ولسنا ننكر أن فى الترجمة ، كما فى كل عمل عظيم مثلها ، أخطاء ، وأن فيها « عجمة » وعبارات عامية ينفر منها المدقق الحريص على نقاء اللغة ؛ ولكن لغة الكتاب اللاتينية أضحت هى لغة الدين والأدب طوال العصور الوسطى ، وصبت سيلا من العواطف والخيالات العبرية فى قوالب لاتينية ، وأدخلت في الأدب آلافا من العبارات الرائعة الفصيحة القوية ، التى تعد من جوامع الكلم(*) وبفضل هذه الترجمة عرف العالم اللاتينى الكتاب المقدس كما لم يعرفوه من قبل .

ولم يكن چيروم قديساً إلا فى أنه كان يحيا حياة الزهد ، وأنه وهب نفسه للكنيسة ، لكننا لا نستطيع أن نعده قديساً فى أخلاقه أو أقواله . ومما يؤسف له أشد الأسف أن يجد الإنسان فى أقوال هذا الرجل العظيم كثيراً من العبارات الدالة على الغيظ والحقد والجدل ، وتحريف القول ، والشراسة فى الجدل ، فهو يلقب يوحنا بطريق بيت المقدس بيهوذا (خائن المسيح) ، وبالشيطان ، ويقول إن الجحيم لا تجد فيها ما يليق به من العقاب[٢١]؛ ويصف الرجل العظيم أمبروز بأنه « غراب مشوه الخلق »[٢٢]، وقد خلق المتاعب لصديقه القديم روفينوس بأن أخذ ينقب لأرجن Origen بعد وفاته عن أخطاء ، وكان فى عمله هذا عنيفاً إلى حد لم ير معه البابا أنستاسيوس بدأ من إدانته (٤٠٠) ، ولو أن جيروم قد ارتكب بعض الخطايا المادية لغفرناها له أكثر مما نغتفر هذا الحقد الروحى الشديد .

(*) كانت ترجمة چيروم فى معظم أجزائها من اللغة العبرية أو اليونانية الأصلية مباشرة . لكنه كان فى بعض الأحيان يترجم عن النص اليونانى الذى كتبه أكويلا ، أو سيما كوس أو ثيدروتيون . ولا تزال ترجمته التى روجعت فى عامى ١٥٩٢ ، ١٩٠٧ هى النص المعتمد للكتاب المقدس فى جميع البلاد التى تدين بالمذهب الكاثوليكى الرومانى . و« كتاب دويه Douai المقدس » ، هو النص الإنجليزى لهذه الترجمة اللاتينية .

ولم يتوان نقاده عن أن ينزلوا به أشد القصاص ، فلما رأوه يُعلّم الكتب اليونانية واللاتينية ، اتهموه بالوثنية ؛ ولما رأوه يَدْرس اللغة العبرية على أحد اليهود ، اتهموه بأنه قد ارتد إلى الدين اليهودى ؛ ولما أهدى كتبه للنساء قالوا إن الباعث له على هذا هو الجشع المادى ، أو ما هو أسوأ من الجشع المادى[٢٣] . ولم يكن سعيداً فى شيخوخته ؛ ذلك أن البرابرة انقضوا على بلاد الشرق الأدنى ، واجتاحوا سوريا وفلسطين (٣٩٥) « وكم من أديرة استولوا عليها ، وكم من أنهار خضبت مياهها بالدماء ! » ثم ختم أقواله بهذه العبارة « إلى العالم الرومانى يتساقط »[٢٤] . وماتت فى أثناء حياته پولا ومرسالا ، وأوستكيوم وكن عزيزات عليه . وظل الرجل يواصل العمل فى كتاب بعد كتاب ، وقد ذبل جسمه وضعف صوته من فرط زهده ، وتقوس عوده . وحضرته الوفاة وهو يكتب شرحاً لسفر أرامِيا . لقد كان رجلا عظيما أكثر مما كان رجلا صالحا ؛ وكان هجاء لاذعاً لا يقل فى ذلك عن چوڤنال ، وكاتب رسائل لا تقل فصاحة عن سنكا ، وعالما مجدا لا ينقطع عن الدرس والتبحر فى الدين .

٣ — الجنود المسيحيون

لم يكن چيروم وأوغسطين إلا أعظم الرجلين فى هذا العصر العجيب ، فقد امتاز من « آباء » الكنيسة فى بداية العصور الوسطى ثمانية من علماء الدين : منهم فى الشرق أثناسيوس ، وباسيلى ، وجريجورى ، ونزيانزين ، ويوحنا كريسستوم ، ويوحنا الدمشقى ؛ وفى الغرب أمبروز ، ، وچيروم ، وأوغسطين ، وجريجورى الأكبر .

وتدل سيرة أمبروز (٣٤٠ ؟ — ٣٩٥) على قدرة الكنيسة على أن تجتذب لخدمتها رجالا من الطراز الأول ، لو أنهم وجدوا قبل وقتهم بجيل واحد لكانوا خدما للدولة . وقد ولد أمبروز فى ترير ، وكان أبوه والياً على غالة ، وكانت مخايل الأمور كلها والسوابق بأجمعها توحى بأنه سيكون من رجال السياسة . ولسنا ندهش

حين نسمع بعد ذلك أنه كان والياً على شمالى إيطاليا . وكان بحكم إقامته فى ميلان وثيق الصلة بإمبراطور الغرب ، وقد وجد فيه الإمبراطور الخلال الرومانية القديمة : العقل الراجح ، والقدرة على التنفيذ ، والشجاعة الهادئة . ولما علم أن الأحزاب المتنازعة قد اجتمعت فى الكنيسة لتختار أسقفاً جديداً ، أسرع إلى مكان الاجتماع وقمع بهيبته وقوة عبارته بوادر الفتنة بين المجتمعين . ولما عجزت الأحزاب المتنازعة عن الاتفاق على رجل يختارونه لهذا المنصب الدينى ، اقترح بعضهم أمبروز ، وما كاد يُسمع اسمه حتى اجتمعت كلمة الحاضرين فى حماسة منقطعة النظير ، وأُخِذ الحاكم من فوره رغم احتجاجه فعُمِد ، لأنه لم يكن قد عمد بعد ، ورسم شماساً ، ثم قساً ، ثم أسقفاً ، وتم ذلك كله فى أسبوع واحد (٣٧٤)(٢٥) .

وشغل الرجل منصبه الجديد ، بالهيبة والمقدرة الخليقتين بالحاكم القدير ، وبادر بالتخلى عن زخرف المنصب السياسى . وعاش عيشة تعد مضرب المثل فى البساطة ، فوزع أمواله وأملاكه على الفقراء ، وباع الآنية المقدسة فى كنيسته ليفتدى بثمنها أسرى الحرب(٢٦) . وكان عالما متفقها فى الدين دافع بكل قوة عن المبادئ التى أقرها مجمع نيقية ، وكان خطيباً مفوها لمواعظه الفضل فى هدى أوغسطين ، وشاعراً ألف عدداً من أقدم ترانيم الكنيسة وأنبلها ، وقاضياً فضح بعلمه واستقامته مفاسد المحاكم المدنية ، وسياسياً تعهد إليه الكنيسة والدولة بأشق المهام وأعظمها خطراً ، ومنظما دقيقاً كان سنداً قوياً للبابا وإن كان قد غطى عليه وحجبه ، وعالما دينيا أرغم ثيودسيوس العظيم على التوبة ، وكانت له السيطرة على خطط ڤلنتنيان الثالث . وكان سبب هذه السيطرة أن كانت للإمبراطور الشاب أم أريوسية العقيدة تدعى جيستينا Justina ، حاولت أن تحصل على كنيســـة فى ميلان لقس أريوسى . ولكن المصلين من أتباع أمبروز ظلوا فى الكنيسة المحاصرة ليلاً ونهاراً « معتصمين فيها ، اعتصاماً مقدسا يتحدون أمر الإمبراطورة بتسليم البناء « ومن ثم » كما يقول أوغسطين « نشأت عادة إنشاد الترانيم والأغانى ، تقليداً لعادات الولايات الشرقية

لإنقاذ الشعب من أن يضنيه طول يقظته وحزنه »[٢٧] ، وقاوم أمبروز الإمبراطورة مقاومة عنيفة ذاع صيتها فى الخافقين ونال التعصب على يديه نصراً مؤزراً .

وكان پولينوس Paulinus (٣٥٣ — ٤٣١) يمثل فى نولا Nola بجنوب إيطاليا نوعا من القديسين أرق حاشية وألطف معشراً من أمبروز . وكان پولينوس ينتمى إلى أسرة مثرية عريقة تقطن بردو Bordeaux ، وقد تزوج من سيدة تنتمى إلى أسرة لاتقل عن أسرته فى بكرم المحتد ، ودرس على الشاعر أوسنيوس Ausonius ، وخاض غمار السياسة وارتقى رقيا سريعا . ثم « انقلب » فجأة وتحول عن العالم تحولا تاما : فباع أملاكه ، ووزع ماله كله على الفقراء ؛ ولم يبق لنفسه منه إلا ما يسد ضرورات الحياة ، ورضيت زوجته ثرازيا Therasia أن تعيش معه « أختاً له فى المسيح » طاهرة . ولم تكن حياة الأديرة قد نشأت فى الغرب ولهذا فقد اتخذا من بينهما المتواضع فى نولا ديراً خاصا ، عاشا فيه خمسة وثلاثين عاماً ممتنعين عن اللحم والخمر ، يصومان عددا كثيراً من الأيام فى كل شهر ، وكانا سعيدين لأنهما تخلصا من متاعب الثروة ومشاغلها . واعترض أصدقاء شبابه الوثنيون ، وخاصة أوسنيوس أستاذه القديم ، على ما بدا لهم أنه هروب من واجبات الحياة المدنية ، فكان جوابه أن دعاهم ليشاركوه فى سعادته . وقد احتفظ إلى آخر حياته بروح التسامح فى هذا القرن المليء بالحقد والعنف . ولما مات اشترك الوثنيون واليهود مع المسيحيين فى تشييع جنازته .

وكتب پولينوس شعراً مطرباً ساحراً ، ولكنه لم يكتبه إلا عرضاً ، أما الشاعر الذى كان يمثل النظرة المسيحية إلى الحياة فى ذلك العصر أصدق تمثيل فهو أورليوس پرودنتيوس كلمنز Aurelius Prudentius Clemens الأسپانى (٣٤٨—٤١٠ تقريبا) . فبينما كان كلوديان وأوسنيوس يملآن أشعارهما بالآلهة الموتى ، كان پرودنتيوس يترنم بالأوزان القديمة فى الموضوعات الحية الجديدة : كقصص الشهداء (فى كتاب التيجان) ، ويضع الترانيم لكل ساعة من ساعات اليوم ، ويكتب

بالشعر ردا على دفاع سماكوس عن تمثال النصر . وفى هذه القصيدة الأخيرة وجه إلى هونوريوس تلك الدعوة الحارة الذائعة الصيت ، التى أهاب به فيها أن يمنع معارك المجالدين . ولم يكن يكره الوثنيين ، بل إنا لنجد فى أقواله ألفاظاً طيبة عن سماكوس ، وعن يوليان نفسه ، وكان يرجو أبناء دينه المسيحيين ألا يتلفوا أعمال الوثنيين الفنية . وكان يشارك كلوديان فى إعجابه برومة ، ويثلج صدره أن يستطيع الإنسان التنقل فى معظم أنحاء عالم الرجل الأبيض وهو خاضع لقوانين واحدة آمن على حياته أينما حل ، « نعيش زملاء مواطنين أينما كنا »[٢٨] . وإنا لنجد فى أقوال هذا الشاعر المسيحى آخر أصداء أعمال رومة المجيدة وسيادتها .

ولم يكن أقل مفاخر رومة أن أصبحت لغالة فى ذلك الوقت حضارة من أرقى الحضارات . فقد كان فى القرن الرابع أساقفة عظام لا يقلون شأناً عن أوسنيوس وسيدونيوس فى عالم الأدب ، نذكر منهم هيلارى البواتييرى Hilary of Poitiers وريمى الريمسى Remi of Reims ويفرونيوس الأوتونى Euphaonius of Autun ، ومارتن التورى Martin of Tours . وكان هيلارى (المتوفى حوالى عام ٣٦٧) من أنشط المدافعين على قرارات مجمع نيقية ، وقد كتب رسالة من اثنتى « عشرة مقالة » حاول فيها أن يشرح عقيدة التثليث . ولكننا نراه فى كرسيه المتواضع فى بواتييه يحيا الحياة الصالحة الخليقة بالرجل المسيحى المخلص لدينه — يستيقظ فى الصباح الباكر ، ويستقبل كل قادم عليه ، ويستمع للشكايات ، ويفصل فى الخصومات ، ويتلو القداس ، ويعظ ، ويعلم ، ويملى الكتب والرسائل ، ويستمع فى أثناء وجبات الطعام لقراءات من الكتب الدينية ، ويقوم فى كل يوم ببعض الأعمال اليدوية كزرع الأرض أو نسج الثياب للفقراء[٢٩] وكان بسيرته هذه يمثل رجل الدين الصالح أصدق تمثيل .

وقد خلف القديس مارتن St. Martin شهرة أوسع من شهرة هؤلاء جميعاً . ففى فرنسا الآن ٣٦٧٥ كنيسة و ٤٢٥ قرية تسمى كلها باسمه . وقد ولد فى بتونيا

حوالى عام ٣١٦ ؛ وأراد ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، أن يكون راهباً ، ولكن أباه أرغمه ، وهو فى الخامسة عشرة ، على الانضمام إلى الجيش ؛ فلما فعل كان فيه جندياً غير عادى ، فكان يهب مرتبه للفقراء ، ويساعد البائسين ، ويتحلى بالوداعة والصبر كأنه يريد أن يتخذ من معسكر الجيش ديراً . ونال مارتن أمنيته بعد أن قضى فى الخدمة العسكرية خمس سنين ، فغادر الجيش ليعيش راهباً فى صومعة ، فى إيطاليا أولا ، ثم فى پواتييه بالقرب من هيلارى الذى كان يحبه . وفى عام ٣٧١ خرج أهل تور يطالبون بأن يكون أسقفاً عليهم ، على الرغم من ثيابه الرثة وشعره الأشعث . فوافق على طلبهم ، ولكنه أصر على أن يعيش كما كان عيشة الرهبان . وأنشأ فى مرموتييه Marmoutier على بعد ميلين من تور ديراً جمع فيه ثمانين راهباً ؛ وعاش معهم عيشة التقشف الخالية من الادعاء والتظاهر . وكان الأسقف فى رأيه رجلا لا يكتفى بالاحتفال بالقداس ، والوعظ ، وتقسيم العشاء الربانى ، وجمع المال ، بل يعمل أيضاً على تقديم الطعام للجياع ، والكساء للعرايا ، وعيادة المرضى ، ومساعدة البائسين . وقد أحبته غالة كلها حباً جعل الناس فى جميع أنحائها يروون القصص عن معجزاته ، ولقد بالغوا فى هذا حتى قالوا إنه أحيا ثلاثة من الأموات(٣٠) . وقد اتخذته فرنسا من قديسيها الشفعاء .

وكان الدير الذى أنشأه مارتن فى پواتييه (٣٦٢) بداية أديرة كثيرة نشأت بعدئذ فى غالة . وإذ كانت فكرة الأديرة قد جاءت إلى رومة عن طريق كتاب أثناسيوس المسمى « حياة أنطونيوس » ، ودعوة چيروم القوية التى أهاب فيها بالناس أن يحيوا حياة الزهد ، فقد كان طراز الرهبنة الذى انتشر فى الغرب هو أشقها وأكثرها عزلة ، وقد حاول أصحابه أن يمارسوا أقسى شعائرها فى جو غير رحيم كما كان يمارسها المصريون فى شمس مصر الدفيئة وجوها المعتدل . فقد عاش الراهب ولفليك Wulfilaich عدة سنين عارى الساقين حافى القدمين فوق

عمود فى تيبر ؛ وكانت أظافر أصابع قدميه تتساقط فى الشتاء ، وتتعلق قطع الجليد بلحيته . وحبس القديس سينوخ نفسه بالقرب من تور فى مكان ضيق بين أربعة جدران لم يستطع فيه أن يحرك النصف الأسفل من جسمه . وعاش على هذا النحو سنين كثيرة ، كان فيها موضعاً لإجلال الشعب[٣١]. وأدخل القديس يوحنا كسيان John Cassian فى الرهبنة آراء باخوم ليوازن بها نشوة أنطونيوس الروحية . فقد أوحت إليه بعض مواعظ كريستوم أن ينشئ ديراً للرجال وآخر للنساء فى مرسيلية (٤١٥) ، وأن يضع لهما أول ما وضع فى الغرب من قوانين لحياة الرهبنة . وكان خمسة آلاف راهب فى پروڤانس Provence يعيشون حسب ما وضعه من القواعد قبل أن يموت فى عام ٤٣٥ . وبعد عام ٤٠٠ بقليل أنشأ القديسان هونوراتوس Honoratus وكبراسيوس Caprasius ديراً على جزيرة ليرن Lérins المواجهة لمدينة كان Cannes . وكانت هذه الأديرة تعوّد الناس التعاون فى العمل ، والدرس ، والتبحر فى العلوم ، أكثر مما تعلمهم التعبد فى عزلة ، ولم تلبث أن صارت مدارس لتعليم أصول الدين ، كان لها أبلغ الأثر فى أفكار الغرب . ولما تولى القديس بندكت حكم غالة من الوجهة الدينية فى القرن التالى ، أقام حكمه على تقاليد كاسيان التى كانت من خير النظم الدينية فى التاريخ كله.

الفصل الرابع

الشرق المسيحى

١ - رهبان الشرق

لما أن أصبحت الكنيسة منظمة تحكم الملايين من بني الإنسان ، ولم تعد كما كانت جماعة من المتعبدين الخاشعين ، أخذت تنظر إلى الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة ، ولا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا ، وأن تشاركهم أحياناً فى هذا الاستمتاع ؛ غير أن أقلية من المسيحيين كانت ترى فى النزول إلى هذا الدرك خيانة للمسيح ، واعتزمت أن تجد مكانها فى السماء عن طريق الفقر ، والعفة ، والصلاة ، فاعتزلت العالم اعتزالا تاماً . ولربما كان مبشرو أشوكا Ashoka (حوالى ٢٥٠ ق . م) قد جاءوا إليه بنظرية البوذية وقوانينها الأخلاقية ؛ ولربما كان النساك الذين وجدوا فى العالم قبل المسيحية أمثال سرابيس Serapis فى مصر أو جماعات الإسينيين فى بلاد اليهود قد نقلوا إلى أنطونيوس وباخوم المثل العليا للحياة الدينية الصارمة وأساليب هذه الحياة . وكان الكثيرون من الناس يرون فى الرهبنة ملاذاً من الفوضى والحرب اللذين أعقبا غارات المتبربرين ؛ فلم يكن فى الدير ولا فى الصومعة الصحراوية ضرائب ، أو خدمة عسكرية ، أو منازعات حربية ، أو كدح ممل . ولم يكن يطلب إلى الراهب ما يطلب إلى القسيس من مراسم قبل رسامته ، وكان يوقن أنه سوف يحظى بالسعادة الأبدية بعد سنين قليلة من حياة السلام .

ويكاد مناخ مصر أن يغرى الناس بحياة الأديرة ، ولهذا غصت

بالرهبان النساك الفرادى والمتجمعين فى الأديرة يعيشون فى عزلة كما كان يعيش أنطونيوس ، أوجماعات كما كان يعيش باخوم فى تابن Tabenne. . وأنشئت الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتى النيل ، وكان بعضها يحتوى نحو ثلثمائة من الرهبان والراهبات . وكان أنطونيوس (٢٥١ — ٣٥٦) أشهر النساك الفرادى ، وقد أخذ ينتقل من عزلة إلى عزلة حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر الأحمر . وعرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه فى تعبده ونسكه ، وبنوا صوامعهم فى أقرب مكان منه سمح لهم به ، حتى امتلأت الصحراء قبل موته بأبنائه الروحيين . وقلما كان يغتسل ، وطالت حياته حتى بلغ مائة وخمساً من السنين : ورفض دعوة وجهها إليه قسطنطين ، ولكنه سافر إلى الإسكندرية فى سن التسعين ليؤيد أثناسيوس ضد أتباع أريوس : وكان يليه فى شهرته باخوم الذى أنشأ فى عام ٣٢٥ تسعة أديرة للرجال وديراً واحداً للنساء . وكان سبعة آلاف من أتباعه الرهبان يجتمعون أحياناً ليحتفلوا بيوم من الأيام المقدسة ، وكان أولئك الرهبان المجتمعون يعماون ويصلون ، ويركبون القوارب فى النيل من حين إلى حين ليذهبوا إلى الإسكندرية حيث يبيعون ما لديهم من البضائع ويشترون حاجياتهم ويشتركون فى المعارك الكنسية — السياسية .

ونشأت بين النساك الفرادى منافسة قوية فى بطولة النسك يتحدث عنها دوشين Abbé Duchesne بقوله إن مكاريوس الإسكندرى « لم يكن يسمع بعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتى بأعظم منه » ، فإذا امتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ فى الصوم الكبير امتنع هو عن أكله سبع سنين ؛ وإذا عاقب بعضهم أنفسهم بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو « يبذل جهد المستميت لكى يظل مستيقظاً عشرين ليلة متتابعة » . وحدث مرة فى صوم كبير أن ظل واقفاً طوال هذا الصوم ليلا ونهاراً لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة فى الأسبوع ، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب ،

ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التى اختص بها وهى صناعة السلال(٣٢) . ولبث ستة أشهر ينام فى مستنقع ، ويعرض جسمه العريان للذباب السام(٣٣) . ومن الرهبان من أوفوا على الغاية فى أعمال العزلة ؛ من ذلك سرابيون Serapion الذى كان يعيش فى كهف فى قاع هاوية لم يجرؤ على النزول إليها إلا عدد قليل من الحجاج . ولما وصل چيروم وپولا إلى صومعته هذه وجدوا فيها رجلا لا يكاد يزيد جسمه على بضعة عظام وليس عليــه إلا خرقة تستر حقويه ، ويغطى الشعر وجهه وكتفيه ، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشه المكوّن من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر . ومع هذا فإن هذا الرجل قد عاش من قبل بين أشراف رومة(٣٤) . ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عاماً مثل بساريون Bessarion أو خمسين عاماً مثل باخوم(٣٥) . ومنهم من تخصصوا فى الصمت وظلوا عددا كبيراً من السنين لا تنفرج شفاههم عن كلمة واحدة . ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزاناً ثقالا أينما ذهبوا . ومنهم من كانوا يشدون أعضاءهم بأطواق أو قيود أو سلاسل ؛ ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التى لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة(٣٦) . وكان النساك المنفردون جميعهم تقريباً يعيشون على قدر قليل من الطعام ؛ ومنهم من عمّروا طويلا . ويحدثنا چيروم عن رهبان لم يطعموا شيئاً غير التين وخبز الشــعير . ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهــذا الترف ، وبعث به إلى ناسك آخر ؛ وأرسله هذا إلى ثالث حتى طاف العنب جميــع الصحراء — (كما يؤكد لنا روفينس) ، وعاد مرة أخرى كاملا إلى مكاريوس(٣٧) . وكان الحجاج ، الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحى ليشاهدوا رهبان الشرق ، يعزون إلى أولئك الرهبان معجزات لا تقل فى غرابتها عن معجزات المسيح ، فكانوا — كما يقولون — يشفون الأمراض ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة ؛ وكانوا يروّضون الأفاعى أو الآساد بنظرة

أو دعوة ، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح . وقد أصبحت مخلفات النساك أثمن ما تمتلكه الكنائس المسيحية ، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم .

وكان رئيس الدير يطلب إلى الرهبان أن يطيعوه طاعة عمياء ، ويمتحن الرهبان الجدد بأوامر مستحيلة التنفيذ يلقيها عليهم . وتقول إحدى القصص إن واحداً من أولئك الرؤساء أمر راهباً جديداً أن يقفز فى نار مضطرمة فصدع الراهب الجديد بالأمر ؛ فانشقت النار حتى خرج منها بسلام . وأُمر راهب جديد آخر أن يغرس عصا رئيسه فى الأرض ويسقيها حتى تخرج أزهاراً ؛ فلبث الراهب عدة سنين يذهب إلى نهر النيل على بُعد ميلين من الدير يحمل منه الماء ليصبه على العصا ، حتى رحمه الله فى السنة الثالثة فأزهرت[٣٨] . ويقول چيروم[٣٩] إن الرهبان كانوا يؤمرون بالعمل « لئلا تضلهم الأوهام الخطرة » . فمنهم من كان يحرث الأرض ، ومنهم من كان يعنى بالحدائق ، أو ينسج الحصر أو السلال ، أو يصنع أحذية من الخشب ، أو ينسخ المخطوطات . وقد حفظت لنا أقلامهم كثيراً من الكتب القديمة . على أن كثيرين من الرهبان المصريين كانوا أميين يحتقرون العلوم الدنيوية ويرون أنها غرور باطل[٤٠] . ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الإيمان ؛ وقد أبت العذراء سلڤيا أن تغسل أى جزء من جسدها عدا أصابعها ، وكان فى أحد الأديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها . لكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوالى آخر القرن الرابع ، وسخر الأب اسكندر من هذا الانحطاط فأخذ يحن إلى تلك الأيام التى لم يكن فيها الرهبان « يغسلون وجوههم قط »[٤١] .

وكان الشرق الأدنى ينافس مصر فى عدد رهبانها وراهباتها وعجائب فعالهم . فكانت أنطاكية وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع وبالرهبان والراهبات ، وكانت صحراء سوريا غاصة بالنساك ، منهم من كان يشد نفسه بالسلاسل إلى صخرة ثابتة لا تتحرك كما يفعل فقراء الهنود ، ومنهم من كان يحتقر هذا النوع المستقر

من المساكن ، فيقضى حياته فى الطواف فوق الجبال يطعم العشب البرى[٤٢] . ويروى لنا المؤرخون أن سمعان العمودى Simeon Stylites (٣٩٠ ؟ —٤٥٩) كان لا يذوق الطعام طول الصوم الكبير الذى يدوم أربعين يوماً . وقد أصر فى عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله على أن يوضع فى حظيرة وليس معه إلا قليل من الخبز والماء . وأُخرج من بين الجدران فى يوم عيد الفصح فوجد أنه لم يمس الخبز أو الماء . وبنى سمعان لنفسه فى عام ٤٢٢ عموداً عند قلعة سمعان فى شمالى سوريا وعاش فوقه . ثم رأى أن هذا اعتدال فى الحياة يجلله العار فأخذ يزيد من ارتفاع العمد التى يعيش فوقها حتى جعل مسكنه الدائم فوق عمود يبلغ ارتفاعه ستين قدماً ولم يكن محيطه فى أعلاه يزيد على ثلاث أقدام ، وكان حول قمته سور يمنع القديس من السقوط على الأرض حين ينام . وعاش سمعان على هذه البقعة الصغيرة ثلاثين عاماً متوالية معرضاً للمطر والشمس والبرد . وكان أتباعه يصعدون إليه بالطعام وينقلون فضلاته على سلم يصل إلى أعلى العمود . وقد شد نفسه على هذا العمود بحبل حزّ فى جسمه ، فتعفّن حوله ، ونتن وكثرت فيه الديدان ، فكان يلتقط الدود الذى يتساقط من جروحه ويعيده إليها ويقول : « كلى مما أعطاك الله ! » . وكان يلقى من منبره العالى مواعظ على الجماهير التى تحضر لمشاهدته ، وكثيراً ما هدى المتبربرين ، وعالج المرضى ، واشترك فى السياسة الكنسية ، وجعل المرابين يستحون فينقصون فوائد ما يقرضون من المال إلى ستة فى المائة بدل اثنى عشر[٤٣] . وكانت تقواه سبباً فى إيجاد طريقة النسك فوق الأعمدة ، وهى الطريقة التى دامت اثنى عشر قرناً ، ولا تزال باقية حتى اليوم بصورة دنيوية خالصة .

ولم ترض الكنيسة عن هذا الإفراط فى التقشف ، ولعلها كانت تحس بشىء من الفخر الوحشى فى هذا الإذلال النفسى ، وبشىء من الشراهة الروحية فى هذا الإنكار الذاتى ، وبشىء من الشهوانية الخفية فى هذا الفرار من النساء ومن العالم

كله . وسجلات أولئك الزهاد حافلة بالرؤى والأحلام الجنسية ، وصوامعهم تتردد فيها أصداء أنينهم وهم يقاومون المغريات الخيالية والأفكار الغرامية . وكانوا يعتقدون أن الهواء الذى يحيط بهم غاص بالشياطين التى لا تنفك تهاجمهم ؛ ويبدو أن الرهبان قد وجدوا أن حياة الفضيلة فى العزلة أشق منها لو أنهم عاشوا بين جميع مغريات المدن . وكثيراً ما كان الناسك تختل موازين عقله ؛ فها هوذا روفينس يحدثنا عن راهب شاب دخلت عليه فى صومعته امرأة جميلة ، فلم يستطع أن يقاوم سحر جمالها ، ثم اختفت من فوزها فى الهواء كما ظن هو . فما كان من الراهب إلا أن خرج هائماً على وجهه ، إلى أقرب قرية له ، وقفز فى فرن حمام عام ليطفئ النار المستعرة فى جسمه . وتروى قصة أخرى عن فتاة استأذنت فى الدخول إلى صومعة راهب مدعية أن الوحوش تطاردها فرضى أن يؤويها وقتاً قصيراً ، ولكن حدث فى تلك الساعة أن مست جسمه مصادفة ، فاشتعلت نار الشهوة فيه كأن سنى التقشف الطوال التى مرت به قد انقضت دون أن تحدث فيها أقل أثر . وحاول الراهب أن يمسك بها ، ولكنها اختفت عن ذراعيه وعن عينيه . ويقول الرواة إن جماعة من الشياطين أخذت تغنّى وتهلل طرباً وتضحك من سقطته . ويقول روفينس إن الراهب لم يطق حياة الرهبنة بعد تلك الساعة ؛ فقد عجز كما عجز بفنوس Paphnuce فى مسرحية تييس Thais لأناتول فرانس عن أن يبعد عنه رؤيا الجمال التى أبصرها أو تخيلها ، فغادر صومعته وانغمس فى حياة المدينة ، وسار وراء هذه الرؤيا حتى أوصلته آخر الأمر إلى الجحيم(٤٤) .

ولم يكن للكنيسة النظامية سلطة ما على الرهبان فى أول الأمر ؛ وقلما كان أولئك الرهبان يحصلون على أية رتبة كهنوتية ، غير أنها مع ذلك كانت تحس بأن تبعة إفراطهم هذا واقعة عليها ، فقد كان لها نصيب من المجد الذى ينالونه بأعمالهم . ولم يكن فى وسع الكنيسة أن ترضى كل الرضا عن المثل العليا للرهبنة .

نعم إنها كانت تمتدح العزوبة ، والبكورية ، والفقر ، ولكن لم يكن وسعها أن تعد الزواج ، أو الأبوة ، أو الملكية من الخطايا ، بل لقد أصبح الآن من مصلحتها أن يدوم الجنس البشرى ويتناسل ويكثر . وكان بعض الرهبان يغادرون الأديرة باختيارهم ، ويضايقون الناس بإلحافهم فى السؤال . ومنهم من كانوا يتنقلون من بلدة إلى بلدة ، يدعون إلى الزهد ويبيعون مخلفات حقيقية أو زائفة ، ويرهبون المجامع الدينية المقدسة ، ويحرضون ذوى الطبائع الحامية من الناس على تدمير الهياكل أو التماثيل الوثنية ، أو يدعونهم فى بعض الأحيان إلى قتل امرأة من طراز هيباشيا **Hypatia** . ولم تكن الكنيسة راضية عن هذه الأعمال الفردية التى يأتيها هؤلاء الرهبان من تلقاء أنفسهم . وقد قرر مجلس خلقدون (٤٥١) أن تفرض رقابة شديدة على من يدخلون الأديرة ، وأن الذين يهبون أنفسهم لها لا يجوز لهم أن يخرجوا بعدئذ منها ، وألا يسمح لإنسان بأن ينشئ ديراً أو يغادره إلا إذا أذن له بذلك أسقف الأبرشية .

٢ — الأساقفة الشرقيون

لقد نالت المسيحية فى الوقت الذى نتحدث عنه نصراً فى بلاد الشرق يكاد أن يكون تاما ، ففى مصر أصبح المسيحيون المحليون أو القبط(*) هم أغلبية السكان ، وكانوا يمدون بالمال مئات من الكنائس والأديرة . واعترف تسعون أسقفاً مصريا بسلطة بطريق الإسكندرية ، وهى سلطة تكاد تضارع سلطة الفراعنة والبطالمة . وكان بعض هؤلاء البطارقة ساسة من رجال الدين ومن طراز غير محبوب أمثال توفيلس الذى حرق هيكل سرابيس الوثنى ومكتبته (٣٨٩) . وكان خيراً منه وأحب إلى النفوس الأب سينسيوس **Sinesius** أسقف بطوليمايس

(*) كلمة **Copt** الأوربية مأخوذة من كلمة قبط العربية وهذه محرفة من إيچپتوس **Aigyptos** اليونانية ومعناها مصرى .

المتواضع . وكان مولده فى قوريني (حوالى عام ٣٦٥) ، وقد درس علوم الرياضة والفلسفة فى الإسكندرية على هيباشيا ؛ وظل إلى آخر أيام حياته صديقها الوفى ، وكان يسميها : « الشارحة الحقة للفلسفة الحقة » . ثم زار أثينة ، وفيها قويت عقيدته الوثنية ، ولكنه تزوج بإمرأة مسيحية فى عام ٤٠٣ ، واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحى ، ووجد أن من المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول ثالوث الأفلاطونية الحديثة المكوّن من الواحـــد ، والفكر ، والنفس ، إلى الأب ، والروح ، والابن[٤٥] . وكتب كثيراً من الرسائل البديعة ، وبعض الكتب الفلسفية القليلة الشأن التى لا يوجد بينها شىء ذو قيمة للقارئ فى هذه الأيام ، إذا استثنينا مقاله « فى مدح الصلع » . وفى عام ٤١٠ عرض عليه توفيلس أسقفية بطوليمايس ، وكان وقتئذ من سراة الريف وممن كان مالُهم أكثر من مطامعهم ، فقال إنه غير أهل لهذا المنصب ، وإنه لا يؤمن ببعث الجسم (كما تتطلب ذلك عقائد مؤتمر نيقية) وإنه متزوج ، ولا يريد أن يهجر زوجته . ولكن العقائد المقررة كانت فى نظر توفيلس مجرد آلات ، فغض النظر عن هذه المخالفات وعيّن سينسيوس أسقفاً قبل أن يفصل الفيلسوف فى أمره . ومن الحادثات الطريفة التى تتفق مع ما عرف عن هذا الأسقف أن آخر رسالة كتبها كانت موجهة إلى هيپاشيا وأن آخر صلاة له كانت للمسيح[٤٦] .

وعوملت الهياكل الوثنية فى سوريا بالطريقة التى تتفق مع طباع توفيلس ، فقد صدر أمر إمبراطورى يقضى بإغلاقها ؛ وقاومت البقية الباقية من الوثنيين أمره هذا ولكنهم استسلموا أخيراً للهزيمة حين رأوا آلهتهم ترضى بتخريب هياكلها دون مبالاة . وكان للمسيحية فى آسية زعماء أعظم حكمة من زعمائها فى مصر(*) . فمن هؤلاء باسيلى العظيم الذى تعلم فى حياته القصيرة التى لا تزيد على

(*) شغل القديس نقولا Micholas فى القرن الرابع كرسى أسقفية ميرا Myra فى ليشيا Lycia . وكان جم التواضع لم يدر قط بخلده أنه سيصبح فى يوم من الأيام القديس =

خمسين عاماً (٣٢٩؟ – ٣٧٩) البلاغة على ليبانيوس فى القسطنطينية ، ودرس الفلسفة فى أثينة ، وزار النساك فى مصر وسوريا ، ولم يوافق على زهدهم وانطوائهم على أنفسهم ، ثم صار أسقفاً لقيصرية فى كپدوكيا ، ونظم شئون المسيحية فى بلاده ، فأعاد النظر فى شعائرها ، وأدخل فيها نظام رهبنة الأديرة التى تنتج كل ما يحتاجه المقيمون فيها ، ووضع قانوناً للأديرة لا يزال هو المسيطر على جميع أديرة العالم اليونانى الصقلبى . وقد نصح أتباعه بأن يتجنبوا ما يأتيه النساك المصريون من أعمال القسوة المسرحية ، وأن يستعيضوا عنها بخدمة الله وخدمة صحتهم وعقولهم بالعمل النافع . وهو يرى أن حرث الأرض من خير أنواع العبادة . ولا يزال الشرق المسيحى حتى الآن يعترف بما له فى المسيحية من أثر لا يضارعه أثر أحد غيره .

أما القسطنطينية فلم يكد يبقى فيها أثر للعبادات الوثنية . بيد أن المسيحية نفسها قد تفرقت شيعاً بسبب النزاع الدائم بين أهلها . فقد كانت الأريوسية لا تزال قوية ، وكانت بدع دينية خارجة على الدين لا تنقطع عن الظهور ، حتى ليكاد يكون لكل رجل فيها آراؤه الخاصـــة فى الدين . وفى ذلك يقول جريجورى النيسى Gregory of Nyassa أخو باسيلى : « هذه المدينة ملأى بالصناع والعبيد ، وكلهم من المتفقهين فى الدين الذين يعظون الناس فى الشوارع والحوانيت . فإذا طلبت إلى أحد منهم أن يبدل لك قطعة نقود فضية ، أخذ يحدثك عن الفوارق بين الابن والأب ، وإذا سألت عن ثمن رغيف . . . قيل لك إن الابن أقل منزلة من الأب ؛ وإذا سألت هل أعدّ لك الحمّام ، كان الجواب أن الابن قد خُلق من لاشىء »[٤٧] . وكان أول دير أنشىء فى العاصمة الجديدة هو الذى أنشأه إسحق السورى فى أيام ثيودوسيوس الأول ، وسرعان ما تضاعف

= راعى روسيا ، وراعى اللصوص ، والأولاد ، والبنات ، ثم يدخل أخيراً باسمه الهولندى — سنتا كلوز Santa Claus فى الأساطير المسيحية المنتشرة فى نصف العالم المسيحى .

عدد الاديرة فيها حتى إذا وافى عام ٤٠٠ كان الرهبان طائفة ذات قوة وبأس تنشر الرعب فى المدينة ، وكان لهم شأن صاحب فى النزاع القائم بين هذا البطريق وذاك وبين البطريق والإمبراطور .

وتعلم جريجورى نزيانزين مرارة الحقد الطائفى حين قبل دعوة وجهها إليه مسيحيو القسطنطينية لأن يكون أسقفاً عليهم (٣٧٩) . وكان ڤالنز قد مات تواً ، ولكن أتباع أريوس الذين ناصرهم الإمبراطور من قبل ، كانوا لا يزالون يتولون معظم المناصب الكنسية ، ويقيمون صلواتهم فى كنيسة أياصوفيا . ولذلك اضطر جريجورى أن يصنع مذبحه ويأوى أتباعه فى بيت صديق له ، ولكنه أطلق على كنيسته المتواضعة اسماً يدل على كبير أمله فيها ، فقد سماها أناستازيا Anastasia (البعث) . وكان رجلا أوتى من التقوى بقدر ما أوتى من العلم ، درس فى أثينة مع مواطنه باسيلى ، ولم يكن أحد أفصح منه إلا الرجل الذى جاء بعد خلفه . وزاد أتباعه زيادة مطردة حتى كانوا أكثر من المتعبدين فى الكنائس الرسمية . وفى عشية عيد الفصح من عام ٣٧٩ هجم جماعة من الأريوسيين على كنيسة الأناستازيا ورجموها بالحجارة ، وبعد ثمانية عشر شهراً من هذا الحادث أخذ الإمبراطور ثيودوسيوس بيد جريجورى ورفعه على عرشه الخليق به فى كنيسة أياصوفيا وسط مظاهر التكريم والنصر العظيم . ولكن السياسة الكهنوتية لم تلبث أن قضت على هدوئه واطمئنانه ، فقام جماعة من شانئيه الأساقفة يعلنون أن تعيينه باطل ، وأمروه أن يدافع عن نفسه أمام مجلس دينى . ورأى جريجورى أنه أكبر من أن يدافع عن كرسيه ، فاعتزل منصبه (٣٨١) ، وعاد إلى نزيانزوس Nazianzus فى كپدوكيا ليقضى فيها الثمانى السنين الباقية من حياته بعيداً عن أعين الخلق فى عزلة وهدوء .

وخلفه فى منصبه رجل خامل غير خليق بالذكر ، ولما مات دعت الحاشية الإمبراطورية إلى كنيسة أياصوفيا قساً من أنطاكية يعرف فى التاريخ باسم

القديس يوحنا كريستوم — أى صاحب الفم الذهبى . وقد ولد حوالى عام ٣٤٥ من أسرة شريفة ، وتلقى فنون البلاغة على ليبانيوس ، وألم بالآداب والفلسفة الوثنية ، وكان الأحبار الشرقيون بوجه عام أغزر علماً وأكثر براعة فى الجدل من أحبار الغرب . وكان يوحنا رجلا قوى الذهن حاد الطبع ، أزعج أتباعه الجدد باصطناع الجد فى المسيحية ، والتنديد بمظالم العصر وفساده الخلقى بأصرح الألفاظ[٤٨] . ووصف المسرح بأنه معرض للنساء الفاجرات ، ومدرسة للفسق والغوايات والدسائس . وأخذ يسائل سراة المسيحيين فى العاصمة لِمَ ينفقون الكثير من أموالهم فى الخلاعة والمجون ، ولا يهبون الكثير منها إلى الفقراء كما أمرهم المسيح . ويعجب كيف يكون لبعض الناس عشرون قصراً ، وعشرون حماما ، وألف عبد ، وأبواب من العاج ، وأرض من الفسيفساء ، وجدران من الرخام ، وسقف من الذهب ؛ وينذر الأغنياء بعذاب النار لأنهم يحيون ضيوفهم بالبنات الفاسدات الراقصات[٤٩] . وكان يلوم أتباعه من رجال الدين على حياة التبطل والنعيم[٥٠] ، وعلى قيام النساء بخدمتهم فى بيوتهم الكنسيّة مما يحمل الناس على الارتياب فيهم وإساءة الظن بهم . وقد أقال ثلاثة عشر أسقفاً من الخاضعين لسلطته لفساد أخلاقهم أو متاجرتهم بالدين ، وأنب رهبان القسطنطينية لأنهم يقضون فى الشوارع من الوقت أكثر مما يقضونه فى صوامعهم . وكان هو نفسه يضرب أحسن الأمثلة فى العمل بما يعظ به : فلم يكن ينفق إيراد دائرته الدينية فى المظاهر الكاذبة التى كانت من مميزات الأسقفيات الشرقية ، بل كان ينفقها فى بناء المستشفيات ، ومساعدة الفقراء . ولم تسمع القسطنطينية قبله مواعظ تضارع مواعظه قوة ، وبلاغة ، وصراحة ؛ فلم تكن مليئة بالمعنويات الدالة على التقى والورع ، بل كانت سننا مسيحية تطبق تطبيقاً صارماً إلى أقصى حدود الصرامة .

« هل فى الناس من هم أظلم من الملاّك ؟ فأنت إذا نظرت إلى الطريقة التى يعاملون بها مستأجرى أملاكهم رأيتهم أشد وحشية من البرابرة . فهم يفرضون

ضرائب فادحة لا آخر لها على الذين أنهك الجوع والكدح أجسامهم طوال حياتهم ، ثم يفرضون عليهم فوق ذلك خدمات لا طاقة لهم بها . . . يرغمونهم على العمل طوال فصل الشتاء فى البرد والمطر ، ويحرمونهم من النوم ويرسلونهم إلى بيوتهم محرومين من كل شىء . . .

« وإن ما يقاسيه أولئك الرجال على أيدى عمال الملاك من عذاب ، وضرب ، وما يزعمون على أدائه من ضرائب فادحة ، وخدمات خالية من الرحمة ، لأشدّ عليهم من ألم الجوع . ومن ذا الذى يستطيع إحصاء الوسائل التى يلجأ إليها أولئك الوكلاء لاستخدام المستأجرين فى جر المغانم لهم ثم حرمانهم من ثمار كدحهم ؟ فهم يديرون بقوة عضلاتهم ما يمتلكه أولئك الوكلاء من معاصر الزيتون ، ولكنهم لا ينالون نصيباً مهما قلّ من الزيت الذى يرغمون على تعبئته فى الزجاجات لأولئك الوكلاء ظلماً وعدواناً ؛ وهم لا يؤجرون على عملهم هذا إلا أجراً ضئيلا(٥١) » .

وبعد ، فإن جماعة المصلين فى الكنائس يحبون أن يؤنبوا ، ولكنهم لا يحبون أن يقوّموا . ومن أجل هذا ظلت النساء يتعطرن ، وظل الأغنياء يقيمون المآدب الفخمة ، وظل رجال الدين منهمكين فى شئونهم النسائية الخاصة ، وبقيت دور التمثيل تعرض مناظرها المألوفة ؛ وسرعان ما وقفت كل طائفة فى المدينة ، عدا الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول ، تعارض الرجل ذا الفم الذهبى . وكانت الإمبراطورة يودكسيا زوجة أركاديوس تتزعم الطائفة المتنعمة من أهل العاصمة فى حياة الترف . وقد فسرت إحدى العبارات الواردة فى مواعظ يوحنا بأنها تشير إليها هى ، وطلبت إلى زوجها الضعيف أن يعقد مجلساً دينياً لمحاكمة البطريق . وأجابها الإمبراطور إلى طلبها ، وعُقدَ فى عام ٤٠٣ مجلس من أساقفة الشرق فى خلقيدون . ورفض يوحنا المثول أمامه محتجاً بأنه يجب ألا يحاكم أمام أعدائه فقرر المجلس خلعه ، وذهب الرجل إلى المنفى فى هدوء ، ولكن

الناس ضجوا بالاحتجاج ضجيجاً أخاف الإمبراطور ، فأرجعه إلى كرسيه . ولم تمض إلا بضعة أشهر حتى قام مرة أخرى يندد بالطبقات الغنية ، ويبدى بعض آراء انتقادية على تمثال للإمبراطورة ، فطلبت يودكسيا مرة أخرى طرده ، وقام توفيلس بطريق الإسكندرية ، وهو الرجل المتأهب على الدوام لأن يضعف الكرسى المنافس له ، يذكر أركاديوس بأن قرار خلقيدون القاضى بخلعه لا يزال قائما ، يمكن تطبيقه عليه . وأرسل الجند للقبض على كريسستوم ؛ ونقل الرجل إلى الضفة الأخرى من البسفور ونفى فى قرية من قرى أرمينية (٤٠٤) . ولما أن سمع أتباعه الأوفياء بهذا النبأ ثاروا ثورة عنيفة ، أحرقت فى أثنائها كنيسة أياصوفيا ومجلس الشيوخ القريب منها . وأرسل كريسستوم من منفاه رسائل استغاثة إلى هونوريوس وإلى أسقف رومة ، فأمر أركاديوس بنقله إلى صحراء پتيوس البعيدة فى پنطس . ولكن الأب المنهوك القوى مات فى الطريق عند بلدة كومانا Comana فى الثانية والستين من عمره (٤٠٧) . وظلت الكنيسة الشرقية من ذلك اليوم حتى الآن — مع استثناء فترات قصيرة — خادمة للدولة خاضعة لأوامرها .

الفصل الخامس

القديس أوغسطين

١ — الآثم

كانت أفريقية الشمالية التي وُلد فيها أوغسطين موطن خليط من الأجناس والعقائد ، امتزج في أهلها الدم البوني والنوميدي بالدم الروماني ، ولعلهما امتزجا في أوغسطين . وكان كثيرون من الناس يتكلمون اللغة البونية — وهي لغة قرطاجنة الفينيقية القديمة ، وقد بلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أوغسطين وهو أسقف ألا يعين من القساوسة إلا من كان يتكلم هذه اللغة . وكانت الدوناتية فيها تتحدى الديانة القويمة ، والمانية تتحداهما جميعاً ، ويلوح أن كثرة الأهلين كانت لا تزال وثنية(٥٢) . وكان مسقط رأس أوغسطين هو بلدة تاجستي Tagaste في نوميديا . وكانت أمه القديسة منكا Monica مسيحية مخلصة قضت حياتها كلها تقريباً في العناية بولدها الضال والدعاء له بالهداية . أما والده فكان رجلا قليل المال ، ضعيف المبادئ ، صبرت مونكا على عدم وفائه ليقينها أنه لن يستمر على هذا إلى أبد الدهر .

ولما بلغ الغلام الثانية عشرة من عمره أرسل إلى المدرسة في مدورا Madaura ، ولما بلغ السابعة عشرة أرسل ليتم دراساته العليا في قرطاجنة . وقد وصف سلفان أفريقية بعد ذلك الوقت بقليل بأنها « بالوعة أقذار العالم » ، كما وصف قرطاجنة بأنها « بالوعة أقذار أفريقية » . ومن أجل هذا كانت النصيحة التي أسدتها مونكا لولدها وقت وداعه هي كما جاءت على لسانه

« لقد أمرتني ، وحذرتني في جد وصرامة من مخالفة أمرها ، وألا أرتكب

الفحشاء ، وخاصة ألا أدنس عرض امرأة متزوجة . وخيل إلى أن هذه الأقوال لا تعدو أن تكون نصائح امرأة ، وأن من العار على أن أعمل بها ... واندفعت فى غوايتى اندفاع الأعمى ، حتى كنت أخجل وأنا بين لداتى من أن أرتكب ذلك الجرم الشنيع فأكون أقل منهم قحة حين كنت أستمع إليهم يتفاخرون أعظم الفخر بآثامهم ؛ نعم فقد كان تفاخرهم يعظم كلما زادت حيوانيتهم . وكنت أسر من هذه الأعمال الفاضحة ، ولم يكن ذلك لما فيها من لذة فحسب ، بل لما أناله بسببها من المديح . . . فإذا عدمت فرصة ارتكاب عمل من الأعمال الإجرامية ، التى تسلكنى مع السفلة الخاسرين . تظاهرت بأنى قد فعلت ما لم أفعله قط »(٥٤) .

وقد أظهر أوغسطين أنه تلميذ مجد فى اللغة اللاتينية ، وفى العلوم الرياضية ، والموسيقى والفلسفة « وكان عقلى القلق عاكفاً على طلب العلم »(٥٥). ولم يكن يحب اللغة اليونانية ، ولذلك لم يتقنها أو يتعلم آدابها ، ولكنه افتتن بأفلاطون افتتانا جعله يلقبه « نصف الإله »(٥٦) ، ولم يمتنع عن أن يكون أفلاطونيا بعد أن صار مسيحيا . وقد هيأه مرانه الوثنى فى المنطق والفلسفة لأن يكون أعظم الفقهاء دهاء فى الكنيسة المسيحية .

ولما أتم دراسته أخذ يعلم النحو فى تاجستى ثم البلاغة فى قرطاجنة . وإذ كان قد بلغ وقتئذ السادسة عشرة من عمره فقد « كثر الكلام حول اختيار زوجة لى » . ولكنه فضل أن يتخذ له خليلة — وهى طريقة سهلة ترضاها المبادئ الأخلاقية الوثنية والقوانين الرومانية . وإذ لم يكن أوغسطين قد عمد بعد ، فقد كان فى وسعه أن يستمد مبادئه الخلقية أنى شاء . وكان اتخاذه خليلة له ارتقاء من الناحية الأخلاقية ، فقد انقطع بعدها عن الاختلاط الجنسى الطليق ، ويلوح أنه ظل وفيا لخليلته حتى افترقا فى عام ٣٨٥ . ووجد أوغسطين نفسه فى عام ٣٨٢ وهو لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره أبا لولد ذكر على كره منه ؛ وقد لقب هذا الولد فى وقت من الأوقات « ابن خطيئتى » ، ولكنه كان يسميه عادة أديوداتوس

Adeodatus — أى عطية الله ، وقد أحب الولد فيما بعد حبا شديداً ، ولم يكن يسمح له أن يبتعد عنه قط .

لما بلغ التاسعة عشرة من العمر غادر قرطاجنة إلى عالم رومة الواسع . وخشيت أمه ألا يعمد فرجته ألا يذهب إلى رومة ، فلما أصر على الذهاب ، توسلت إليه أن يأخذها معه . فتظاهر بموافقتها على توسلها ، ولكنه حين ذهب إلى الميناء تركها تصلى فى معبد صغير وأبحر دون أن يأخذها معه(٥٧) . وقضى عاماً فى رومة يعلم البلاغة ، ولكن تلاميذه لم يؤدوا إليه أجره ، فطلب أن يعين أستاذاً فى ميلان ، وامتحنه سياخوس ووافق على طلبه وأرسله إلى ميلان ببريد الدولة . وهناك لحقت به أمه الشجاعة ، وأقنعته بأن يستمع معها إلى مواعظ أمبروز ، وتأثر هو بهذه المواعظ ، ولكنه تأثر أكثر من هذا بالترنيمة التى ترنم بها المصلون . وأقنعته منكا فى الوقت عينه بأن يتزوج ، ثم خطبت له عروساً بالفعل ، وكان الآن فى الثانية والثلاثين من عمره ، وكانت عروسه بنتاً صغيرة السن عظيمة الثراء ورضى أوغسطين أن ينتظر عامين حتى تبلغ الثانية عشرة . وكان أول ما استعد به لزواجه أن أعاد حظيته إلى أفريقية ، حيث دفنت أحزانها فى دير النساء . وكان امتناعه عن النساء أسابيع قليلة كافياً لأن يسبب له انهيارا فى أعصابه ، فاستبدل بالزواج حظية أخرى ، ودعا الله قائلا : « ارزقنى العفة ، ولكنها لم يحل أوانها بعد »(٥٨) .

وقد وجد فى خلال هذه المشاغل المختلفة وقتاً لدراسة العلوم الدينية . لقد بدأ الرجل حياته بعقيدة أمه البسيطة ، ولكنه نبذها بأنفة وكبرياء حين ذهب إلى المدرسة ، ثم ظل تسع سنين معتنقا عقيدة الأثنينية المانية لأنه رأى فيها وسيلة لفهم العالم المركب من الخير والشر بلا تمييز بينهما . وقضى بعض الوقت يداعب تشكك المجمع العلمى المتأخر ، ولكن مزاجه الشديد التأثر والانفعال لم يكن يطيق البقاء زمنا طويلا معلق الحكم . ودرس وهو فى رومة وميلان كتب أفلاطون وأفلوطين

وتأثرت فلسفته أشد التأثر بالأفلاطونية الجديدة ، وظلت تسيطر عن طريقه على علوم الدين المسيحية إلى أيام أبيلار Abélard . وكانت هذه الفلسفة سبيل أوغسطين إلى المسيحية . وكان أمبروز قد أشار عليه بأن يقرأ الكتاب المقدس على ضوء ما قاله بوليس من أن « الحرفية تقتل ولكن الروح تعمل للحياة » . ووجد أوغسطين أن التفسير الرمزى للكتاب المقدس يزيل ما كان يبدو له فى سفر التكوين من سخف . ولما قرأ رسائل بولس شعُر بأنه قد وجد رجلا مرت به مثله آلاف الشكوك ، فلما ثبتت عقيدته آخر الأمر لم يكن عقلا أفلاطونياً مجرداً بل وجد كلمة الله التى أصبحت إنساناً . وبينا كان أوغسطين جالساً فى يوم من الأيام فى إحدى حدائق ميلان مع صديقه أليپيوس ، خيل إليه أنه يسمع صوتاً يطن فى أذنيه ويناديه : « خذ واقرأ ، خذ واقرأ » . ففتح رسائل بولس مرة أخرى وقرأ :

لا بالبطر والسكر ، لا بالمضاجع والعهر ، لا بالخصام والحسد . بل ألبسوا الرب يسوع المسيح ، ولا تضعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات(*) .

وكانت هذه الفقرة خاتمة تطور طويل الأمد فى مشاعر أوغسطين وأفكاره وقد وجد فى هذا الدين العجيب شيئاً أعظم حرارة وأعمق فكراً من كل ما فى منطق الفلسفة ؛ لقد جاءته المسيحية لترضى فيه عاطفته المنفعلة القوية ؛ فلما أن تخلص من التشكك الذهنى وجد لأول مرة فى حياته دافعاً خُلقيًّا قوياً ، وراحة عقلية ، وأقر صديقه أليپيوس أنه هو الآخر مستعد لأن يخضع مثله لهذا الصوت الجديد . وتلقت مُنِكا هذا الاستسلام منهما فعكفت على الصلاة حمداً لله على هذه النعمة .

(*) من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية الأصحاح الثالث عشر الآية ، ١٤ : (المترجم)

وفى يوم عيد الفصح من عام ٣٨٧ عَمَّد أمبروز أوغسطين ، وأليپيوس وأديوداتس ، ووقفت مُنيكا إلى جانبهم أثناء التعميد فرحة مستبشرة . وصمم أربعتهم على أن يذهبوا إلى أفريقية ليعيشوا فيها معيشة الرهبان . ثم ماتت منكا فى أستيا Ostia وهى واثقة من أنها ستجتمع بهم فى الجنة . ولما وصلوا إلى أفريقية باع أوغسطين ما خلفه له أبوه من ميراث صغير ووزع ثمنه على الفقراء ، ثم ألف هو وأليپيوس وطائفة من الأصدقاء جماعة دينية وعاشوا معاً فى تاجستى ، فقراء ، عزاباً ، منقطعين للدرس والصلاة . وعلى هذا النحو وُجدت الطريقة الأوغسطينية (٣٨٨) ، وهى أقدم أخوة رهبانية فى الغرب كله .

٢ — العالم الدينى

توفى أديوداتس فى عام ٣٨٩ وحزن عليه أوغسطين كأنه لم يزل وقتئذ يشك فيما ينتظره الذين يموتون وهم مؤمنون بالمسيح من سعادة أبدية . وكان عزاؤه الوحيد فى هذا الحزن العميق هو العمل والكتابة ؛ وفى عام ٣٩١ استعان به ڤليريوس أسقف هپو Hpoo (بونة الحالية) على إدارة أبرشيته ، ورسمه قسيساً ليمكنه من القيام بهذا العمل . وكثيراً ما كان ڤليريوس يترك له منبر الخطابة ، فكانت بلاغة أوغسطين تؤثر أبلغ الأثر فى المصلين سواء فهموها أو لم يفهموها . وكانت هپو ثغراً يسكنه نحو أربعين ألفاً من السكان ، وكان للكاثوليك فيه كنيسة ، وللدوناتيين كنيسة أخرى ، وكانت بقية السكان من المانيين(*) ، أو الوثنيين . وكان فرتوناتس Fartunatus الأسقف المانى صاحب السيطرة الدينية فى هذه البلدة ، ولهذا انضم الدوناتيون إلى الكاثوليك فى تحريض أوغسطين على أن يقابله فى نقاش دينى ، وقبل أوغسطين هذا الطلب ، ولبث

(*) أتباع مانى وهو من أهل همذان (إكباتانا) عاش فى القرن الثالث وكان يقول : إن كل شىء ينشأ من أصلين رئيسيين النور والظلمة أو الخير والشر . (المترجم)

هذان الخصمان ، أو إن شئت فقل المجالدان الجديدان يومين كاملين فى جدلهم أمام حشد كبير امتلأت به حمامات سوسيوس Socios . وفاز أوغسطين على مناظره ، فغادر فرتوناتس هپو ولم يعد إليها أبدا (٣٩٢) .

وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت طلب ڤليريوس إلى أتباعه أن يختاروا خلفه معللا طلبه هذا بشيخوخته ، فأجمعوا أمرهم على اختيار أوغسطين ، لكنه عارض فى هذا الاختيار وبكى ، وتوسل إليهم أن يسمحوا له بالعودة إلى ديره ، غير أنهم تغلبوا عليه ؛ وظل الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من عمره أسقفاً لهپو .

ومن هذه البقعة الصغيرة كان يحرك العالم . فبدأ عمله باختيار شماس أو شماسين ، وجاء براهبين من ديره ليساعداه فى عمله ، وعاشوا جميعاً عيشة الدير الشيوعية فى مسكنهم الكنسى ، ولذلك استولت بعض الدهشة على أوغسطين حين رأى أحد أعوانه يترك حين وفاته ميراثاً لا بأس به[٥٩] . وكانوا جميعاً يعيشون على الخضر ويبقون اللحم للأضياف والمرضى . وقد وُصف أوغسطين نفسُه بأنه قصير القامة ، نحيل الجسم ، ضعيف البنية على الدوام ؛ وكان يشكو اضطراباً فى الرئة ، وكان شديد التأثر بالبرد . وكان مرهف الأعصاب ، سريع التهيج ، قوى الخيال مكتئبه ، حاد الذهن ، مرن العقل . وما من شك فى أنه كان يتصف بكثير من الخلال المحبوبة رغم تمسكه الشديد بآرائه ، وتعسفه فى أحكامه الدينية ، وعدم تسامحه فى بعض الأحيان . وقبل كثيرون ممن جاءوه ليأخذوا عنه فنون البلاغة زعامته الدينية ، وظل أليپيوس من أتباعه إلى آخر حياته .

ولم يكد أوغسطين يجلس على كرسى الأسقفية حتى بدأ كفاحه الذى استمر مدى الحياة ضد الدوناتية . فكان يتحدى زعماءهم ويدعوهم إلى المناقشة العلنية ، ولكن لم يقبل دعوته إلا عدد قليل منهم ؛ ثم دعاهم إلى مؤتمرات حبية ، ولكنهم أجابوه بالصمت ، ثم بالإهانة ، ثم بالعنف ؛ وشنوا هجوماً شديداً على عدد من الأساقفة الكاثوليك فى شمالى أفريقية ؛ ويبدو أن عدة محاولات قد

بذلت لاغتيال أوغسطين نفسه[٦٠] . على أننا لا نستطيع أن نقطع فى هذا برأى حاسم لأنه ليس لدينا ما يقوله الدوناتية فى هذا الشأن ؛ وفى عام ٤١١ اجتمع مجلس دينى فى قرطاجنة استجابة لدعوة الإمبراطور هونوريوس ليضع حداً للنزاع مع الدوناتية ؛ وأرسل الدوناتيون ٢٧٩ من أساقفتهم ، كما أرسل الكاثوليك ٢٨٦ أسقفاً — لكننا يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن لفظ أسقف لم يكن له فى أفريقية معنى أكثر من لفظ قسيس . وبعد أن سمع مرسلينوس Marcellinus مندوب الإمبراطور حجج كل من الفريقين أمر ألا يعقد الدوناتية اجتماعاً عاماً بعد ذلك اليوم ، وأن يسلموا جميع كنائسهم إلى الكاثوليك . ورد الدوناتية على ذلك بأعمال فى منتهى العنف منها ، على ما يقال ، أنهم قتلوا رستيتوتوس Restitutus أحد قساوسة هپو وبتروا بعض أعضاء رجل من رجال أوغسطين ، وألح أوغسطين على الحكومة أن تنفذ قرارها بالقوة[٦١] ، وخرج على آرائه القديمة القائلة بأنه « يجب ألا يرغم أحد على القول بوحدة المسيح . . . وأنه ينبغى لنا ألا نقاتل الناس إلا بقوة الحجة ، وألا نتغلب إلا بقوة العقل »[٦٢] . وختم دعوته بقوله إن الكنيسة هى الأب الروحى لجميع الناس ، ومن ثم يجب أن يكون لها ما للأب من حق فى عقاب الإبن المشاكس لرده إلى ما فيه الخير له[٦٣] ؛ وقد بدا له أن إيقاع الأذى ببعض الدوناتية خير « من أن تنصب اللعنة على الجميع لحاجتهم إلى من يرغمهم »[٦٤] . وكان فى الوقت نفسه يكرر الدعوة إلى موظفى الدولة ألا ينفذوا عقوبة الإعدام على المارقين[٦٥] .

وإذا غضضنا النظر عن هذا النزاع المرير ، وعن المشاغل التى تتطلبها أعمال منصبه الدينى ، حق لنا أن نقول إن أوغسطين كان يعيش فى مملكة العقل وإن معظم عمله كان بقلمه . فقد كان يكتب فى كل يوم تقريباً رسالة لا يزال لها أعظم الأثر فى أصول المذهب الكاثوليكى ؛ وإن مواعظه وحدها لتملأ مجلدات ضخمة . ومع أن بعضها قد أفسدته البلاغة المصطنعة وما فيه من جمل متقابلة متوازنة ؛ ومع

أن الكثير من هذه المواعظ يبحث فى موضوعات محلية ، لا شأن لها بغير الوقت الذى قيلت فيه ، ويبحث فيها بأسلوب بسيط يتفق مع عقلية الجماعات غير المتعلمة التى كانت تستمع إليه ، ومع هذا كله فإن الكثير من هذه المواعظ يسمو إلى منزلة عليا من الفصاحة منشؤها عاطفته الصوفية القوية ، والعقيدة الثابتة المتأصلة فى أعماق نفسه . ولم يكن فى وسعه أن يحصر عقله فى أعمال أبرشيته لأنه عقل دأب على العمل ومرن على منطق المدارس . وقد بذل غاية جهده فيما أصدره من الرسائل التى كان بعضها يأخذ برقاب بعض فى أن يوفق بين العقل وبين عقائد الكنيسة التى كان يجلها ويرى أنها دعامة النظام والأخلاق الفاضلة فى هذا العالم الحرب المضطرب . وكان يدرك أن التثليث هو العقبة الكؤود فى سبيل هذا التوفيق ، ولهذا قضى خمسة عشر عاما يعمل فى أدق كتبه وأحسنها تنظيما وهو كتاب التثليث De Trinitate — الذى حاول فيه أن يجد فى التجارب الإنسانية نظائر لثلاثة أشخاص فى إله واحد . ومما حيره أكثر من هذه المسألة ، وملأ حياته كلها بالدهشة والمجادلة ، مشكلة التوفيق بين حرية الإرادة وعلم الله الأزلى السابق لأعمال الإنسان . فإذا كان علم الله يشمل كل شىء فهو يرى المستقبل بكل ما فيه ، ولما كانت إرادة الله ثابتة لا تتغير فإن ما لديه من صورة للحوادث التى سوف تقع فى المستقبل يحتم عليها أن تقع وفقاً لهذه الصورة ، فهى إذن مقررة من قبل لا تبديل فيها ولا تغيير . فكيف والحالة هذه يكون الإنسان حراً فى أعماله ؟ ألا يجب على الإنسان إذن أن يعمل وفق ما هو سابق فى علم الله ؟ وإذ كان الله عليما بكل شىء ، فقد عرف منذ الأزل المصير الأخير لكل روح خلقها ؛ فلم إذن خلق الأرواح التى قدر عليها اللعنة ؟

وكان أوغسطين قد كتب فى السنين الأولى من حياته المسيحية رسالة « فى حرية الإرادة De libero arbitrio » . حاول فيها وقتئذ أن يوفق بين وجود الشر وبين الخير الذى يتصف به الله القادر على كل شىء . وكان الحل الذى

وصل إليه فى هذه المشكلة هو أن الشر نتيجة لحرية الإرادة ؛ ذلك أن الله لا يمكن أن يترك الإنسان حراً ، دون أن يمكنه من أن يعمل الشر كما يعمل الخير . ثم تأثر فيما بعد برسائل بولس فقال إن خطيئة آدم قد وصمت الجنس البشرى بوصمة الميل إلى الشر ، وإن الأعمال الصالحة مهما كثرت لا تستطيع أن تمكن النفس البشرية من التغلب على هذا الميل ، ومحو هذه الوصمة ، والنجاة منها ؛ بل الذى يمكنها من هذا هو النعمة الإلهية التى يهبها الله لكل من أراد . ولقد عرض الله هذه النعمة على الناس جميعاً ولكن الكثيرين منهم رفضوها . وكان الله يعلم أنهم سيرفضونها ، ولكن العقاب الذى قد يحل بهم نتيجة لهذا الرفض هو الثمن الذى يؤدونه لهذه الحرية الأخلاقية التى بغيرها لا يكون الإنسان إنساناً . وعلم الله السابق لا يتعارض مع هذه الحرية ، إذ كل ما فى الأمر أن الله يرى من قبل ما سيختاره الإنسان بمحض حريته(٦٦) .

ولم يبتدع أوغسطين عقيدة الخطيئة الأولى ؛ ذلك أن بولس ، وترتليان ، وسبريان ، وأمبروز كلهم قد علموها الناس ؛ ولكن الخطايا ، التى اوتكبها « والصوت » الذى هداه قد غرسا فيه اعتقاداً مقبضاً بأن إرادة الإنسان تنزع من مولده إلى عمل الشر ، وألا شيء يستطيع ردها إلى الخير إلا فضل الله الذى يهبه للناس من غير مقابل . ولم يكن فى مقدور أوغسطين أن يفسر نزعة الإرادة البشرية إلى الشر بأكثر من أنها نتيجة لخطيئة حواء ، وحب آدم لها . ويقول أوغسطين إننا ونحن كلنا أبناء آدم ، نشاركه فى إثمه ، بل إننا فى الواقع أبناء هذا الإثم : لأن الخطيئة الأولى كانت نتيجة شهوته ، ولا تزال هذه الشهوة تدنس كل عمل من أعمال التناسل ؛ وبفضل هذه الصلة بين الشهوة الجنسية والأبوة ، كان الجنس البشرى « جمعا من الخاسرين » وحلت اللعنة على الكثرة الغالبة من الآدميين . نعم إن بعضنا سوف ينجو ، ولكن نجاة هؤلاء لن تكون إلا نعمة ينالونها بسبب ما قاساه ابن الله من آلام ؛ وبشفاعة الأم التى حملت

فيه من غير دنس . « لقد حل بنا الهلاك بفعل امرأة ، وعادت إلينا النجاة بفضل امرأة »[٦٧] .

ولقد انحدر أوغسطين أكثر من مرة إلى مبالغات حاول فيما بعد أن يخفف منها ، وكان سبب انحداره إليها كثرة ما كتب وسرعته فى كتابته التى كثيراً ما كان يمليها إملاء كما نظن . فكان فى بعض الأحيان يدعو إلى العقيدة الكلفنية القائلة بأن الله قد اختار بمحض إرادته منذ الأزل « الصفوة » التى سيهبها نعمة النجاة[٦٨] . وقد قامت طائفة كبيرة من النقاد تصب عليه جام غضبها لأخذه بأمثال هذه النظرية ؛ ولكنه لم يتراجع عن شىء منها بل دافع عن كل نقطة منها إلى آخر أيام حياته . وجاءه من إنجلترا الراهب پلاجيوس Pelagius وهو أقدر معارضيه بدفاع قوى عن حرية الإنسان ، وعن قدرة الأعمال الصالحة على نجاته من العذاب . وكان مما قاله پلاجيوس إن الله فى واقع الأمر يعيننا على الخير بما ينزله علينا من الشرائع والوصايا ، وبما يضربه قديسوه من الأمثلة الصالحة قولا وفعلا ، وبمياه التعميد المطهرة ، وبدم المسيح المنقذ . ولكن الله لا يرجح كفة خسراننا بأن يجعل الطبيعة البشرية آثمة بفطرتها . فلم تكن ثمة خطيئة أولى ، ولم يكن هناك سقوط للإنسان ، ولن يعاقب على الذنب إلا من ارتكبه ، ولن ينتقل منه جرم إلى أبنائه[٦٩] . والله لا يُقَدِّر على هؤلاء الأبناء أن يكون مصيرهم الجنة أو النار ، ولا يختار متعسفاً من يلعنه ومن ينجيه ، بل يترك لنا نحن أن نختار مصيرنا . ويمضى پلاجيوس فيقول إن القائلين بفساد الإنسان الأخلاقى إنما يلومون الله على خطايا البشر . إن الإنسان يشعر بأنه مسئول عما يعمل ومن أجل هذا فهو مسئول عنه حقاً ، « وإذا كنت مرغماً فإنى قادر » .

وجاء پلاجيوس إلى رومة حوالى عام ٤٠٠ وعاش فيها مع أُسر صالحة ، واشتهر بالتقى والفضيلة . وفى عام ٤٠٩ فرَّ من ألريك ، وكان فراره إلى قرطاجنة ثم إلى فلسطين ، حيث عاش فى سلام حتى جاء أورسيوس الشاعر الأسپانى من

عند أوغسطين يحذر منه چيروم (٤١٥) : وعقد مجمع ديني شرقي ليحاكم الراهب ، ولكنه قرر صحة عقائده ؛ غير أن مجمعاً أفريقياً نقض هذا الحكم بتحريض أوغسطين ولجأ إلى البابا إنوسنت Innocent الأول فأعلن أن پلاجيوس مارق من الدين ؛ وحينئذ ملأ الأمل صدر أوغسطين فأعلن أن « القضية قد أصبحت مفروغا منها Causa finita est »(*) . ثم مات إنوسنت وخلفه زوسموس Zosimus وأعلن أن پلاجيوس برىء ؛ ولجأ أساقفة أفريقية إلى هونوريوس ، وسرّ الإمبراطور أن يصحح خطأ البابا ؛ وخضع زوسموس للإمبراطور (٤١٨) ، وأعلن مجلس إفسوس أن ما يراه پلاجيوس من أن في مقدور الإنسان أن يكون صالحا دون أن يستعين بنعمة الله زيغ وضلال :

وفي استطاعة الباحث أن يجد في أقوال أوغسطين متناقضات وسخافات بل وقسوة سقيمة في التفكير ، ولكن ليس من السهل أن يتغلب عليه لأن الذى يشكل آراءه الدينية في آخر الأمر هو مغامراته الروحية ، ومزاجه الجياش بالعاطفة لا تفكيره المنطقي المتسلسل . ولقد كان يعرف ما ينطوى عليه العقل البشرى من ضعف ، ويدرك أن تجارب الفرد القصيرة هى التى تحكم حكما طائشاً على تجارب الجنس البشرى كله ويقول : «كيف تستطيع أربعون عاماً فهم أربعين قرناً ؟ » وقد كتب إلى صديق له يقول : « لا تعارض بحجج قوية هائجة فيما لا يزال عسير الفهم عليك ، أو فيما يبدو لك في الكتاب المقدس ... من تباين وتناقض ، بل أجِّل ... في وداعة اليوم الذى تفهمه فيه »(٧١) إن الإيمان يجب أن يسبق الفهم . لا تحاول أن تفهم لكى تؤمن ، بل آمن لكى تفهم »(٧٢) . « وقوة الأسفار المنزلة أعظم من جميع جهود الذكاء البشرى »(٧٣) . لكنه يرى

(*) ليس في مقدورنا أن نجد فيما لدينا من مؤلفات أوغسطين أو في الروايات الموثوق بها عنه تلك الألفاظ التى تعزى له غالبا بهذه المناسبة وهى : « لقد تكلمت رومة وانتهت القضية » (Roma locuta est, Causa finita)

أن ليس من المحتم أن تفهم ألفاظ الكتاب المقدس حرفياً ؛ فقد كتبت أسفاره لكى تفهمها العقول الساذجة ، ولهذا كان لا بد من أن تستخدم فيه ألفاظ خاصة بالجسم للدلالة على الحقائق الروحية(٧٤) . وإذا اختلف الناس فى تفسيرها كان علينا أن نرجع إلى حكم مجالس الكنيسة أى إلى الحكمة الجامعة المستمدة من أعظم رجالها حكمة(٧٥) .

على أن الإيمان نفسه لا يكفى وحده للفهم الصحيح ؛ بل يجب أن يصحبه قلب طاهر يسمح بأن ينفذ فيه ما يحيط بنا من أشعة قدسية . فإذا تطهر الإنسان وتواضع على هذا النحو ارتقى بعد سنين كثيرة إلى الغاية الحقة وإلى جوهر الدين وهو « الاستحواذ على الله الحى » ؛ « إنى أريد أن أعرف الله والنفس ، وهل ثمة شىء أكثر من هذا ؟ لا شىء أكثر من هذا على الإطلاق »(٧٦) . إن أكثر ما تتحدث عنه المسيحية الشرقية هو المسيح ، أما عليم أوغسطين فيتحدث عن « الشخص الأول » . يتحدث ويكتب عن الله الأب وإلى الله الأب . وهو لا يخلع على الله أوصافاً ، لأن الله وحده هو الذى يعرف الله حق المعرفة(٧٧) . والراجح أن « الله الحق ليس بذكر ولا بأنثى ، وليس له عمر ولا جسم »(٧٨) ، ولكن فى وسعنا أن نعرف الله ، معرفة أكيدة بمعنى ما ، عن طريق خلقه ، لأن كل شىء فى العالم أعجوبة من أعظم العجائب فى نظامها وفى وظيفتها ، ولا يمكن أن توجد إلا إذا أوجدها عقل خلاق(٧٩) ؛ وإن ما فى الكائنات الحية من نظام ، وتناسب ، واتزان ، ليدل على وجود نوع من القدرة الإلهية الأفلاطونية يتوحد فيها الجمال والحكمة(٨٠) .

ولا شىء يضطرنا إلى الاعتقاد بأن العالم خلق فى ستة « أيام » ؛ وأكبر الظن أن الله قد خلق فى أول الأمر كتلة سديمية (nebulosa species) ، ولكن النظام البذرى ، أو المقدرة الإنتاجية rationes seminales كانت كامنة فى هذا النظام . ومن هذه القدرة الإنتاجية نشأت الأشياء كلها بعلل طبيعية(٨١) .

وكان أوغسطين يرى — كما يرى أفلاطون — أن ما فى العالم من أشياء حقيقية وحوادث قد وجدت كلها أولا فى عقل الله قبل أن توجد على سطح الأرض « كما يوجد تخطيط البناء فى عقل المهندس قبل أن يقيمه »[٨٢] ، ويحدث الخلقُ فى الوقت المناسب حسب هذه الصورة الأزلية الموجودة فى العقل الإلهى .

٣ — الفيلسوف

تُرى كيف نستطيع فى هذا الحيز الصغير أن نوفى صاحب هذه الشخصية القوية وهذا القلم الخصيب حقه من التمجيد والتكريم ؟ إن هذا الرجل لم يكد يترك مشكلة دينية أو سياسية إلا جهر فيها برأيه وبحثها فى رسائله البالغ عددها ٢٣٠ رسالة ، كتبها بأسلوب يفيض بقوة الشعور الحار وبعبارات خلاّبة استعمل فيها ألفاظاً جديدة صاغها من معينه الذى لا ينضب . فقد بحث فى حياء ودهاء طبيعة الزمن[٨٣] ، وسبق ديكارت إلى قوله : « إنى أفكر ولهذا فأنا موجود » ففند آراء رجال المجمع العلمى الذين يقولون إن الإنسان لا يستطيع أن يكون واثقاً من أى شى ، وقال : « مَتَنْذا الذى يشك فى أنه حى وأنه يفكر ؟ . . . ذلك بأنه إن شك فهو حى »[٨٤] . وكذلك سبق برجسن Bergeson فى شكواه من أن العقل لطول بحثه فى الأشياء الجسمية قد أصبح مادى النزعة ؛ وأعلن كما أعلن كانت Kant أن الروح هى أكثر الحقائق كلها علماً بنفسها ، وعبر تعبيراً واضحاً عن النزعة المثالية القائلة إنه « لما كانت المادة لا تعرف إلا عن طريق العقل فليس فى مقدورنا من الناحية المنطقية أن نهبط بالعقل فنجعله مادة[٨٥] . وأشار إلى مبحث شوبنهور فى أن الإرادة ، لا العقل ، هى العنصر الأساسى فى الإنسان ، واتفق مع شوبنهور فى أن العالم يصلح إذا وقف كل ما فيه من تناسل[٨٦] .

ومن مؤلفاته كتابان يُعدان من خير كتب الأدب القديم فى العالم كله :

فاعترافاته (حوالى عام ٤٠٠) هى أول ما كتب من التراجم الذاتية وأوسعها شهرة . والكتاب موجه إلى الله مباشرة بوصفه توبة إليه من الذنوب صيغت فى مائة ألف كلمة . ويبدأ الكتاب بوصف ما اقترفه من الذنوب فى صباه ، ثم يروى قصة هدايته فى وضوح ، وتتخلل هذه القصة أحياناً نشوة قوية من الصلوات والأدعية . إن الاعترافات كلها ستار للجريمة ، ولكن فى اعترافات أوغسطين بالذات إخلاصاً ذهل منه العالم كله . ولقد قال هو نفسه — بعد أن بلغ الرابعة والستين من عمره وأصبح أسقفا — إن الصورة الشهوانية القديمة ، « لا تزال حية فى ذاكرتى ، تندفع إلى أفكارى . . . فهى تساورنى فى نومى لا لتسرنى فحسب بل قد يبلغ بى الأمر أن أرضى عنها وأوافق عليها وأحب أن أخرجها من التفكير إلى التنفيذ »[٨٧] . وتلك صراحة وتحليل نفسانى لا نجدهما عادة فى الأساقفة . وكتابه هذا الذى يعد خير كتبه كلها هو قصة نفس بلغت أعلى درجات الإيمان والسلام . وإنا لنجد فى سطوره الأولى خلاصة له كله : « لقد خلقتنا يا رب لنفسك ولن تعرف قلوبنا الراحة حتى تستريح لديك » . ولما بلغ هذه المرحلة كانت عقيدته ثابتة لا تتسرب إليها ريبة مؤمنة بما فى خلق الكون من عدالة :

« لقد أحببتك يارب بعدفوات الأوان ، يا إلهى يا ذا الجمال التليد والطارف .. إن السماء والأرض وكل ما فيهما لتوحى إلىّ من جميع نواحىّ أن الواجب علىّ أن أحبك ... فأى شىء أحب الآن حين أحبك يا رب؟ ... لقد سألت الأرض فأجابت لست أنا الذى تحب ... وسألت البحر والأعماق البعيدة وكل ما يدب على الأرض فأجابت كلها : لسنا نحن إلهك ، فابحث عنه من فوقنا . وسألت الرياح العاصفة فأجابنى الهواء بكل ما فيه : لقد كان أنكسيمانس مخدوعاً ، لست أنا الله . وسألت السموات ، والشمس والقمر والنجوم فقالت : لسنا نحن الله الذى تبحث عنه . فأجبتها كلها ... حدثينى عن الله ؛ إذا لم تكونى أنت

هو فحدثيني عنه . فصاحت كلها بصوت عال : لقد خلقتنا ... وإن الذين لا يجدون السرور فى كل شيء خلقته لقوم فقدوا عقولهم ... وفى رضاك يا إلهى عنا سلامنا(*)(٨٨) .

واعترافات أوغسطين شعر فى صورة نثر ؛ أما كتابه الآخر « مدينة الله » (٤١٣ — ٤٢٦) فهو فلسفة فى صورة تاريخ . وكان الباعث له على كتابته أنه لما ترامت إلى أفريقية أنباء نهب ألريك لرومة ، وما أعقبه من فرار آلاف اللاجئين ثارت نفس أوغسطين ، كما ثارت نفوس چيروم وغيره ، لهذه الفاجعة التى بدت لهم كلهم عملاً شيطانيا لايفعله من أوتى ذرة من العقل . وتساءل الناس قائلين : لم يترك الإله الخير الرحيم تلك المدينة التى أبدع الناس جمالها وأنشأوا قوائمها وظلوا يجلونها القرون الطوال ، والتى أضحت الآن حصن المسيحية الحصين ، لم يتركها الإله إلى البرابرة يعيثون فيها فساداً ؟ وقال الوثنيون فى كل مكان إن المسيحية هى سبب ما حل بالمدينة من دمار : ذلك أن الآلهة القديمة قد تخلت عن حماية رومة بسبب ما أصاب تلك الآلهة من نهب ، وثل لعروشها ، وتحريم لعبادتها . وكانت هذه المدينة قد نمت وازدهرت وعمها الرخاء مدى ألف عام بفضل هداية هذه الآلهة . وتزعزع إيمان كثيرين من المسيحين بسبب هذه الكارثة . وشعر أوغسطين فى قرارة نفسه بهذا التحدى ، وأدرك أن ذلك الصرح الدينى العظيم الذى شاده لنفسه على مر السنين ، يوشك أن ينهار إذا لم يعمل شيئاً يخفف من هذا الذعر المستولى على النفوس . ولهذا قرر أن يبذل كل ما وهب من عبقرية لإقناع العالم الرومانى أن هــذه الكارثة وأمثالها لا تعيب المسيحية ولا تزرى بفضلها . وظل ثلاثة عشر عاما يواصل الليل بالنهار فى تأليف هذا الكتاب بالإضافة إلى ما كان يقوم به من واجبات وما يحيط به من مشاغل تشتت أفكاره . وكان ينشره آجزاء متقطعة فى فترات متباعدة حتى نسى وسطه

(*) انظر قول دانتى فى الجنة Peradiso (٣ : ٨٥) إن إرادته هى سلامنا .

أوّله ولم يدر ما سيكون آخره . ومن أجل هذا كان لابد أن تصبح صفحاته البالغة ١٢٠٠ صفحة سلسلة من المقالات المهوشة فى جميع الموضوعات من الخطيئة الأولى إلى يوم الحساب . ولم يرفعه من الفوضى السارية فيه إلى أعلى مكانة فى أدب الفلسفة المسيحية إلا عمق تفكيره وبراعة أسلوبه .

وكان جواب أوغسطين الأول عما يدور بخلد الناس من أسئلة محيرة أن ما حل بروم لم يكن عقابا لها لاعتناقها الدين الجديد بل كان جزاء لها على ما لا تنفك ترتكبه من آثام ، ثم أخذ يصف ما يمثل على المسرح الوثنى من مفاسد ، ونقل عن سالست وشيشرون ما قالاه عن مفاسد السياسة الرومانية ، وقال إن الرومان كانوا فى وقت من الأوقات أمة من الرواقيين يبعث فيها القوة رجال من أمثال كاتو وسپيو ، وكادت أن تخلق القانون خلقا ، ونشرت لواء السلم والنظام على نصف العالم ، وفى هذه الأيام القديمة أيام النبل والبطولة تجلى الله عليها بوجهه ، وأشرق عليها بنوره ، ولكن بذور الفساد الخُلُقى كانت كامنة فى دين رومة القديم نفسه ، كامنة فى ثنايا تلك الآلهة التى كانت تشجع الغرائز الجنسية بدل أن تقاومها ، تشجع الإله فرچنيوس على أن يحل حزام العذراء ، وسبجوس Subigus على أن يضعها تحت الرجل ، وپريما Prema على أن تتكئ عليها . . . وتشجع پرياپوس Priapus الذى أُمرت العروس الجديدة أن تقوم وتجلس فوق عضوه الضخم الحيوانى(٨٩) . لقد عوقبت رومة ، لأنها كانت تعبد أمثال تلك الآلهة لا لأنها غفلت عن عبادتها . ولقد أبقى البرابرة على الكنائس المسيحية وعلى الذين لجأوا إليها ، ولكنهم لم يرحموا المعابد الوثنية ، فكيف إذن يكون الغزاة صوت عذاب فى أيدى الآلهة الوثنية ؟

وكان رد أوغسطين الثانى ضربا من فلسفة التاريخ — فقد كان محاولة منه لتفسير الحوادث التى وقعت فى أزمنة التاريخ المدون على أساس عامّ واحد . فقد استمد أوغسطين من فكرة أفلاطون عن الدولة المثالية القائمة

« فى مكان ما فى السماء » ، ومن فكرة القديس بولس عن وجود مجتمع من القديسين الأحياء منهم والأموات[٩٠] ، ومن عقيدة تيكنيوس Tyconius الدوناتى عن وجود مجتمعين أحدهما لله والآخر للشيطان ، استمد من هذا كله الفكرة الأساسية التى قام عليها كتابه وهو أنه قصة مدينتين : مدينة أرضية يسكنها رجال هذه الدنيا المنهمكون فى شئون الأرض ومباهجها ، ومدينة إلهية هى مدينة عبادالله الواحد الحق فى الماضى والحاضر والمستقبل . ولماركس أورليوس فى هذا المعنى عبارة ما أعظمها : « فى وسع الشاعر أن يقول لأثينة : أى مدينة سكربس Cecrops الجميلة ! فهلاّ قلت أنت للعالم أى مَدينة الله الجميلة ؟ »[٩٢] . وكان أورليوس يقصد بقوله هذا الكون المنظم كله . ويقول أوغسطين إن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة وإن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه بسبب الشياطين » . والجنس البشرى منقسم قسمين مختلفين : منهم قسم يعيش طبقاً لسنن الآدميين ، وقسم يعيش طبقاً لسنة الله . ونحن نطلق على هذين القسمين اسمين رمزيين فنسميهما « المدينتين » أو « المجتمعين » . فواحدة منهما قُدّر لها أن تَحْكُم إلى أبد الدهر مع الله ، وأخرى قد حُكِم عليها أن تعذّب إلى أبد الدهر مع الشيطان »[٩٣] . وليس حتما أن تنحصر المدينة أو الإمبراطورية الواقعية من جميع نواحيها فى داخل نطاق المدينة الأرضية ؛ فقد تقوم بأعمال طيبة ، فتسن الشرائع الحكيمة ، وتصدر الأحكام العادلة ، وتساعد الدين ، كأن هذه الأعمال الصالحة تحدث فى داخل مدينة الله ؛ كذلك ليست المدينة الروحية هى بعينها الكنيسة الكاثوليكية ، فإن الكنيسة أيضاً قد تكون لها مصالح أرضية ، وقد ينحط أتباعها فيعملون لمصلحتهم الخاصة ، ويرتكبون الذنوب ، وينحدرون من إحدى المدينتين إلى الأخرى ، ولن تنفصل المدينتان وتصبح كلتاهما بمعزل عن الأخرى إلاّ فى يوم الحساب[٩٤] .

وفى وسع الكنيسة أن تكون هى بعينها مدينة الله ، وإن أوغسطين ليجعلها

كذلك فى بعض الأحيان ، وذلك بأن تتسع عضويتها اتساعاً رمزياً للأرواح السماوية والأزواج الأرضية ، وللصالحين من الناس الذين عاشوا قبل المسيحية وفى أيام المسيحية(٩٥) . وقد احتضنت المسيحية فيما بعد هذه الفكرة القائلة بأنها هى مدينة الله واتخذتها سلاحاً أدبياً استخدمته فى الشئون السياسية ، كما أنها استنتجت استنتاجاً منطقياً من فلسفة أوغسطين عقيدة الدولة الدينية تخضع فيها السلطات الدنيوية المستمدة من البشر إلى السلطة الروحية الممثلة فى الكنيسة والمستمدة من الله . وقد قضى هذا الكتاب على الوثنية بوصفها فلسفة ، كما بدأت به المسيحية من حيث هى فلسفة ، وهو أول صياغة محددة جازمة لعقلية العصور الوسطى .

٤ ـ البطريق

وكان البطل المؤمن الشيخ لايزال فى منصبه حين هجم الوندال على شمالى أفريقية ، وقد بقى فى صراعه الدينى إلى آخر أيام حياته يقضى على البدع الجديدة ، ويلاقى الناقدين ، ويرد على المعترضين ، ويحل المشاكل . وكان يبحث فى جد هل تبقى النساء نساء فى الدار الآخرة ، وهل يبعث المشوهون ، والمبتورو الأعضاء ، والنحاف والسمان فى تلك الدار كما كانوا فى حياتهم الدنيوية ، وكيف السبيل إلى عودة الذين أكلهم غيرهم فى أيام القحط؟(٩٦) ؛ ولكن الشيخوخة أدركته ولحقته معها إهانات محزنة ، وسئل فى ذلك الوقت عن صحته فأجاب : « أما من حيث الروح فأنا سليم . . . وأما من حيث الجسم فأنا طريح الفراش ، لاأقوى على المشى أو الوقوف أو الجلوس لإصابتى بالبواسير المتورمة . . . ومع ذلك فما دام هذا هو الذى ارتضاه لى الله ، فماذا أقول غير أنى فى حالة طيبة ؟ »(٩٧).

وكان قد بذل غاية جهده فى أن يؤجل خروج بنيفاس على رومة ، واشترك فى دعوته إلى الاحتفاظ بولائه لها . ولما تقدم جيسريك فى زحفه استشاره كثيرون

من الأساقفة والقساوسة هل يبقون فى مناصبهم أو يلجأون إلى الفرار ؟ فأمرهم بالبقاء وضرب لهم المثل بنفسه . ولما أن حاصر الوندال مدينة هيبوكان أوغسطين يعمل على تقوية الروح المعنوية للأهلين الجياع بمواعظه ودعواته ، وظل كذلك حتى مات فى الشهر الثالث من أشهر الحصار فى السادسة والسبعين من عمره ، ولم يترك وصية لأنه لم يكن يمتلك شيئاً ، ولكنه كتب بنفسه قبريته : « ما الذى يثقل قلب المسيحى ؟ إن الذى يثقله هو أنه حاج مشتاق إلى بلده »(٩٨) .

وقلّ أن نجد فى التاريخ رجلاً يضارعه فى نفوذه وقوة أثره . نعم إن الكنيسة الشرقية لم تشغف بتعاليمه ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أنه كان بعيداً كل البعد عن اليونانية فى قلة علمه وفى إخضاعه الفكر للشعور والإرادة ؛ كما يرجع بعضه إلى أن الكنيسة الشرقية قد خضعت قبل أيامه لسلطان الدولة . أما فى الغرب فقد طبع المذهب الكاثوليكى بطابعه الخاص ، وسبق جريجورى السابع وإنسنت الثالث فيما طلبته الكنيسة من أن تكون لها السلطة العليا على عقول الناس وعلى الدولة ، ولم تكن المعارك الكبرى التى شبت بين البابوات والأباطرة والملوك إلا نتيجة سياسية لتفكيره . ولقد ظل حتى القرن الثالث عشر المسيطر على الفلسفة الكاثوليكية ، وصبغها بصبغة الفلسفة الأفلاطونية ، وحتى أكويناس الأرسطوطيلى النزعة قد سار فى ركابه . وكان ويكلف Wyclif ، وهوس Huss ، ولوثر Luther ، يعتقدون أنهم يعودون إلى أوغسطين حين خرجوا على الكنيسة . ولقد أقام كلفن Calvin عقيدته الصارمة على نظريات أوغسطين الخاصة بالصفوة المختارة والطائفة الملعونة . وفى الوقت الذى كان يبعث رجال الفكر على التدبر والتفكير ، كان هو الملهم لمن كانت مسيحيتهم خارجة من القلب أكثر من خروجها من العقل . فكان المتصوفة يحاولون أن يترسموا خطاه وهم يتطلعون إلى رؤية الله ، وكان الرجال والنساء يجدون فى خشوعه ورقة دعواته وصلواته حاجتهم من الغذاء الروحى ومن الألفاظ القوية التى تأخذ

بمجامع القلوب ولعل سر نفوذه وسلطانه على الأجيال التالية أنه ألف بين العناصر الفلسفية والصوفية فى الديانة المسيحية ، وبعث فيها قوة لم تكن لها من قبل ، فمهد بذلك الطريق لتومس أكوناس ولتومس أكمبيس Thomas à Kempis أيضاً .

وكانت عباراته القوية العاطفية التى لا يلجأ بها إلى العقل بل إلى الشعور ، إيذاناً بانتهاء الأدب القديم ، وانتصار أدب العصور الوسطى . وإذا شئنا أن نفهم العصور الوُسطى على حقيقتها وجب علينا أن ننسى نزعتنا العقلية الحديثة ، وثقتنا التى نفخر بها بالعقل والعلم ، ودأبنا فى البحث عن الثروة والسلطان والجنة الأرضية ، ثم يجب علينا بعدئذ أن ندرك مزاج أولئك الرجال الذين كانت آمالهم فى هذه المطالب ، والذين وقفوا عند نهاية ألف عام من أعوام النزعة العقلية ، ووجدوا أن جميع ما كانوا يحلمون به من قيام دولة فاضلة خالية من جميع الآلام والآثام قد حطمتها الحرب والفقر والبربرية ، فأخذوا يبحثُون عن عزاء لهم فيما يؤملونه من سعادة فى الدار الآخرة ، ووجدوا لهم سلوى وراحة وإلهاماً فى قصة المسيح وفى شخصيته ، فألقوا بأنفسهم تحت رحمة الله ورضوانه ، وعاشوا حياتهم يفكرون فى وجوده السرمدى ، وفى حسابه الذى لا مفر منه ، وفى موت ابنه الذى كفر به عن خطاياهم . ويكشف أوغسطين أكثر من غيره ، حتى فى أيام سماخوس ، وكلوديان ، وأوسنيوس عن هذه النزعة ويعبر عنها أحسن تعبير . وبهذا كان أقوى وأصدق وأفصح صوت ارتفع فى المسيحية فى عصر الإيمان .

الفصل السادس

الكنيسة والعالم

كانت حجج أوغسطين ضد الوثنية آخر رد فى أعظم جدل قام فى التاريخ ، وقد بقيت بعده الوثنية بمعناها الأخلاقى أى بوصفها إطلاقاً ممتعاً للشهوات الغريزية ؛ أما بوصف كونها ديناً فلم تبق إلا فى صوة طقوس قديمة وعادات تغتفرها ، أو تقبلها ، الكنيسة الكثيرة التسامح ثم تعدلها بعد قبولها . ولقد حلت عبادة القديسين المخلصة الواثقة محل شعائر الآلهة الوثنية ، وأرضت نزعة الشرك التى توائم أصحاب العقول الساذجة أو الشعرية . وبُدِّل اسما تماثيل إيزيس وحورس باسمى مريم وعيسى ، وأصبح عيد اللوپركاليا وتطهير إيزيس عيد مولد المسيح[٩٩] ؛ واستبدلت بحفلات الساترناليا حفلات عيد الميلاد ، وبحفلات عيد الزهور حفلات عيد العنصرة ، وبعيد قديم للأموات عيد جميع القديسين[١٠٠] ، وببعث أتيس بعث المسيح[١٠١] . وأعيد تكريس المذابح الوثنية للأبطال المسيحيين ، وأدخل فى طقوس الكنيسة ما كان يغتبط به الناس فى الشعائر القديمة من بخور ، وأنوار ، وأزهار ، ومواكب ، وملابس ، وترانيم ؛ وتسامت العادة القديمة عادة ذبح الضحية الحية فكانت هى التضحية الروحية فى العشاء الربانى .

وكان أوغسطين قد عارض فى عبادة القديسين ، واحتج على ذلك بعبارات خليقة بأن ينطق بها ڤلتير فى تدشين كنيسته فى فيرنى Ferney . « علينا ألا ننظر إلى القديسين على أنهم آلهة ، إنا لا نريد أن نقلد أولئك الوثنيين الذين يعبدون الموتى ، ولهذا يجب ألا نبنى لهم معابد ، ولا نقيم لهم مذابح ، بل أن نرفع بمخلفاتهم مذبحاً إلى الإله الواحد »[١٠٢] . لكن الكنيسة قبلت عن حكمة هذا التجسد

الذى لا بد منه فى دين الشعب . لقد قاومت فى بادئ الأمر[١٠٣] ، عبادة القديسين ومخلفاتهم ، ثم استعانت بعدئذ بها ، ثم أساءت استخدامها . وعارضت فى عبادة التماثيل والصور ، وحذرت المؤمنين من تعظيمها إلا إذا فعلت ذلك بوصفها رموزا[١٠٤] لا أكثر ؛ ولكن قوة الشعور العام تغلبت على هذا التحذير ، وأدت إلى ذلك الإسراف الذى أثار مشاعر محطمى الصور والتماثيل الدينية البيزنطيين . كذلك قاومت الكنيسة السحر والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، ولكن آداب العصور الوسطى ، كالآداب القديمة ، ملأى بهذا كله ؛ وما لبث الشعب والقساوسة أن استخدموا علامة الصليب على أنها رقية سحرية تفيد فى طرد الشياطين أو إبعادها . وكانت التعاويذ تقرأ على رأس طالب التعميد ، كما كان يطلب إليه أن يغمره الماء وهو عار من جميع ملابسه حتى لا يختبئ شيطان فى ثوب يلبسه أو حلية يزين بها[١٠٥] . وأضحى العلاج بالأحلام الذى كان يسعى إليه من قبل فى هيكلى ايسكولابيوس Aesculapius موفوراً فى محراب القديسين كزمس Cosmos ودميان فى رومة ، ثم أصبح من المستطاع أن يحصل عليه فى مائة ضريح أخرى ، ولم يكن رجال الدين هم الذين أفسدوا الشعب فى هذه الأمور ، بل إن الشعب هو الذى أقنع رجال الدين بما يريد . ذلك أن روح الرجل الساذج لا تتأثر إلا عن طريق الحواس والخيال ، والحفلات والمعجزات ، والأساطير ، والخوف ، والأمل ؛ فإذا خلا الدين من هذا كله رفضه ، أو عدله حتى يدخله فيه . ولقد كان من الطبيعى أن يلجأ الشعب الخائف الذى يحيط به الحرب والخراب ، والفقر والمرض ، إلى الأضرحة والكنائس الصغرى والكبرى ، وإلى الأضواء الخفية ، ونغمات الأجراس المطربة ، وإلى المواكب ، والأعياد ، والطقوس الممتعه ليجد فيها سلواه .

واستطاعت الكنيسة بالتجائها إلى هذه الضرورات الشعبية أن تغرس فى قلوب الناس مبادئ أخلاقية جديدة . فقد حاول أمبروز ، وهو الإدارى الرومانى الحازم فى جميع مراحل حياته ، أن يصوغ المبادئ الأخلاقية الرومانية

فى ألفاظ وعبارات رواقية ، وبدّل عبارات شيشرون لكى توافق حاجاته ، وكانت أخلاق عظماء المسيحيين فى العصور الوسطى ، من أوغسطين إلى سفنرولا ، وفضيلتا ضبط النفس والتمسك التام بأهداب الفضيلة وهما من المثل العليا للرواقية ، كانت هذه هى التى شكلت النمط المسيحى للأخلاق ، لكن أخلاق الرجولة لم تكن هى المثل الأعلى عند عامة الشعب ؛ لقد طال عهد الشعب بالرواقيين ، ورأوا فضائل الرجولة تصبغ نصف العالم بالدماء ، وتاقت نفوسهم إلى أساليب أرق وأهدأ من الأساليب السابقة ، يُستطاع بفضلها إقناع الناس بأن يعيشوا مستقرين مسالمين ؛ ولذلك أخذ معلمو الجنس البشرى ينشرون على الناس لأول مرة فى تاريخ أوربا مبادئ الرأفة والحنان ، والطاعة ، والخشوع ، والصبر ، والرحمة ، والطهارة ، والعفة ، والرقة ، وكلها فضائل لعلها مستمدة من الأصول الاجتماعية الدنيا للكنيسة المسيحية ومن كثرة انتشارها بين النساء ، ولكنها خليقة إلى أعظم حد بأن تعيد النظام إلى شعب فقد قوته المعنوية ، وأن تروض أخلاق البرابرة النهابين ، وأن تهدئ من عنف العالم المتداعى الآخذ فى الانهيار .

وكان أعظم إصلاح قامت به الكنيسة هو الخاص بالمسائل الجنسية بين الرجال والنساء . ذلك أن الوثنية قد أجازت الدعارة على أنها وسيلة لتخفيف مشاق وحدة الزواج ، فجاءت الكنيسة تشن على الدعارة حملة شعواء لا هوادة فيها ، وتطلب إلى الرجل والمرأة أن يلتزما فى زواجهما مستوى واحداً من الوقار لا تفريق فيه بينهما . نعم إنها لم تنجح النجاح كله ؛ فقد رفعت من المستوى الأخلاقى فى البيت ، ولكن البغاء ظل على حاله ، وإن اندفع إلى الخفاء وإلى الدرك الأسفل من الانحطاط . ولعل الأخلاق الجديدة قد أرادت أن تقاوم الغريزة الجنسية التى تحللت من جميع القيود ، فتغالت فى العفة حتى جعلتها شغلها الشاغل ، وجعلت الزواج والأبوة أقل منزلة من العزوبة أو البكورية مدى الحياة ، ورفعت هذه العزوبة أو البكورية إلى مقام المثل العليا ، ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك آباء الكنيسة أن لا بقاء لأى

مجتمع يعيش على هذه المبادئ العقيمة . على أن من اليسير أن يدرك الإنسان هذا الارتداد إلى التزمت إذا ذكرنا ما كان عليه المسرح الروماني من فساد خلقي طليق ، وإلى ما كان في بعض الهياكل اليونانية والرومانية من بغاء ، وإلى انتشار الإجهاض وقتل الأطفال ، وإلى ما كان يرسم على جدران بمبي من الرسوم المخلة بالآداب ، وإلى رذائل الشذوذ الجنسي التي كانت واسعة الانتشار في بلاد اليونان والرومان ، وإلى الإفراط الشائع عند الأباطرة ، والشهوانية المنتشرة بين الطبقات العليا كما يكشف عنها كاتلوس ومارتيال ، وتاسيتوس ، وجوفنال . ووصلت الكنيسة في آخر الأمر إلى آراء أسلم من هذه وأحكم ، ووقفت بعد زمن ما موقفا لينا معتدلا من خطايا الجسم . غير أنه قد أسيء بعض الإساءة إلى فكرة الأبوة والأسرة ، فقد كثر في هذه القرون الأولى عدد المسيحيين الذين يظنون أن خير ما يؤدونه من خدمات لله سبحانه وتعالى — أو على الأصح أن خير طريقة ينجون بها من عذاب النار — أن يتركوا آباءهم ، أو أزواجهم ، أو أبناءهم ، ويفروا من تبعات الحياة سعيا وراء النجاة بأشخاصهم نجاة قائمة على الأثرة المرذولة ، مع أن الأسرة كانت في عهد الوثنية وحدة اجتماعية ودينية ؛ وكان من أعظم الخسائر أن أصبح الفرد هو هذه الوحدة في مسيحية العصور الوسطى .

غير أن الكنيسة قد قوت الأسرة لما أحاطت به الزواج من مراسم جدية رهيبة ورفعته من تعاقد إلى عمل مقـــدس إنها جعلت رابطة الزواج غير قابلة للحل فرفعت بذلك كرامة الزوجة وأمنتها على مركزها . وشجعت على الصبر الذي يولده فقد الأمل . ولقد أصاب منزلة المرأة بعض الأذى القصير الأجل من جراء عقيدة بعض آباء الكنيسة المسيحية القائلة بأن المرأة أصل الخطيئة وأداة الشيطان ، ولكن هذه العقيدة قد خفف من أثرها ما تلقاه أم الإله من تكريم . ولما كانت الكنيسة قد رضيت عن الزواج ، فقد حبذت كثرة النسل وباركته ، وحرمت الإجهاض وقتل الأطفال تحريما قاطعا ؛ ولعل تحريمها هذا وذاك هو الذي

حدا بعلماء الدين المسيحيين إلى إنزال اللعنة على كل طفل يموت من غير تعميد ، وإلى القول بأن جزاءه فى الدار الآخرة هو السجن فى الظلام السرمدى . وبفضل نفوذ الكنيسة جعل ڤلنتنيان الأول وأد الأطفال من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام .

ولم تحرم الكنيسة الاسترقاق ، بل كان أتباع الدين القويم والمارقون ، والرومان ، والبرابرة ، كان هؤلاء جميعاً يرون أن الاسترقاق نظام طبيعى لا يمكن القضاء عليه . وقام عدد كبير من الفلاسفة يحتجون على هذا الرأى ، ولكنهم هم أيضاً كان لهم عبيد . والشرائع التى سنها الأباطرة المسيحيون فى هذا الموضوع لا تسمو إلى منزلة شرائع أنطونينس پيوس أو ماركس أورليوس . مثال ذلك أن الشرائع الوثنية كانت تحكم على المرأة الحرة التى تتزوج رقيقاً بأن تكون هى الأخرى جارية ، أما قوانين قسطنطين فكانت تقضى بقتل هذه المرأة ، وإحراق العبد الذى تزوجها حياً . وأصدر الإمبراطور جراتيان مرسوماً يقضى بأن يحرق العبد حيًّا إذا وجه لسيده أى تهمة عدا تهمة الخيانة العظمى للدولة ، وأن تنفذ فيه العقوبة على الفور دون بحث أو تحقيق فى صحة التهمة(١٠٦) . ولكن الكنيسة ، وإن رضيت بالاسترقاق وعدته جزءاً من قوانين الحرب ، قد فعلت أكثر من أية هيئة أخرى فى ذلك الوقت لتخفيف شرور الرق . فقد أعلنت مثلا ، على لسان آباء الكنيسة ، المبدأ القائل بأن الناس جميعاً أكفاء ، ولعل المعنى الذى كانت تقصده من هذا اللفظ أنهم أكفاء فى الحقوق القانونية والأدبية ؛ وطبقت هذا المبدأ فرضيت أن يدخل فيها الناس جميعاً من كل الطوائف والطبقات ؛ وكان فى وسع أفقر رجل حر أن يرقى إلى أعلى المناصب الدينية ، وإن لم يكن فى مقدور العبد أن يكون قسيساً . وألغت الكنيسة ما كان فى الشرائع الوثنية من تمييز بين الضرر الذى يلحق بالحر ، والذى يلحق بالعبد . وكانت تشجع عتق العبيد ، فجعلت فك الرقاب من وسائل التكفير عن الذنوب ، والاحتفال بحظ يصيب صاحب العبد

والقرب من كرسى القضاء الإلهى . وقد أنفقت أموالاً طائلة فى تحرير المسيحيين أسرى الحروب من الاسترقاق[١٠٧] . لكنّ الاسترقاق ، رغم هذا ، ظل قائما طوال العصور الوسطى ، ولما مات لم يكن لرجال الدين فضل فى موته .

وكان أكبر فضل للكنيسة من الناحية الأخلاقية هو ما وضعته للصدقات من نظام واسع النطاق . وكان الأباطرة الوثنيون قد قرروا إعانات من أموال الدولة للأسر الفقيرة ، كما كان أعيان الوثنيين يعينون « مواليهم » وفقراءهم . ولكن العالم لم يشهد قبل المسيحية نظاما لتوزيع الصدقات كالنظام الذى أقامته الكنيسة ؛ فقد كانت تشجع الإيصاء بالمال للفقراء ، على أن توزعه هى عليهم . ولسنا ننكر أن بعض المفاسد والخيانات قد تسربت إلى هذا النظام ، ولكن حرص الإمبراطور يوليان على منافسة الكنيسة فى هذه الناحية يشهد بأنها قد قامت بواجبها على نطاق واسع . فقد كانت تساعد الأرامل ، واليتامى ، والمرضى ، والعجزة ، والمسجونين ، وضحايا الكوارث الطبيعية ؛ وكثيراً ما تدخلت لحماية الطبقات الدنيا من الاستغلال أو الضرائب الباهظة[١٠٨] . وكثيراً ما كان القساوسة يهبون أملاكهم كلها للفقراء إذا وصلوا إلى مرتبة الأساقفة . وخصصت كثير من النساء مثل فبيولا Fabiola ، وپولا ، وملانيا ثروات طائلة للأغراض الخيرية ، وقد حذت الكنيسة حذو الوثنيين فى إقامة المصحات والمستشفيات ، فأنشأت أو أنشأ أثرياؤها مستشفيات عامة على نطاق لم يعرف قط من قبل . فأقام باسيلى مستشفى ذائع الصيت ، كما أقام فى قيصرية بكپدوكيا أول مستشفى للمصابين بالجذام . وقامت خانات للاجئين أو أبناء السبيل على طول طرق الحجاج ، وقرر مجمع نيقية أن يقام خان من هذا النوع فى كل مدينة . واستخدمت الكنيسة الأرامل لتوزيع الصدقات فوجدن فى هذا العمل قيمة جديدة لحياة الوحدة . وكان الوثنيون يعجبون بدأب المسيحيين على العناية بالمرضى فى المدن التى يجتاحها القحط أو الوباء[١٠٩] .

هذا ما فعلته الكنيسة فى تلك العهود لأجسام الناس ، فماذا فعلت لعقولهم ؟ لقد كانت المدارس الرومانية لا تزال قائمة فى ذلك الوقت ، ولهذا لم تر من واجبها أن تعمل على ترقية العقول . هذا إلى أنها كانت ترفع الشعور فوق العقل ، وبذلك كانت المسيحية من هذه الناحية بمثابة رد فعل « إبداعى » على الإيمان « الإتباعى » بالعقل والاعتماد عليه ؛ ولم يكن روسو من هذه الناحية إلا أوغسطين مصغرا . ولم يكن يخالج الكنيسة شك فى أن بقاءها يتطلب تنظيمها ، وفى أن هذا التنظيم يتطلب الاتفاق على مبادئ وعقائد أساسية ، وأن الكثرة الغالبة من أتباعها تتوق إلى أن ترجع إلى عقائد مقررة ثابتة ، فحددت من أجل ذلك عقيدتها فى قواعد مقررة لا تبديل فيها ، وجعلت الشك فى هذه القواعد ذنباً ، وتورطت فى نزاع لا نهاية له مع عقل الإنسان المرن وآرائه المتغيرة . وادعت الكنيسة أنها قد وجدت عن طريق الوحى الإلهى جواباً لكل مسألة من المسائل القديمة المتعلقة بأصل الخلق ، وطبيعتهم ، ومصيرهم ، وفى ذلك كتب لكتنيوس (٣٠٧) يقول : « نحن الذين أخذنا عن الكتاب المقدس علم الحقيقة نعرف بداية العالم ونهايته »(١١٠) وكان ترتليان قدقال هذا القول نفسه قبل ذلك الوقت بقرن من الزمان (١٩٧) . وأراد أن يغلق باب الفلسفة أمام الناس(١١١) . وإذ كانت المسيحية قد حولت اهتمام الناس من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة ، فقد عرضت عليهم تفسيرات سماوية للحادثات التاريخية ، فقاومت بذلك مقاومة سلبية البحث عن العلل الطبيعية ؛ وضحت بكل ما أنتجه العلم اليونانى من تقدم خلال سبعمائة عام فى سبيل علم نظام الكون وأصل الحياة كما وصفهما سفر التكوين .

وبعد فهل أدت المسيحية إلى اضمحلال فى الأدب؟ لسنا ننكر أن معظم آباء الكنيسة كانوا يعادون الآداب الوثنية ؛ لأنها تسرى فيها كلها عقيدة الشرك الشيطانية ، والفساد الخلقى المزرى بكرامة الإنسان ؛ ولكن أعظم هؤلاء الآباء كانوا على الرغم من هذا يحبون الآداب القديمة ، وكان المسيحيون أمثال فرتناتوس

وپرودنتيوس ، وچيروم ، وسيدنيوس ، وأوسنيوس ، يتطلعون إلى أن يكتبوا شعراً كشعر ڤرچيل ، أو نثراً كنثر شيشرون ؛ وإن كفة جريجورى نزينزين ، وكريسستوم ، وأمبروز ، وجيروم ، وأوغسطين لترجح ، من الناحية الأدبية نفسها ، على كفة معاصريهم الوثنيين أمثال أميانوس ، وسياخوس ، وكلاوديان ، ويوليان . لكن أسلوب النثر تدهور بعد أيام أوغسطين ، وتسربت من اللغة العامية إلى الكتابة اللاتينية المفردات الخشنة غير المصقولة ، وقواعد البناء الخالية من العناية والدقة ، وانحط الشعر اللاتينى فى وقت من الأوقات حتى صار مجرد نظم ركيك ، قبل أن تصاغ الأنماط الجديدة فى الترانيم الدينية الفخمة .

لكن العلة الأساسية فى تدهور الثقافة لم تكن المسيحية بل البربرية ، ولم تكن الدين بل الحروب . ذلك أن تيار البرابرة الجارف قد خرب المدن والأديرة ودور الكتب ، والمدارس ، أو أقفرها ، وجعل حياة طالب العلم أو العالم مستحيلة . ولو أن الكنيسة لم تحتفظ بقدر من النظام فى هذه الحضارة المتداعية لكان الخراب أشد والبلية أعظم ؛ وفى ذلك يقول أمبروز « لقد ظلت الكنيسة ثابتة لا تزعزعها العواصف الهوج وسط ما حل بالعلم من اضطراب ، فالفوضى ضاربة أطنابها فى كل شىء حولها ، أما هى فتقدم لجميع المنكوبين مرفأ هادياً يجدون فيه الأمن والسلامة »(١١٢) ولقد كان هذا شأنها فى معظم الأوقات .

وكانت الإمبراطورية الرومانية قد رفعت العلم ، والرخاء ، والسلطان ، إلى الذروة التى بلغتها فى العهد القديم ، فلما اضمحلت الإمبراطورية فى الغرب ، وعم الفقر وساد العنف ، تطلب هذا مثلاً أعلى جديداً ، وأملاً جديداً ، ليكونا للناس سلوى وعزاء مما حل بهم من أرزاء ، وتشجيعاً لهم على الكدح المتواصل : فحل عصر الإيمان محل عصر السلطان . وسارت الحال على هذا المنوال فلم يرفض العقل الإيمان ، ويترك السماء لينشىء المدينة الفاضلة على الأرض ، إلا بعد أن عاد الثراء والكبرياء إلى العالم فى عصر النهضة . ولكن إذا ما خاب العقل وعجز عن حل

المشكلات ، ولم يجد العلم جواباً للأسئلة الكثيرة المحيرة ، بل زاد المعرفة والسلطان من غير أن يصلح ضمائر الناس أو يرقى بأهدافهم ، وإذا ما انهار كل ما تصوره الناس من مدائن فاضلة انهياراً تاماً لاستمرار الأقوياء على الإساءة إلى الضعفاء : إذا ما حدث هذا كله أدرك الناس لماذا ولى أسلافهم ظهورهم فى بربرية القرون المسيحية الأولى نحو العلم ، والمعرفة ، والسلطان والكبرياء ، ولجأوا مدى ألف عام إلى الإيمان ، والأمل ، والصدقات ، وما تستلزمه من تذلل وخشوع .

الباب الرابع

أوربا تتشكل

۳۲٥ – ٥۲۹

الفصل الأول

بريطانيا تصبح إنجلترا

۳۲٥ – ٥۷۷

أثرت جميع الطبقات فى بريطانيا تحت حكم الرومان عدا طبقة ملاك الأراضى الزراعية . ذلك أن الضياع الكبيرة زادت مساحتها بما نقص من مساحة الأملاك الصغرى ، فقد اشترى الملاك الكبار فى كثير من الأحيان أراضى صغار الزراع الأحرار ، وأصبح هؤلاء زراعاً مستأجرين أو من صعاليك المدن ، وأيد كثيرون من الفلاحين الغزاة الإنجليز – السكسون ضد كبار الملاك[1] . وإذا استثنينا هذه الطبقة – طبقة صغار الزراع – استطعنا أن نقول إن بريطانيا الرومانية قد عمها الرخاء ، فقد كثرت المدن ونمت ، وازداد الثراء[2] ، واستمتعت كثير من المنازل بوسائل التدفئة المركزية ، والنوافذ الزجاجية[3] ، وأقام كثير من الكبراء قصوراً ذات حدائق ، وأخذ النساجون البريطانيون من ذلك الوقت البعيد يصدرون المنسوجات الصوفية الممتازة التى لا يزال لها المقام الأول بين أقمشة العالم الصوفية . وكانت بضعة فيالق رومانية تكفى فى القرن الثالث لضمان الأمن الخارجى والسلام الداخلى .

لكن هذا الأمن أصبح فى القرنين الرابع والخامس مهدداً من جميع الجهات : فكان يهدده من الشمال بكت (Picts) كلدونيا ، ومن الشرق والجنوب المغيرون من أهل الشمال ومن السكسون ، ومن الغرب كيلت Celt ويلز الذين لم يخضعوا للرومان ، والجيل Gaels « والاسكتلنديون » المغامرون أهل أيرلندة . وازدادت غارات « الاسكتلنديين » والسكسون على سواحل بريطانيا بين عامى ٣٦٤ ، ٣٦٧ حتى أصبحت خطراً مروعاً يتهدد البلاد ؛ وصدها الجنود البريطانيون والجيل ، ولكن هذه الغارات لم تنقطع ، واضطر استلكو إلى أن يعيد الكرة عليهم بعد جيل من ذلك الوقت . وسحب مكسموس من بريطانيا فى عام ٣٨١ والمغتصب قسطنطين فى عام ٤٠٧ الفيالق التى كانا فى حاجة إليها ليدافعا بها عن قلب الدولة وعن أغراضهما الشخصية ، ولم يرجع من هذه الفيالق بعدئذ إلى بريطانيا إلا عدد قليل . وبدأ الغزاة يجتاحون التخوم ، وطلبت بريطانيا المعونة من استلكو (٤٠٠) ، ولكنه كان منهمكاً فى صد القوط والهون عن إيطاليا وغالة . ولما استغاثوا مرة أخرى بالإمبراطور هونوريوس أجابهم بأن على البريطانيين أن يعتمدوا على أنفسهم على أحسن وجه يستطيعون[٤] . و « فى عام ٤٠٩ انتهى حكم الرومان فى بريطانيا »[٥] ، كما يقول بيدى Bede .

وألفى الزعيم البريطانى ڤرتجيرن Vortigern نفسه أمام غزوة كبرى يشنها البكت Picts ، فاستغاث ببعض قبائل الجرمان الشمالية[٦] ، فأقبل عليه السكسون من إقليم نهر الإلب Elbe ، والإنجليز من سلزوج Schleswig ، والجوت Jutes من جتلندة Jutland . وتقول بعض الروايات — أو لعلها القصص الخرافية — إن الجوت جاءوا فى عام ٤٤٩ بقيادة أخوين يسميان باسمين يدعوان إلى الريبة ، هما هنجست Hengist وهورسا Horsa ، أى الحصان والفرس . وطرد الجرمان الأشداء البكت « والاسكتلنديين » وكوفئوا على عملهم هذا بمساحات من الأراضى ، وأدركوا ما كانت عليه بريطانيا من الضعف من

الناحية الحربية ، وبعثوا بهذا النبأ السار إلى مواطنيهم فى بلادهم الأصلية(٧) : وجاءت جموع كبيرة من الجرمان ، ونزلت على سواحل بريطانيا من غير دعوة من أهلها ، وقاومهم الأهلون بشجاعة تفوق ما كان لديهم من مهارة ، وظلوا قرناً كاملا بين كروفر يحاربونهم حرب العصابات ، وانتهى هذا القتال بأن هزم التيوتون البريطانيين عند ديرهام Deorham (٥٧٧) ، وأصبحت لهم السيادة على البلاد التى سميت فيما بعد أرض الإنجليز « إنجلند England أو إنجلتر Angletere » . وقبل معظم البريطانيين فيما بعد هذا الفتح ، ومزجوا دماءهم بدماء الفاتحين ، وارتدت أقلية شديدة البأس إلى جبال ويلز وواصلت الحرب ضد الغزاة ، وعبر غيرهم القناة وأطلقوا اسمهم على بريطانى Brittany فى فرنسا الحالية . وخربت مدائن بريطانيا فى خلال هذا النزاع ، واضطربت وسائل النقل ، واضمحلت الصناعة ، وفسد القانون والنظام ، وحل بالفن سبات عميق ، وطغت على مسيحية الجزيرة — وكانت لا تزال فى بداية عهدها — الآلهة الوثنية والعادات الجرمانية . وأصبحت إنجلترا ولغتها تيوتونية ، واختفت منها الشرائع والنظم اليونانية ، وحلت العشائر الفردية محل الهيئات البلدية ، ولكن عنصرا كلتيا ظل باقياً فى دم الإنجليز ، وملامحهم ، وأخلاقهم ، وأدبهم ، وفنهم ؛ وأما اللغة الإنجليزية فلم يبق فيها من هذا العنصر الكلتى إلا القليل الذى لا يكاد يذكر ، وأمست اللغة الإنجليزية فى هذه الأيام مزيجاً من اللغتين الألمانية والفرنسية .

وإذا شئنا أن نعرف ما كان يسود تلك الأيام المريرة من اضطراب وثوران فى النفوس فعلينا أن ننتقل من التاريخ إلى قصص الملك آرثر Arthur وفرسانه ، وما كالوه من الضربات الشداد « لتحطيم الكفرة وتأييد المسيح » . ويحدثنا القديس جلداس St. Gildas وهو راهب من ويلز فى كتاب له عجيب « عن

« تدمير بريطانيا On the Destruction of Britain » (٥٤٦ ؟) خلط فيه التاريخ بالمواعظ ، يحدثنا عن « حصار منزبادنكس Mons Badonicus » في تلك الحروب ، كما يحدثنا مؤرخ بريطاني بعده يدعى ننيوس Nennius (حوالى ٧٩٦) عن اثنتي عشرة معركة حارب فيها الملك آرثر كانت آخرها عند جبل بادون Mt. Badon بالقرب من باث Bath(٨) . ويورد جفرى المنموثي Geoffrey of Monmouth (١١٠٠ ؟ — ١١٥٤) تفاصيل روائية يصف فيها : كيف خلف الملك آرثر والده أثر پندراجون Uther Pendragon على عرش بريطانيا ، وكيف قاوم الغزاة السكسون ، وفتح أيرلندة ، وأيسلندة ، والنرويج ، وغالة ، وحاصر باريس في عام ٥٠٥ وطرد الرومان من بريطانيا ، وقمع فتنة أوقد نارها مدرد Modred ابن أخيه كلفته كثيراً من الخسائر في الأنفس ، وقتله في واقعة ونشستر Winchester التي جرح فيها هو جرحاً بليغاً مميتا ، مات من أثره في السنة الثانية والأربعين بعد الخمسمائة من تجسد إلهنا »(٩) . ويحدثنا كاتب آخر يدعى وليم من أهل ملمزبرى Malmesbury (١٠٩٠ ؟ — ١١٤٣) فيقول :

ولما مات ڤرتمر Vortimer (أخو ڤرتچيرن Vortigern) ، اضمحلت قوة البريطانيين ، ولولا ما قام به أمبروزيوس Ambrosius ، الذى بقى وحده من الرومان ... من صد تيار البرابرة المتغطرسين بفضل ما قدمه له الملك آرثر صاحب البأس الشديد من معونة صادقة ، لولا هذا لهلك البريطانيون على بكرة أبيهم . وقضى آرثر زمناً طويلا يدعم كيان الدولة المنهارة ، ويثير روح مواطنيه المحطمة ويحرضهم على القتال . ثم نازل بمفردة في آخر الأمر ٩٠٠ من الأعداء معتمداً على صورة للعذراء ثبتها في درعه ، وبدد شملهم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة لا يصدقها العقل(١٠) .

فلنقل مع القائلين أن هذا لا يصدقه العقل . وعلينا أن نقنع بأن آرثر شخصية غامضة ، ولكنه على أية حال شخصية تاريخية اتصفت بأهم الصفات الجوهرية التى يحدثنا عنها الكتاب ، وأنه عاش فى القرن السادس ؛ والراجح أنه لم يكن من القديسين ، أو من الملوك . أما فيما عدا هذا فلنتركه إلى كرتين Chrétien من أهل ترو ى ، وإلى ملورى Malory الكاتب المطرب المبدع وإلى تنيسن Tennyson العف الطاهر .

الفصل الثاني

أيرلنـــدة

١٦٠ — ٥٢٩

يقول الأيرلنديون — ولا نستطيع أن نكذبهم فيما يقولون — إن جزيرتهم جزيرة « الضباب والفاكهة الرطبة » قد سكنها فى أول الأمر اليونان والسكوذيون قبل ميلاد المسيح بألف عام أو أكثر ، وإن زعماءهم الأولين ، كتشلين Cutchalain ، وكونور Conor ، وكونال Conall ، من أبناء الآلهة(١٢) . وقد مس هملكو Himilco المستكشف الفينيقى أرض أيرلندة حوالى عام ٥١٠ ق . م ووصفها بأنها بلاد خصبة كثيرة السكان »(١٣) ولعل جماعة من المغامرين الكلت قد عبروا البحر إلى أيرلندة من غالة أو بريطانيا أو منهما معاً فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وغلبوا الأهلين الأصليين الذين لا نعرف عنهم شيئاً . ويبدو أن قد جاءوا معهم إلى أيرلندة بثقافة عصر الحديد الهولستاتية Hallstatt ، كما جاءوا معهم بنظام قوى من الصلات العائلية يجعل الفرد فخوراً بقبيلته فخراً يمنعه أن يكون دولة مستقرة ؛ وظلت القبائل تحارب بعضها بعضاً ، والممالك تقتتل نحو ألف عام ، فإذا سكتت حرب القبائل أو الممالك فترة من الزمان اقتتل أفراد القبائل فيما بينهم ؛ فإذا ماتوا دفن الأيرلنديون الصالحون قبل أيام القديس باترك Patrick واقفين متأهبين للقتال ، ووجوههم متجهة نحو أعدائهم(١٤) . وقد مات معظم ملوك البلاد فى المعارك الحربية أو اغتيلوا(١٥) . وتقول الروايات الأيرلندية إنه كان من حق هؤلاء الملوك أن يفضوا بكارة كل زوجة قبل أن يسلموها إلى زوجها ، ولعلهم كانوا يفعلون هذا لأنه فريضة تتطلبها الرغبة فى تحسين النسل ، أو لعلهم

كانوا يفعلونها بوصفهم خدام الآلهة الذين يتطلبون أن يجنوا هم أولى الثمار وقد وُجّه إلى الملك كنكوبار Conchobar أعظم الثناء لحرصه الشديد على أداء هذا الواجب(١٦) . وكانت كل قبيلة تحتفظ بسجل لأفرادها ، ونسبهم ، ولملوكها ووقائعها الحربية ، وتاريخها القديم « منذ بداية العالم »(١٧) .

وفرض الكلت سلطانهم على البلاد بوصفهم الطبقة الحاكمة ، ووزعوا قبائلهم فى خمس ممالك ؛ ألستر Ulster ، ولينستر Leinster الشمالية ، ومونستر Munster ، وكنوت Connaught . وكان كل ملك من هؤلاء الملوك تام السيادة فى مملكته ، ولكن القبائل كلها رضيت أن تكون تارا Tara من أعمال ميث Meath عاصمتها القومية ، فيها يتوج كل ملك من الملوك ، وفيها يجمع فى بداية حكمة الفيس Feis أو مؤتمر أعيان أيرلندة كلها لإقرار التشريعات التى تخضع لها الممالك بأجمعها ، ولتصحيح أنساب القبائل وتدوينها ، ثم تسجيلها فى المحفوظات الأهلية . وشاد الملك كرماك ماك إيرت Cormac Mac Airt فى القرن الثالث بهواً كبيراً لا يزال أساسه باقياً حتى الآن لتعقد فيه جلسات هذا المؤتمر . وكان مجلس إقليمى يدعى الأوناك Aonach يجتمع مرة كل سنة أو كل ثلاث سنين فى عاصمة كل مملكة ، ليسن قوانينها ، ويقر الضرائب التى يجب على أهلها أداؤها ، ويقوم بوظيفة محكمة الإقليم . وكانت الألعاب والمباريات تسير على النمط التقليدى الآتى : الموسيقى ، والغناء ، وألعاب الشعوذة ، والتمثيل الهزلى ، والقصص ، وإنشاد الشعر ، وكانت تعقد فى أثنائها الزيجات فتزيدها بهجة ، وكان عدد كبير من السكان يشتركون فى هذه الحفلات . ويبدو لمن يرجع بفكره من خلال القرون الطوال ، التى تخلع على القديم رواء وسحراً ، إلى هذا التوفيق بين الحكومة المركزية والحرية الإقليمية أنه هو المثل الأعلى للنظم الحكومية . وظل المؤتمر (الفيس feis) قائماً حتى عام ٥٦٠ . أما المجلس المحلى (الأوناك Aonach) فقد بقى حتى عام ١١٦٨ .

وأول شخصية تستطيع أن نعدها واثقين شخصية تاريخية بحق هى شخصية تواثال Tuathal الذى حكم لينستر Leinster وميث حوالى عام ١٦٠ م . ومن ملوك أيرلندة أيضاً الملك نيال Niall (حوالى ٣٥٨) الذى غزا ويلز وعاد منها بغنائم لا تحصى ، وأغار على غالة ، ثم قتله رجل من أهل أيرلندة عند نهر اللوار . وكان معظم ملوك أيرلندة الذى جاءوا بعده من نسله . وفى السنة الخامسة من حكم ولده ليجير Laeghaire (ليرى Leary) وفد القديس پتريك على أيرلندة . وكان الأيرلنديون قد استنبطوا لهم حروفاً هجائية مكونة من خطوط مستقيمة ؛ وكان لهم أدب واسع من شعر وقصص يأخذه الناس مشافهة بعضهم عن بعض ، وكانت لهم مصنوعات طيبة من الخزف والبرنز والذهب . وكان دينهم من أديان الشرك وعبادة الطبيعة ؛ فكانوا يعبدون الشمس والقمر وغيرهما من مختلف الأجسام الطبيعية ، وقد أسكنوا بقاعاً لا حصر لها فى أيرلندة بالجن والشياطين والعفاريت . وكانت طائفة من الكهنة ذوى الثياب البيض تتنبأ بالغيب ، وتسيطر فى زعمها على الشمس والرياح بعصى وعجلات سحرية ، وتنزل أمطاراً وتوقد نيراناً سحرية ، وتحفظ أخبار القبائل وأشعارها عن ظهر قلب ، وتلقنها إلى من يأتون بعدها ، وتدرس مواقع النجوم ، وتعلم الشبان ، وتسدى النصح إلى الملوك ، وتجلس للقضاء بين الناس ، وتسن الشرائع ، وتقرب القرابين للآلهة من فوق مذابح قائمة فى الهواء الطلق . وكان من بين أوثانهم المقدسة تمثال مغطى بصفائح الذهب يسمونه كرم كرواك Crom Cruach ؛ وكان هو إله جميع القبائل الأيرلندية ؛ ويلوح أنه كان يُقَرَّب إليه الابن الأول الذى يولد لكل أسرة فى البلاد(18) — وربما كان منشأ هذه العادة الرغبة فى الحد من كثرة النسل . وكان الأيرلنديون يؤمنون بتجسد الأرواح بعد الموت ، ولكنهم كانوا يحلمون بوجود جزيرة سماوية وراء البحر ، « ليس فيها عويل أو غدر ، ولا خشونة أو عنف ، بل فيها موسيقى حلوة تشنف الأسماع ، وفيها أرض جميلة عجيبة ذات منظر لا يدانيه شيء آخر فى روعته

وبهائه »[١٩] . وتقول إحدى القصص إن الأمير كونال Conall تأثر بهذا الوصف فأبحر فى قارب من اللؤلؤ ليكشف هذه الجزيرة السعيدة .

وكانت المسيحية قد دخلت إنجلترا قبل قدوم القديس پتريك إليها بنحو جيل أو أكثر من جيل . وقد ورد فى أحد التواريخ الإخبارية ، التى يؤيدها بيدى ، ضمن حوادث عام ٤٣١ أن « البابا سلستينى Celestine قد رسم پلديوس Palladius أسقفاً وأرسله إلى من يؤمنون بالمسيح من الأيرلنديين ليكون أول أسقف لهم » ، لكن پلديوس توفى فى ذلك العام ذاته ونال القديس پتريك راعى أيرلندة وحاميها شرف اعتناق أيرلندة المذهب الكاثوليكى الذى لم تتحول عنه قط .

وكان مولده حوالى عام ٣٨٩ فى قرية بنافنتا Bonnaventa من قرى غربى إنجلترا ، من أسرة متوسطة الثراء والجاه . وإذ كان الطفل ابن مواطن رومانى فقد سمى باسم رومانى هو پتريكيوس Patricius . ولم ينل من التعليم إلا قسطاً قليلا ، ولهذا كان يعتذر للناس عن خشونته ، ولكنه درس الكتاب المقدس دراسة متقنة يستطيع معها أن يورد منه شواهد من الذاكرة فى كل ما يعرض له من المناسبات . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره أسره جماعة من المغيرين « الأسكتلنديين » (أى الأيرلنديين) وجاءوا به إلى أيرلندة ، حيث أقام ست سنين يرعى الخنازير[٢١] . و « تحول » فى هذه الساعات التى كان يقضيها بعيداً عن الخلق فتبدلت حاله من عدم المبالاة بشئون الدين إلى الصلاح البالغ الحد ؛ ويقول هو عن نفسه إنه كان يستيقظ فى كل يوم قبل الفجر ، ثم يخرج للصلاة مهما يكن الجو — سواء كان يتساقط فيه البرد أو المطر أو الثلج . ثم استطاع آخر الأمر أن يفر ، واتخذ سبيله إلى البحر ، وعثر عليه جماعة من الملاحين فى مكان مقفر ، فأخذوه معهم إلى غالة أو لعلهم أخذوه إلى إيطاليا . ثم تمكن من أن يسلك سبيله إلى إنجلترا ، وأن ينضم مرة أخرى إلى أسرته ، وأن يعيش معها بضع سنين .

ولكن شيئاً ما دعاه أن يعود إلى أيرلندة — وقد يكون هذا الشيء هو ذكرى جمالها الريفي ، أو طيبة قلوب أبنائها وحنوهم . وفسر هو هذا الإحساس بأنه رسالة إلهية ، تدعوه إلى نشر المسيحية بين الأيرلنديين . فذهب من لبرنز Lerins وأوكسير Auxerr ودرس اللاهوت ، ورسم قسيساً . ولما وصل إلى أوكسير نبأ وفاة پلديوس ، عين پتريك أسقفاً ، وأعطى بعض مخلفات بطرس وبولس ، وأرسل إلى أيرلندة (٤٣٢) .

ووجد فيها ملكاً وثنياً مستنيراً يدعى ليجير يجلس على عرش تارا . وعجز پتريك عن هداية هذا الملك إلى الدين المسيحي ، ولكنه حصل على عهد منه بأن يكون له مطلق الحرية في التبشير بهذا الدين . وقاومه كهنة البلاد ، وعرضوا على الناس سحرهم . وقابل پتريك عملهم هذا بأن عرض على الأهلين تعاويذ طاردي الأرواح الخبيثة ، وهم طائفة من صغار الكهان جاء بهم معه ليستعينهم على طرد الشياطين . ويحدثنا پتريك في « الاعترافات » التي كتبها حين تقدمت به السن عما تعرض له من الأخطار في عمله فيقول : إن حياته تعرضت للخطر اثنتي عشرة مرة ؛ وإنه هو ورفاقه قبض عليهم في يوم من الأيام ، وظلوا في الأسر أسبوعين ، وهددوا بالقتل ؛ ولكن بعض أصدقائهم أفلحوا في إقناع من قبضوا عليهم بإطلاق سراحهم(٣٢) . وتقص الروايات المتواترة الصادرة عن بعض الأتقياء الصالحين من الكتاب مئات من القصص المدهشة عن معجزات پتريك . من ذلك ما قاله ننيوس Nennius من أنه « رد البصر للعمى والسمع للصم(٣٣) ، وطهر المجذومين ، وأخرج الشياطين ، وأعاد الأسرى ، وأحيا تسعة من الموتى ، وكتب ٣٦٥ كتاباً » . ولكن أغلب الظن أن أخلاق پتريك لا معجزاته هي التي هدت الأيرلنديين إلى الدين المسيحي — هدتهم ثقته التي لا تتزعزع بعقيدته ، ودأبه على عمله وتحمسه له . ولم يكن الصبر من طبعه ، وكان استعداده لأن يصب اللعنات لا يقل عن استعداده لمنح البركات(٣٤) ، على أن هذا العمل نفسه كان

يصدر عن إقناع تمليه عليه عقائده الواثق بها والتى لا يقبل فيها جدلا . وكان يعين القساوسة ، ويشيد الكنائس ، وينشىء الأديرة للرجال والنساء ، ويترك حاميات روحية قوية لتقوم بحراسة فتوحه الدينية فى كل مكان غزاه ، وجعل الناس يظنون أن قبولهم فى دولته الكهنوتية مغامرة من أسمى المغامرات وأجلها خطراً ، وجمع حوله رجالا ونساء من ذوى الشجاعة والإخلاص ، يتحملون جميع ضروب الحرمان ليبشروا الناس بأن الإنسان قد نجا من الخطيئة . على أن پتريك لم يهد أيرلندة كلها ، بل بقيت فيها للوثنية جيوب منعزلة ، كما بقى لها شعرها ، ولا تزال فيها إلى الآن آثار من الدين القديم ، لكنه حين وافته منيته (٤٦١) كان يمكن أن يقال عنه ، ما لا يمكن أن يقال عن رجل غيره . وهو أن رجلا واحداً قد هدى أمة بأجمعها .

وأقرب الناس بعده لقلوب الأيرلنديين امرأة كان لها أكبر الفضل فى تثبيت دعائم نصره ، تلك هى القديسة بردچد Brigid . ويقال إنها ابنة عبد وملك ؛ ولكننا لا نعرف عنها شيئاً موثوقاً به قبل أن تترهب فى عام ٤٧٦ . وقد استطاعت أن تنشىء «كنيسة شجرة البلوط» . (كل دارا Cill-dara) بعد أن تغلبت على عقبات يخطئها الحصر ؛ ولا يزال الموضع الذى أقامتها فيه يسمى بهذا الاسم كلدير Kildare حتى اليوم . وسرعان ما استحالت الكنيسة ديراً للرجال وللنساء ، ومدرسة لا تقل شهرة عن المدرسة الأخرى التى قامت فى أرماغ Armagh . وتوفيت بردچد فى عام ٥٢٥ ، معززة مكرمة من جميع الأيرلنديين ، ولا يزال عشرة آلاف من الأيرلنديات يسمين باسم مارى الجيلية Mary of Gael . وبعد جيل من ذلك الوقت صب القديس روادهان لعنة على تارا ؛ ثم هجرت الأبهاء القديمة بعد عام ٥٥٨ حين مات الملك ديرمويد Diarmuid ، واعتنق ملوك أيرلندة الدين المسيحى وإن ظلوا مع هذا وثنيين فى ثقافتهم .

الفصل الثالث

بداية تاريخ فرنسا

١ — الأيام الأخيرة من تاريخ غالة القديمة

كانت غالة فى القرنين الرابع والخامس أكثر الولايات الغربية فى الإمبراطورية الرومانية رخاء من الناحية المادية وأعظمها رقياً من الناحية العقلية . فقد كانت تربتها خصبة كريمة ، وصناعاتها اليدوية متقدمة ، وأنهارها وبحارها تعج بالمتاجر وكان فى نربونه وأرليز ، وبردو ، وطولوز (طلوشة) ، وليون ، ومرسيلية ، وپواتيه ، وتربيه جامعات مزدهرة تنفق عليها الدولة ، وكان للمدرسين ، والخطباء ، والشعراء ، والحكماء منزلة لا ينالها فى العادة إلا رجال السياسة والملاكون . وفى أيام أوسنيوس وسيدنيوس عقد لغالة لواء الزعامة الأدبية فى أوربا كلها .

وكان ديسموس مجنوس أوسنيوس Deecimus Magnus Ausonius شاعر العصر الفضى فى غالة ، وفيه تتمثل روح هذا العصر . وقد ولد فى بردو حوالى عام ٣١٠ ، وكان والده كبير أطبائها ، وفيها تلقى علومه ، وقد حدث العالم فيما بعد فى شعر كريم سداسى الأوتاد عن فضائل معلميه ، ذكر فيه بسماتهم وأغفل ضرباتهم(٢٥). وسارت حياته بعدئذ سيراً هادئاً مطمئناً حتى عين أستاذاً فى بردو وظل يعلم « النحو » (وكان يقصد به وقتئذ الأدب) و« البلاغة » (أى الخطابة والفلسفة) نحو ثلاثين عاماً ، وكان مربياً للإمبراطور جراتيان قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية . وإن فيما كتبه عن والديه وأعمامه وأخواله ، وزوجته ، وأبنائه وتلاميذه ما يوحى بأن حياته فى البيت وفى خارجه كانت شبيهة بحياة المدن الجامعية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر . وهو يصف بعبارات جذابة البيت والحقول التى ورثها عن أبيه ، ويحدثنا عن المكان الذى يرجو أن

يقضى فيها آخريات أيامه ، ويقول لزوجته فى سنى زواجهما الأولى : « فلنعش على الدوام كما نعيش الآن ، ولنحتفظ بالاسمين اللذين سمى بهما كلانا الآخر فى بداية حبنا . . . ويجب أن يبقى كلانا فى سن الشباب ، وستكونين على الدوام جميلة فى عينى ، وعلينا ألا نحسب حسابا لمر السنين »(٢٦) . على أنهما سرعان ما فقدا أول طفل رزقه منها ، وقد كتب يحيى ذكراه بعبارات تفيض بالحب فقال : « لن أتركك دون أبكيك يا بكر أبنائى وياسمى . لقد اختطفك الموت منا فى الوقت الذى كنت تحاول فيه أن تبدل لغطك إلى أولى كلمات الطفولة ... إنك الآن ترقد على صدر والد جدك الذى تشاركه قبره »(٢٧) . وماتت زوجته ولما يمض على زواجهما الموفق إلا زمن قليل ، وتركت له ابنا وبنتاً ؛ وقد بلغ من حبه ووفائه لها أنه لم يتزوج قط بعدها ؛ ووصف فى شيخوخته ألمه لفقدها ولوعته التى لم يخففها مر السنين ، كما وصف السكون المحزن المخيم على بيتهما الذى طالما عرف عناية يديها وأحس بنغم وقع قدميها .

وكان الناس فى أيامه يحبون قصائده لما فيها من عواطف رقيقة ، وصور ريفية جميلة ، وللغتها اللاتينية الخالصة ، ولشعرها الذى لا يكاد يقل فى رقته عن شعر فرچيل .

وكان پولينس ، الذى أصبح فيما بعد من القديسين ، يشبه نثره بنثر شيشرون ، وكان سياخوس يقول إنه لا يستطيع أن يجد فى شعر فرچيل شيئاً أجمل من قصيدة موزلا Mosella التى وصف فيها أوسنيوس نهر الموزل . وكان الشاعر قد أولع بذلك النهر حين كان مع جراتيان فى تربيه . ويقول فى وصفه إنه يجرى وسط جنة حقة من الكروم ، والبساتين والقصور الصغيرة ذات الحدائق ، والمزارع الفاخرة الغنية . ونكاد نحس فى وقت ما بخضرة شواطئه ، وموسيقى جريانه . ثم لا يلبث أن يتدلى من هذا المستوى الرفيع فيصف فى عبارات تتكرر مراراً ما فى مجرى النهر من سمك لطيف . وتذكرنا هذه الرغبة الجامحة فى ذكر الأقارب

والمدرسين ، والتلاميذ ، والسمك بكتابات هوتمان Whitman ولكنها ينقصها شعور هوتمان الفياض وفلسفته القوية اللذين يخففان من سآمتها . وسبب ذلك النقص أن أوسنيوس بعد أن ظل ثلاثين عاما يعلم النحو كان يصعب عليه أن يضمن عباراته شيئاً غير العاطفة الأدبية . فقصائده مسبحة صداقة ، وأوراد مدح ، ولكن الذين لم يعرفوا منا أمثال أولئك الأعمام والأخوال الذين نفتتن بحبهم ، أو الأساتذة الذين يُغرونا بتمجيدهم قلما يتأثرون بهذا المديح .

ولما توفى ڤلنتنيان الأول (٣٧٥) ، وجلس جراتيان على عرش الإمبراطورية استدعى إليه معلمه القديم ، وأفاض عليه وعلى من معه كثيراً من المنح السياسية . فعين أوسنيوس حاكما على إليركم Illyricum ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغالة ، واحدة بعد واحدة فى فترة قصيرة ، ثم عين آخر الأمر قنصلا وهو فى سن التاسعة والستين ، وبفضل مشورته أصدر جراتيان مراسيم تفرض إعانات من الدولة لشئون التعليم ، وللشعراء ، والأطباء ، ولحماية روائع الفن القديم . وبفضل نفوذه أيضاً عين سماكس حاكما على رومة ، وپولينس والياً على إحدى الولايات وحزن أوسنيوس حين اعتزل پولينس شئون الدنيا وانقطع للدين ، لأن الإمبراطورية المهددة من جميع نواحيها كانت فى حاجة إلى أمثاله . نعم إن أوسنيوس نفسه كان أيضاً مسيحياً ، ولكنه لم يكن جاداً كل الجد فى مسيحيته ، فقد كانت ميوله ، وموضوعات شعره ، وأوزانه ، وما فيه من أساطير كلها وثنية سارة مطربة .

ولما بلغ الشاعر الشيخ سن السبعين عاد إلى بردو حيث عاش عشرين سنة أخرى . وكان وقتئذ حيا ، فى وسعه أن يوفق فى قصائد البنوة التى نظمها فى شبابه وبين حب الأجداد لأحفادهم حين يبلغ هؤلاء الأجداد الشيخوخة . انظر إليه وهو يقول لحفيده : « لا تخف ، وإن كان صدى الضربات الكثيرة يتردد فى المدرسة ، وإن تجهم وجه المدرس ، ولا ترتعد فرقاً إذا سمعت فى أثناء ساعات الصباح صراخاً أو طرق أذنيك صوت العصا ، فإذا كان المدرس يتخذ العصا

صوبلجاناً يهزه بيده ، وإذا رأيت لديه مجموعة كاملة من العصى ... فليس هذا وذاك إلا مظهراً خارجياً يبعث به الخوف الكاذب فى النفوس . لقد مر أبوك وأمك بهذا كله فى أيامهما ، ثم عاشا بعدهما ليخففا عنى فى شيخوختى الهادئة الصافية عبء السنين »[٢٨] . وما أسعد حظ أوسنيوس إذ عاش ومات قبل أن يجتاح البلاد تيار البرابرة الجارف .

وكانت منزلة أبلينارس سيدونيوس Appollinaris Sidonius فى النثر الغالى أثناء القرن الخامس كمنزلة أوسنيوس فى الشعر الغالى فى القرن الرابع : لقد خرج سيدونيوس على العالم فجأة من مدينة ليون (٤٣٢) حيث كان يقيم أبوه حاكم غالة . وكان جده قد شغل هذا المنصب نفسه قبل أبيه ، وكانت أمه من أقارب أفتوس Avitus الذى جلس على عرش الإمبراطورية فى عام ٤٥٥ . والذى تزوج سيدونيوس بابنته عام ٤٥٢ . وكانت كل هذه سبلا ممهدة يصعب على الإنسان أن يجد خيراً منها . وجاءت إليه پيبانلا ببائنة هى قصر ريفى مترف بالقرب من كليرمنت Clermont ؛ وقد قضى عدداً من سنى حياته فى الذهاب لزيارة أصدقائه من النبلاء والعودة من هذه الزيارات . وكان أولئك الأصدقاء أناساً ذوى ثقافة ورقة يميلون إلى الدعة والمغامرة[٢٩] ، يعيشون فى بيوتهم الريفية ، وقلما يغمسون أيديهم فى رجس السياسة . وكان فى وسعهم أن يحموا حياتهم الناعمة المترفة من الغزاة القوط : ولم يكونوا يهتمون بحياة المدن ، فقد أخذ ذوو الثراء الواسع من الإنجليز والفرنسيين من ذلك العهد يرون ما فى حياة الريف من متع لا توجد فى المدن . وقد جمعت هذه البيوت الريفية المنبسطة ذات الحدائق كل وسائل الراحة وأسباب الجمال ، من أرض مرصوفة بالفسيفساء ، وأبهاء ذات عمد ، وجدران منقوشة عليها مناظر طبيعية ، وتماثيل من الرخام أو البرنز ومواقد فخمة ، وحمامات ، وحدائق وملاعب للتنس[٣٠] ، ومن حولها غياض يستطيع الرجال والسيدات أن يصيدوا فيها ويطلقوا البزاة . وكان بعضها يحتوى ١٢٥ حجرة ، وفى كل منها

إلا القليل النادر مكتبة عامرة بالكتب ، فيها كتب الوثنيين القديمة وبعض النصوص المسيحية الجليلة(٣١) . وكان بعض أصدقاء سودونيوس نفسه من هواة جمع الكتب ، ولا ريب فى أنه كان فى غالة كما كان فى رومة كثير من الأثرياء الذين يقدرون تجليد الكتب الجميل أكثر مما يقدرون محتوياتها وحدها ، ويقنعون بالثقافة التى يستطيعون أن يحصلوا عليها من جلود كتبهم .

ويضرب لنا سيدونيوس أحسن مثل لهذه الحياة اللطيفة — حياة حسن الضيافة والمجاملة ، والبهجة ، والآداب الراقية ، وما فيها من شعر جيد الصقل ، ونثر حلو النغم . ولما ذهب أفتوس إلى رومة ليجلس على عرش الإمبراطورية ، صحبه سودونيوس ، واختير ليلقى بين يديه خطاب الترحيب (٤٥٦) ، ثم عاد إلى غالة بعد سنة من ذلك الوقت مع أفتوس المخلوع ؛ ولكننا نجده فى رومة مرة أخرى فى عام ٤٦٨ يشغل منصب محافظ المدينة حين كانت الدولة فى آخر مرحلة من مراحل الانهيار . وكان الرجل يسير مطمئنا وسط هذه الفوضى ، فاستطاع بذلك أن يصف المجتمعات العليا فى غالة ورومة فى رسائل من طراز رسائل پلنى وسياخوس ، ولا تقل عن رسائلهما مباهاة وظرفا .

ولم يكن الأدب فى ذلك الوقت يجد ما يتحدث عنه إلا القليل ، وقد بُذل فى هذا القليل من العناية ما أبقى على شكل هذا الأدب وسحر ألفاظه بعد أن ذهب كل ما عداها ، وخير ما يمكن أن يقال عن هذه الرسائل أنها حوت ما فى طبيعة الرجل المهذب المتعلم من تسامح وظرف وتفاهم وتعاطف . وهى الصفات التى ازدان بها أدب فرنسا منذ تلك الأيام التى لم يكن فيها أدبا فرنسيا . وقد جاء سيدونيوس إلى غالة بما يمتاز به الرومان من حب الحديث الممتع اللطيف الذى بدأ بشيشرون وسنكا وانتقل عن طريق پلنى وسياخوس ، ومكروبيوس ، وسيدونيوس إلى منتانى ومنتسيكو ، وفلتير ، ورينان ، وسانت بيف ، وأناتول فرانس ، وهؤلاء يكونون سلسلة متصلة الحلقات ، ومن نعم الله أنهم

يكادون يكونون كلهم ذوى عقلية واحدة .

وإذ كنا لا نحب أن نعطى القارئ صورة غير صادقة لسودونيوس ، فلابد لنا أن نضيف هنا أنه كان مسيحيا صالحاً ، وأسقفاً شجاعاً . وقد وجد الرجل نفسه ، على حين غفلة ، وعلى كره منه ، يندفع من منزلته المدنية العلمانية إلى أسقفية كليرمنت . وكان على الأسقف فى تلك الأيام أن يكون حاكما إداريا وهادياً روحيا فى آن واحد . وقد كان ذوو التجارب والثراء أمثال أمبروز وسيدونيوس يمتازون بمؤهلات أقوى أثراً وأعظم نفعاً فى مناصبهم الجديدة من علوم الدين مهما تعمقوا فيها . وإذا كان سيدونيوس لم يحصِّل من هذه العلوم إلا القليل ، فإنه لم يكن يصبّ اللعنات الدينية إلا على القليلين ، وكان بدل أن يشغل نفسه بهذا يعطى صحافه الفضية للفقراء ، ويغفر ذنوب الناس بسرعة روّعت الكثيرين من رجال الدين . ونتبين من إحدى رسائله أنه كان فى بعض الأحيان يقطع صلوات المصلين فى كنيسته حتى يتناولوا بعض المرطبات[٣٢] . ثم حطمت الحقيقة المرة هذه الحياة الممتعة حين قرر أوريك Euric ملك القوط الغربيين أن يضم أوفرنى Auvergne إلى البلاد الخاضعة لحكمه . وظل القوط يحاصرون كليرمنت عاصمة هذه الولاية كلما حل فصل الصيف أربع سنين متوالية . وكان سيدونيوس يقاتلهم بالسياسة وبالصلوات ، ولكنه عجز عن صدهم . ولما سقطت المدينة آخر الأمر ، أسر ، وسجن فى حصن بالقرب من كاركسن Carcassonne (٤٧٥) ؛ ثم أطلق سراحه بعد عامين وأعيد إلى كرسيه . ولسنا نعرف كم من الزمن عاش بعدئذ ، ولكنا نعلم أنه قبل أن يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره كان يتمنى أن « يتخلص من آلام الحياة الحاضرة ومتاعبها بأن يعجل الله بمنيته »[٣٣] . ذلك أنه كان قد فقد إيمانه بالإمبراطورية الرومانية ، وبنى كل آماله فى تقدم الحضارة على الكنيسة الرومانية . وقد غفرت له الكنيسة ما فى شعره من نزعة وثنية وضمته إلى جماعة القديسين .

٢ — الفرنجة

٣٤٠ — ٥١١

أرخى ليل الهمجية سدوله على غالة بعد موت سيدونيوس . على أننا ليس من حقنا أن نبالغ فى ظلام هذا الليل . فقد ظل الناس فى خلاله يحتفظون بمهارتهم فى الشئون الاقتصادية ، فكانوا يتجرون ، ويسكّون النقود ، ويقرضون الشعر ، ويشتغلون بالفن ؛ وقد بلغت مملكة القوط الغربيين فى جنوبى غالة الغربى أيام ملكيها أوريك Euric (٤٦٦ — ٤٨٤) وألريك الثانى (٤٨٤ — ٥٠٧) درجة من النظام ، والحضارة ، والرقى ، أطلقت لسان سيدونيوس نفسه بالثناء عليها(٣٤) . وفى عام ٥٠٦ نشر ألريك الثانى موجزاً من القوانين لمملكته ، وكان دستوراً مستنيراً بالنسبة لغيره من دساتير ذلك الوقت ، فقد كان يقرر العلاقة بين السكان الرومان الغاليين والفاتحين على قواعد ثابتة قائمة على العقل . وسن ملوك برغندية فى عام ٥١٠ دستوراً شبيهاً بهذا ، وكان هؤلاء الملوك قد أسكنوا شعبهم فى جنوبى غالة الشرقى وبسطوا سلطانهم على هذا الإقليم بطريق السلم . وظلت أوربا اللاتينية تحكمها الشرائع القوطية والبرغندية وشرائع الفرنجة التى لا تختلف عنهما كثيراً ، حتى عادت الشرائع الرومانية إلى الوجود فى بولونيا فى القرن الحادى عشر الميلادى .

ويبدأ التاريخ يحدثنا عن الفرنجة فى عام ٢٤٠ حين هزمهم الإمبراطور أورليان بالقرب من ميز . واستقر الفرنجة الربواريون Ripuarian (أى الشاطئيون) فى بداية القرن الخامس على منحدرات الرين الغربية ، واستولوا على كولونى (٤٦٣) ، واتخذوها عاصمة لهم ، وبسطوا سلطانهم على وادى الرين من آخن Aechen إلى متز . وبقيت بعض قبائل الفرنجة على ضفة النهر الشرقية وأطلقوا اسمهم على فرنكونيا Franconia . وربما كان الفرنجة الساليون The Salic Franks

قد اشتقوا اسمهم من نهر سالا Sala (المعروف الآن باسم إجسل Ijssel الذى يجرى فى الأرض الوطيئة . ثم تحركوا من هذا الإقليم نحو الجنوب والغرب ، واحتلوا حوالى عام ٣٥٦ الإقليم الواقع بين نهر الموز Meuse والمحيط ونهر السوم Somme . وكان أكثر انتشارهم بطريق الهجرة السلمية ، بل إن الرومان أنفسهم كانوا يدعونهم أحيانا إلى أن يعمروا الأراضى القليلة السكان . وبهذه الوسائل المختلفة أصبحت غالة الشمالية نصف فرنجية قبل أن يحل عام ٤٣٠ . وقد جاء الفرنجة معهم بلغتهم الألمانية وعقيدتهم الوثنية ، وكان من أثر هذا أن اللغة اللاتينية لم تعد اللغة التى يتحدث بها المقيمون على مجرى الرين الأدنى ، كما لم تعد المسيحية دين هؤلاء الأقوام .

ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم فى مقدمة « قانونهم السالى » بأنهم « الشعب المجيد ، الحكيم فى مجالسه ، النبيل فى جسمه ، الذى تشع منه الصحة والعافية ، الممتاز بجماله ، الجرىء ، السريع ، الذى لا تلين له قناة ... هذا هو الشعب الذى ألقى عن عاتقه نير الطغاة الرومان »[٣٥] . ولم يكونوا يعدون أنفسهم برابرة بل كانوا يقولون إنهم رجال أحرار انتزعوا حريتهم بأيديهم ، ومعنى لفظ فرنجة Franks هو الحر ، الذى نال حقوقه السياسية . وكانوا طوال القامة ، شقر الوجوه ، يجمعون شعرهم الطويل ويعقدونه فوق رؤوسهم ، ثم يتركونه يسقط منها وهو أشبه ما يكون بذيل الحصان ، وكانوا يطيلون شواربهم ، ويحلقون لحاهم ، ويشدون قباءهم على وسطهم بأحزمة من الجلد مغطاة فى بعض أجزائها بقطع من الحديد المطلى بالميناء . وفى هذه المنطقة يعلق السيف ، والبلطة الحربية ، وبعض أدوات الزينة كالمقصات والأمشاط[٣٦] ؛ وكان الرجال كالنساء مولعين بالحلى ، يتزينون بالخواتم ، والأساور وعقود الخرز . وكان كل رجل قوى الجسم جندياً محارباً ، يتعلم منذ صباه الجرى ، والقفز ، والسباحة ، وإصابة الهدف بالحربة أو البلطة . وكانت الشجاعة عندهم أسمى الفضائل كلها ، من أجلها يغتفر

القتل ، والنهب ، والاغتصاب ، ولكن التاريخ ، بما يلقيه من ضوء ساطع على بعض الحوادث دون بعضها الآخر ، يخطئ فى تصوير الفرنجة إذ يدخل فى روعنا أنهم أقوام محاربون لا غير . والحق أن فتوحهم ووقائعهم الحربية لم تكن أكثر من فتوحنا نحن ووقائعنا ، كما كانت أقل منها اتساعاً وتخريباً . ويستدل من شرائعهم على أنهم كانوا يشتغلون بالزراعة والصناعات اليدوية ، وأنهم أنشأوا فى شمالى غالة الشرقى مجتمعاً ريفياً مزدهراً يتمتع عادة بالسلام .

وقننت الشرائع السالية فى بداية القرن السادس ، وأكبر الظن أن ذلك كان فى نفس الجيل الذى شهد آخر مرحلة من مراحل تطور قوانين چستنيان الرومانية . ويقولون إن « أربعة من الزعماء الموقرين » هم الذين كتبوه ، وإن ثلاثة جمعيات شعبية متتالية قد بحثته وأقرته[٣٧] . وكانت الطريقة المتبعة فى محاكمة المتهمين هى طريقة التحكيم الإلهى والاستعانة بالشهود الذين يقسمون أن المتهم برىء . فإذا شهد عدد كان من الشهود الصالحين لهذه الشهادة أن المدعى عليه طيب الخلق ، برئ من أية تهمة لا يوجد دليل قاطع على أنه ارتكبها . وكان عدد الشهود يختلف تبعاً لجسامة الجرم المنسوب إلى المتهم : فسبعة وسبعون شاهداً يكفون لتبرئة المتهم بالقتل ، ولكن لما أن اتهمت إحدى ملكات فرنسا فى عفتها تطلب الأمر ثلثمائة من النبلاء يشهدون بصحة انتساب ابنها إلى أبيه[٣٨] . فإذا ظل الأمر بعد هذا موضعاً للشك اتبع قانون التحكيم الإلهى . من ذلك أن المتهم كانت تربط يداه وقدماه ويلقى فى النهر ، فإذا غطس كان بريئاً ، وإذا طفا كان مذنباً (وذلك لأن الماء كانت تقرأ عليه رقى خاصة فى حفل دينى تجعله يرفض الشخص المذنب)[٣٩] ؛ أو كان يطلب إلى المتهم أن يمشي حافى القدمين فى نار متقدة أو فوق حديد يحمى حتى يحمر من الحرارة ؛ أو يمسك بيده قطعة من الحديد محمية إلى هذه الدرجة ويظل قابضاً عليها مدة محددة من الزمن ؛ أو يضع ذراعه عارية فى وعاء به ماء يغلى ويخرج شيئاً من قاع الإناء ؛ أو يقف

المدعى والمدعى عليه ويمدان ذراعيهما على هيئة صليب ويظلان كذلك حتى تثبت التهمة على أحدهما إذا أنزل ذراعه من شدة التعب ؛ أو يأخذ المتهم ماء القربان المقدس ، فإذا كان مذنباً فلا بد أن تحل به نقمة الله . وكانت المبارزة تفصل أحياناً فى النزاع بين حزبين إذا بقى بعد إيراد الأدلة القانونية مجال للشك المعقول . وتدل الأبستاق على أن التحكيم الإلهى بالماء المغلى كان من الوسائل التى يستخدمها الفرس الأقدمون . وقد ورد فى قوانين مانو Mnau (قبل عام ١٠٠ م) شىء عن التحكيم الإلهى عند الهنود بالإغراق فى الماء ، كما ورد ذكر التحكيم الإلهى بطريق النار أو الحديد المحمى فى مسرحية أنتيجون لسفكليز[٤٠] . أما الساميون فكانوا يرون أن هذا التحكيم يأباه الدين ولذلك كانوا يرفضونه ، وكان الرومان يرون أنه خرافة ، أما الألمان فقد ساروا فيه إلى آخر مراحله ؛ وقبلته الكنيسة المسيحية وهى كارهة ، وأحاطته بمراسم دينية ، وأيمان مغلظة .

والمحاكمة بالاقتتال قديمة قدم التحكيم الإلهى . ويصفه ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus ، بأنه كان إجبارياً فى الدنمرقة فى القرن الأول الميلادى ؛ وتدل شرائع الإنجليز ، والسكسون ، والفرنجة ، والبرغنديين ، واللمبارد على أنه كان شائعاً بينهم ، وقد وجده القديس پتريك فى أيرلندة ، ولما أن شكا مسيحى رومانى إلى جندوباد Gondobad ملك برغانديا وقال له إن هذا التحكيم لا يحكم على الجريمة بل على المهارة ، أجابه الملك بقوله : « أليس حقاً أن نتائج الحروب والمبارزات إنما تتقرر بقضاء الله ، وأن العناية الإلهية تؤيد بنصرها القضية العادلة ؟ »[٤١]. وكان كل ما حدث فى هذا الأمر بعد أن اعتنق البرابرة الدين المسيحى أن تبدل اسم الإله الذى يحكمونه فيما بينهم . وليس فى وسعنا أن نحكم على هذه العادات أو نفهمها إلا إذا وضعنا أنفسنا فى مكان قوم يؤمنون إيماناً لا يقبل الجدل بأن الله هو الذى يسبب الحوادث جميعها ، وأنه لا يرضى عن أى حكم غير عادل . وأمام هذه التجربة المرعبة كان المدعون الذين لا يثقون

من عدالة قضاياهم أو من قوة بيناتهم يترددون كثيراً قبل آن يشغلوا المحاكم بقضاياهم وشكاياتهم ؛ كما أن المتهمين المجرمين كانوا يتهربون من التحكيم الإلهى ويعرضون أن يؤدوا بدلا منه تعويضاً للمدعين .

ذلك أنه كان لكل جريمة ثمنها ، وكان فى وسع المتهم عادة أن يفتدى نفسه بأن يؤدى التعويض المقرر للجريمة المتهم بها على أن يكون ثلثه للحكومة ، وثلثاه لمن وقعت عليه الجريمة أو لأسرته . وكان المبلغ المفروض يختلف باختلاف منزلة من وقعت عليه الجريمة ، ولهذا كان المجرم الملم بالشئون الاقتصادية يدخل فى حسابه عدداً كبيراً من الحقائق . فإذا لطم رجل يد امرأة فى غير حياء فرضت عليه غرامة مقدارها خمسة عشر ديناراً(*) (نحو دولارين أمريكيين وربع دولار) ؛ وإذا لطم عضدها غرم خمسة وثلاثين ديناراً (٥,٢٥ دولارات) ، فإذا مس صدرها بغير رضاها غرم خمسة وأربعين ديناراً (٦,٧٥ دولارات)[٤٢] . ولم يكن هذا التقدير باهظاً إذا قيس بغيره من الغرامات : فقد كان جزاء اعتداء رومانى على فرنجى أو سرقته بإكراه غرامة قدرها ٢٥٠٠ دينار (٣٧٥ دولاراً) ؛ وتخفض هذه الغرامة إلى ١٤٠٠ دينار إذا اعتدى فرنجى على رومانى أو سرقة ؛ وإذا قتل رومانى فرنجياً غرم القاتل ٨٠٠٠ دينار تخفض إلى أربعة آلاف[٤٣] إذا كان المقتول رومانياً ؛ إلى هذه الدرجة انحطت منزلة الرومانى العظيم فى أعين الفاتحين . وإذا لم ينل المعتدى عليه أو أقاربه التعويض الكافى ، كان من حقهم أن ينتقموا لأنفسهم من المعتدى ؛ وبهذه الطريقة كانت سلسلة الانتقام وسفك الدماء تدوم بين الخصوم عدة أجيال ؛ وكانت الغرامات والمبارزات القضائية خير الوسائل التى

(*) يقدر القانون السالى (فى المادة الرابعة عشرة) الدينار بجزء من أربعين جزءا من السوليدوس Solidus الذى كان وقتئذ يحتوى على سدس أوقية من الذهب أو ٥,٨٣ من دولارات الولايات المتحدة فى عام ١٩٤٦ . لكن قلة الذهب والنقد فى العصور الوسطى كانت تجعل للمبالغ الواردة فى النص قيمة فى الشراء أو العقاب أعظم كثيراً من قيمتها فى هذه الأيام .

استطاع الألمان البدائيون ابتكارها لكبح جماح غريزة الانتقام وإحلال القانون محلها .

ونصت أهم مادة فى القانون السالى على أنه « لا يجوز أن ترث امرأة شيئاً من الأراضى السالية (المادة السادسة) . واعتمدت فرنسا على هذه المادة فى القرن الرابع عشر فرفضت ادعاء الملك إدورد الثالث ملك إنجلترا حقه فى عرش فرنسا الذى يرثه عن طريق أمه إزابل Esabelle ؛ وأدى هذا الرفض إلى نشوب حرب السنين المائة . وكانت هذه المادة مقصورة على الأملاك الثابتة (العقار) ، التى يفترض أنها تحتاج فى حمايتها إلى قوة الرجال العسكرية ، ويمكن القول بوجه عام إن القانون السالى لم يكن يرفع من شأن النساء . نعم إن دية المرأة كانت ضعفى دية الرجل[٤٤] ، لأنهم كانوا يدخلون فى تقديرها أنها قد تكون أما للكثيرين من الرجال ، ولكنه يفعل بهن ما يفعله القانون الرومانى فى أوائل عهده ، فيضعهن على الدوام تحت وصاية آبائهن أو أزواجهن أو أبنائهن . وقد جعل القتل عقاب الزوجة الزانية ، ولكنه لم يكن يعاقب الزانى[٤٥] ، وكان يبيح الطلاق للرجل متى شاء هواه[٤٦] . وكانت العادة تبيح للملوك الفرنجة أن يتزوجوا بأكثر من واحدة ، وإن لم يبح ذلك القانون نفسه .

وكان أول ملوك الفرنجة المعروفين باسمهم هو كلوديو Chlodio الذى هاجم كولونى فى عام ٤٣١ ؛ ولقد هزمه إيتيوس Aetius ، ولكن كلوديو نجح فى احتلال غالة من شرقها إلى نهر السوم فى الغرب ، واتخاذ تورناى عاصمة له ؛ وخلفه على العرش ملك آخر يدعى مروفك Merovech (ابن البحر) — وقد يكون هذا مجرد خرافة — وهو الذى سميت باسمه الأسرة المروفنجية Merovingian التى حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١ . وأغوى ابنه كلدريك Childeric باسينا Basina زوجة أحد الملوك الثورنجيين Thuringian ، فجاءت إليه لتكون ملكته ، وقالت : إنها لا تعرف رجلا أخصف منه عقلا ، أو أقوى منه جسما ؛

أو أجمل منه خلقاً . وولدت له كلوفيس Clovis ، الذى أنشأ فرنسا والذى تسمى باسمه ثمانية عشر من الملوك الفرنسيين(*) .

وورث كلوفيس عرش المروفنجيين فى عام ٤٨١ ، وكان وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمره ؛ ولم تكن مملكته تشغل وقتئذ إلا ركناً من أركان غالة ، فقد كانت قبائل أخرى من الفرنجة تحكم أرض الرين ، وكانت مملكتا القوط الغربيين والبرغنديين القائمتان جنوبى غالة قد استقلتا استقلالا تاماً بعد سقوط رومة . وكان الطرف الشمالى الغربى من غالة ، الخاضع بالاسم لحكم رومة حتى ذلك الوقت ، ضعيفاً لا يجد من يدافع عنه ، فغزاه كلوفيس ، واستولى على كثير من مدنه وعلى عدد من أكابر رجاله ، ثم قبل الفدية منهم ، وباع الغنائم ، وابتاع الجند والمؤن ، والأسلحة ، وزحف على سواسون Soissons وهزم جيشا « رومانيا » (٤٨٦) . ثم وسع فتوحه فى السنين التالية حتى لامست حدود شبه جزيرة بريطانى ، ونهر اللوار . وضم إلى جانبه السكان الغاليين بأن ترك لهم أراضيهم ، كما ضم إليه رجال الدين المسيحيين بأن احترم دينهم وأبقى لهم ثروتهم . وفى عام ٤٩٣ تزوج مسيحية تدعى كلوثيلد Clothilde ، وما لبث أن اعتنق بتأثيرها الدين المسيحى على أساس العقائد النيقية ، وعمده ريمى الأسقف والقسيس فى ريمز أمام حشد من رجال الدين والأعيان دعوا لهذا الغرض ولحكمة لا تخفى ، من جميع أنحاء غالة ، ثم تقدم كلوفيس إلى ميدان القتال يتبعه ثلاثة آلاف جندى . وربما كان سبب اعتناق كلوفيس الدين الجديد أنه كان يتوق إلى الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط ، وأنه كان يرى أن مُلك فرنسا خليق بأن يعتنق من أجله هذا الدين . وأخذ أتباع الدين القويم فى غالة القوط الغربيين ، وغالة البرغنديين ، ينظرون إلى حكامهم شزراً ، وأصبحوا من ذلك الحين حلفاء الملك الفرنجى المشاتر فى السر أو فى العلن .

(*) كلدفج ، ولدفج ، وكلوفيس ، ولويس Chlodwig, Ludwig, Clovis, Louis كلها اسم واحد .

ورأى ألريك الثانى بداية هذا التيار الجارف ؛ وحاول أن يصده بالكلام المعسول ، فدعا كلوفيس إلى الاجتماع به ، واجتمعا بالفعل فى أمبوازى Amboise ، وعقدا ميثاق الصداقة الدائمة . ولكن ألريك قبض على جماعة من الأساقفة أتباع الدين الأصيل بعد عودته إلى طواوز ، لتآمرهم مع الفرنجة ، فدعا كلوفيس جمعيته الحربية وخطبها قائلا : « يعز على نفسى أرى هؤلاء الأريوسيين يمتلكون جزءاً من غالة ، فلنخرج لطردهم منها بمعونة الله»[٤٧] . ودافع ألريك عن نفسه بكل ما وسعه الدفاع ومعه شعب منقسم على نفسه ؛ ولكنه هزم فى ڤوييه Vouillé القريبة من پواتييه (٥٠٧) ، وقتله كلوفيس بيده . « وبعد أن قضى كلوفيس فصل الشتاء فى بردو » ، كما يقول جريجورى التورى Grcgory of Tours واستولى على جميع كنوز ألريك التى كانت فى طولوز ، زحف لحصار أنجوليم Angoulëme . ومن الله عليه بفضله فتساقطت أسوار المدينة من تلقاء نفسها » . وها نحن أولاء نرى منذ ذلك الزمن[٤٨] نغمة المؤرخ الإخبارى التى تمتاز بها العصور الوسطى . وكان سجيبرت الشيخ ملك الفرنجة الربواريين حليفا لكلوفيس من زمن بعيد . والآن أوحى كلوفيس إلى ابن سجيبرت بالميزات التى ينالها بعد موت أبيه . فقتل الابن والده وأرسل كلوفيس إلى القاتل شعائر الود والصداقة ومعها عماله ليقتلوه . فلما تم ذلك لكلوفيس زحف على كولونى وأقنع زعماء الربواريين بأن يرتضوه ملكا عليهم . ويقول جريجورى فى ذلك « وجعل الله أعداءه يخرون فى كل يوم صرعى تحت قدميه . . . لأنه كان يسير أمام الله بقلب سليم ، ولأنه كان يفعل ما تقر به عين الله »[٤٩] .

وسرعان مااعتنق الأريوسيون المغلوبون المذهب الصحيح ، وسمح لقساوستهم أن يحتفظوا بمناصبهم الدينية بعد أن تخلوا عن الفارق بين المذهبين وهو فارق ليس ذا شأن كبير : ونقل كلوفيس عاصمته إلى باريس وسار إليها مثقلا بالأسرى والعبيد ، والدعوات الصالحات ، ومات فيها بعد أربع سنين فى سن الخامسة

والأربعين . وجاءت الملكة كلوتيلد ، التى كان لمعونتها بعض الفضل فى إنشاء فرنسا الغالية ، « إلى تور بعد موت زوجها ، وأدت الصلاة فى كنيسة القديس مارتن ، وعاشت فى ذلك المكان عفيفة رحيمة طول أيام حياتها »(٥٠) .

٣ — المروڤنچيون

٥١١ — ٦١٤

كان كلوڤيس يتوق إلى أن يكون له أبناء ذكور ، وقد كان له قبل وفاته أكثر مما كان يحب ، ولهذا قسم مملكته بينهم لكى يتجنب نشوب حرب للوراثة بعد وفاته . فأعطى كلدبرت Childebert الإقليم المحيط بباريس ، وولى كلودمر Chlodemer إقليم أورلين Orleans ، وأعطى كلوتار Chlotar إقليم سواسون Soissons وثيودريك إقليم متز وريمز وواصل الأبناء بهمتهم البربرية السياسة المؤدية إلى توحيد فرنسا عن طريق الفتح ، فاستولوا على ثوررنجيا فى عام ٥٣٠ ، وعلى برغندية فى ٥٣٤ ، وعلى پروڤانس فى ٥٣٦ ، وعلى باڤاريا وسوابيا فى ٥٥٥ . وعاش كلوتار بعد أن مات إخوته جميعا فورث ممالكهم ، وكانت غالة تحت حكمه أوسع رقعة من فرنسا فى العهود المستقبلة . وقبيل موته فى عام ٥٦١ قسم غالة مرة أخرى ثلاثة أقسام : إقليم ريمز ومتز المعروف بأستراسيا Austrasia (أى الشرق) وخص به ابنه سجيبرت Sigebert ، وبرغندية وأعطاها إلى جنترام Gunthram ، وأعطى إقليم سواسون المعروف بنوستريا Neustria (أى القسم الثانى الغربى) إلى كلبريك Chilperic .

ولقد كان تاريخ فرنسا منذ زواج كلوڤيس إلى وقتنا هذا مزيجاً من الرجولة والأنوثة جامعاً بين الحب والحرب . من ذلك أن سجيبرت أرسل هدايا غالية إلى أثاناجلد Athanagild ملك أسبانيا من القوط الغربيين ، وطلب إليه أن يزوجه ابنته برنهلدا Brunhilda ، ووافق أثاناجلد على هذا الزواج لخوفه من الفرنجة

وإن أرسلوا الهدايا ؛ وأقبلت برنهلدا لتزدان بها أبهاء متزوريمز (٥٦٦) . ودب الحسد فى قلب كلبريك ، لأنه لم يكن له إلا زوجة ساذجة تدعى أودوفيرا Audovera وعشيقة فظة تدعى فردجندا Fredegunda ؛ فطلب إلى أثاناجلد أن يزوجه أخت برنهلدا ؛ وجاءت جلزونثا Galswintha إلى سواسون وأحبها كلبريك لأنها جاءت معها بكنوز عظيمة ، ولكنها كانت أكبر سناً من أختها ؛ فعاد كلبريك إلى أحضان فردجندا . وطلبت جلزونثا أن تعود إلى أسپانيا ؛ فأمر كلبريك بقتلها خنقا (٥٦٧) ، وأعلن سجيبرت الحرب على كلبريك وهزمه ، ولكن فردجندا بعثت إليه بعبدين قتلا سجيبرت ، وقبض على برنهلدا ولكنها استطاعت الفرار وتوجت ابنها الشاب كلدبرت الثانى ، وحكمت البلاد باسمه حكما أظهرت فيه كثيراً من الحزم والكفاية .

ويصف المؤرخون كلبريك كأنه نيرون ذلك الوقت وهيروده ، يصفونه بأنه غليظ القلب ، سفاك للدماء ، شهوانى نهم شره ، فى جمع الذهب . ويفسر جريجورى التورى ، وهو عمدتنا الوحيد فى هذه المعلومات ، تلك الصفات إلى حد ما بأن يصوره كأنه فردريك الثانى فى عصره ؛ فيقول إن كلبريك كان يسخر من فكرة وجود ثلاثة أشخاص فى إله واحد ، وبتصوير الله كأنه إنسان ، وكان يعقد مع اليهود مناقشات مزرية ، ويحتج على ثروة الكنيسة الطائلة ، وعلى نشاط الأساقفة السياسى ، وألغى الوصايا التى يترك بها الناس ما لهم للكنائس ، وكان يبيع كراسى الأساقفة لمن يؤدى أكثر الأثمان ، وحاول أن يخلع جريجورى نفسه من كرسى تور[٥١] . ويصف الشاعر فرتناتوس هذا الملك نفسه بأنه جماع الفضائل ، فهو حاكم عادل لطيف ، شيشرون زمانه فى الفصاحة ؛ ولكن يجب ألا ننسى أن كلبريك قد أجاز فرتناتوس على شعره .

ومات كلبريك بطعنة خنجر فى عام ٥٨٤ ، وربما كان طاعنه مسلطا عليه من برنهلدا ، وترك وراءه ولداً رضيعاً هو كلوتار الثانى فحكمت فردجندا نستريا

بالنيابة عنه ، بمهارة ، وغدر ، وقسوة لا تقل عن مثيلاتها فى أى رجل من رجال ذلك الوقت . من ذلك أنها جاءت بشاب من رجال الدين ليقتل برنهلدا ، ولما عاد دون أن يؤدى مهمته أمرت بقطع يديه وقدميه . لكن مرجعنا فى هذه الأخبار هو أيضاً جريجورى[٥٣]. وكان أعيان أستراسيا فى هذا الوقت لا ينقطعون عن الثورة على برنهلدا المتغطرسة ، يشجعهم على هذا كلوتار الثانى ؛ وكانت تخمد هذه الثورات بقدر ما تستطيع وتستعين على ذلك بالختل والاغتيال ؛ ولكنهم أفلحوا آخر الأمر فى خلعها وهى فى الثمانين من عمرها ، وظلوا يعذبونها ثلاثة أيام كاملة ، ثم ربطوها من شعرها وإحدى يديها وقدميها فى ذيل حصان وضربوه بالسياط (٦١٤) . وورث كلوتار الثانى الممالك الثلاث وتوحدت مرة أخرى دولة الفرنجة .

وقد يحملنا هذا السجل الملطخ بالدماء على أن نبالغ فى الهمجية التى كانت تخيم على غالة ولما يكد يمضى على موت سيدونيوس المتحضر المثقف قرن من الزمان ، ولكن الناس لا بد لهم أن يجدوا وسيلة يستخدمونها إذا أعوزتهم الانتخابات . ولقد أفسد خلفاء كلوفيس ما بذله من جهود لتوحيد البلاد كما فعل خلفاء شارلمان بملكه بعده . على أن أقل ما يقال فى هذا الثناء على هذا العهد أن الحكومة قد ظلت تؤدى واجباتها ، وأن غالة لم تكن كلها تطيق وحشية ملوكها وتعدد زوجاتهم ، وأن ما يبدو من استبداد الملوك كان محدداً بقوة النبلاء الذين يحسدونهم على سلطتهم ، وكان الملك يكافئهم على ما يؤدون له من خدمات فى الإدارة والحرب بأن يهبهم ضياعاً يكادون يكونون فيها سادة مستقلين ؛ وفى هـذه الأملاك الواسعة بدأ نظام الإقطاع الذى حارب الملكية الفرنسية ألف عام . وكثر أرقاء الأرض ، وبدأ الاسترقاق يحيا مرة أخرى بسبب الحروب الجديدة ، وانتقلت الصناعات من المدن إلى بيوت الريف ، فضاقت رقعة المدن ، وخضعت لسيطرة السادة الإقطاعيين ؛ وكانت التجارة لا تزال

نشيطة ، ولكنها كان يقف فى سبيلها عدم ثبات النقد ، وكثرة اللصوص وقطّاع الطرق ، وارتفاع الضرائب الإقطاعيـــة . وكان القحط والوباء يحاربان بنجاح غريزة التكاثر الآدمية .

وتزوّج زعماء الفرنجة بمن بقى من نساء طبقة أعضاء الشيوخ الغاليين — الرومان ، ونشأ من هذا التزاوج أشراف فرنسا . وكانوا فى ذلك الوقت أشرافاً يتصفون بالقوة ، يحبون الحرب ، ويحتقرون الآداب ، ويتباهون بلحاهم الطويلة ، وأثوابهم الحريرية ، وكثرة من يتزوجون من النساء . ولسنا نجد فى التاريخ طبقة عليا لا تعبأ بالمبادئ الأخلاقية كما لم تعبأ بها هذه الطبقة ؛ ولم يكن لاعتناقها المسيحية أثر فيها على الإطلاق ، فقد بدت المسيحية لهم كأنها مجرد وسيلة كثيرة النفقة للحكم وتهدئة الشعب ؛ ولما « انتصرت البربرية وانتصر الدين » كانت البربرية صاحبة الكلمة العليا مدى خمسة قرون . وكان الاغتيال ، وقتل الآباء ، والإخوة ، والتعذيب ، وبتر الأعضاء ، والغدر ، والزنى ، ومضاجعة المحارم ؛ كان هذا كله هو الوسيلة التى يخففون بها ملل الحكم . فقد قيل إن كلبريك أمر بأن يكوى كل مفصل من مفاصل سجيلا Sigila القوطى بالحديد المحمى ، وأن ينزع كل عضو من أعضائه من موضعه(٥٤) ، وكان لكاريبرت Charibert عشيقتان أختان وإحداهما راهبة ، وجمع دجوبرت Dagobert (٦٢٨ — ٦٣٩) بين ثلاث زوجات فى وقت واحد . وربما كان الإفراط الجنسى هو السبب فيما أصاب المروفنچيين من عقم منقطع النظير : ومن أمثلة هذا العقم أن واحداً لا أكثر من أبناء كلوفيس الأربعة وهو كلوتار كان له أبناء ، وأن واحداً من أبناء كلوتار الأربعة كان له طفل . وكان الملوك يتزوجون فى الخامسة عشرة من عمرهم ويفقدون قوّتهم متى بلغوا سن الثلاثين ، ومات كثيرون منهم قبل الثامنة والعشرين(٥٥) . ولم يحل عام ٦١٤ حتى كان بيت المروفنچيين قد استنفد جميع حيويته وتأهب لأن يخلى مكانه لغيره .

وفى غمار هذه الفوضى لم يكد يكون للتعليم وجود ، فلم يحل عام ٦٠٠ حتى كانت معرفة القراءة والكتابة ترفاً لا يتمتع به إلا رجال الدين . أما العلوم الطبيعية فقد انمحت أو كادت . وبقى الطب ، لأنا نسمع عن وجود أطباء فى حاشية الملوك ، أما بين الشعب فقد كان السحر والصلاة فى نظرهم خيراً من الدواء . وقد ندد جريجورى أسقف تور (٥٣٨ ؟ — ٥٩٤) بمن يستخدمون الأدوية بدل الصلوات فى علاج المرضى ، وقال : إن هذا إثم يعذبهم عليه الله . ولما مرض هو أرسل يدعو إليه طبيباً ، ولكنه سرعان ما صرفه لأنه لم ينفعه بشىء ، ثم شرب قدحا من الماء ممزوجاً بتراب جىء به من قبر القديس مارتن شفى على أثره شفاء تاما[٥٦] . وكان جريجورى هذا أشهر كتاب النثر فى أيامه ، وكان يعرف كثيرين من الملوك المروفنجيين معرفة شخصية ، وكثيرا ما كانوا يستخدمونه فى بعثات لهم . وقد روى فى كتابه تاريخ الفرنجة قصة العصر المروفنجى المتأخر بطريقة فجة ، مضطربة قائمة على الهوى والخرافة ، ولكنه روى هذه القصة بأسلوب واضح ، وكانت حوادثها مما شاهده بنفسه ، ولغته اللاتينية فاسدة ، قوية ، خالية من الالتواء . وهو يعتذر عن أغلاطه النحوية ، ويرجو ألا يعاقبه الله فى يوم الحساب على ما ارتكبه من إثم بسبب هذه الأخطاء[٥٧] . وهو يؤمن بالمعجزات وخوارق العادات ، ويتصورها تصور الطفل الذى لا يخالجه فيها أدنى ريب أو يؤمن بها إيمان الأسقف الحصيف الماكر اللطيف ويقول : وسنمزج فى قصتنا معجزات القديسين بمذابح الأمم »[٥٨] . ثم يمضى فيؤكد أن الأفاعى سقطت من السماء فى عام ٥٨٧ ، وأن قرية قد اختفت فجأة بجميع مبانيها وسكانها[٥٩] . وهو يشهر بكل شىء فى أى إنسان لا يؤمن بالله أو يعمل ما يضر بالكنيسة ، ولكنه يقبل ما يرتكبه أبناء الكنيسة المؤمنون من أعمال وحشية ، وغدر ، وخيانة ، وفساد خلقى ، ولا يجد فى هذا ما تشمئز منه

نفسه . وهو صريح فى تحيزه وعدم نزاهته ، ومن اليسير علينا أن نتغاضى عن بعض عيوبه ، والصورة الأخيرة التى لا تنطبع فى ذهننا عنه هى أنه رجل ساذج محبوب .

وأصبحت آداب غالة بعده تغلب عليها الصبغة الدينية فى موضوعاتها ، والصبغة البربرية فى لغتها وأسلوبها إلا فى حالة واحدة دون غيرها ، تلك هى كتابات ڤنانتيوس فرتناتوس Vanantius Fortunatus (حوالى ٥٣٠ — ٦١٠) البليغة . وقد ولد هذا الكاتب فى إيطاليا ، وتعلم فى راڤنا ، ثم انتقل إلى غالة فى الثلاثين من عمره ، وكتب يمدح أساقفتها وملكاتها ، وأحب ردجندا زوجة كلوتار الأول حباً عذرياً أفلاطونياً . ولما أنشأت هى ديراً صار فرتناتوس قسيساً ، ودخل فى خدمتها ، وما زال يرقى فى الدرجات الكهنوتية حتى أصبح أسقف پواتييه ؛ وكتب قصائد جميلة يمدح بها الأحبار ، والقديسين ، منها تسع وعشرون قصيدة فى مدح جريجورى التورى وحده ؛ ثم كتب ترجمة شعرية للقديس مارتن . وكان أحسن ما كتبه بعض ترانيم حلوة النغم منها واحدة تدعى Pange lingua أوحت إلى تومس أكويناس بقصيدة تشبهها فى موضوعها وتعلو عليها فى أسلوبها ؛ ومنها قصيدة أخرى تدعى Vexilla regis أصبحت هى الجزء الأخير من القداس الكاثوليكى . وقد برع فى مزج الإحساس القوى بالشعر البليغ ، وإذا ما قرأنا أبياته الدائمة الجدة ، اللطيفة الأسلوب ، تبينا ما كان ينطوى عليه قلبه من رحمة ، وإخلاص ، وعواطف رقيقة وسط ما كان يتصف به عصر المروڤنجيين من وحشية وجرائم يرتكبها الملوك .

الفصل الثالث

أسبانيا تحت حكم القوط المغربيين

٤٥٦ — ٧١١

سبق القول إن القوط الغربيين حكام غالة استردوا أسبانيا من الوندال فى عام ٤٢٠ ، وعادوا بعدئذ إلى رومة ، ولكن رومة كانت عاجزة عن حماية أسبانيا ، ولهذا فإن السويفى Suevi خرجوا من معاقلهم فى التلال الواقعة فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة واجتاحوها كلها ، فانقض عليها القوط الغربيون مرة أخرى بقيادة ثيودريك الثانى (٤٥٦) وأوريك (٤٦٦) بعد أن عبروا جبال البرانس ، وفتحوا معظم أسبانيا واحتفظوا بالبلاد فى هذه المرة وضموها إلى أملاكهم ، وحكمت أسبانيا من ذلك الوقت أسرة من القوط الغربيين وظلت على عرشها حتى جاءها المسلمون .

وأنشأت الملكية الجديدة ، فى بلدة طيطلة عاصمة فخمة ، وجمعت فيها حاشية موفورة الثراء . وكان أثاناجلد Athanagild (٥٦٣ — ٥٦٧) وليوفيجلد Leovigild (٥٦٨ — ٥٨٦) ملكين قويين ، هزما الغزاة الفرنجة فى الشمال وجيوش بيزنطية فى الجنوب ؛ وكانت ثروة أثاناجلد هى التى أكسبت ابنتيه ميزة فذة هى أنهما قتلتا وهما ملكتان لملكين من الفرنجة . وحدث فى عام ٥٨٩ أن غير ريكارد Recared مذهبه ومذهب الكثرة الغالبة من القوط الغربيين فى أسبانيا من الأريوسية إلى المسيحية الأصيلة . ولعل سبب هـذا التغيير أنه قرأ من قبل تاريخ ألريك الثانى . ومن ذلك الحين أصبح الأساقفة أكبر المؤيدين للملكية وأقوى سلطة فى الدولة ؛ فقد سيطروا بفضل تفوقهم فى العلم ودقة النظام على

الأشراف الذين كانوا يجتمعون معهم فى مجالس الحكم فى طليطلة ؛ ومع أن سلطة الملك كانت سلطة مطلقة من الوجهة النظرية ، ومع أنه كان هو الذى يختار الأساقفة ، فإن هذه المجالس كانت هى التى تختاره ، وتأخذ عليه قبل أن يباشر الحكم المواثيق بشأن السياسة التى تريد منه أن يتبعها ، ووضعت بإرشاد رجال الدين طائفة من القوانين (٦٣٤) ، كانت أوفى جميع شرائع البرابرة وأقلها تسامحاً . وقد أصلحت من شأن الإجراءات القضائية بأن عمدت إلى تقدير شهادة الشهود فى تقدير أخلاق المتهمين بدل شهادات الأصدقاء ، وطبقت قوانين واحدة على الرومان والقوط الغربيين ، فوضعت بذلك مبدأ المساواة أمام القانون(٦٠). ولكنها لم تأخذ بمبدأ حرية العبادة ، وحتمت على جميع السكان أن يعتنقوا المسيحية الصحيحة ، وأقرت اضطهاد يهود أسبانيا الذى دام طويلا ، وارتكبت فيه أشد ضروب القسوة .

ونسى القوط الغربيون قبل أن ينقضى قرن على فتحهم أسبانيا لغتهم الألمانية بتأثير نفوذ الكنيسة التى ظلت تستخدم اللغة اللاتينية فى مواعظها وطقوسها الدينية ، وأفسدوا اللاتينية المستعملة فى شبه الجزيرة بأن أدخلوا عليها قوة الرجولة والجمال النسوى اللذين تمتاز بهما اللغة الأسبانية الحاضرة ، وكانت المدارس الملحقة بالأديرة والأسقفيات هى التى تقوم بالتعليم ، وكان معظمه تعليما كنسياً ، ولكنه كان يشمل شيئاً من دراسة الكتب القديمة ، وأنشئت مجامع علمية فى بقلارا Vaclara وطليطلة ، وسرقسطة ، وأشبيلية . وكان الشعر يلقى تشجيعاً كبيراً ، أما التمثيل فكان يقاوم لما فيه من فحش وبذاءة .

ولم يحفظ التاريخ من أسماء الأدباء فى أسبانيا القوطية إلا اسم إزدور Isidore الأشبيلى (حوالى ٥٦٠ — ٦٣٦) . وتروى إحدى الأقاصيص الطريفة كيف هرب غلام أسبانى من بيته غضبا من تأنيبه من أجل كسله ، وأخذ يطوف بالبلاد حتى أنهكه التعب ، فجلس إلى جانب بئر . فاستلفت نظره شق عميق فى

حجر مجاور لحافة البئر . ومرت به فى ذلك الوقت فتاة فقالت له إن هذا الشق من أثر احتكاك الحبل الذى ينزل الدلو فى البئر ويرفعها . فلما سمعها إزدور قال فى نفسه : « إذ كان فى إستطاعة هذا الحبل اللين بدأ به على العمل فى كل يوم أن يشق الحجر ، فما من شك فى أن المثابرة يمكن أن تتغلب على بلادة عقلى » . ثم عاد من فوره إلى بيت أبيه وواصل الدرس حتى أصبح أسقف أشبيلية المتبحر فى العلم[٦١] . ولسنا نعلم إلا القليل عن حياته ، وكل ما نستطيع أن نقوله إنه وجد بين مشاغله الدينية الكثيرة ، التى كان يقوم بها بما يرضى ضميره ، متسعا من الوقت يكتب فيه ستة كتب . ولعله أراد أن يعين ذاكرته فجمع فى خلال عدد كبير من السنين فقرات مختلفة فى جميع الموضوعات نقلها من كتب المؤلفين الوثنيين والمسيحيين واستحثه صديقه بروليو Broulio أسقف سرقسطة على أن ينشر هذه المختارات ، فأجابه إلى طلبه ، وحورها حتى أضحت من أقوى كتب العصور الوسطى أثراً وسماها « عشرون كتابا فى الاشتقاقات والأصول » ويضمها الآن مجلد ضخم يحتوى على ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير . وهو موسوعة علمية ولكنها غير مرتبة على الحروف الهجائية ؛ وتبحث على التوالى فى المجموعة الثلاثية من العلوم القديمة وهى النحو ، والبلاغة ، والمنطق ؛ ثم فى الحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك وهى المجموعة الرباعية عند الأقدمين ؛ ثم تبحث فى الطب ، والقانون ، والتواريخ ، والدين ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، وعلم الحيوان ، وعلم الكون ، والجغرافية الطبيعية ، والهندسة المعمارية ، والمساحة ، والتعدين ، والزراعة والحرب ، والألعاب الرياضية ، والسفن ، والملابس ، والأثاث ، والأدوات المنزلية ، ... وكلما انتقل المؤلف إلى موضوع من هذه الموضوعات عرف مصطلحاته الأساسية ، وبحث عن منشأها . مثال ذلك أنه يقول إن الإنسان يسمى باللاتينية (هومو Homo) لأن الله قد خلقه من التراب (هومس Humus) ، والركبتان تسميان genus ، لأنهما يكونان مقابل الجدين genae) فى الجنين[٦٢] . وكان إزدور

عالماً مجداً وإن لم يعن بالتفرقة بين موضوعات درسه ؛ وكان واسع الاطلاع على اللغة اليونانية ، يعرف الكثير من كتابات لكريتيوس Lukretius (وهو الذى لا يذكر إلا فى العصور الوسطى) ، وقد حفظ لنا قطعاً مختارة من فقرات كثيرة من الآداب الوثنية لولاه لضاعت عن آخرها . وبحوثه خليط من الاشتقاق الغريب ، والمعجزات التى لا يقبلها عقل ، ومن تفسيرات مجازية خيالية للكتاب المقدس ؛ ومن العلوم الطبيعية والتاريخ حورت لكى تثبت مبادئ أخلاقية ، وأخطاء فى الحقائق يكفى القليل من الملاحظة لتصحيحها . وكتابه هذا أثر خالد يدل على ما كان فاشياً فى هذا العهد من جهالة .

ولا يكاد يبقى شىء من الفنون التى كانت فى أسبانيا فى عهد القوط الغربيين . ويلوح أن طليطلة ، وإيطالكا ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومديرا وغيرها من المدن كانت تحتوى على كنائس ، وقصور ، ومبان عامة جميلة المنظر ، أقيمت على الطرز القديمة ، ولكنها ميزت عنها بالرموز المسيحية ، والنقوش البيزنطية(٦٣) . ويقول المؤرخون المسلمون إن العرب الفاتحين وجدوا فى قصور طليطلة وكنيستها الكبيرة خمسة وعشرين تاجاً من الذهب المرصع بالجواهر ، وكتاباً مزخرفاً للتراتيل الدينية مكتوباً على ورقة من الذهب بمداد مصنوع من الياقوت المصهور ، وأقمشة منسوجة بخيوط من الذهب والفضة ، ودروعاً ، وسيوفاً ، وخناجر مرصعة بالجواهر ، ومزهريات مملوءة بها ، ومنضدة من الزمرد مطعمة بالفضة والذهب — وكانت هذه المنضدة إحدى الهدايا الكثيرة الغالية التى أهداها أغنياء الغربيين إلى كنيستهم التى تحميهم وترد الأذى عنهم .

وظل استغلال الأقوياء والمهرة للبائسين والسذج يجرى مجراه فى عهد القوط الغربيين كما كان يجرى فى عهد سائر الحكومات القديمة . فكان الأمراء والأحبار يجتمعون فى حفلات دينية أو دنيوية فخمة ، ويضعون قواعد للتحليل والتحريم ، ويدبرون وسائل للإرهاب والرعب ليتغلبوا بذلك كله على مشاعر

الجماهير ويهدئوا أفكارهم . وتركزت الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد ، وكانت الثغرة الواسعة التى تفصل الأغنياء عن الفقراء ، والمسيحيين عن اليهود تقسم الأمة ثلاث دول مختلفة ؛ فلما أن جاء العرب لم يبال الفقراء واليهود بسقوط دولة ملكية وكنيسة لم تظهرا شيئاً من الاهتمام بفقرهم وسامتهم كثيراً من أنواع الاضطهاد الدينى .

ولما مات وتيزا Witiza ملك أسپانيا الضعيف فى عام ٧٠٨ لم يقبل الأشراف أن يخلفه على العرش أحد من أبنائه ، بل أجلسوا عليه ردريك (لزريق) Roderick ، ففر أبناء وتيزا إلى أفريقية ، واستغاثوا بزعماء المسلمين . وقام المسلمون ببضع غارات تمهيدية على السواحل الأسپانية ، عرفوا بها أن أسپانيا منقسمة على نفسها ، وأنها تكاد تكون مجردة من وسائل الدفاع ، فجاءوا إليها فى عام ٧١١ بقوة أكبر من قوتهم السابقة . والتقت جيوش طارق ولزريق فى معركة على سواحل بحيرة يندا Janda فى ولاية قادس ، انضمت فيها قوة من القوط إلى العرب ، واختفى لزريق من المعركة . وتقدم المسلمون المنتصرون إلى أشبيلية ، وقرطبة ، وطليطلة ؛ وفتحت كثير من المدائن الأسپانية أبوابها للغزاة . وأقام قائد العرب موسى ابن نصير فى العاصمة الأسبانية (٧١٣) ، وأعلن أن أسپانيا أصبحت من ذلك الوقت ملكا للمسلمين وللخليفة الأموى فى دمشق .

الفصل الخامس

إيطاليا تحت حكم القوط الشرقيين ٤٩٣ - ٥٣٦

١ - ثيودريك

لما تصدعت أركان مملكة أتلا بعد وفاته فى عام ٤٥٣ استعاد القوط الشرقيون استقلالهم ، وكان قد أخضعهم من قبل لحكمه . وكان البيزنطيون يرشونهم ليصدوا غيرهم من البرابرة الألمان نحو الغرب ، وكافئوهم على عملهم هذا بأن أقطعوهم ولاية پنونيا ، وأخذوا ثيودريك ابن ملكهم ثيودمير - ولم يكن قد جاوز السابعة من عمره - رهينة فى أيديهم إلى القسطنطينية ليضمنوا بذلك ولاء القوط الشرقيين لهم . وقضى ثيودريك فى بلاط إمبراطور القسطنطينية أحد عشر عاماً اكتسب فيها فطنة وذكاء ، وإن لم يتلق فيها تعليما ؛ وحذق فنون الحرب والحكم ، ولكن يبدو أنه لم يتعلم قط الكتابة[٦٤] ؛ وأعجب به الإمبراطور ليو الأول ، فلما مات ثيودمير (٤٧٣) ، اعترف ليو بثيودريك ملكاً على القوط الشرقيين .

وخشى زينون الذى خلف ليو على عرش الإمبراطورية الشرقية أن يسبب ثيودريك المتاعب لبيزنطية ، فأشار عليه أن يفتح إيطاليا . وكان أدوكر قد اعترف اسمياً بخضوعه للإمبراطور الشرق ولكنه كان يتجاهله فعلا ، وكان زينون يأمل أن يعيد ثيودريك إيطاليا إلى حكم بيزنطية ؛ وسواء تم هذا أو لم يتم فإن زعيمى القبائل الألمانية الخطرة سيسلى أحدهما الآخر ويتركان زينون يدرس الدين على مهل . وأعجب ثيودريك بهذه الفكرة - ويقول بعضهم إنه هو صاحبها . وقاد ثيودريك القوط الشرقيين بوصفه وزير زينون ، وكان تحت لوائه عشرون ألف محارب ،

وعبر بهم جبال الألب (٤٨٨) . وعاون أساقفة إيطاليا القائد الأريوسى وإن كانوا هم من أتباع الدين الصحيح لأنهم كانوا يكرهون أريوسية أدوكر ، ولأن ثيودريك فى رأيهم يمثل إمبراطوراً يكاد يكون من أتباع الدين القويم . وبفضل هذه المساعدة استطاع ثيودريك أن يحطم مقاومة أدوكر الشديدة بعد حرب طاحنة دامت خمس سنين ، وأقنعه على أن يعقد معه صلحاً ينزل فيها كلاهما عن مطالبه . ثم دعا أدوكر وابنه إلى الطعام معه فى رافنا ، وبعد أن أكرم وفادتهما قتلهما بيده (٤٩٣) . وبهذا الغدر بدأ عهد من أكثر العهود استنارة فى التاريخ .

وكانت بضع حملات عسكرية كافية لأن تخضع لحكم ثيودريك غربى البلقان ، وجنوبى إيطاليا ، وصقلية . وظل ثيودريك خاضعاً خضوعاً اسمياً إلى بيزنطية ، وضرب النقود باسم الإمبراطور ، وكان يكتب الرسائل إلى مجلس الشيوخ ، الذى ظل يعقد جلساته فى رومة ، بما يليق به من التوقير واتخذ لنفسه لقب ركس rex أى الملك . وكان هذا اللفظ فى الزمن القديم من أبغض الألفاظ إلى الرومان ، ولكنه كان وقتئذ لقباً عاماً لحكام الأقاليم التى تعترف بسيادة بيزنطية عليها . وقبل قوانين الإمبراطورية الغربية التى زالت من الوجود ونظمها ، وحرص أشد الحرص على الدفاع عن آثارها وأشكالها ، ووهب كل ما أوتى من جد ونشاط لإعادة الحكم المنظم إلى البلاد والرخاء الاقتصادى إلى الشعب الذى أخضعه لحكمه . وقصر عمل القوط الذين جاءوا معه على وظائف الشرطة والخدمة العسكرية ، وسكن تذمرهم بما كان يؤديه لهم من الأجور العالية . أما مناصب الإدارة والقضاء فقد ظلت فى أيدى الرومان ، وترك ثلثى أرض إيطاليا الزراعية للرومان أنفسهم ووزع الثلث الباقى على القوط ، ومع هذا فقد بقيت بعض الأراضى الصالحة للزراعة فى إيطاليا من غير أن تفلح . وافتدى ثيودريك الرومان الذين وقعوا فى أسر الأمم الأخرى ، وأسكنهم إيطاليا ، وأقطعهم فيها أرضاً يزرعونها ؛

وجفف المستنقعات البنتية ، وأعادها أرضاً صالحة للزراعة غير مضرة بالصحة . وكان ثيودريك يؤمن بضرورة تنظيم الحالة الاقتصادية وإخضاعها لسيطرة الحكومة ، فأصدر « مرسوماً خاصاً بالأثمان التي يجب أن تكون في راڤنا » . ولسنا نعرف كيف كانت هذه الأثمان ، وكل ما يقال لنا هو أن نفقات الطعام في حكم ثيودريك كانت أقل مما كانت عليه قبل بمقدار ثلثها . وأنقص عدد موظفي الحكومة ومرتباتهم ، ومنع الإعانات التي كانت تعطى للكنيسة ، وخفض الضرائب . ومع هذا فقد كانت إيرادات الدولة تكفي لإصلاح كثير من الضرر الذي ألحقه الغزاة بروما وإيطاليا ، ولإقامة قصر متواضع في راڤنا وكنيستي سنتا أبليناري Sant' Appollinare وسان ڤيتال San Vitale . وفي أيامه استعادت ڤيرونا ، وپاڤيا ، ونابلي ، واسپوليتو Spoleto وغيرها من مدن إيطاليا ما كان بها في أيام عزها من مبان فخمة . وبسط ثيودريك حمايته على الكنائس التابعة للمذهب الأصيل من حيث أملاكها وحرية العبادة فيها وإن كان هو من أتباع المذهب الأريوسي ؛ وصاغ وزيره كسيودوروس Cassiodorus الكاثوليكي المذهب سياسة الحرية الدينية في تلك العبارة الخالدة ! « ليس في مقدورنا أن نسيطر على الدين ، لأنا لا نستطيع أن نرغم أحداً على أن يؤمن بما لا يريد أن يؤمن به »(*)(٦٦) . وكتب مؤرخ بيزنطي يدعى پروكپيوس Procopius من مؤرخي الجيل التالي يثني على الملك « البربري » ثناء ليس فيه شيء من المحاباة فقال :

لقد كان ثيودور شديد الحرص على مراعاة العدالة . . . وبلغ أعلى درجات الحكمة والرجولة . . . . ومع أنه كان من الناحية الاسمية مغتصباً للملك ، فقد كان في واقع الأمر إمبراطورا بحق ، لا يقل في ذلك عن أي إمبراطور ممن ميزوا أنفسهم في هذا المنصب الخطير منذ بداية التاريخ . وكان القوط والرومان جميعاً

(*) يذكرنا هذا بقول الله عز وجل يخاطب نبيه الكريم : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » . (المترجم)

يحبونه أعظم الحب . . . ولم يكن كل ما تركه قبل وفاته هو الرعب الذى قذفه فى قلوب أعدائه ، بل إنه ترك فوق ذلك فى قلوب رعاياه شعوراً قوياً بالخسارة والحرمان[٦٧] .

٢ — بؤيثيوس

وفى هذه البيئة التى عمها السلم والأمن بلغ الأدب اللاتينى آخر مرحلة من مراحل الرقى والازدهار . ومن أشهر أدباء ذلك العصر فلاڤيوش ماجنوس أورليوس كسيودورس Flavius Magnus Aurelius Cassiodorus (٤٨٠ ؟ — ٥٧٣) الذى كان أمين سر أدوكر وثيودريك . وقد ألّف ، بناء على إشارة ثيودريك ، تاريخ القوط[٦٨] . وكان يهدف إلى أن يظهر للرومان المتشامخين أن للقوط أيضاً أبناء نبلاء وأعمالا مجيدة . ولعل أكثر من هذا موضوعية تاريخه الإخبارى الذى أرّخ فيه العالم كله من آدم إلى ثيودريك ، ونشر فى أواخر حياته السياسية مجموعة من رسائله وأوراقه المتعلقة بشئون الدولة ، بعضها سخيف بعض السخف ، وبعضها كثير المبالغة والتباهى ، وبعضها يكشف عن مستوى أخلاقى رفيع ومقدرة إدارية عظيمة كان يتصف بهما الوزير ومليكه . ولما شهد فى عام ٥٤٠ اضمحلال الحكومة التى خدمها ثم سقوطها اعتزل منصبه وآوى إلى ضيعته فى اسكويلاس Squillace بكلبريا Calabria ، وأنشأ هناك ديرين ، وعاش فيها عيشة وسطاً بين عيشة الرهبان والعظماء حتى وافته المنية فى سن الثالثة والتسعين . وقد علم زملاءه الرهبان أن ينسخوا المخطوطات ، الوثنية منها والمسيحية ، وأعد لهذا العمل حجرة خاصة . وحذت بعض المعاهد الدينية الأخرى حذوه ، ولهذا فإن كثيراً مما لدينا من الكنوز الحديثة المنقولة عن الأدب القديم هو ثمرة من ثمار أعمال النسخ التى تمت فى الأديرة ، والتى بدأها كسيودورس وزملاؤه الرهبان . وألّف فى أواخر سنى حياته كتاباً مدرسيا سماه : منهجا فى

الدين والدراسات غير الدينية دافع فيه دفاعاً جريئاً عن قراءة الآداب الوثنية ، واتبع فيه منهج الدراسة المدرسي الذي وضعه مريانوس كاپلا Marianus Capella والذي قسم فيه العلوم إلى مجموعتين : المجموعة الثلاثية والمجموعة الرباعية ، وهو التقسيم الذي ظل متبعاً في التعليم طوال العصور الوسطى .

وكانت حياة أنيسيوس مانليوس سفرينوس بوئيثيوس Anicius Manlius Severinus Boethius (٤٧٥ ؟ — ٥٣٤) شبيهة بحياة كسيودورس في كل شيء إلا في قصر مدتها . فكلاهما من أبناء الأسر الرومانية الغنية ، وكلاهما كان وزيراً لثيودريك ، وكلاهما بذل جهداً كبيراً لسد الثغرة التي تفصل الوثنية عن المسيحية ، وكتب كتباً مملة ظلت ألف عام تقرأ وتعد من الذخائر القيمة . وكان والد بوئيثيوس قنصلا في عام ٤٨٣ ، وكان والد زوجته سماخوس الأصغر من نسل سماخوس الذي دافع عن مذبح الحرية . وتعلم أحسن تعليم تستطيع رومة أن تقدمه لأبنائها ، ثم قضى بعدئذ ثمانية عشر عاماً في مدارس أثينة عاد بعدها إلى قصوره الريفية في إيطاليا ، وانهمك في الدرس ، واعتزم أن ينقذ عناصر الثقافة اليونانية واللاتينية القديمة التي رآها آخذة في الزوال ، فوهب وقته كله — وهو أكبر ما يعتز به العالم المجد — في تلخيص كتب إقليدس في الهندسة النظرية ونقوماخوس في الحساب ، وأرخميديز في علم الحيل (الميكانيكا) وبطليموس في الفلك . . . وكانت ترجمته لرسالة أرسطو في المنطق (Organon) وكتاب برفيرى Porhyry المعروف باسم *مقدمة لمقولات أرسطو* هي التي استمد منها علم المنطق في السبعة القرون التالية أهم نصوصه وأفكاره ، وهي التي مهدت السبيل للجدل الطويل بين الواقعية والاعتبارية . وحاول بوئيثيوس أن يكتب أيضاً في اللاهوت : فألف رسالة في التثليث دافع فيها عن النظرية المسيحية السائدة ، ووضع المبدأ القائل إنه إذا اختلف الدين والعقل وجب اتباع الدين . وليس في

هذه المؤلفات كلها ما هو خليق بالقراءة فى هذه الأيام ، ولكننا مهما أطنبنا فى وصف آثارها فى التفكير فى العصور الوسطى فإنا لا يمكن أن نتهم بالمبالغة فى هذا الوصف .

وأوحت إليه تقاليد أسرته أن يتنحى عن هذه الأعمال المغلقة على الأفهام ، وأن ينزل إلى خضم الحياة السياسية . وارتقى فى هذه الحياة رقيا سريعاً ، فكان قنصلا ، ثم وزيراً ، ثم سيد المناصب – أى رئيس الوزراء (٥٢٢) . وامتاز فى هذه المناصب كلها بحبه للإنسانية وبفصاحته ، وكان الناس يشبهونه بدمستين وشيشرون . لكن العظمة تخلق للعظيم أعداء ، فقد ساء الموظفين القوط فى بلاط الملك ما رأوه من عطفه على السكان الرومان والكاثوليك ، وأثاروا شكوك الملوك فيه ؛ وكان ثيودريك وقتئذ فى التاسعة والستين من عمره ، ضعيف الجسم والعقل لا يدرى كيف ينقل إلى خليفته حكما مستقراً تتولاه أسرة قوطية أريوسية على أمة تسعة أعشارها من الرومان ، وثمانية أعشارها كاثوليك . وكان لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن الكنيسة والأشراف يناصبانه العداء ، وأنهما يترقبان موته بفارغ الصبر . وكان مما قوى هذه الشكوك أن جستنيان نائب الإمبراطور فى بيزنطية أصدر مرسوماً يقضى بنفى جميع المانيين من الإمبراطورية ، وتحريم جميع المناصب المدنيـــة والعسكرية على جميع الوثنيين والمارقين – بما فيهم جميع الأريوسيين ما عدا القوط . وظن ثيودريك أن هذا الاستثناء لا يقصد به إلا إضعاف حجته ، وأن جستنيان سيرجع فيه عند أول فرصة ، ورأى أن هذا المرسوم جزاء غير عادل للحريات التى منحها أتباع العقيدة الكنسية الأصيلة فى الغرب . ألم يرفع إلى أعلى مناصب الدولة بوئيتيوس الذى كتب رسالة عن التثليث يعارض فيها العقيدة الأريوسية ؟ وفى تلك السنة نفسها سنة ٥٢٣ أهدى إلى كنيسة القديس بطرس ماثلتين فخمتين من الفضة المصمتة دليلا على مجاملته للبابا . لكنه مع هذا قد أغضب طائفة كبيرة من

السكان بحمايته لليهود ، ذلك أنه حين دمر الغوغاء معابدهم فى ميلان ، وجنوى ، ورومة أعاد بناءها من الأموال العامة .

وفى هذه الظروف ترامى إلى ثيودريك أن مجلس الشيوخ يأتمر به ليخلعه . وقيل له إن زعيم المؤامرة هو ألبينوس Albinus رئيس مجلس الشيوخ وصديق بوئيثيوس . فما كان من العالم الكريم إلا أن أسرع إلى ثيودريك وأكد له براءة ألبينوس وقال له : « إذا كان ألبينوس مذنباً فإنى أنا ومجلس الشيوخ كله لا تقل عنه جرما » . وقام ثلاثة رجال ذوى سمعة سيئة يتهمون بوئيثيوس بالاشتراك فى المؤامرة ، وقدموا وثيقة عليها توقيع بوئيثيوس ، موجهة إلى إمبراطور بيزنطية تدعوه إلى فتح إيطاليا . وأنكر بوئيثيوس هذه التهم كلها ، وقال إن الوثيقة مزورة ، لكنه اعترف فيما بعد بأنه : « لو كان هناك أمل فى أن يوصلنا ذلك إلى الحرية لما ترددت فيه ، ولو أننى عرفت أن هناك مؤامرة على الملك . . . لما عرفتم نبأها منى »(٧٠) . فلما قال هذا قبض عليه (٥٢٣) .

وسعى ثيودريك لأن يتفاهم مع الإمبراطور ، وكتب إلى جستين رسالة خليقة بالملك الفيلسوف قال فيها :

« إن من يدعى لنفسه حق السيطرة على الضمائر يغتصب حق الله وحده على عباده ، أما سلطان الملوك فهو بطبيعة الأشياء مقصور على الحكومة السياسية ، وليس من حقهم أن يعاقبوا إنساناً إلا إذا عكر صفو السلم العام . وليس ثمة أشد خطورة من مروق الملك الذى يفصل نفسه عن قسم من رعاياه لأنهم لا يؤمنون بما يؤمن هو به »(٧١) .

ورد عليه جستين بقوله : إن من حقه أن يحرم من مناصب الدولة من لا يثق بولائهم له ، وإن نظام المجتمع يتطلب وحدة العقيدة . وطلب الأريوسيون فى الشرق إلى ثيودريك أن يحميهم ، فطلب إلى البابا يوحنا الأول أن يسافر إلى القسطنطينية ليتوسط لدى الإمبراطور فى أمر الأريوسيين

المفصولين من وظائفهم . ورد عليه البابا بأن هذه رسالة لا تليق برجل أخذ على نفسه أن يقضى على الزيغ والضلال ، ولكن ثيودريك أصر على طلبه . وقوبل يوحنا فى القسطنطينية بحفاوة بالغة ، ثم عاد صفر اليدين ، فاتهمه ثيودريك بالخيانة ، وألقاه فى السجن ، حيث مات بعد سنة واحدة(٧٢) .

وفى هذه الأثناء كان ألبينوس وبوئيثيوس قد حوكما أمام الملك وأدينا وحكم عليهما بالإعدام . وروع هذا الحكم مجلس الشيوخ فأصدر مراسيم يتبرأ فيها منهما ويصادر أملاكهما، ويقر العقوبة التى حكم بها عليهما . وقام سيماخورس يدافع عن زوج ابنته فاعتقل . وألف بوئيثيوس وهو فى السجن كتاباً من أشهر ما ألف من الكتب فى العصور الوسطى وهو كتاب **سلوى الفلاسفة** Consolatione Pphilosopniae ، وجمع فيه بين النثر العادى والشعر البديع الساحر ، لم يذرف فيه دمعه ، بل كان كل ما يحتويه هو تسليم كتسليم الرواقيين بتصرفات الأقدار التى تخبط خبط عشواء ، ومحاولة صادقة للتوفيق بين مصائب الأبرار وما يتصف به المولى سبحانه وتعالى من حب للخير ، وقدرة على كل شىء ، وعلم سابق بما يقع فى الكون من أحداث . ويذكر بوئيثيوس نفسه بجميع النعم التى توالت عليه فى حياته — من ثراء و« حمٍ نبيل ، وزوجة طاهرة » وأبناء بررة . ويتذكر المناصب العليا التى شغلها ، والساعة العظيمة التى هز فيها بفصاحة لسانه مشاعر أعضاء مجلس الشيوخ حين كان ولداه القنصلان هما رئيسيه . ويقول لنفسه إن هذه السعادة لا يمكن أن تدوم إلى أبد الدهر ، بل لابد أن توجه الأقدار بين الفينة والفينة لمن ينعم بها ضربة تطهره وتزكيه . وتلك السعادة العظيمة خليقة بأن تذهب تلك الجائحة القاصمة(٧٣) . ومع هذا فإن ذكرى تلك السعادة الماضية من شأنها أن تزيد من حدة الألم . وفى ذلك يقول بوئيثيوس فى بيت من الشعر يردد دانتى صداه على لسان فرنسسكا Francesca : « إن أعظم ما يشقى به

الإنسان حين تصرعه الشدائد هو ذكرى ما كان ينعم . من سعادة »[٧٤] وهو يسأل السيد الفلسفة — بعد أن ينزلها منزلة العقلاء كما كان يفعل أهل العصور الوسطى — عن موضع الفلسفة الحقة ، ويتبين أنها لا تكون فى المال أو المجد ، ولا فى اللذة أو السلطان ؛ ومن ثم يرى أنه لا توجد سعادة حقة أو دائمة إلا فى الاتصال بالله ، ويقول إن « النعمة الحقة هى الاتصال بالله »[٧٥] . ومن أغرب الأشياء أنه ليس فى الكتاب كله سطر واحد يشير إلى فساد الأخلاق الشخصية ، وليس فيه أية إشارة إلى المسيحية أو أية عقيدة من عقائدها ، ولا سطر واحد غير خليق بأن يكتبه زينون ، أو أبيقور ، أو أورليوس . ومن ثم فإن آخر كتاب فى الفلسفة الوثنية قد كتبه مسيحى تذكر فى ساعة موته أثينة لا جلجوتا Golgotha .

ودخل عليه الجلاد فى اليوم الثالث والعشرين من شهر اكتوبر من عام ٥٢٤ ، ثم ربطوا عنقه بحبل وشدوه حتى جحظت مقلتاه وخرجتا من وقبيهما ، ثم انهالا عليه ضرباً بالعصى الغليظة حتى قضى نحبه . وقتل سياخوس بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . ويقول بروكپيوس[٧٦] إن ثيودريك بكى لما ارتكبه من ظلم فى حق بوئيثيوس وسياخوس ، وفى عام ٥٢٦ لحق ضحيته إلى القبر ..

ولم تبق مملكته طويلا بعد موته ، وكان قبل وفاته قد اختار حفيده أثلريك Athalric ليخلفه على العرش ؛ ولم يكن حفيده هذا قد تجاوز العاشرة من عمره ولذلك حكمت أمه أمالاسنثا Amalasuntha ، وكانت امرأة نالت قسطاً كبيراً من التعليم والتثقيف ، وكانت صديقة لكسيدورس أو لعلها كانت تلميذة له ؛ فلما شرعت تحكم البلاد باسم ولدها دخل فى خدمتها كما كان من قبل فى خدمة أبيها ؛ ولكنها كانت تميل كل الميل إلى الأساليب الرومانية ، فأغضبت بذلك رعاياها القوط ، ولم يكونوا راضين عن الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة التى

كانت تضعف بها ، كما يرون ، مليكهم الصغير . لهذا أسلمت ابنها إلى مربين من القوط ، وأطلق الصبي العنان لشهواته الجنسية ، ومات فى الثامنة عشرة من عمره . وأجلست أمالاسنثا ابن عمها ثيوداهاد Theodahad معها على العرش بعد أن أخذت عليه المواثيق بأن يترك لها شئون الحكم . ولكنه لم يلبث أن خلعها وألقاها فى السجن ، فطلبت إلى جستنيان ، الذى أصبح وقتئذ إمبراطور الدولة البيزنطية ، أن يخف لمعونتها ، فجاءها بلساريوس Belisarius .

الباب الخامس

جستنيان

٥٢٧ — ٥٦٥

الفصل الأول

الإمبراطور

توفى أركاديوس فى عام ٤٠٨ وخلفه ابنه ثيودوسيوس الثانى ، إمبراطوراً على الشرق ولما يتجاوز السابعة من العمر . وقامت بلشيريا Pulcheria ، وكانت تكبره بعامين ، بتربيته ، وكانت طوال المدة التى أشرفت فيها على تربيته تظهر من الجزع والإشفاق عليه ما جعله غير أهل للحكم ، ولهذا ترك شئون الدولة لرئيس الحرس ولمجلس الشيوخ ، وانهمك هو فى نسخ المخطوطات القديمة وتزيينها ، ويبدو أنه لم يقرأ قط كتاب القوانين الذى خلد اسمه . وفى عام ٤١٤ أصبحت بلشيريا وصية على العرش وهى فى السادسة عشرة من عمرها ، وظلت تصرف شئون الإمبراطورية ثلاثاً وثلاثين سنة ، ونذرت هى وأختاها أنفسهن بأن يظللن عذارى . ويبدو أنهن قد أوفين بالنذر ، فقد كن يلبسن ملابس بسيطة تنم عن الزهد والتقشف ، ويؤلفن وينشدن الترانيم الدينية ، ويصلين ، وينشئن المستشفيات ، والكنائس ، والأديرة ، ويغدقن عليها العطايا . واستحال القصر ديرا ، وحرم دخوله إلا على النساء وعدد قليـــل من رجال الدين . وفى وسط هذه المظاهر الدينية حكمت بلشيريا ، وبودسيا زوجة أخيها ، ووزراؤهما ، البلاد حكماً صالحاً ، وهب الإمبراطورية الشرقية فى خلال نيابتهما عن ثيودسيوس التى

دامت اثنتين وأربعين سنة هدوءاً لم تعهده من زمن بعيد ، بينا كانت الفوضى ضاربة أطنابها فى الغرب . وكان أهم حوادث ذلك العهد التى لم يمح ذكراها من صفحات التاريخ نشر شرائع ثيودوسيوس (٤٣٨) . فقد عهد فى عام ٤٢٩ إلى طائفة من فقهاء القانون بأن يجمعوا كل ما سن فى الإمبراطورية من قوانين منذ جلس قسطنطين على العرش ؛ ونفذت الشرائع الجديدة فى الشرق والغرب على السواء ، وظلت هى الشرائع المعمول بها فى الإمبراطورية حتى نشرت شرائع جستنيان التى كانت أعظم منها وأوسع .

وحكم الإمبراطورية الشرقية بين ثيودوسيوس الثانى وجستنيان الأول حكام كثيرون ، كان الناس يلهجون بذكرهم فى أيامهم ، أما الآن فلا يكاد يعرف عنهم أكثر من أسمائهم . إن سير العظماء كلها لتذكرنا بأن الخلود قصير الأجل ! وحسبنا أن نذكر من هؤلاء الحكام ليو الأول (٤٥٧ — ٤٧٤) الذى أرسل لمحاربة جيسريك (٤٦٧) أكبر أسطول حشدته حكومة رومانية ؛ ولكن هذا الأسطول هزم ودمر . وأحدث زينون الإصورى Zenothe Isaurian زوج ابنته شقاقاً خطراً بين الكنيستين اليونانية واللاتينية بسبب رغبته فى تهدئة ثائرة اليعقوبيين ، وذلك حين قرر فى رسالته « التوحيدية » المعروفة باسم الهنوتيكون Henoticon أن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، وكان أناستاسيوس (٤٩١ — ٥١٨) رجلا قديراً ، شجاعاً ، محباً للخير ؛ دعم مالية الدولة بإدارته الاقتصادية الحكيمة ، وخفض الضرائب ، وألغى صراع الآدميين مع الوحوش فى الحفلات والألعاب ، وجعل القسطنطينية أمنع من عقاب الجو بإنشاء « الأسوار الطويلة » ، التى كانت تمتد أربعين ميلا من بحر مرمرة إلى البحر الأسود ، وأنفق الكثير من أموال الدولة فى غير هذه من الأعمال العامة الكثيرة ، وترك فى خزائنها ٣٢٠٫٠٠٠ رطل من الذهب (١٣٤٫٤٠٠٫٩٠٠ ريال أمريكى) هى التى مهدت السبيل لفتوح جستنيان . لكن الشعب لم يعجبه اقتصاده وميوله

اليعقوبية ، فحاصر الغوغاء قصره ، وقتلوا ثلاثة من أعوانه . ثم أشرف عليهم تعلوه مهابة الشيخوخة التي قاربت الثمانين ، وعرض عليهم أن ينزل عن العرش إذا اتفق الشعب على من يختاره خليفة له . وكان هذا شرطاً مستحيل التنفيذ ، انتهى الأمر بعده بأن طلبت إليه الجماهير الثائرة أن يحتفظ بالتاج . ولما توفى بعد قليل من ذلك الوقت اغتصب الملك جستين ، وهو شيخ أمى (٥١٨ — ٥٢٧) ، يحب الراحة التي يميل إليها ابن السبعين ، ولذلك ترك حكم الإمبراطورية إلى جستنيان نائبه وابن أخيه .

ولم يكن هذا الاختيار ليروق فيما بعد ، ومن يوم أن ولد جستنيان نفسه ، في عين پركپيوس مؤرخه وعدوه . ذلك بأن الإمبراطور قد ولد في عام ٤٨٣ من أبوين مزارعين من أصل إليرى — أو لعله صقلبي[١] — يقيمان بالقرب من سرديكا Sardica وهي مدينة صوفيا الحالية . وجاء به عمه جستين إلى القسطنطينية ورباه تربية صالحة . ولما أصبح جستنيان ضابطاً في الجيش ولبث تسع سنين ياوراً ومساعداً لجستين ، أظهر في عمله براعة عظيمة . ولما مات عمه (٥٢٧) خلفه على عرش الإمبراطورية ، وكان وقتئذ في الخامسة والأربعين من عمره ، متوسط القامة والبنية ، حليق الذقن ، متورد الوجه ، متجعد الشعر ، رقيق الحاشية ، تعلو ثغره ابتسامة تكفى لأن تخفى وراءها ما لا يحصى من الأغراض ، وكان متقشفاً في طعامه وشرابه تقشف الزهاد ، لا يأكل إلا قليلا ، ويعيش معظم أيامه على الخضر[٢] . وكثيراً ما كان يصوم حتى تكاد تخور قواه . وكان في أثناء صيامه لا ينقطع عما اعتاده من الاستيقاظ مبكراً ، وتصريف شئون الدولة « من مطلع الفجر إلى الظهيرة ، وإلى غسق الليل » ، وكثيراً ما كان يظن أعوانه أنه قد آوى إلى مضجعه ، بينا كان هو منهمكا في الدرس ، يبذل جهده ليكون موسيقياً ومهندساً معمارياً ، وشاعراً ومشترعاً ، وفقيهاً في الدين وفيلسوفاً ، وإمبراطوراً يجيد تصريف شئون الإمبراطورية . ولكنه رغم هذا كله لم يتخل عن خرافات

عصره . وكان ذا عقل نشيط على الدوام ، عظيم الإلمام بالشئون الكبرى والتفاصيل الصغرى . ولم يكن قوى الجسم أو شجاعاً ، وقد حدثته نفسه بالتخلى عن الملك فى أثناء المتاعب التى قامت فى بداية حكمه ، ولم ينزل قط إلى الميدان فى حروبه الكثيرة . ولعل من عيوبه الناشئة من دماثة خلقه ورقة طبعه ، أن كان من السهل على أصدقائه أن يؤثروا فيه ، ومن أجل هذا كان كثيراً ما يتقلب فى سياسته ، ويخضع فى أحكامه لزوجته . وقد خص پروكپيوس جستنيان بمجلد كامل من تاريخه ، يصفه بأنه « عديم الإخلاص ، مخادع ، منافق ، يخفى عن الناس غضبه ، يظهر غير ما يبطن ، حاذق ، قادر كل المقدرة على التظاهر بالرأى الذى يدعى أنه يعتنقه ، بل إنه يستطيع فى كثير من الأحيان أن يذرف الدمع من عينيه . . . إذا اقتضت الظروف ذلك »(٣) . وغير أن هذا كله يصح أن يكون وصفاً للدبلوماسى القدير . ويواصل پروكپيوس وصفه فيقول : « وكان صديقاً متقلباً فى صداقته ، عدواً إذا عقد هدنة لا يحافظ على عهده ، حريصاً كل الحرص على الاغتيال والنهب » . ويلوح أنه كان يتصف بهذا كله فى بعض الأوقات ، ولكنه كان يستطيع أن يكون كريماً رحيماً . من ذلك أن قائداً يدعى پروبوس Probus قد اتهم بسبه ، فجىء به ليحاكم بتهمة الخيانة . ولما عرض التقرير الذى وضع عن محاكمته على چستنيان قام من مقعده وأرسل رسالة إلى پروبوس يقول فيها : « إنى أغفر لك ما ارتكبته من ذنب فى حقى ، وأدعو الله أيضاً أن يسامحك »(٤) . وكان يقبل النقد الصريح ولا يغضب منه « وكان هذا الرجل الظالم » ، الذى رزئ بمؤرخه « أسهل منالا من أى إنسان آخر فى العالم ، وكان أحقرُ الناس فى الدولة ، ومن لا شأن لهم فيها على الإطلاق ، يستطيعون كلما شاءوا أن يأتوا إليه ليتحدثوا معه »(٥) .

ومع هذا فقد عمل على أن يجعل ما كان يقام فى بلاط الإمبراطور من مراسم وحفلات غاية فى الأبهة والفخامة ، حتى فاقت ما كان يحدث منها فى أيام دقلديانوس.

وقسطنطين . وكان كناپليون يعوزه التأييد الذى يناله المليك الشرعى ؛ وذلك لأنه ورث الملك من مغتصب له . ولم يكن مهيباً فى مظهره أو منشئه ؛ ومن أجل هذا عمد إلى طقوس ومراسم تبعث الرعب فى القلوب كلما ظهر أمام الجماهير أو السفراء الأجانب . ولهذا السبب عينه شجع فكرة الملكية المقدسة ، واستخدم لفظ مقدس فى وصف شخصه ومُلكه ؛ وكان يطلب إلى من يمثلون أمامه أن يركعوا ويقبلوا أطراف ثوبه الأرجوانى ، أو أصابع قدميه من فوق حذاءيه(*) . وعمل على أن يعمده ويتوجه بطريق القسطنطينية ، ولبس قلادة من اللؤلؤ . وقصارى القول أنه ما من حكومة قد عملت ما عملته الحكومة البيزنطية لتنال إجلال الشعب لها عن طريق المراسم الفخمة . ولقد كان لهذه السياسة أثرها إلى حد كبير ؛ ولسنا ننكر أنه قد حدثت انقلابات كثيرة فى تاريخ بيزنطية ولكنها كانت فى معظم الأحوال انقلابات مفاجئة قام بها موظفو القصر ، لأن الحاشية نفسها لم تكن ترهبها ما وضعته لنفسها من مراسم وطقوس .

وكانت أكبر فتنة قامت فى عهد چستنيان هى التى حدثت فى بدايته (٥٣٢) وكادت أن تقضى على حياته . وكان سببها أن الخضر والزرق — وهم الحزبان اللذان انقسم إليهما أهل القسطنطينية حسب الثياب التى كان يلبسها راكبو خيول السباق المحببون — قد بلغت الخصومة بينهم حد العنف ، حتى أصبحت شوارع العاصمة غير مأمونة ، وحتى اضطر الأغنياء إلى أن يرتدوا ملابس الفقراء المساكين لينجوا بذلك من طعنات الخناجر فى الليل . وانقضت الحكومة آخر الأمر على الطائفتين المتنازعتين ، وقبضت على عدد كبير من زعمائهما ، فما كان من هذين الحزبين إلا أن ضما صفوفهما وقاما بفتنة مسلحة ضد الحكومة ، وأكبر

(*) لقد كان الرداء الأرجوانى من زمن بعيد الثوب الخاص الذى يميز الإمبراطور من غيره من رجال الدولة . وكانت عبارة « ارتداء الثياب الأرجوانية » فى ذلك الوقت مرادفة للجلوس على العرش .

الظن أن بعض الشيوخ قد اشتركوا فى هذه الفتنة ؛ وحاول رعاع المدن أن يقلبوها ثورة عارمة ، فهجموا على السجون ، وأطلقوا سراح المسجونين ، وقتلوا عدداً من رجال الشرطة والموظفين ؛ وأشعلت النار فى بعض المبانى ، وحرقت كنيسة أياصوفيا وأجزاء من قصر الإمبراطور . وهتفت الجماهير قائلة « Niha » أى النصر — وبذلك أطلق هذا الاسم على تلك الفتنة . وأفقد هذا النصر الشعب وعيه ، فطالب بإبعاد اثنين من أعضاء مجلس چستنيان ، لم يكن يحبهما ، ولعل سبب ذلك أنهما كانا من ظلمة الحكام ؛ ووافق الإمبراطور على هذا الطلب ، فازداد العصاة جرأة وأقنعوا هيپاشيوش Hypatius ، أحد الشيوخ ، بأن يقبل التاج ؛ فقبله على الرغم من معارضة زوجته وتوسلها إليه ألا يقبله ، وخرج بين هتاف الجماهير ليجلس على مقعد الإمبراطور فى الألعاب التى كانت قائمة على قدم وساق فى الميدان الكبير . واختبأ چستنيان أثناء ذلك فى القصر ، وأخذ يدبر أمر الهرب . ولكن الإمبراطورة ثيودورا أقنعته بالعدول عن هذه الفكرة ، وأشارت عليه بالمقاومة . وتعهد بلساريوس قائد الجيش أن يقوم بهذا العمل ، واختار من بين جنوده عدداً من القوط ، وسار على رأسهم إلى ميدان الألعاب ، وقتل ثلاثين ألفاً من العامة ، وقبض على هيپاشيوس ، وأمر بقتله فى السجن . وأعاد چستنيان الموظفين المفصولين إلى عملهما ، وعفا عن المتآمرين من أعضاء مجلس الشيوخ ، ورد إلى أبناء هيپاشيوس ما صودر من أملاكهم[٦] . وظل چستنيان بعد هذه الفتنة آمناً على نفسه وملكه خلال الثلاثين عاماً التالية ، ولكن يبدو أن إنساناً واحداً لا أكثر هو الذى كان يحبه .

الفصل الثانى

ثيودورا

وصف پروكپيوس فى كتاب له عن فن البناء تمثالا لزوجة چستنيان فقال: « إنه جميل ، ولكن جماله أقل من جمال الإمبراطورة ؛ ذلك بأن التعبير عن جمالها بالقول ، أو إبرازه فى تمثال عمل لا يستطيعه مخلوق من البشر »(٧) . ولسنا نجد فى كل ما كتب هذا المؤرخ — وهو أعظم المؤرخين البيزنطيين على بكرة أبيهم — إلا الثناء على ثيودورا ، إذا استثنينا موضعاً واحداً لا أكثر من هذا التعميم . ولكن پروكپيوس قد كشف فى كتاب له لم ينشر فى أثناء حياته — ولهذا سمى الأنكدوتا Anecdota « أى الذى لم يخرج » — عن فضيحة للملكة قبل زواجها . وقد بلغت هذه القصة من الشناعة حداً بعث على الشك فيها وجعلها مثاراً للجدل مدى ثلاثة عشر قرناً . وهذا « التاريخ السرى » موجز لما كان فى صدر المؤرخ من حقد دفين صريح ، وقد كتبه من وجهة نظر واحدة ، وخصه كله بتسوئه سمعة چستنيان وثيودورا ، وبليساريوس بعد وفاتهم . وإذ كان پروكپيوس هو أهم المراجع التى نعتمد عليها فى تأريخ ذلك العصر ، وإذ كان هو نفسه يبدو فى مؤلفاته الأخرى دقيقاً نزيهاً ، فإنا لا نستطيع أن نرفض الأنكدوتا ونعدها كلها تزييفاً وافتراء ، وكل ما نستطيع أن نقوله فيها هو أنها انتقام عمد إليه رجل غاضب من رجال الحاشية لم تتحقق مطامعه . وهاهو ذا چون الإفسوسى ، الذى كان يعرف الإمبراطورة حق المعرفة ، لا يطعن عليها بأكثر من قوله فيها : « ثيودورة العاهر »(٨) . وفيما عدا هذا فإنا قلما نجد فى أقوال المؤرخين المعاصرين ما يؤيد التهم التى رماها بها پروكپيوس . نعم إن كثيرين من رجال الدين ينددون بمروقها ، ولكن ما من أحد منهم يذكر شيئاً عن فجورها — وهو كرم منهم

لا يقبله العقل إذا كانت فاجرة بحق . وقد يكون فى مقدورنا أن نستنتج من كل ما يقال عن ثيودورا أنها بدأت حياتها سيدة غير مكملة ، واختتمتها ملكة متصفة بجميع صفات الملوك الطيبة .

ويقول بروكپيوس قول الواثق إنها ابنة مدرب دببه ، وإنها نشأت فى جو حلبة ألعاب الوحوش ، ثم صارت ممثلة ومومسا ، تثير مشاعر أهل القسطنطينية ، وتدخل البهجة على قلوبهم بتمثيل المسرحيات الصامتة الخليعة . ونجحت أكثر من مرة فى إجهاض نفسها ، ولكنها ولدت ابناً غير شرعى ، وصارت عشيقة رجل سورى يدعى هسبولوس Hecebolus ، ثم هجرها هذا العشيق ، واختفت عن الأعين فترة من الزمان فى الإسكندرية ، عادت بعدها إلى الظهور فى القسطنطينية فقيرة ولكنها عفيفة شريفة ، تكسب قوتها بغزل الصوف . ثم أحبها جستنيان ، فاتخذها عشيقة له ، ثم تزوج بها وجعلها ملكة(٩) . وليس فى وسعنا الآن أن نعرف على وجه التحقيق ما فى هذه الأقوال من صدق وكذب ؛ ولكن الذى نستطيع أن نقوله إذا كانت هذه المقدمات لم تقلق بال إمبراطور فهى خليقة بألا نقف عندها طويلا . وتوج جستنيان فى كنيسة القديسة صوفيا بعد أن تزوجها بزمن قليل ، وتوجت ثيودورا إمبراطورة إلى جانبه ، ويقول بروكپيوس إنه « ما من قسيس أظهر غضبه لهذا الإجرام الشنيع »(١٠)

وأيا كان منشأ ثيودورا فإنها أضحت بعد زواجها بالإمبراطور سيدة لا يستطيع أحد أن يتهمها فى عفافها . وكانت تحب المال والسلطان حبا جماً ، وتثور فى بعض الأحيان ثورة جامحة ، وتدبر المؤامرات لتصل بها إلى أغراضها التى لا تتفق مع أغراض جستنيان . وكانت نؤوما ، تكثر من الطعام والشراب ، وتحب الترف ، والحلى ، والمظاهر ، وتقضى عدداً كبيراً من أشهر السنة فى قصورها القائمة على شاطئ البحر . لكن جستنيان ظل طول حياته يحبها رغم هذه الصفات ، ويصبر صبر الفلاسفة على تدخلها فى خططه وأعماله . لقد خلع عليها وهو كلف بها حلة

من السيادة لاتقل من الوجهة النظرية عن سيادته هو ، ولم يكن فى مقدوره أن يشكو إذا مارست هذه السيادة . وقد اشتركت اشتراكاً فعلياً فى السياسة الخارجية والشئون الكنسية ، وكانت تنصب البابوات والبطارقة وتخلعهم ، وتعزل أعداءها من مناصبهم . وكانت فى بعض الأحيان تصدر من الأوامر ما يتعارض وأوامر زوجها ، وكثيراً ما كانت أوامرها هى فى صالح الدولة ، ذلك أن ذكاءها كان يتناسب مع سلطانها . ويتهمها پروكپيوس بقسوتها على معارضيها ، وبأنها ألقت بعضهم فى الجب وقتلت عدداً قليلا منهم . وكان الذين يسيئون إليها إساءات شديدة يختفون دون أن يقف لهم أحد على أثر : وكانت تسير فى هذا على المبادئ الأخلاقية السائدة بيننا فى هذا القرن الذى نعيش فيه . لكنها لم يخل قلبها من الرحمة ، من ذلك أنها بسطت حمايتها على البطريق أنثميوس الذى أمر چستنيان بنفيه لمروقه من الدين ، وأخفته فى جناحها عامين كاملين . ولعلها كانت لينة فوق ما ينبغى مع زوجة بليساريوس التى عرفت بالزنى . ولكنها كفرت عن هذا بإقامة « دير للتوبة » جميل تلجأ إليه العاهرات التائبات . على أن بعض التائبات قد تبن من توبتهن ، وألقين بأنفسهن من النوافذ لأنهن ضقن ذرعاً بالدير وفضلن عليه الموت[١٢] . وكانت تعنى عناية الجدات بزواج صديقاتها ، وكان لها هى الفضل فى ترتيب هذه الزيجات ، وكثيراً ما كانت تجعل الزواج شرطاً أساسياً للرقى فى بلاطها . ولقد صارت فى شيخوختها حارسة قوية الشكيمة للأخلاق الكريمة وهو ما ينتظره الإنسان من أمثالها .

ثم وجهت عنايتها فى آخر حياتها لدراسة الدين ، وكانت تناقش زوجها فى طبيعة المسيح . فقد كان چستنيان يبذل غاية جهده ليوحد الكنيستين الشرقية والغربية لاعتقاده أن الوحدة الدينية لا بد منها لوحدة الإمبراطورية . غير أن ثيودورا لم تكن تستطيع أن تفهم وجود طبيعتين فى المسيح ، وإن لم تجد صعوبة ما فى وجود ثلاثة أقانيم فى الله . ومن أجل هذا اعتنقت مذهب اليعاقبة ،

وهى تعلم أن الشرق لا يمكن أن يخضع للغرب فى هذه العقيدة . لكنها كانت ترى أن قوة الإمبراطورية ومستقبلها إنما يعتمدان على ولاياتها الغنية فى آسية ، وسوريا ، ومصر ، لا على ولاياتها الغربية التى خربها البرابرة وأهلكتها الحروب . وكان لها الفضل فى تخفيف حدة تعصب جستنيان للمذهب الدينى الأصيل ، وبسطت حمايتها على الخارجين على هذا المذهب ، وتحدت البابوية ، وشجعت خفية قيام كنيسة يعقوبية مستقلة فى الشرق ؛ ولم تتردد فى سبيل تحقيق هذه الغايات فى أن تعارض بكل ما تستطيع من قوة الإمبراطور والبابا على السواء .

الفصل الثالث

بليساريوس

فى وسعنا أن نغتفر لجستنيان شغفه العظيم بالوحدة ، لأن هذا الشغف من أعظم ما يولع به الفلاسفة ورجال الحكم على السواء ؛ ولقد اقتضاهم فى بعض الأحيان أكثر مما اقتضتهم الحرب . ولم تكن استعادة أفريقية من الوندال ، وإيطاليا من القوط الشرقيين ، وأسپانيا من القوط الغربيين ، وغالة من الفرنجة ، وبريطانيا من السكسون ؛ ولم يكن طرد البرابرة إلى مرابضهم ، وإعادة الحضارة الرومانية إلى جميع ميادينها القديمة ، ونشر الشريعة الرومانية مرة أخرى فى جميع بقاع الرجل الأبيض من الفرات إلى سور هدريان ، لم تكن هذه المطامع كلها مطامع غير نبيلة ، وإن كانت قد أنهكت المنقذين ومن أريد إنقاذهم على السواء . وكان من الوسائل التى اتبعها جستنيان لبلوغ هذا الغرض أن أزال ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من نزاع حول مسألة البابوية ، وكان من أكبر أمانيه أن يرد الأريوسيين واليعاقبة وغيرها من الخارجين على الدين إلى حظيرته ، ولم يكن أحد قد فكر فى هذا كله منذ أيام قسطنطين .

ولقد كان من حسن حظ جستنيان أن وهب قادة عظماء ، ومن سوء حظه أنه كانت موارده المالية قليلة — فلقد كان شعبه غير راغب فى الحروب التى يريد أن يخوض غمارها ، وغير قادر على أداء ما تتطلبه من نفقات . وسرعان ما استنفد الثلثمائة والعشرين ألف رطل من الذهب التى تركها أسلاف جستين فى خزانة الدولة ، واضطر بعد استنفادها أن يلجأ إلى الضرائب التى نفرت منه قلوب الشعب ، وإلى ضروب الاقتصاد التى عرقلت أعمال قواده . وكانت الخدمة العسكرية الإجبارية العامة قد امتنعت قبل عهده بنحو مائة عام ، وأصبح جيش

الإمبراطورية يتألف كله تقريباً من جنود مرتزقة من البرابرة يؤتى بهم من مائة قبيلة ودولة ، ويعيشون على النهب والسلب ، ويحلمون بالثراء والاغتصاب ؛ وكثيراً ما كانوا يشقون عصا الطاعة فى أشد أزمات القتال ، وكثيراً ما فقدوا ثمار النصر لاشتغالهم بجمع الغنائم والأسلاب ، ولم يكن شىء يجمعهم ويؤلف بينهم ، أو يشحذ هممهم إلا أداء أجورهم بانتظام أو خضوعهم لقواد عظام .

وكان بليساريوس ، كما كان جستنيان ، منحدرًا من أسرة من الفلاحين الإليريين ، ويذكرنا بالأباطرة البلقانيين — أورليوس ، وپروبوس ، ودقلديانوس — الذين أنجوا الإمبراطورية فى القرن الثالث . ولسنا نعرف من أيام قيصر قائداً قبل بليساريوس انتصر فى وقائع كالتى انتصر فيها هذا القائد بمثل موارده القليلة من الرجال والمال . وما أقل من تفوقوا عليه فى رسم الخطط الحربية أو الحركات العسكرية ، وفى حب رجاله له وشفقته على أعدائه . ولعل مما يجدر ذكره فى هذا المقام أن أعظم القواد — كالإسكندر ، وقيصر ، وبليساريوس ، وصلاح الدين ، ونابليون — قد وجدوا أن الرحمة من أقوى أسلحة الحروب ؛ ولقد كان بليساريوس ، كما كان أولئك القواد ، ذا إحساس مرهف وقلب رقيق يجعلان من الجندى محباً والهاً بمجرد فراغه من واجباته الدموية . ومصداق هذا أن بليساريوس كان يشغف بحب أنطونينا كما كان الإمبراطور يشغف بحب ثيودورا . وكان هذا القائد يتحمل خيانتها له ، ولا يلبث أن ينسى غضبه من هذه الخيانة ، وكان يصحبها معه فى حروبه لكثير من الأسباب .

وكان أول ما نال من النصر فى حربه مع الفرس . ذلك أن الحرب قد تجددت بين الإمبراطوريتين بسبب المنافسة القديمة بينهما للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى أواسط آسية وبلاد الهند ، وبعد أن جنحتا للسلم مدى مائة وخمسين عاماً . وبينما كان بليساريوس يتابع انتصاراته المجيدة إذ استدعى فجأة إلى القسطنطينية . وكان سبب استدعائه أن جستنيان عقد الصلح مع

بلاد الفرس (٥٣٢) بأن أدى إلى كسرى أنوشروان ١١٫٠٠٠ رطل من الذهب ؛ ثم أرسل قائده ليسترد أفريقية من الوندال . وكان جستنيان قد استقر رأيه على أنه لا يستطيع الاحتفاظ بفتوح دائمة فى بلاد الشرق لأسباب كثيرة : منها أن السكان سيظلون معادين له ، وأن الحدود يصعب عليه أن يدافع منها . أما الغرب ففيه أمم اعتادت الحكم الرومانى من عدة قرون ، وهى تبغض سادتها البرابرة الخارجين على الدين ، وتمد يد المساعدة للدولة الرومانية بالتعاون معها عليهم فى الحرب وبأداء الضرائب لها فى السلم . ومن أفريقية يستطاع أخذ الحبوب التى تسد أفواه أهل العاصمة فيسكتون عن توجيه اللوم للإمبراطور .

وكان جيسريك قد توفى بعد حكم دام تسعة وثلاثين عاماً (٤٧٧) ، وعادت أفريقية الوندالية بعد موته إلى معظم أساليبها الرومانية . فكانت اللاتينية لغتها الرسمية ، وكان الشعراء يكتبون بها شعراً ميتاً ليكرموا به الملوك المنسيين . وأعيد بناء دار التمثيل فى قرطاجنة ، وعاد الأهلون يمثلون المسرحيات اليونانية[١٤] ، ويعظمون آثار الفن القديم ، ويقيمون مبانى جديدة فخمة . ويصف پروكپيوس الطبقات الحاكمة بأنها من رجال مهذبين متحضرين ، تظهر عليهم فى بعض الأحيان مسحة من البربرية ولكنهم فى الأغلب الأعم قد أهملوا فنون الحرب ، وأخذوا يضعفون ويضمحلون شيئاً فشيئاً تحت أشعة الشمس[١٥] .

واجتمعت فى البسفور فى شهر يونية من عام ٥٤٣ خمسمائة سفينة نقالة ، وتسع وتسعون بارجة حربية ، وتلقت أوامر الإمبراطور ، وبركات البطريق ، وأبحرت إلى قرطاجنة . وكان پروكپيوس من الذين صحبوا بليساريوس ، وكتب وصفاً رائعاً « لحرب الوندال » . ونزل بليساريوس فى أفريقية بما لا يزيد على خمسمائة من الفرسان ، واكتسح وسائل الدفاع الواهية عن قرطاجنة ، ولم تمض أكثر من بضعة أشهر حتى قضى على قوة الوندال . وعجل جستنيان فدعاه إلى

احتفال بالنصر يقام بالقسطنطينية ، فانقض المغاربة من التلال على الحاميات الرومانية ؛ وأسرع بليساريوس بالعودة فى الوقت المناسب للقضاء على فتنة قامت بين جنوده ، وقادهم بعدها للنصر ، وبقيت أفريقية القرطاجنة من ذلك الحين خاضعة للحكم الرومانى إلى أن جاءها العرب فاتحين .

وكان جستنيان قد هداه دهاؤه السياسى إلى عقد حلف مع القوط الشرقيين حين كان بليساريوس يهاجم أفريقية ؛ فلما تم هذا الفتح أغرى الفرنجة بأن يعقدوا معه حلفاً آخر ، فى الوقت الذى أمر فيه بليساريوس بفتح إيطاليا التى كانت فى أيدى القوط الشرقيين . واتخذ بليساريوس بلاد تونس قاعدة له ، هاجم منها صقلية ، ولم يجد صعوبة فى الاستيلاء عليها ، ثم عبر البحر منها إلى إيطاليا فى عام ٥٣٦ ، واستولى على نابلى بأن أمر بعض جنوده أن يدخلوا المدينة زحفاً فى قنوات المياه المغطاة . وكانت قوات القوط الشرقيين ضعيفة منقسمة على نفسها ، ورحب سكان رومة ببليساريوس وحيوه تحية المحرر المنقذ ، كما رحب به رجال الدين لأنه من القائلين بالتثليث ، فدخل رومة دون أن يلقى مقاومة . وأمر ثيوداهاد Theadahad بقتل أمالاثنسا Amalathunsa ، فخلع القوط الشرقيون ثيوداهاد واختاروا وتجيس Witigis ملكاً عليهم . وحشد وتجيس جيشاً مؤلفاً من ١٠٥,٠٠٠ رجل حاصر به بليساريوس فى رومة . ولما اضطر أهلها إلى الاقتصاد فى الزاد والماء ، والامتناع عن الاستحمام فى كل يوم ، بدءوا يتذمرون من بليساريوس الذى لم يكن معه إلا خمسة آلاف رجل مسلح ، دافع بهم عن المدينة بمهارة وشجاعة ، اضطر معهما وتجيس أن يعود إلى رافنا بعد ما بذل من الجهد الكبير مدة عام كامل .. وظل بليساريوس ثلاث سنين يلح على جستنيان بأن يمده بعدد آخر من الجند ، حتى أرسلهم آخر الأمر ولكنه عقد لواءهم لقواد معادين لبليساريوس . وعرض القوط الشرقيون المحاصرون فى رافنا ، والذين أوشكوا على الهلاك جوعاً ، أن يسلموا المدينة إذا رضى بليساريوس أن يكون

ملكاً عليهم . وتظاهر بليساريوس بالقبول حتى استولى على المدينة ، ثم أسلمها إلى چستنيان (٥٤٠) .

وشكر له الإمبراطور حسن صنيعه وداخلته فيه الريبة . ذلك أن بليساريوس قد كافأ نفسه على عمله بالاستيلاء على قدر كبير من الغنائم ، هذا إلى أنه كسب ولاء جنوده إلى حد أزعج الإمبراطور وأنه قد عرضت عليه مملكة كاملة ؛ فهل يستبعد عليه مع هذا كله أن يتطلع إلى الاستيلاء على العرش من ابن أخى رجل اغتصبه من صاحبه الشرعى ؟ لهذا استدعاه چستنيان ، وشاهد وهو قلق مرتاب حاشية القائد العظيم ومظهرها الفخم . ويقول پروكپيوس « إن سكان بيزنطية كانوا يبتهجون حين يشهدون بليساريوس يخرج من بيته كل يوم . . . ذلك بأن خروجه منه وسيره فى الطريق كان شبيهاً بموكب فى عيد احتشد فيه كثير من الخلق ، لأنه كان يصحبه عدد كبير من الوندال ، والقوط ، والمغاربة . يضاف إلى هذا أنه كان بهى الطلعة ، طويل القامة ، جميل الوجه ؛ ولكنه كان وديعاً رقيق الحاشية ، دمث الأخلاق ، حتى لقد كان يبدو كأنه رجل فقير لا يعرفه أحد »[16] .

ولم يعن القواد الذين خلفوه فى إيطاليا بنظام الجند ، وتنازعوا فيما بينهم ، فكسبوا لأنفسهم احتقار القوط ، فنادوا برجل قوطى ، جم النشاط ، موفور العقل ، رابط الجأش ، ملكاً على الشعب المغلوب . وجمع توتيلا Totila الملك الجديد مجندين ذوى بأس شديد من البرابرة الجوالين الذين لا مأوى لهم فى إيطاليا واستولى بهم على نابلى (٥٤٣) وتيبور وضرب الحصار على رومة . وقد أدهش الناس برحمته ووفائه بوعده ، وعامل الأسرى معاملة طيبة انضووا بفضلها تحت لوائه ، واستمسك بما قطعه على نفسه من العهود التى استسلمت بها نابلى ، حتى بدأ الناس يتساءلون من هو البربرى ومن هو اليونانى المتحضر . ولما وقعت زوجات بعض أعضاء مجلس الشيوخ أسيرات فى يده عاملهن بلطف وشهامة وأطلق سراحهن ، وأما البرابرة الذين فى خدمة الإمبراطور فلم يظهروا مثل هذه

الرقة فى المعاملة ؛ بل أخذوا يعيثون فى البلاد فساداً لأن چستنيان لم يؤد إليهم أجورهم لنفاد ما كان فى خزائنه من المال ، حتى أخذ السكان يتذكرون فى أسى وحنان حكم ثيودريك وما كان يسوده من عدل ونظام[١٧] .

وأمر بليساريوس أن يعود لإنقاذ الموقف . فلما عاد إلى إيطاليا تسلل وحده إلى رومة المحاصرة مخترقاً صفوف توتيلا . لكنه وصلها بعد فوات الوقت ، فقد فقدت الحامية اليونانية روحها المعنوية ، لأن ضباطها كانوا جبناء عاجزين ؛ وفتح بعض الخونة أبواب المدينة ، ودخلها جنود توتيلا البالغ عددهم عشرة آلاف رجل (٥٤٦) . وبعث بليساريوس وهو خارج منها رسالة إلى توتيلا يطلب إليه ألا يدمر المدينة التاريخية . وسمح توتيلا لجنوده الجياع الذين لم ينالوا أجورهم أن ينهبوها ، ولكنه منعهم من إيذاء السكان وحمى النساء من شهوات الجنود الجامحة ثم أخطأ إذ غادر رومة ليحاصر رافنا . فلما غاب عنها استردها بليساريوس ، ولما عاد توتيلا وحاصرها مرة أخرى عجز عن أن يخرج منها القائد اليونانى الموهوب . وظن چستنيان أن الغرب قد خضع له فأعلن الحرب على بلاد الفرس ، واستدعى بليساريوس ليذهب إلى الشرق . فلما ذهب استولى توتيلا على رومة من جديد (٥٤٩) ومن بعدها صقلية ، وكورسكا ، وسردينية ، وشبه الجزيرة كلها تقريباً وأخيراً أعطى چستنيان قائداً من الخصيان يدعى نارسيز Narses « مبلغاً كبيراً جداً من المال » وأمره أن يحشد جيشاً جديداً يطرد به القوط من إيطاليا . وأدى نارسيز هذه المهمة بمهارة وسرعة ، فهزم توتيلا ، وقتل فى أثناء فراره ، وسمح لمن بقى من القوط أن يخرجوا من إيطاليا سالمين ، وانتهت بذلك « الحرب القوطية » بعد أن دامت ثمانية عشر عاماً (٥٥٣) .

وأتمت هذه السنون خراب إيطاليا . ذلك أن رومة قد وقعت فى أيدى الجيوش المحاربة خمس مرات متوالية ، وحوصرت ثلاث مرات ، ونفد منها الطعام ، وتعرضت للنهب والسلب . ونقص عدد سكانها من مليون إلى أربعين

ألفا[١٨] ، نصفهم تقريبا من المعدمين الذين يعيشون على الصدقات البابوية ، ودمرت ميلان وقتل أهلها على بكرة أبيهم . وتدهورت مئات من المدن والقرى إلى هوة الإفلاس بسبب اغتصاب الحكام ونهب الجنود ، وبارت كثير من الأراضي التي كانت من قبل خصبة وهجرها السكان ، ونقصت موارد الطعام . ويقول الرواة إن خمسين ألفا ماتوا من الجوع في پيسينوم Picenum وحدها في خلال هذه الأعوام الثمانية عشر[١٩] . وتحطم كيان الأشراف ، فقد قتل كثيرون منهم في المعارك الحربية وفي أعمال النهب ، وفر عدد كبير منهم إلى خارج البلاد حتى لم يبق منهم من يكفي لقيام مجلس شيوخ رومة ، فلم نعد نسمع عنه شيئا ما بعد عام ٥٧٩[٢٠] . وتهدمت قنوات مياه الشرب التي أصلحها ثيودريك من قبل وأهملت ، واستحالت الكمپانيا مرة أخرى مناقع واسعة تتفشى فيها الملاريا ، ولا تزال كذلك حتى يومنا هذا . وبطل استعمال الحمامات الفخمة التي كانت تمدها هذه القنوات بالماء وتهدمت ، وحطمت مئات من التماثيل التي نجت من عبث ألريك وجيسريك ، أو صهرت لتصنع من معادنها قذائف وعدد حربية في أثناء الحصار . وكانت آثار الخراب والدمار هي كل ما يشهد بما كان لرومة القديمة عاصمة نصف العالم من عظمة وجلال . ولبث الإمبرطور الشرقي زمنا قليلا حاكما على إيطالية بعد هذا الخراب ، ولكن ما ناله من النصر كان نصراً عديم القيمة كلفه الكثير من المال والرجال والعناء ، ولم تنج رومة من آثار هذا النصر حتى عصر النهضة .

الفصل الرابع

قانون چستنيان

لقد نسى التاريخ حروب چستنيان ، وحق له أن ينساها ، ولا يذكر سمه إلا مقترناً بقوانينه . وكان قد مضى قرن من الزمان منذ نشر قانون ثيودوسيوس ، وأضحت كثير من أصوله عتيقة لا تطبق لتغير الظروف التى شرعت فيها ، وسنت قوانين جديدة كثيرة اختلطت بعضها ببعض فى كتب القوانين ، ووجد تناقض كثير بين بعض القوانين والبعض الآخر عاق أعمال المحاكم والسلطة التنفيذية . يضاف إلى هذا أن تأثير المسيحية قد بدّل كثيراً من الشرائع وغيّر تفسيرها . ثم إن قوانين رومة المدنية كثيراً ما كانت تتعارض مع قوانين الأمم التى تتألف منها الإمبراطورية ، وإن كثيراً من التشريعات لم تكن تتفق مع تقاليد الشرق المصطبغ بالصبغة اليونانية . وقصارى القول أن شريعة رومة كلها أضحت أكداساً من المواد القانونية التجريبية لا قانوناً منطقيا واحداً .

ولم يكن چستنيان ، وهو صاحب النزعة القوية إلى الوحدة ، ليرضى عن هذه الفوضى كما لم يكن يرضى عن تمزيق أوصال الإمبراطورية . ولهذا عين فى عام ٥٢٨ عشرة من فقهاء القانون لينظموا قوانين الدولة ، ويوضحوها ، ويصلحوها . وكان أكثر أعضاء هذه اللجنة نشاطاً ونفوذاً هو الكوسترتريبونيان Tribonian الذى ظل إلى أن مات أشهر الموحين بخطط چستنيان التشريعية ، والناصحين له ، والمنفذين لآرائه ، وذلك رغم حرصه الشديد على المال ومظنة الكفر بالله . وأتمت اللجنة الجزء الأول من عملها بسرعة أكثر مما كان خليقاً بها ، وأصدرته فى عام ٥٢٩ باسم القانون الدستورى ، وأعلن الإمبراطور أنه هو قانون

الإمبراطورية ، وأنه يلغى جميع ما سبقه من التشريعات إلا ما تضمنه منها ، وصُدِّر بهذه العبارة الجميلة :

إلى الشبان الراغبين فى دراسة القانون : يجب أن يسلح جلالة الإمبراطور بالقانون كما يجب أن يعلو مجده بقوة السلاح ، حتى يسود بذلك الحكم الصالح فى الحرب والسلم على السواء ، وحتّى يتبين للناس أن الحاكم . . . لا تقل عنايته بالعدالة عن عنايته بالنصر على أعدائه(٤١)

ثم انتقل أعضاء اللجنة إلى القسم الثانى من مهمتهم ، وهى أن يضموا فى مجموعة واحدة آراء فقهاء القانون الرومان ، التى رأوا أنها لا تزال خليقة بأن تكون لها قوة القانون ، ونشرت هذه الآراء باسم مجموعة القوانين والفتاوى المدنية (٥٣٣) ؛ وقالت اللجنة إن آراء الفقهاء والشروح التى وردت فى هذه المجموعة ستصبح من ذلك الحين واجبة الطاعة على جميع القضاة ، وإن جميع ما عداها من الآراء قد فقدت ما كان لها من قوة شرعية ، وامتنع من ذلك الحين نسخ ما عدا هذه من آراء فقهاء القانون واختفى معظمها ، ويستدل مما بقى منها على أن المحررين قد حذفوا ما كان فيها من آراء مناصرة للحرية ، وأنهم عمدوا إلى الغش والتزوير فبدلوا بعض أحكام فقهاء القانون الأقدمين حتى تكون أكثر ملاءمة للحكم المطلق .

وبينا كانت اللجنة تقوم بهذا العمل الكبير أصدر تريبونيان Tribonian واثنان من زملائه كتاباً موجزاً فى القانون المدنى سمياه القانون Institutiones (٥٣٣) . وكان هذا الكتاب فى جوهره عبارة عن شروح جايوس Gius ، معدلة ، ومصححة حتى تلائم روح ذلك العصر . وكان جايوس هذا قد لخص فى القرن الثانى بعد الميلاد القوانين المدنية المعمول بها فى أيامه . وأظهر فى هذا العمل من البراعة ما يثير الإعجاب . وكان جستنيان فى هذه الأثناء يصدر قوانين

جديده . فلما كان عام ٥٣٤ ضم تريبونيان وأربعة من مساعديه هذه القوانين إلى النسخة الجديدة المعدلة من كتاب القوانين . وبعد صدورها أصبحت النسخة الأولى غير ذات موضوع ، ولم يعثر عليها بعدئذ . ولما مات جستنيان نشر ما سنّه من قوانين جديدة باسم التشريعات الجديدة . ولم تنشر هذه باللغة اللاتينية كما كانت تنشر الكتب السابقة بل نشرت باللغة اليونانية ، وكانت هي آخر ما صدر باللاتينية من كتب القانون في الإمبراطورية البيزنطية . وقد أطلق على هذه المؤلفات كلها فيما بعد اسم مجموعة القوانين المدنية . وكان يشار إليها في غير دقة باسم قانون جستنيان .

وجرى هذا القانون على ما جرى به قانون ثيودوسيان فجعل الشريعة المسيحية الأصلية قانون الدولة . وقد بدأ بتقرير التثليث وصب اللعنات على نسطوريوس ، وأوتيكيس ، وأپوليناريس . واعترف بالزعامة الدينية للكنيسة الرومانية وأمر كل الهيئات المسيحية بالخضوع إلى سلطانها . لكن الفصول التي جاءت بعد المقدمة أعلنت سلطة الإمبراطور على الكنيسة فقالت إن جميع القوانين الكنسية كجميع القوانين المدنية تصدر عن العرش ، ثم مضى كتاب القانون يذكر القوانين الخاصة بالمطارنة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، والرهبان ، ويحدد العقوبات التي توقع على القساوسة الذين يقامرون ، أو يرتادون دور التمثيل أو يشهدون الألعاب[٢٢] . وجعل عقوبة المانيين والمارقين المرتدّين هي الإعدام . أما الدوناتيون ، والمنتانيون ، واليعقوبيون وغيرهم من الطوائف المنشقة فكان عقابهم أن تصادر أملاكهم ، وأن يحكم عليهم بأنهم غير أهل لأن يبيعوا أو يشتروا ، أو يرثوا أو يُورّثوا . وحرمت عليهم الوظائف العامة ، والاجتماعات ، كما حرموا من حق مقاضاة المسيحيين أتباع الدين القويم للحصول على ما لديهم قِبَلهم من الديون . وأباح القانون في بعض مواده الرحيمة للأساقفة أن يزوروا السجون ، ليحموا المسجونين من سوء استعمال القانون

وبدل القانون الميزات القديمة التى كانت تتمتع بها بعض الطبقات . من ذلك أن المعاتيق لم يعودوا يعاملون على أنهم طائفة خاصة قائمة بنفسها ؛ بل أصبحوا يتمتعون من ساعة تحريرهم بجميع مميزات الأحرار ، فيباح لهم أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ وأن يكونوا أباطرة . وقسم الأحرار جميعاً إلى طبقة ذوى الشرف أو المرتبة ، وإلى طبقة عامة . وأقر القانون نظام الطبقات الذى نشأ منذ أيام دقلديانوس فقسمها إلى أشراف patricii ، وممتازين illustres ومحترمين specabites (وهى التى أخذت منها لفظ respecable أى محترم الإنجليزية) ، وأصفياء Clarissimi ، وأمجاد Gloriosi ولقد كان فى هذا القانون الرومانى كثير من العناصر الشرقية .

وظهرت فيما ورد فى هذه الشرائع من قوانين خاصة بالرق بعض آثار المسيحية أو الرواقية . مثال ذلك أن اغتصاب أمة كان عقابه الإعدام كاغتصاب الحرة سواء بسواء ؛ كذلك كان يحق للعبد أن يتزوج من حرة إذا وافق سيده على هذا الزواج. وكان چستنيان يشجع العتق كما تشجعه الكنيسة ، لكن القانون كان يجيز بيع الطفل حين يولد فى سوق الرقيق إذا كان أبواه معدمين[٢٣] ، وكان فى قانون چستنيان فقرات تشجع استرقاق رقيق الأرض ، وتمهد السبيل لنظام الإقطاع . مثال ذلك أن الرجل الحر إذا زرع قطعة من الأرض ثلاثين عاماً كان يطلب إليه أن يبقى هو وأبناؤه إلى أبد الدهر مرتبطين بهذه الأرض[٢٤] . وكان القانون يبرر هذا بأن يمنع الزراع من من ترك الأراضى ؛ وإذا هرب رقيق الأرض أو صار من رجال الدين من غير رضاء سيده ، جاز لهذا السيد أن يطالب به كما يطالب السيد بعبده .

ورفع هذا القانون من منزلة المرأة إلى حد ما . وكان إخضاعها للوصاية عليها طول حياتها قد انتهى فى القرن الرابع ، وبطل المبدأ القديم القاضى بأن الأبناء الذكور هم وحدهم الذين يحق لهم أن يرثوا آباءهم ، وبذلت الكنيسة جهوداً

كبيرة لتأييد المبدأ الجديد لأن كثيرات من النساء كن يوصين لها بأملاكهن . وحاول چستنيان أن ينفذ آراء الكنيسة الخاصة بالطلاق ، وحرمه إلا إذا أراد أحد الزوجين أن يدخل ديراً للنساء أو الرجال . غير أن هذا العمل كان خروجاً متطرفاً على العادات والقوانين القائمة وقتئذ ، ولذلك عارضه كثيرون من الشعب بحجة أنه سيزيد من حوادث التسميم ، وذكرت فيما سن بعدئذ من القوانين فى الإمبراطورية الرومانية حالات كثيرة مختلفة يباح فيها الطلاق ، وظلت هذه معمولا بها ، فى الإمبراطورية البيزنطية حتى عام ١٤٥٣ فيما عدا فترات منقطعة (٢٥) . ومحى من القانون ما فرضه أغسطس من عقوبات على العزوبة والعقم . وكان قسطنطين قد جعل الزنى من الجرائم التى يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وإن لم ينفذ هذا العقاب إلا فى حالات نادرة ، أما چستنيان فقد احتفظ بعقوبة الإعدام للزانى من الرجال ، أما الزانية فقد جعل عقابها الإقامة فى دير للنساء . وأباح القانون للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا وجدها فى منزله أو شاهدها تتحدث معه فى حانة بعد إنذارها ثلاث مرات أمام شهود . كذلك فرض القانون عقوبات صارمة على من يزنى بامرأة غير متزوجة أو بأرملة إلا إذا كانت حظية أو عاهراً . وكان هتك العرض غصباً يعاقب عليه بالإعدام ومصادرة الأملاك ، وكان ثمن هذه الأملاك المصادرة يعطى للمرأة المغتصبة . ولم يكتف چستنيان بتقرير عقوبة الإعدام للواط ، بل كان فى كثير من الأحيان يضيف إليها التعذيب ، وبتر الأعضاء ، وعرض المذنبين على الجماهير فى الشوارع قبل إعدامهما ، وإنا لنحس فى هذا التشريع الصارم ضد الشذوذ الجنسى بأثر المسيحية التى روعتها آثام الحضارة الوثنية فدفعتها إلى هذا التزمت الوحشى .

وغير چستنيان قانون الملكية تغييراً أساسيا . من ذلك أنه ألغى ما كان ينص عليه القانون القديم من حق الأقارب من العصب أن يرثوا من يموت دون أن يترك وصية ؛ وجعل حق الميراث لأبناء الميت وأحفاده الخ من الظهور والبطون ،

وشجع القانون الهبات والوصايا لجهات البر ؛ وأعلن أنه لا يجوز النزول عن شيء من أملاك الكنيسة ، سواء كانت ثابتة أو منقولة ، أو كانت أجور أملاك ، أو رقيق أرض ، أو عبيد ؛ فلم يكن يحق لأى رجل من رجال الدين أو غير رجال الدين ولا لأية جماعة دينية أو غير دينية النزول عن أى شيء تمتلكه الكنيسة أو بيعه أو الإيصاء به . وأضحت هذه القوانين التي وضعها ليو الأول وأنثميوس وأيدها قانون جستنيان هي الأساس الشرعي لثروة الكنيسة المتزايدة . فقد كانت أملاك غير رجال الدين تنقسم وتتفرق ، أما أملاك الكنيسة فظلت تتراكم وتزداد جيلا بعد جيل . وحاولت الكنيسة أن تحرم الربا ، ولكنها عجزت عن تحريمه ؛ وأجاز القانون القبض على المدينين الذين يتخلفون عن جلسات المحاكمة ، ولكنه أجاز إطلاق سراحهم بالكفالة أو إذا أقسموا أن يعودوا حين يطلبون للمحاكمة .

وحرم القانون سجن أى شخص إلا بأمر أحد كبار القضاة ، وحدد الزمن الذى يمكن أن ينقضى بين القبض عليه ومحاكمته تحديداً دقيقاً لا يتعداه . وبلغ عدد المحامين من الكثرة حداً جعل جستنيان يشيد لهم باسلقا خاصة نستطيع أن نتصور مساحتها إذا عرفنا أن مكتبتها كانت تضم ١٥٠٫٠٠٠ مجلد أو ملف . وكان المتهم يحاكم أمام قاض يعينه الإمبراطور ، غير أنه كان من المستطاع تحويل القضية إلى محكمة الأسقف إذا رغب فى ذلك الطرفان المتقاضيان . وكانت نسخة من الكتاب المقدس توضع أمام القاضى فى كل جلسة . وكان وكيلا الطرفين يقسمان على الكتاب أنهما سيبذلان كل ما فى وسعهما للدفاع عن موكليهما بذمة وأمانة ، ، لكنهما يتخليان عن القضية إذا وجداها مما يخل بالشرف والأمانة . وكان المدعى والمدعى عليه يلزمان أيضاً بأن يقسم كل منهما على الكتاب المقدس أن قضيته عادلة . وكانت العقوبات التى ينص عليها القانون صارمة ولكنها قلما كانت ملزمة فقد كان فى وسع القاضى مثلا أن يخفف العقاب عن النساء ، والقُصَّر ،

والسكارى الذين يقدمون للقضاء . وكان السجن يستخدم للمحافظة على المتهمين حتى يحاكموا ، ولكنه قلما كان يستخدم لعقاب المذنبين .

وقد أجاز قانون جستنيان عقاب المجرم ببتر أعضائه ، فكان هذا أكثر رجعية من قانونى هدريان وأنطونينوس پيوس . مثال ذلك أن جباة الضرائب الذين يزورون فى حساباتهم ، والذين ينسخون الآداب الدينية اليعقوبية كان يجوز عقابهم بقطع يدهم ، اتباعا للنظرية القائلة بأن العضو الذى اقترف ذنباً يجب أن يجازى بما اقترفه . وكثيراً ما يذكر القانون عقوبة جدع الأنف أو قطع الرقبة ، وأضافت القوانين البيزنطية إليهما سلم العينين ، وأكثر ما يكون ذلك لتشويه وجه الوارثين للعرش أو المتطلعين له . وكانت عقوبة الإعدام تنفذ فى الأحرار بقطع رءوسهم ، وفى بعض الأرقاء بصلبهم ؛ وكان السحرة والفارون من الجيش يحرقون أحياء ؛ وكان فى وسع المواطن المحكوم عليه أن يستأنف الحكم أمام محكمة أعلى درجة من المحكمة التى أصدرته ، ثم إلى مجلس الشيوخ ثم إلى الإمبراطور نفسه آخر الأمر .

وإنا لنعجب بقانون جستنيان إذا نظرنا إليه فى مجموعه أكثر مما نعجب به لو نظرنا إلى كل جزء من أجزائه على انفراد . وأكثر ما يختلف فيه عن القوانين التى صدرت قبله هو تشدده فى اتباع المبادئ والسنن المقررة ، وسد الطريق على التعديل والإصلاح ، وما يسرى فيه من ميل إلى القسوة فى الانتقام ، حتى لقد كان فى وسع الرومانى المتعلم أن يجد الحياة فى حكم الأنطونيين أكثر حضارة منها فى حكم جستنيان . وكان سبب هذه العيوب أن الإمبراطور لم يكن يستطيع التخلص من البيئة التى يعيش فيها والزمن الذى وجد فيه ، وقد اضطرته رغبته الملحة فى أن يوحد كل شىء على أن يقنن ما فى عصره من الخرافات والوحشية كما يقنن ما فيه من عدالة ورحمة . وكان القانون شديد التمسك بالقديم والمحافظة عليه ، شأنه فى هذا شأن كل ما هو بيزنطى ، وكان موائماً كل المواءمة لحضارة

خيل إلى أهلها أنها لن تموت أبداً . لكنه سرعان ما نقص الخاضعون له فلم يتعدوا أهل مملكة صغيرة آخذة فى النقصان . ذلك أن الشرقيين الخارجين على الدين والذين أذاقهم هذا القانون أشد العذاب قد فتحوا صدورهم للمسلمين وكانوا أكثر رخاء فى ظل القرآن منهم فى ظل هذا القانون . وأغفلت إيطاليا تحت حكم اللمبارد ، وغالة تحت حكم الفرنجة ، وإنجلترا تحت حكم الأنجليسكسون ، وأسبانيا تحت حكم القوط الغربيين — أغفلت هذه البلاد كلها أوامر جستنيان . لكن هذا القانون بالرغم من هذا كله ، ظل بضعة أجيال يبسط النظام والأمن على خليط من الشعوب ، وبفضله استطاع الناس أن يجتازوا حدود كثير من الأمم وينتقلوا فى شوارع مدنها وهم أكثر أمناً وأعظم حرية مما يستمتع به الذين ينتقلون فى ذلك الأقليم نفسه فى هذه الأيام . ولقد ظل هو قانون الإمبراطورية البيزنطية إلى آخر أيامها ، ولقد أحيا سننه مشترعو بولونيا بعد خمسة قرون من اختفائه فى الغرب ، وعمل به الأباطرة والبابوات ، وسرى فى نظم كثير من الدول الحديثة ، فكان هو الهيكل الذى قام عليه نظامها .

الفصل الخامس

الفقيه الديني الإمبراطوري

لم يبق بعدئذ أمام چستنيان إلا أن يوحد العقيدة الدينية ، وأن يجعل الكنيسة أداة متجانسة تتخذها وسيلة للحكم . وأكبر الظن أن چستنيان كان مخلصاً فى عقيدته الدينية ، وأن غرضه من توحيد الدين لم يكن سياسياً فحسب ، فقد كان هو نفسه يعيش فى قصره عيشة الراهب فى ديره على قدر ما تسمح له بذلك ثيودورا ؛ يصوم ، ويصلى ، وينكب على دراسة المؤلفات الدينية ، ويناقش دقائق العقائد الدينية مع الفلاسفة ، والبطارقة ، والبابوات . وينقل پروكپيوس فى هذا المعنى قول أحد المتآمرين على چستنيان دون أن يخفى موافقته التامة على ما ينقله : « إن من أوتى أقل قسط من عزة النفس لا يليق به أن يرفض العمل على قتل چستنيان ؛ وخليق به ألا يداخله أقل خوف من رجل يجلس على الدوام فى ردهة قصره من غير حرس ويقضى الجزء الأكبر من الليل يقلب صفحات الكتب المسيحية المقدسة هو وجماعة من القساوسة الطاعنين فى السن »[٣٦] . ويكاد يكون من أول الأعمال التى استعان فيها چستنيان بسلطته وهو نائب عن چستين أنه رتق الفتق الذى اتسع بين الكنيستين الشرقية والغربية على أثر نشر رسالة الإمبراطور زينون المعروفة باسم هنوتوكون Henotucon . وقد استطاع چستنيان أن يكسب تأييد القساوسة الإيطاليين أتباع الدين الأصيل ضد القوط ، وإخوانهم فى الشرق ضد اليعقوبيين ، بقبوله وجهة نظر البابوية فى المسائل التى كانت موضوع الخلاف .

وكانت هذه الشيعة الأخيرة التى تقول بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة قد كثر عددها فى مصر حتى كاد يعادل عدد الكاثوليك . وبلغ من كثرتهم فى

الإسكندرية أن انقسموا هم أيضاً إلى طائفتين يعقوبيتين إحداهما تؤمن بنصوص الكتاب المقدس وأخرى لا تؤمن به . وكان أفراد الطائفتين يقتتلون في شوارع المدينة بينا كانت نساؤهم يتبادلن القذائف من سطوح المنازل . ولما أن أجلست قوات الإمبراطور المسلحة أسقفاً كاثوليكياً في كرسي أثناسيوس كانت أول تحية حياه بها المصلون أن رجموه بوابل من الحجارة ، ثم قتله جنود الإمبراطور وهو جالس على كرسيه . وبينا كانت الكثلكة تسيطر على أسقفية الإسكندرية ، كان الخارجون عليها يزداد عددهم زيادة مطردة في ريف مصر ، فكان الفلاحون لا يأبهون بقرارات البطريق أو بأوامر الإمبراطور ، وكانت مصر قد خرجت عن طاعة الإمبراطورية أو أوشكت أن تخرج عن طاعتها قبل أن يفتتحها العرب بقرن كامل .

وتغلبت ثيودورا بثباتها على جستنيان المتردد في هذه المسألة كما تغلبت عليه في كثير من المسائل الأخرى ، فأخذت تأتمر مع شماس روماني يدعى ڤيجليوس Vigilius وتعرض عليه أن تنصبه بابا إذا قبل بعض مطالب اليعقوبيين . وأثمرت هذه المؤامرة ثمرتها ، فأخرج بليساريوس البابا سلفريوس من رومة (٥٣٧) ونفي إلى جزيرة پلماريا Palmaria حيث مات مما لقيه من قسوة ، ونصب ڤيجليوس بابا في مكانه بأمر الإمبراطور . وقبل جستنيان في آخر الأمر رأي ثيودورا القائل بأن مذهب اليعاقبة لا يمكن القضاء عليه ، فحاول أن يسترضي أتباعه في وثيقة دينية إمبراطورية تعرف باسم الفصول الثلاثة . ثم استدعى ڤيجليوس إلى القسطنطينية وألح عليه بأن يوافق على هذه الوثيقة . وأجابه ڤيجليوس إلى طلبه على كره منه ، فما كان من رجال الدين الكاثوليك في أفريقية إلا أن أعلنوا طرده من الكنيسة وتجريده من رتبة الكهنوتية (٥٥٠) . وحينئذ قام جستنيان بمحاولة سافرة للسيطرة على البابوية لم يقم بها إمبراطور غيره من قبله . ذلك أنه دعا مجلساً عاماً للاجتماع في القسطنطينية (٥٥٣) ، لم يكد يحضره أحد

من أساقفة الغرب ، ووافق المجلس على المبادئ التي وضعها چستنيان ، ولكن الكنيسة الغربية رفضتها ، وعاد النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية إلى ما كان عليه من قبل ، ولم يخمد لظاه مدة قرن من الزمان .

وتغلب الموت آخر الأمر على كل هذا الجدل ، فقد توفيت ثيودورا في عام ٥٤٨ ، وكانت وفاتها أشد الضربات التي حطمت شجاعة چستنيان ، وصفاء ذهنه ، وقوة بدنه . وكان وقتئذ في الخامسة والستين من عمره ، وكان قد أضعفه نسكه وما حل به من أزمات متعاقبة . فترك شئون الحكم لعماله ، وأهمل وسائل الدفاع التي بذل غاية جهده لإقامتها ، وانهمك في البحوث الدينية ، وحلت بالبلاد كوارث لا حصر لها نغصت عليه حياته في السبعة عشر عاماً التي عاشها على حافة القبر . فقد امتاز حكمه بكثرة ما حدث فيه من الزلازل التي دمرت اثنتي عشرة مدينة وكادت تمحو آثارها من الوجود ، ونضب معين خزانة الدولة من جراء النفقات التي تطلبتها إعادة بنائها ؛ وفشا الطاعون في البلاد في عام ٥٤٢ ، وجاء بعده القحط في عام ٥٥٦ ، وعاد الطاعون مرة أخرى في عام ٥٥٨ . وفي عام ٥٥٩ اجتاز الهون الكتريجور Kutrigur Huns نهر الدانوب ، وهتكوا أعراض الأمهات والعذارى والراهبات ، وألقوا إلى الكلاب بالأطفال الذين ولدتهم السبايا اللائي أخذوهن معهم في زحفهم ، وتقدموا حتى بلغوا أسوار القسطنطينية . واستغاث الإمبراطور في هلعه الشديد بالقائد العظيم الذي طالما أنجاه من الكوارث من قبل . وكان بليساريوس وقتئذ ضعيفاً منهوك القوى ، ولكنه انتضى سيفه ولبس درعه ، وجمع ثلثمائة من جنوده المحنكين الذين حاربوا معه في إيطاليا ، وضم إليهم بضع مئين من الجنود غير المدربين ، وسار بهم ليلاقي الهون البالغ عددهم سبعة آلاف رجل . ووزع قواه بما تعوّد من حذق وبُعد نظر ، فأخفى مائتين من خيرة جنوده في غابات قريبة من ميدان القتال ، فلما أن تقدم الهون لقتاله انقض هؤلاء على جناحهم ، بينا كان بليساريوس يتلقى هجوم أعدائه على رأس جيشه الصغير .

وارتد البرابرة على أعقابهم وولوا الأدبار قبل أن يصاب رومانى واحد بجرح خطير . وغضبت الجماهير فى العاصمة لأن بلبساريوس لم يقتف أثر العدو ويقبض على قائد الهون ويأت به أسيراً . ودبت الغيرة فى قلب الإمبراطور فاستمع إلى وشاية الواشين بقائده الكبير ، واتهمه بالتآمر عليه ، وأمره بأن يسرح جنوده المسلحين . ولما مات بليساريوس فى عام ٥٦٥ صادر جستنيان نصف ممتلكاته .

وعاش الإمبراطور بعد قائده ثمانية أشهر . وأثمرت دراسته للدين فى سنيه الأخيرة ثمرة عجيبة ! وهل أعجب من أن يخرج على الدين حامى حمى الدين . فقد أعلن جستنيان أن جسد المسيح غير قابل للدنس ، وأن طبيعة المسيح البشرية لم تتعرض فى يوم من الأيام لحاجة من حاجات الجسد الفانى ، ولا لشىء من مساوئه . وأنذره رجال الدين بأنه إذا مات قبل أن يرجع عن هذه الخطيئة « فسيلقى فى نار جهنم ويبقى فيها إلى أبد الآبدين »(٢٧) . ولكنه مات قبل أن يتوب من ذنبه (٥٥٦) ، بعد حياة دامت ثلاثة وثمانين عاماً ، جلس منها على العرش ثمانية وثلاثين .

وكان موت جستنيان نقطة أخرى من النقاط التى يمكن أن تعدّ خاتمة التاريخ القديم . لقد كان فى حياته إمبراطوراً رومانيا بحق ، يفكر فى جميع شئون الإمبراطورية شرقيها وغربيها على السواء ، ويبذل كل ما وسعه من جهد ليصد عنها البرابرة ، وليعيد إلى الإمبراطورية الواسعة حكما منظما وشرائع متجانسة . ولقد أفلح فى تحقيق جانب كبير من هذا الغرض : فقد استرد أفريقية ، ودلماشيا ، وإيطاليا ، وقورسقة ، وسردينيا ، وصقلية ، وبعض أسپانيا ، وطرد الفرس من سوريا ، وتضاعفت رقعة الإمبراطورية فى عهده ضعفين . وتمثل شريعته بما فيها من وحدة ، ووضوح ، واتساع فى الأفق ، ذروة فى تاريخ القانون . ولسنا ننكر أن إدراته لشئون الإمبراطورية قد لوثها فساد الموظفين ، ورشوة الحكام ، وفدح الضرائب ، وتدخل الأهواء ، والنزوات فى العفو والعقاب ؛ ولكنها مع ذلك

كانت تمتاز بالعمل المتواصل على تنظيم أداة حكم الإمبراطورية وشئونها الاقتصادية ؛ ولقد أفلحت فى إقامة صرح من النظام إن يكن معادياً للحرية فإنه قد حفظ كيان الحضارة فى ركن من أركان أوربا فى الوقت الذى غرقت فيه سائر القارة فى ظلمات العصور المظلمة . هذا إلى أنه قد خلد اسمه فى تاريخ الصناعة والفن كما يشهد بذلك جامع أياصوفيا الذى هو أثر من آثاره . وما من شك فى أن أشياعه من معاصريه قد بدا لهم أن الإمبراطورية استطاعت مرة أخرى أن تصد تيار التدهور وأن تبعد عنها يد الردى إلى حين .

غير أن الذى يؤسف له أن ذلك لم يكن أكثر من مهلة جد قصيرة . فقد ترك جستنيان خزائن الدولة خاوية ، وكان قد وجدها عامرة ، وكانت شرائعه القاسية الخالية من التسامح الدينى ، وكان جباته اللصوص ، سبباً فى نفور الأمم التى استولت جيوشه على بلادها ، فلم يطل ولاؤها له ، وكانت هذه الجيوش قد ضعفت ميرتها ، وتبدد شملها ، ولم تنل أجورها ، فلم يكن فى وسعها أن يطول دفاعها عن البلاد التى افتتحتها وأحلت بها الخراب والدمار . وسرعان ما تركت أفريقية للبربر ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر ، ثم أفريقية وأسپانيا للعرب ، وإيطاليا للمبارد . وقبل أن ينقضى قرن واحد على موت جستنيان خسرت الإمبراطورية أكثر مما كسبه هو لها . وإذا ما عدنا ببصرنا إلى الماضى أدركنا من خلال ثناياه ، وامتلأت نفوسنا زهواً بهذا الإدراك ، ما كان فى نظام حكم الإمبراطورية من أخطاء . وبدا لنا أنه كان من الخير كل الخير أن تجمع القوميات والمذاهب الدينية الناشئة فى نظام اتحادى ، وأن تمديد الصداقة إلى القوط الشرقيين الذين حكموا إيطاليا حكما صالحا إلى حد كبير ، وأن تكون الدولة أداة لحفظ الثقافة القديمة من الضياع ومَعِينا غزيراً تستمد منه الدول الجديدة أسباب حضارتها ورفاهيتها .

وليس ثمة مايضطرنا إلى قبول حكم پروكپيوس على جستنيان ، فقد كفانا

بروكپيوس نفسه مؤونة دحض هذا الحكم[٢٨] : لقد كان الإمبراطور حاكما عظيما ، نشأت أخطاؤه من إخلاصه لعقيدته وجريه فيها على سنن المنطق : فنشأ اضطهاده من ثقته ، ونشأت حروبه من نزعته الرومانية ، ومصادرته للأملاك من هذه الحروب . فنحن نأسف أشد الأسف لضيق أفقه وعنف أساليبه ، ونطرب لتحقيقه أغراضه . لقد كان هو وبليساريوس ، لابنياس وإيتيوس ، آخر الرومان .

الباب السادس

الحضارة البيزنطية

٣٣٦ – ٥٦٥

الفصل الأول

العمل والثروة

كان الاقتصاد البيزنطي مزيجاً من المشروعات الفردية ، والتنظيم الحكومي ، والصناعات المؤممة ، شبيهاً بما يجري به العمل في هذه الأيام . وكان امتلاك الفلاحين للأراضي التي يزرعونها لا يزال في عهد جستنيان هو القاعدة المعمول بها في الزراعة ؛ ولكن الضياع كانت آخذة في الاتساع ، وكان كثير من الزراع يضطرون شيئاً فشيئاً إلى الخضوع الإقطاعي لكبار الملاك ؛ وكان الذي يرغمهم على هذا الخضوع هو الجفاف ، والفيضان ، والتنافس ، والعجز عن فلح الأرض ، والضرائب ، والحروب . وكانت الموارد المعدنية التي في باطن الأرض ملكاً للدولة ولكن معظمها كانت تستغله الهيئات الخاصة التي تستأجره من الحكومة . وكانت مناجم بلاد اليونان قد نضب معينها ، ولكن مناجم قديمة وجديدة كانت تستغل في تراقية ، وبنطس ، وبلاد البلقان . وكان معظم عمال الصناعة « أحراراً » أي أنهم لم يكن يرغمهم على العمل إلا عدم رغبتهم في الموت جوعاً ؛ ولم يكن للاسترقاق المباشر في خارج الخدمة المنزلية وصناعة النسيج إلا شأن ضئيل ، ولكن الدولة كانت تلجأ إلى السخرة في سوريا ، وفي مصر وشمالي أفريقية على الأرجح المحافظة على قنوات الري الكبرى[1] . وكانت الحكومة تنتج في مصانعها معظم

ما يحتاجه الجيش والموظفون ، والحاشية من البضائع[٢] .

وأثار جماعة من الرهبان النساطرة من أواسط آسية حوالى عام ٥٥٢ اهتمام الإمبراطور چستنيان بصناعة الحرير ، إذ عرضوا عليه أن يمدوا الإمبراطورية بموارد منه مستقلة عن غيرها من البلاد . وإذا ذكرنا كثرة الحروب التي شبت نارها بين بلاد اليونان والرومان من جهة وبلاد الفرس من جهة أخرى للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الصين والهند ، ولاحظنا اسم « طريق الحرير » الذى كان يطلق على الممرات الشمالية الموصلة إلى بلاد الشرق الأقصى ، واسم « سريكا Serica » (أرض الحرير) الذى كان الرومان يطلقونه على بلاد الصين واسم « سرنديا Serindia » الذى كانوا يطلقونه على الإقليم الواقع بين الصين والهند ، إذا ذكرنا هذا كله أدركنا سبب قبول چستنيان لهذا الاقتراح والتحمس له . وعاد الرهبان إلى أواسط آسية ثم جاءوا إليه ومعهم بويضات دود القز ، وأكبر الظن أنهم جاءوا معهم أيضاً ببذور شجر التوت[٣] . وكانت صناعة الحرير قائمة قبل ذلك فى بلاد اليونان ، ولكنها كانت قائمة فى نطاق ضيق ، وكانت تعتمد على دود القز البرى الذى يعيش على أوراق أشجار البلوط والدردار والسرو . وكانت نتيجة هذا الاقتراح أن قامت صناعة الحرير فى نطاق واسع فى بلاد الإمبراطورية وخاصة فى سوريا وبلاد اليونان ، وتقدمت فى بلاد البلوپونيز تقدماً أكسب شبه الجزيرة اسم موريا Morea — أى أرض شجر التوت Morus Alba .

وكانت الدولة تحتكر صناعة بعض أنواع من المنسوجات الحريرية والصبغات الأرجوانية فى مدينة القسطنطينية ، وكانت هاتان الصناعتان تقومان فى حوانيت داخل القصر الإمبراطورى أو قريبة منه[٤] . ولم يكن يسمح بارتداء الثياب الحريرية المصبوغة الغالية إلا لكبار موظفى الحكومة ، وكان أغلاها كلها لا يسمح به لغير أفراد الأسرة الإمبراطورية . ولما أخرجت المشروعات الفردية خفية منسوجات حريرية تماثل منسوجات الحكومة وباعتها لغير الطبقات الممتازة

قضى جستنيان على هذه « السوق السوداء » بأن أزال معظم القيود المفروضة على لبس الحرير الغالي والملابس ذات الصبغة الغالية ، وأغرق الحوانيت بالمنسوجات الحكومية ، وباعها لها بأثمان لا تستطيع المصانع الخاصة مجاراتها ؛ ولما قضى بهذه الطريقة على المنافسة عادت الحكومة فرفعت الأثمان مرة أخرى (٥) . وحذا جستنيان حذو دقلديانوس فعمل على بسط السيطرة الحكومية على جميع الأثمان والأجور . وحدث بعد انتشار الطاعون في عام ٥٤٢ أن نقصت الأيدي العاملة ، وارتفعت أجور العمال ، وتضاعفت أثمان السلع . وعمل جستنيان ما عمله البرلمان الإنجليزي في عام ١٣٥١ بعد طاعون ١٣٤٨ ، فأراد أن يساعد أصحاب الأعمال والمستهلكين بمرسوم يحدد الأثمان والأجور جاء فيه :

لقد وصل إلى علمنا أن التجار ، والصناع ، والزراع ، والبحارة قد تغلبت عليهم ، بعد أن حل بنا غضب الله ، روح الجشع ، فأخذوا يطلبون أثماناً وأجوراً تعادل ضعفي ما كانوا ينالونه قبل أو ثلاثة أضعافه . . . . لذلك نحرم على هؤلاء جميعاً وأمثالهم أن يطلبوا أثماناً أو أجوراً أكثر مما كانوا يطلبونه من قبل . كذلك نحرم على متعهدي البناء ، أو الأعمال الزراعية أو غيرهما أن يؤدوا للعمال أعلى مما جرت العادة بآدائه في الأيام الماضية (٦) .

وليس لدينا ما يدلنا على ما كان لهذا المرسوم من أثر .

وراجت التجارة الداخلية والخارجية في الإمبراطورية البيزنطية من عهد قسطنطين إلى أواخر حكم جستنيان . وكان ما فيها من الطرق والجسور الرومانية يتعهد ويصلح بانتظام ، ودفع الحرص الشديد على الكسب وما يبعثه من إبداع وإنشاء إلى بناء أساطيل بحرية ربطت العاصمة بمئات الثغور في الشرق والغرب . وظلت القسطنطينية من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر أعظم الأسواق التجارية ومراكز النقل البحري في العالم كله ، وانحطت الإسكندرية التي كانت لها السيادة في هذه الناحية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، فأصبحت منزلتها في

التجارة بعد أنطاكية(٧) . وكانت سوريا كلها تعج بالمتاجر والمصانع ، ويرجع هذا إلى موقعها بين بلاد الفرس والقسطنطينية ، وبين القسطنطينية ومصر ، وإلى ما اتصف به تجارها من حذق وحب للمغامرة بحيث لم يكن ينافسهم فى انتشار تجارتهم ودهائهم إلا اليونان الذين لا يجارونهم فى المثابرة والجلد ، كما يرجع إلى انتشارهم هم أنفسهم فى جميع بلاد الإمبراطورية ، فكانوا بذلك عاملا فى إيجاد ذلك الطابع الأخلاقى والفنى الذى طبعت به الحضارة البيزنطية .

وإذا كان الطريق التجارى القديم بين سوريا وأواسط آسية يخترق بلاد الفرس المعادية للدولة البيزنطية ، فقد أراد چستنيان أن ينشئ طريقاً جديداً بإقامة صلات ودية بينه وبين الحميريين المقيمين فى الطرف الجنوبى الغربى من جزيرة العرب ، وملوك الحبشة ، وكان هؤلاء أولئك يسيطرون على أبواب البحر الأحمر الجنوبية . وكانت السفن التجارية البيزنطية تخترق هذه المضايق والمحيط الهندى فى طريقها إلى الهند ؛ ولكن الفرس الذين كانوا يسيطرون على ثغور الهند كانوا يفرضون على هذه التجارة رسوماً عالية كأنها تمر ببلاد إيران نفسها . فلما خاب رجاء چستنيان فى هذا الطريق شجع إنشاء المرافئ البحرية على البحر الأسود ، فكانت المتاجر ترد إلى هذه المرافئ ثم تنقل فى السفن إلى خلقيس Colchis ومنها يطرق القوافل إلى سجديانا Sogdiana ، حيث يلتقى تجار الصين وتجار الغرب ويتساومون دون أن يتدخل الفرس فيما بينهم . وبفضل هذه التجارة الناشطة التى كانت تسير فى هذا الطريق الشمالى ارتفعت سيرنديا إلى أعلى درجات الثروة والفن فى العصور الوسطى . وظلت التجارة اليونانية فى هذه الأثناء محتفظة بمنافذها القديمة فى الغرب .

وكان من أكبر العوامل فى هذا النشاط الاقتصادى الكبير النقد الإمبراطورى الذى كان عملة مقبولة فى جميع أنحاء العالم تقريباً لثباته وسلامته . وكان قسطنطين قد سك نقداً جديداً ليحل محل الأوريوس Aurues الذى سكه

قيصر . وكانت هذه القطعة النقدية الجديدة المعروفة باسم صوليدوس Solidus أو بيزنت Bezant تزن ٥٥ر٤ جرامات أو جزءاً من ستة أجزاء من الأوقية الإنجليزية من الذهب ، وتعادل قيمته ٨٣ ر ٥ من الدولارات فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٦ . وإن تدهور الصوليدوس فى قيمته المعدنية والاقتصادية حتى صار هو الصلدى ليدل أوضح دلالة على ارتفاع الأثمان خلال عصور التاريخ المختلفة ، وعلى انحطاط قيمة النقد ، ويوحى بأن الادخار فضيلة تتطلب ممارستها كثيراً من الدقة والحصافة . وارتقت أعمال المصارف كثيراً فى ذلك الوقت ، وفى وسعنا أن نعرف ما كان يسود الإمبراطورية البيزنطية من رخاء عند ما ارتقى جستنيان العرش إذا عرفنا أنه حدد سعر الفائدة بما لا يزيد على أربعة فى المائة لقروض الفلاحين ، وستة فى المائة للقروض التجارية ، واثنى عشر فى المائة للنقود المستثمرة فى المشروعات البحرية(٨) . ولم تكن فوائد القروض منخفضة هذا الانخفاض فى ذلك الوقت فى أى بلد آخر من بلاد العالم .

وكان أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار يستمتعون بثراء عظيم وبمظاهر من الترف قلما استمتع بهما أمثالهم قبلهم فى رومة وذلك بفضل ما كان يمتلكه الأولون من أراض واسعة ، وما يقدم عليه الآخرون من مغامرات تجارية فى أقطار نائية تتناسب أرباحها مع ما كانت تتعرض له أموالهم من الخطر . وكان الأشراف فى الشرق أرقى ذوقاً من نظائرهم فى رومة فى أيام شيشرون وجوفنال . فلم يكن أفراد هذه الطبقة يتخمون بطونهم بالأطعمة الغريبة يحضرونها من البلاد النائية ، وكان الطلاق عندهم أقل منه فى رومة ، وكانوا أكثر منهم إخلاصاً وجداً فى خدمة الدولة ، وكان أكثر ما يسرفون فيه هو الملابس المزركشة ، والأثواب ذات الأهداب ، المغطاة بالفراء والأصباغ البراقة ، والجلابيب الحريرية المصبوغة بصبغات غالية والمطرزة بخيوط الذهب والمنقوشة عليها مناظر مستمدة من الطبيعة أو من التاريخ .

وكان بعض الناس أشبه « بجدران مصورة متحركة » . من ذلك أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ قد صورت على ثوبه قصة المسيح من أولها إلى آخرها[٩] ، وكان تحت هذه الطبقة ذات الغشاء الذهبي طبقة وسطى ترزح تحت أعباء الضرائب ، وطبقة أخرى كادحة من موظفى الدولة ، وخليط من الرهبان الذين لا ينقطعون عن التدخل فى شئون الناس ، وأمشاج من صعاليك المدن كانوا ضحية نظام الأثمان ، لا يخفف عنهم أعباء الحياة إلا ما يتلقونه من الدولة من إعانات .

ولم تكن المبادئ الخلقية من الناحيتين التجارية والجنسية تختلف اختلافاً بيناً عن أمثالها فى الثقافات الأخرى فى نفس هذه المرحلة من التطور الاقتصادى . لقد كان كريستوم يندد بالرقص ويقول إنه يثير الشهوات ، ولكن القسطنطينية لم تنقطع عن الرقص رغم تنديد كريسستوم ، وظلت الكنيسة ترفض تعميد الممثلين ، ولكن المسرح البيزنطى ظل يعرض تمثيلياته الصامتة الإيحائية ، لأن الناس يجب أن يجدوا ما يخفف عنهم متاعب وحدة الزواج وملل الحياة الرتيبة . ويقول پروكپيوس فى كتابه *التاريخ السرى* ، وهو الذى لا يوثق به قط ، إن النساء فى وقته « كن جميعهن تقريباً فاسدات »[١٠] . وكانت وسائل منع الحمل من الموضوعات التى لا ينفك الناس عن دراستها والبحث فيها . وقد أفرد لها أريباسيوس Oribasius أشهر أطباء القرن الرابع فصلا خاصاً فى كتابه الموجز فى الطب . وأوصى كاتب آخر فى الطب يدعى إيتيوس Aetius من رجال القرن السادس باستخدام الخل وماء البحر ، أو الامتناع عن الجماع فى بداية فترة الحيض ونهايتها[١١] . وحاول جستنيان وحاولت ثيودورا أن يقللا من الدعارة بنفى القوادات وأصحاب المواخير من القسطنطينية . ولكن نتيجة العمل لم تدم طويلا . وكانت منزلة المرأة بوجه عام عالية ، ولم تكن النساء فى أى عصر من العصور السابقة أقل تقيداً بالقوانين والعادات أو أعظم نفوذاً فى الحكومة منهن فى ذلك العصر .

الفصل الثانى

العلم والفلسفة

٣٦٤ – ٥٦٥

ترى ماذا كان حظ التربية والتعليم ، والأدب ، والعلوم والفلسفة فى هذا المجتمع الذى يبدو فى ظاهره مجتمعاً دينياً ؟

لقد ظل التعليم الابتدائى فى أيدى مدرسين خصوصيين يؤدى لهم الآباء أجورهم قدراً معيناً عن كل تلميذ فى فترة محددة من الزمن . أما التعليم العالى فقد ظل إلى أيام ثيودوسيوس الثانى يقوم به محاضرون ليس لغيرهم سلطان عليهم ، وأساتذة تؤدى لهم المدينة أو الدولة أجورهم . ويشكو ليبانيوس من ضآلة أجور هؤلاء الأساتذة ويقول إنهم كانوا يتوقون من شدة الجوع إلى الذهاب إلى الخباز ، ولكنهم يمتنعون عن الذهاب إليه خشية أن يطالبهم بأداء ما عليهم من الديون(١٢) . غير أننا مع ذلك نقرأ عن مدرسين أمثال يومانيوس يتقاضون ٦٠٠ر٠٠٠ سسترس (٣٠ر٠٠٠ ريال أمريكى ؟) فى كل عام(١٣) . وكان أحسن الأفراد فى هذه المهنة وأسوأهم يتناولون أجوراً أكثر مما يستحقون ، أما من عداهم فإنهم يتقاضون أقل مما يجب أن يتقاضوه . وعمل يوليان على نشر الوثنية بأن جعل الامتحانات التى تقوم بها الدولة والتعيين من قبلها هو القاعدة المتبعة فى تعيين أساتذة الجامعات كلهم(١٤) . وجاء ثيودوسيوس الثانى ، لأسباب عكس هذا لسبب السابق ، فجعل الإقدام على التعليم بغير ترخيص من الدولة جناية ، وما لبث هذا الترخيص أن اقتصر على أتباع الدين الرسمى للدولة .

وكان مقر الجامعات الكبرى فى الدولة فى الإسكندرية ، وأثينة ،

والقسطنطينية ، وأنطاكية ؛ وكانت هذه الجامعات تتخصص على التوالى فى تعليم الطب ، والفلسفة ، والأدب ، والبلاغة . وجمع أريباسيوس Oribasius البرجمومى (حوالى عام ٣٢٥ — ٤٠٣) طبيب يوليان موسوعة طبية مؤلفة من سبعين « كتاباً » ؛ وألف إيتيوس الأميدى Aëtius of Amida طبيب البلاط فى عهد جستنيان موسوعة أخرى شبيهة بهذه الموسوعة تمتاز بأحسن ما فى الطب القديم من تحليل لأمراض العين ، والأذن ، والأنف ، والفم ، والأسنان ؛ وبفصول شيقة فى تضخم الغدة الدرقية والصرع ، والعمليات الجراحية من استئصال اللوز إلى جراحة البواسير . وكان الإسكندر الترالیسی Alexander of Tralles (حوالى عام ٥٢٥ — ٦٠٥) أكثر مؤلفى الطب ابتكاراً فى ذلك العهد : فقد وضع أسماء لكثير من الطفيليات المعوية المختلفة ، ووصف اضطربات القناة الهضمية وصفاً دقيقاً ؛ وبحث فى أمراض الرئتين وعلاجها بحثاً وافيا لا نظير له فيا سبقه من البحوث . وترجم كتابه المدرسى فى علم الأمراض الباطنية وطبائعها ، وفى الطب العلاجى ، إلى اللغات السريانية ، والعربية ، والعبرية ، واللاتينية ، وكان له فى العالم المسيحى أثر لا يعلو عليه إلا أثر كتب أبقراط ، وجالينوس ، وسورانوس(١٥) ؛ ويقول أوغسطين إن تشريح الأجسام الآدمية كان مألوفا فى القرن الخامس(١٦) . ثم طغت الخرافات على الطب شيئاً فشيئاً ، فآمن معظم الأطباء بالتنجيم ، وأشار بعضهم باستخدام طرق فى العلاج تختلف باختلاف مواقع الكواكب(١٧) . وكان مما أشار به إيتيوس لمنع الحمل أن تضع المرأة بالقرب من شرجها سن طفل(١٨) ، وسبق مارسلوس فى كتابه فى الطب De medicamentis (٣٩٥) المحدثين فأشار بلبس قدم أرنب(١٩) . وكان للبغال حظ أحسن من حظ الآدميين ؛ ذلك أن أحسن كتاب علمى فى ذلك العهد هو كتاب فلافيوس الفجتيوسى Flavius Vegitius (٣٨٣ — ٤٥٠) المعروف باسم : Digestorum artis mulomedicinae libri IV ، ويكاد هذا الكتاب أن يكون هو الأساس

الذى قام عليه الطب البيطرى ، وقد ظل هو المرجع الذى يعتمد عليه حتى عصر النهضة .

وسارت الكيمياء والكيمياء الكاذبة جنباً إلى جنب . وكانت الإسكندرية مركزها جميعاً . وكان الباحثون فى الكيمياء الكاذبة بوجه عام مخلصين فى بحثهم ، يستخدمون الطرق التجريبية بأمانة أكثر مما يستخدمها غيرهم من العلماء الأقدمين . وقد كان لهم الفضل فى تقدم كيمياء المعادن والسبائك تقدما كبيراً ؛ ولسنا واثقين من أن المستقبل لن يحقق ما كانوا يسعون إليه من أغراض . كذلك كان للتنجيم أساس صحيح شريف ؛ فقد كان الناس جميعا يؤمنون إيماناً لا يقبل الشك بأن النجوم ، والشمس ، والقمر ، تؤثر كلها فيما يقع على الأرض من أحداث ، ولكن الدجالين أقاموا على هذه الأسس صرحاً عجيباً من السحر ، والتنبؤ بالغيب والتمائم والرقى المستمدة من أسماء الكواكب . وكان استطلاع الأبراج السماوية لمعرفة مستقبل الناس أكثر انتشاراً فى مدائن العصور الوسطى منه فى نيويورك أو باريس فى هذه الأيام . وشاهد ذلك أن القديس أوغسطين يحدثنا عن صديقين كانا يرصدان بعناية مواقع النجوم وقت مولد حيواناتهما المستأنسة(٢٠) . ولقد كان كثير مما عند العرب من سخافات فى التنجيم والكيمياء الكاذبة مما ورثه المسلمون عن اليونان الأقدمين .

وكانت أظرف شخصية فى علوم ذلك العصر هى شخصية هيباشيا الفيلسوفة والعالمة الرياضية ، وكان والدها ثيون Theon هو آخر من سجلت أسماؤهم فى سجل أساتذة متحف الإسكندرية . وقد كتب شرحاً لكتاب Syntaxis لبطليموس أقرّ فيه بما كان لابنته من نصيب فى تأليفه . ويقول سويداس إن هيباشيا كتبت شروحا لكتاب **القوانين الفلكية** لبطليموس ، وكتاب **المخروطات** لأپلونيوس البرجى (٢١) ، لكن مؤلفاتها كلها لم يبق منها شىء .

ثم انتقلت من الرياضيات إلى الفلسفة ، وسلكت فى بحوثها على هدى أفلاطون وأفلوطين ، و « بزت جميع فلاسفة زمانها » (على حد قول سقراط المؤرخ المسيحى)(٢٢) . ولما عينت أستاذة للفلسفة فى متحف الإسكندرية هرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس من شتى الأقطار النائية . وهام بعض الطلاب بحبها ، ولكن يبدو أنها لم تتزوج قط . ويحاول سويداس أن يقنعنا بأنها تزوجت ، وبأنها رغم زواجها بقيت عذراء طول حياتها(٢٣) . وينقل لنا هو نفسه قصة أخرى ، لعل أعداءها هم مخترعوها مضمونها أن شاباً ضايقها بإلحاحه حتى عيل صبرها فما كان منها إلا أن رفعت ثيابها وقالت له : « إن الذى تحبه هو هذا الذى يرمز إلى التناسل القذر وليس هو شيئاً جميلاً قط »(٢٤) . وقد بلغ من حبها للفلسفة أنها كانت تقف فى الشوارع وتشرح لكل من يسألها النقط الصعبة فى كتب أفلاطون أو أرسطو . ويقول سقراط المؤرخ إنه « قد بلغ من رباطة جأشها ودماثة أخلاقها الناشئتين من عقلها المهذب المثقف أن كانت فى كثير من الأحيان تقف أمام قضاة المدينة وحكامها دون أن تفقد وهى فى حضرة الرجال مسلكها المتواضع المهيب الذى امتازت به عن غيرها ، والذى أكسبها احترام الناس جميعاً وإعجابهم بها » .

لكن هذا الإعجاب لم يكن فى واقع الأمر يشمل الناس جميعاً ، فما من شك فى أن مسيحيى الإسكندرية كانوا ينظرون إليها شزراً ، لأنها لم تكن كافرة فاتنة فحسب ، بل كانت إلى ذلك صديقة وفية لأرستيز Arestes حاكم المدينة الوثنى . ولما أن حرض سيريل Cyril كبير الأساقفة أتباعه الرهبان على طرد اليهود من الإسكندرية أرسل أرستيز إلى ثيودوسيوس الثانى تقريراً عن الحادث بعيداً عن النزاهة بعداً استاء منه كبير الأساقفة ورجاله أشد الاستياء . وقذف بعض الرهبان الحاكم بالحجارة ، فأمر بالقبض على زعيم الفتنة وتعذيبه حتى مات (٤١٥) . واتهم أنصار سيريل هيپاشيا بأنها صاحبة السلطان الأكبر على أرستيز ، وقالوا إنها هى

وحدها التي تحول دون الاتفاق بين الحاكم والبطريق . وفى ذات يوم هجم عليها جماعة من المتعصبين يتزعمهم « قارئ » أى كاتب صغير من موظفى سيريل ، وأنزلوها من عربتها ، وجروها إلى إحدى الكنائس ، وجردوها من ملابسها ، وأخذوا يرجمونها بقطع القرميد حتى قضوا على حياتها ، ثم قطعوا جسمها إرباً ، ودفنوا ما بقى منه فى مرح وحشى شنيع (٤١٥)(٢٥). ولم يعاقب أحد من المجرمين واكتفى الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى بأن قيد حرية الرهبان فى الظهور أمام الجماهير ، (سبتمبر عام ٤١٦) ، وحرم المناصب العامة على الوثنيين (ديسمبر عام ٤١٦) . وبذلك كان انتصار سيريل انتصاراً كاملا .

ورحل أساتذة الفلسفة الوثنيون بعد موت هيپاشيا إلى أثينة ليتقوا فيها الأذى ، وكان التعليم غير المسيحى لا يزال حراً نسبياً ولا يزال معلموه آمن على أنفسهم من غيرهم فى المدن الأخرى . وكانت حياة الطلاب فيها لا تزال نشيطة يسودها معظم ما يسود الحياة العلمية الراقية من ضروب السلوى — من تآخ بين الطلاب ، وأثواب تميزهم من غيرهم ، وعقاب يفرض عليهم فى صورة عمل إضافى ، ومرح عام وبهجة(٢٧) . وكانت المدرستان الرواقية والأبيقورية قد اختفتا من المدينة ، ولكن المجمع العلمى الأفلاطونى كان يتدهور ذلك التدهور الرائع الذى آل إليه أمره فى عهد ثمستيوس وپرسكوس Priscus وبركلوس Proclus . وكان لثمستيوس (حوالى ٣٨٠) بما كتبه من شروح على كتب أرسطو أثر كبير فى ابن رشـــد وغيره من زعماء الفكر فى العصور الوسطى . وكان پرسكسوس فى فترة من الزمن صديق يوليان ومشيره ، وقد قبض عليه ڤالنز وفلنتنيان الأول واتهماه باستخدام السحر لكى تصيبهما الحمى ، ثم عاد بعد ذلك إلى أثينة وظل يعلم فيها حتى توفى عام ٣٩٥ وهو فى سن التسعين . واتخذ پركلوس (٤١٠ — ٤٨٥) الرياضيات طريقاً إلى الفلسفة كما يفعل الأفلاطونيون الحقيقيون . وكان هذا الفيلسوف رجل صبر وجاد ، فرتب آراء الفلسفة اليونانية كلها فى نظام واحد ،

وخلع عليها صورة علمية سطحية . ولكنه إلى هذا كان يتصف أيضاً بشيء من المزاج الصوفى للفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وكان يظن أن فى وسع الإنسان بفضل صومه وتطهير نفسه أن يكون على صلة بالكائنات غير البشرية(٢٨) . وكانت مدارس أثينة قد فقدت حيويتها بعد أن أغلقها جستنيان فى عام ٥٢٩ ، واقتصر عملها على ترديد نظريات المعلمين الأقدمين وإعادتها مراراً وتكراراً ؛ وكان التراث العظيم الذى آل إليها قد أثقلها حتى كاد يقضى عليها ، ولم تخرج عليه إلا إلى نزعة تصوفية تستعير مادتها من المذاهب المسيحية البعيدة عن الدين الأصيل . ثم أغلق جستنيان مدارس علماء البلاغة كما أغلق مدارس الفلاسفة ؛ وصادر أملاكها وحرم الاشتغال بالتعليم على جميع الوثنيين ؛ وبذلك انقضى عهد الفلسفة اليونانية بعد حياة دامت أحد عشر قرناً من الزمان .

ويبدو الانتقال من الفلسفة إلى الدين ، ومن أفلاطون إلى المسيح ، واضحاً جلياً فى بعض الكتابات اليونانية العجيبة التى يعزوها مفكرو العصور الوسطى عن ثقة ويقين إلى ديونيسيوس الأريوباجى Dionysius the Areopagite ، وهو رجل من أهل أثينة اعتنق تعاليم بولس . وأهم مؤلفات هذا الكاتب أربعة هى : فى السلطة الكهنوتية السماوية ، وفى السلطة الاكليروسية ، وفى الأسماء القدسية ، وفى اللاهوت الصوفى .

ولسنا نعرف من هو ديونيسيوس صاحب هذه المؤلفات ، ولا متى أُلفت أو أين ألفت . وتدل محتوياتها على أنها كتبت بين القرنين الرابع والسادس ، وكل الذى نعرفه أنه قلما كان لغيرها من الكتب ما لها من أثر عميق فى علم اللاهوت المسيحى . وقد ترجم يوحنا اسكوتوس أرجينا John Scotus Erigena واحداً منها وبنى عليه تعاليمه . وكان ألبرتوس مجنوس Albertus Magnus وتومس أكويناس يجلانها ، وكان

مائة من المتصوفة اليهود ، والمسلمين ، والمسيحيين على السواء يستمدون آراءهم منها ، وكان فنانو العصور الوسطى ورجال الدين الشعبيون يتخذونها مرشداً هادياً معصوما من الزلل يصل بهم إلى الكائنات العليا وطبقات الصديقين الأبرار . وكان غرضها العام أن تجمع بين الأفلاطونية الحديثة وعلوم الكون المسيحيه . ومن تعاليمها : أن الله موجود في جميع الكائنات ، وأنه مصدر حياتها جميعاً ، وإن كان جلاله فوق مدارك العقل ، وأن بين الله والبشر ثلاث طبقات ثلاثية من الكائنات غير البشرية هى : السيرافيم ، والشيروبيم ، وحملة العرش ، والقوى المسيطرة ، والفضائل ، والسلطات ؛ ثم الملائكة العليا وكبار الملائكة ، والملائكة (وليذكر القارئ كيف رتب دانتى هذه الطوائف التسع حول عرش الله ، وكيف جمع ملتن بعض أسمائها فى بيت له طنان رنان) . وتقول هذه الكتب إن الخلق هو عملية انبعاث : أى أن الأشياء جميعها تنبعث من الله عن طريق تلك الطبقات من الملائكة ؛ ثم تنعكس الآية فتقود هذه الطبقات التسع من الهيئة السماوية العليا بنى الإنسان وجميع المخلوقات وتعود بهم إلى الله .

الفصل الثالث

الأدب

٣٦٤ — ٥٦٥

أعاد ثيودوسيوس الثانى ، والنائبون عنه فى عام ٤٢٥ تنظيم التعليم العالى فى القسطنطينية وقرروا رسمياً إنشاء جامعة مؤلفة من واحد وثلاثين مدرساً ، منهم واحد للفلسفة ، واثنان للقانون ، وثمانية وعشرون « لنحو » اللغة اليونانية واللاتينية وبلاغتها . وكان العلمان الأخيران يشملان دراسة آداب اللغتين ، وتوحى كثرة عدد المدرسين المخصصين لهذه الآداب بما كان يوجه إلى الأدب من عناية كبيرة . وقد وضع أحد أولئك الأساتذة واسمه پرسكيان Priscian حوالى عام ٥٢٦ كتاباً ضخماً فى نحو اللغتين اللاتينية واليونانية أصبح من أهم الكتب الدراسية فى العصور الوسطى . ويبدو أن الكنيسة الشرقية لم تكن تعترض وقتئذ على نسخ الآداب الوثنية[٢٩] . وقد ظلت مدرسة القسطنطينية ، حتى آخر عهد الإمبراطورية البيزنطية ، تنقل بأمانة روائع الأدب القديم رغم احتجاج عدد قليل من القديسين . وحوالى عام ٤٥٠ أنشأ موسايوس Musaeus ؛ وهو رجل لا يُعرف موطنه الأصلى ، قصيدته الذائعة الصيت ، هيرو وليندر Hero & Leander ، ذكر فيها كيف حاول ليندر كما حاول بيرن Byron من بعده أن يعبر مضيق الهلسپنت سباحة لكى يصل إلى حبيبته هيرو ، وكيف غرق أثناء هذه المحاولة ، وكيف أبصرته هيرو يقذف به الموج ميتاً أسفل برجها « فألقت بنفسها من فوق الصخرة الوعرة الشامخة تطلب لنفسها مع حبيبها الميت جدثاً لها بين الأمواج »[٣٠] .

وكان المسيحيون المهذبون من رجال الحاشية البيزنطية هم الذين وضعوا آخر ما تحتويه السجلات اليونانية القديمة من قصائد غزلية جميلة ، كتبت بالأوزان

والروح القديمة وبعبارات تشير إلى الآلهة الوثنية . وها هي ذى أغنية منقولة عن أجاثياس Agasthias (حوالى ٥٥٠) لعلها قد أعانت بن چنسن Ben Jonson على كتابة إحدى روائع مسرحياته .

«لا أحب الخمر ، ولكن إن شئت أن تبدلى بالفرح أحزان رجل حزين، فارتشفى منها الرشفة الأولى ، ثم قدمى لى الكأس أتناولها من يدك . فإذا مستها شفتاك فلن أبقى بعدئذ صابراً جاسياً أتجنب الكأس الحلوة ، لأنها تحمل إلىّ قبلتك وتحدثنى عما نالته من الابتهاج بك» .

وأهم ما كتب من أدب ذلك العصر هو ما كتبه المؤرخون . فقد كتب أونابيوس السرديسى Eunapius of Sardis **تاريخاً عاماً** لذلك العصر من عام ٢٧٠ إلى ٤٠٠ جعل بطله چستنيان ، وترجم لثلاثة وعشرين من السوفسطائيين ورجال الأفلاطونية الحديثة ترجمة لا تخرج عما كان يدور على الألسنة من سيرهم . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يبق له أثر . وكتب سقراط ، وهو مسيحى من أهل القسطنطينية ومن أتباع الدين الرسمى فيها ، **تاريخ الكنيسة** من عام ٣٠٩ إلى ٤٣٩ وهو كتاب دقيق نزيه إلى حد كبير كما يدلنا على ذلك ما كتبه عن هيپاشيا . ولكن المؤلف يحشو قصته بالخرافات والأقاصيص والمعجزات ويتحدث كثيراً عن نفسه كأنه يصعب عليه أن يفرق بين نفسه وبين العالم الذى يكتب عنه . ويختم كتابه بحجة طريفة يدعو بها إلى قيام السلام بين الشيع المختلفة ، فيقول إنه إذا ساد السلام فلن يجد المؤرخون حسب ظنه شيئاً يكتبون عنه ، فتنقرض لهذا السبب تلك الطائفة من كتاب المآسى(٣٢) . ومن الكتب الأخرى التى أُلِّفت فى ذلك العصر كتاب **التاريخ الكنسى** Ecclesiastical History لسوزومن Sozomen ومعظمه منقول من سقراط . وكان سوزمن هذا رجلا فلسطينياً اعتنق الدين المسيحى ، وكان كمن نقل عنه محامياً فى العاصمة . ويبدو أن دراسة القانون لم تحل

بينه وبين الإيمان بالخرافات . وألف سوزموس Sozimus القسطنطيني حوالى عام ٤٧٥ كتابا فى *تاريخ الامبراطورية البيزنطية* . وكان سوزموس هذا رجلا وثنيا ، ولكنه لم يخضع لما خضع له منافسوه المسيحيون من الأوهام والسخافات. وأشار ديونيسيوس إجزجيوس Dionysius Exiguus — أو دِنس القصير — حوالى عام ٥٢٥ باتباع طريقة جديدة فى تأريخ الحوادث تبدأ من السنة التى قيل إن المسيح وُلد فيها . غير أن الكنيسة اللاتينية لم تقبل هذه الطريقة إلا فى القرن العاشر ، وظل البيزنطيون إلى آخر أيام دولتهم يؤرخون سنيهم من بدء خلق الدنيا . ألا ما أكثر الأشياء التى كانت معروفة فى بواكير حضارتنا والتى خفيت عنا نحن فى هذه الأيام !

وكان پروكپيوس هو المؤرخ العظيم الوحيد فى ذلك العهد . وقد ولد هذا الكاتب فى قيصرية من أعمال فلسطين (٤٩٠) ، ودرس القانون ، ثم انتقل إلى القسطنطينية وعين أميناً ومستشاراً لبليساريوس . وصحب ذلك القائد فى حروبه فى سوريا ، وأفريقية ، وإيطاليا ، ثم عاد معه إلى العاصمة . ونشر فى عام ٥٥٠ *كتب الحروب* . وإذا كان قد عرف من صلته بالقائد والإمبراطور عظمة أول الرجلين ، وبخل ثانيهما ، فقد خلع على بليساريوس ثوب البطولة البرّاق وترك چستنيان منزوياً فى الظلام . وقابل الجمهور كتابه أحسن قبول ، وسكت عنه الإمبراطور . وكتب پروكپيوس بعدئذ كتابه المعروف باسم *الأنكدوتا أو التاريخ السرى* ، ولكنه أفلح فى أن يبقيه دون أن ينشره أو يذيع ما فيه حتى طلب إليه چستنيان فى عام ٥٥٤ أن يكتب شيئا عن الأبنية التى أنشئت أثناء حكمه . فأصدر پروكپيوس فى عام ٥٦٠ كتابه المسمى « *الصروح* De Aedificirs » وأسرف فيـــه فى الثناء على الإمبراطور إسرافا يحملنا على الظن بأن الإمبراطور قد شك فى إخلاصه أو حسبه يسخر منه ، ولم ينشر *التاريخ السرى* إلا بعـــد وفاة

جستنيان — وربما بعد وفاة پروكپيوس نفسه أيضا . وهو كتاب شيق ممتع يحتوى على فضائح شبيهة بما تكتب عن جيراننا ، وإن كان التشنيع الأدبى على من لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمراً غير مستحب ، وإن كان كل مؤرخ يجهد نفسه فى إثبات بحث من البحوث لا يسعه إلا أن يمسخ الحقائق .

ولا تخلو كتب پروكپيوس من أخطاء فى الأمور البعيدة عن تجاربه فقد كان فى الأحيان ينقل ما كتبه هيرودوت عن أخلاق معاصريه وفلسفتهم . وفى البعض الآخر ينقل خطب توكيديدز وحصار المدن فى أيامه ؛ وكان يشارك أبناء عصره فى خرافاتهم ، وسود صحف كتبه بأخبار النذر ، والتنبؤات ، والمعجزات ، والأحلام . أما حين يكتب عما يشاهده فقد أثبتت الأيام صدقه : وكان شجاعا فيما أقدم عليه من عمل عظيم ، منطقيا فى ترتيب مادته ، يستحوذ على لب القارئ وانتباهه فى قصصه ، ولغته اليونانية واضحة خالية من الالتواء والتعقيد ، وهى فصيحة لا تكاد تقل فى فصاحتها عن لغة اليونان الأقدمين .

وبعد فهل كان پروكپيوس مسيحيا ؟ أما فى الظاهر فنعم ، غير أننا نراه يردد أصداء من ينسج على منوالهم ، كما نتبين فى كتاباته جبرية الرواقية ، وتشككات الأكاديمية . وهو يتحدث عن « طبيعة الحظ المعوجة المتمردة وإرادته التى لا ضابط لها . واعتقادى أن هذه أشياء لم يدركها عقل الإنسان فى الماضى ولن يدركها قط فى المستقبل . ومع هذا فالناس لا ينفكون يتحدثون كثيراً عن هذه الموضوعات ولا ينقطعون عن تبادل الآراء فيها ... لأن كل واحد منها يبحث عما يدارى به جهله ... وأرى أن من الحماقة والجنون أن نبحث فى طبيعة الله ... ولهذا سأكون خصيف الرأى فألزم الصمت فى مثل هذه الموضوعات ، وكل ما أبغيه من هذا ألا أزعزع إيمان الناس بما يجلونه من العقائد القديمة » (٣٣) .

الفصل الرابع

الفن البيزنطى

٣٢٦ — ٥٦٥

١ — الانتقال من الوثنية

كانت أعظم مآثر الحضارة البيزنطيـــة هى الإدارة الحكومية وفن الزخرفة : فقد أقاموا دولة دامت أحد عشر قرناً من الزمان ، وأنشئوا أياصوفيا القائمة فى هذه الأيام .

وكان الفن الوثنى قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبيل عهد جستنيان ، وكان نصف ما خلفه من الآثار قد شُوِّه أو هدم . فقد بدأ تخريب البرابرة ، وانتهاب الأباطرة ، وتدمير الأتقياء ورجال الدين ، بدأ عمل هؤلاء وهؤلاء عهداً من الإتلاف المتعمد والإهمال دام حتى قام پترارك فى القرن الرابع عشر يدافع عما بقى منه فى أيامه . وكان من العوامل التى زادت أعمال التخريب اعتقاد الجماهير أن الآلهة الوثنية شياطين ، وأن الهياكل مأواها . وأياً كانت عقيدة أهل ذلك الوقت فقد كانوا يشعرون أن مواد هذه الآثار الفنية يمكن أن ينتفع بها على خير وجه فى تشييد الكنائس المسيحية أو أسوار المنازل ، وكثيراً ما كان الوثنيون أنفسهم يشاركون المسيحيين فى أعمال التدمير . وقد بذل بعض الأباطرة ، وخاصة هونوريوس وثيودوسيوس الثانى ، كل ما فى وسعهم لحماية المنشئات القديمة[٣٤] ، وأبقى المستنيرون من رجال الدين على البارثنون ، وهيكل ثسيوس ، والبارثينون ، وغيرها من الصروح بأن أعادوا تدشينها بوصفها أضرحة مسيحية .

وكانت المسيحية فى بادئ الأمر ترتاب فى الفن وتراه عماداً للوثنية ، وعبادة

الأصنام ، وفساد الأخلاق ؛ وترى أن هذه التماثيل العارية لا تتفق مع ما يجب أن تحاط به البكورة والعزوبه من إجلال . ولما خيل إلى الناس أن الجسم أداة الشيطان ، وأصبح الراهب مثل الرجولة الأعلى بدل الرجل الرياضي ، اختفت من الفن دراسة التشريح ، ولم يبق فى فنى النحت والتصوير إلا وجوه كئيبة وثياب لا شكل لها . فلما انتصرت المسيحية على الوثنية واحتاجت إلى صروح ضخمة تأوي عبادها المتزايدين ، أخذت تقاليد الفن المحلية والقومية تثبت وجودها مرة أخرى ، وارتفع فن البناء فوق الأنقاض . يضاف إلى هذا أن تلك الصروح الرحبة كانت تلح فى طلب الزخرفة والزينة ، وكان العابدون فى حاجة إلى تماثيل للمسيح ومريم يقوى بها خيالهم ، وإلى صور تحدث السذج الأميين عن قصة إلههم المصلوب ؛ وهكذا ولدت فنون النحت والفسيفساء والتصوير من جديد .

ولم يكن الفن الجديد فى رومة يختلف إلا اختلافاً قليلا عن الفن القديم . فقد انتقلت من الوثنية إلى المسيحية متانة البناء ، وبساطة الشكل ، وطرز الباسلقا المعمدة . ومثال ذلك أن مهندسى قسطنطين خططوا كنيسة القديس بطرس الأولى بالقرب من ساحة الألعاب الحيوانية التى أنشأها نيرون على تل الفاتيكان ، وجعلوا طولها ٣٨٠ قدماً وعرضها ٢١٢ . وقد ظلت هذه الكنيسة مدى اثنى عشر قرناً أعظم كنائس المسيحية اللاتينية حتى هدمها برامنتى ليقيم فى مكانها كنيسة أكبر منها هى كنيسة القديس بطرس الحالية . وأعاد فلنتنيان الثانى وثيودوسيوس الأول بناء الكنيسة التى أقامها قسطنطين « للقديس بولس خارج الأسوار San Paolo fuori le mura » فى المكان الذى قيل إن الرسول استشهد فيه . وهذه الكنيسة أقل اتساعاً من كنيسة القديس بطرس ، فقد كان طولها أربعمائة قدم وعرضها مائتين(*) . ولا تزال كنيسة القديسة قنسطنزا Santa Constanza التى أقامها

(*) وقد دمرتها النيران فى عام ١٨٢٣ ولكنها أعيدت على الطراز القديم فى ١٨٥٤ — ١٨٧٠ . وفسيفساؤها المحكمة وأعمدتها الفخمة تجعلها من أعظم الصروح التى شاهدها بنو الإنسان .

أقامها قسطنطين لتكون ضريحا لأخته قنسطنطيا فى معظم أجزائها بالصورة التى كانت عليها وقت بنائها فى ٣٢٦ — ٣٣٠ ، وأعيد بناء كنائس سان چيوفنى San Oeovanni فى لترانا Latrana وسانتا ماريا فى ترستفيرى Trastevre « وسان لورنزو خارج الأسوار » فى خلال قرن بعد أن بدأها قسطنطين ، وأعيد بناؤها مراراً كثيرة من ذلك الحين . وأنشئت كنيسة سانتا ماريا مجيورى Santa Maria Maggiore فى عام ٤٣٢ على غرار أحد الهياكل الوثنية . ولا يزال صحنها فى جوهره كما كان منذ إنشائها إذا استثنينا ما حلى به من النقوش فى أيام النهضة .

ولا يزال طراز الباسلقا من ذلك الوقت حتى الآن الطراز المحبب فى الكنائس المسيحية ؛ ذلك بأن اعتدال نفقاته وجلال بساطته ، وتناسق بنائه ، وعظم متانته قد جعلته محببا إلى الناس فى جميع الأجيال . ولكنه لم يتقبل فى يسر ما يراد إدخاله عليه من التطور والتغيير ، ولهذا بدأ البناءون الأوربيون يتلفتون حولهم ليبحثوا عن آراء هندسية جديدة حتى وجدوها فى بلاد الشرق ، بل وجدوها أيضا فى اسپالاتو Spalato المركز الأدرياوى الأمامى لبلاد الشرق . ففى هذا المكان القائم على ساحل دلماشيا أطلق دقلديانوس كامل الحرية لفنانيه ، وعهد إليهم أن يجربوا كافة الوسائل التى تمكنهم من أن يقيموا له قصراً يلجأ إليه إذا أراد الاستجمام من عناء الحكم ؛ وفيه أحدث أولئك الفنانون انقلاباً كبيراً فى العمارة الأوروبية . ففيه كانت الأقواس ترفع مباشرة من تيجان الأعمدة ، وليس بينها وبين تلك التيجان عوارض ؛ وهكذا مهدت السبيل بخطوة واحدة إلى الطرز البزنطية ، والرومانية ، والقوطية . وفى هذا القصر أيضاً استبدلت بالأفاريز ذات الصور والتماثيل زخرفة عجيبة من الخطوط المتعرجة ، التى تنفر منها عيون الأقدمين والتى ألفها الشرق من زمن بعيد . وبذلك كانت اسپلاتو هى النذير الأول بأن

أوربا لن يغلبها على أمرها دين شرقى فحسب ، بل سيغلبها كذلك فن شرقى إن لم يكن فى جميع أنحائها ففى العالم البيزنطى على الأقل

٢ — الفنانون البيزنطيون

ترى من أين جاء إلى القسطنطينية ذلك الفن ذو اللون الفذ ، البراق المقبض الذى نسميه الفن البيزنطى؟ ذلك سؤال ثار فيه الجدل بين علماء الآثار بقوة لاتكاد تنقص عن قوة الجنود المسيحيين فى حروبهم ، وكان النصر النهائى فى هذه المعركة الكبرى لبلاد الشرق . وتفصيل ذلك أنه حين قويت سوريا وآسية الصغرى بفضل ما حدث فيهما من تقدم صناعى ، وحين ضعفت رومة بسبب الغزو الأجنبى ، ارتد التيار الهلنستى الذى اندفع نحو الشرق إثر فتوح الإسكندر من آسية إلى أوربا ، وتلاقت فى بيزنطية مؤثرات الفن الشرقى المنصبة من فارس الساسانية ، وسوريا النسطورية ، ومصر القبطية ، ووصلت هذه المؤثرات إلى إيطاليا ، بل تعدتها إلى غالة ، وتخلى الفن اليونانى الممثل للطبيعة عن مكانه إلى الفن الشرقى ذى الزخارف الرمزية . وكان الشرق يفضل الألوان عن الخطوط والأقواس والقباب عن السقف الخشبى ، والزينة الكثيرة عن البساطة الصارمة ، والأثواب الحريرية الفخمة عن الجبة التى لا شكل لها . وكما أن دقلديانوس وقسطنطين قد اتخذا فى نظم الحكم أشكال الملكية الفارسية ، فكذلك شرع فن القسطنطينية يغض النظر شيئاً فشيئاً عن الغرب الذى ألقى الآن بنفسه فى أحضان البربرية ، وأخذ يرنو ببصره إلى آسية الصغرى وأرمينية ، وفارس ، وسوريا ، ومصر ولعل انتصار جيوش الفرس فى عهد شابور الثانى وكسرى أنوشروان قد عجل خطوات البواعث والأساليب الشرقية . وكانت الرها ونصيبين فى ذلك الوقت مركزين مزدهرين من مراكز ثقافة ما بين النهرين ، وهى الثقافة التى

مزجت العناصر الإيرانية ، والأرمينية ، والكبدوكية والسورية[٣٥] ، ونقلها التجار ، والرهبان ، والفنانون إلى أنطاكية ، والإسكندرية ، وإفسوس ، والقسطنطينية ، ثم نقلوها أخيراً إلى راڤنا وروما ؛ فكادت النظم اليونانية والرومانية القديمة تفقد قيمتها في هذا العالم المعمارى الجديد ، عالم العقود والأقواس ، والقباب .

ولما اتخذ الفن البيزنطى هذه الصورة الجديدة عمل على نشر العقائد المسيحية وإظهار مجد الدولة . فأخذ يقص على الثياب والقماش المزركش ، وفى نقوش الفسيفساء ورسوم الجدران ، حياة المسيح وأحزان مريم ، وأعمال الرسل أو الشهداء الذين تضم الكنائس عظامهم ؛ أو دخل بلاط الأباطرة ، وزين قصر الإمبراطور ، وغطى ملابس الموظفين بصورة رمزية أو رسوم تاريخية ، وخطف أبصار رعاياه بالمناظر الزاهية الكثيرة الألوان ، وانتهى أمره بأن صور المسيح ومريم فى صورتى إمبراطور وملكة . ذلك أن الفن البيزنطى لم يكن له كثير من المؤيدين يختار من بينهم من يناصره ، ولهذا لم يكن له مجال واسع يختار منه موضوعه وطرازه ، فكان الإمبراطور أو البطرق هو الذى يحدد له ما يعمل ويبين له طريق العمل ، وكان الفنانون يعملون جماعات ، ولهذا قلما يذكر التاريخ أسماء فنانين أفراداً ؛ ولكنهم أتوا بالمعجزات فى بهاء الألوان ؛ وكان الفنان يرفع من شأن الناس أو يحط من قدرهم بمستحدثاته الرائعة ؛ ولكن هذه المنزلة اقتضته استمساكاً بالأشكال والأنماط المتبعة ، وضيقاً فى المجال ، وجموداً فى خدمة ملك مطلق التصرف ودين لا يقبل التغيير .

وكان تحت تصرفه موّاد كثيرة يستخدمها فى عمله ؛ كانت لديه محاجر الرخام فى پروكنسوس Proconnesus ، وأتكا ، وإيطاليا ؛ وكانت لديه عمد وتيجان ينتهبها من كل هيكل وثنى قائم ، وكان لديه الآجر يكاد ينمو كالنبات فى الأرض التى تجففها الشمس . وكان أكثر ما يعمل فيه الآجر المثبت بالملاط ؛ ذلك أنه

كان يسهل استخدامه فى الأشكال المنحنية التى فرضتها عليه الأنماط الشرقية . وكثيراً ما كان يقنع بالشكل الصليبي — شكل الباسلقا ذات الجناحين التى تستطيل حتى تنتهى بقباء . وكان فى بعض الأحيان يقطع الباسلقا فيجعلها مثمنة الجوانب كما فعل فى كنيستي القديسين سرجيوس وباخـوس فى القسطنطينية ، أو فى كنيسة القديس ڤيتالى فى راڤنا . ولكن الطراز الذى برع فيه وبز فيه جميع الفنانين الذين سبقوه أو جاءوا بعده هو القبة المستديرة المقامة على هيكل كثير الأضلاع . وكانت الطريقة التى اتبعها للوصول إلى هذه الغاية هى إنشاء قوس أو نصف دائرة من الآجر فوق كل ضلع من أضلاع السطح المتعدد الزوايا والأضلاع ، ثم إقامة مثلث دائرى من الآجر متجه إلى أعلى وإلى الداخل بين كل نصف دائرة ، ثم بناء قبة فوق الحلقة المستديرة الناشئة من هذا كله . وكانت المثلثات الدائرية تبدو متدلية من حافة القبة إلى قمة المضلع ، وبهذا ربعت الدائرة من الوجهة المعمارية ، وبعد هذا كاد طراز الباسلقا أن يختفى من الشرق :

وقد أفاء البنّاء البيزنطى على هذا البناء من الداخل ما أسعفته به عشرات الفنون المختلفة . وقلما كان يستخدم التماثيل لهذا الغرض ، ذلك أنه لم يكن يريد أن يصور رجالا ونساء ، بل كان يعمل لخلق جمال مجرد من الصور الرمزية . ولكن المثالين البيزنطيين كانوا رغم هذا القيد عمالا يمتازون بالكفاية والصبر وسعة الحيلة . وقد نحتوا التاج « الثيودوسى » للعمد بأن جمعوا بين « آذان » النمط الأونى ، وأوراق النمط الكورنثى ؛ وكأنهم أرادوا أن يجعلوا هذه الوفرة من الطرز أشمل وأعم ، فحفروا على هذا التاج المركب أجمة من النبات والحيوان . وإذ كانت نتيجة هذا لا تتناسب مع الجدران أو الأقواس فقد وضعوا بينها وبين التاج عصابة مربعة وعريضة من أعلاها ، ومستطيلة وضيقة نوعاً ما عند قاعدتها ، ثم حفروا على توالى الأيام أزهاراً على هذه العصابات نفسها . وهنا أيضاً كانت الغلبة للفُرس على اليونان ، كما كانت للأولين الغلبة فى مربع القبة . ثم طلب إلى

المصورين أن يزينوا الجدران بصور تثبت عقيدة الناس أو ترهبهم ؛ ووضع عمال الفسيفساء مكعباتهم المتخذة من الحجر أو الزجاج الملون البراق فوق أرضية زرقاء أو ذهبية ، وزينت الأرض والجدران ، أومذابح الكنائس ، أوما بين العقود ، أوأى جزء من البناء لاتطيق عين الشرقى أن تراه خالياً من الزخرف . وكان الصناع يزينون الملابس ، والمذابح ، والعمد ، والجدران بالجواهر والأحجار الكريمة ؛ وصناع المعادن يضعون فيها صفائح الذهب والفضة ؛ وصناع الخشب ينقشون المنابر وأسوار المحاريب ، والنساجون يعلقون الأنسجة المزخرفة على الجدران ويفرشون الأرض بالطنافس ، ويغطون المذابح والمنابر بالأقمشة المطرزة وبالحرير . ولم يذكر التاريخ قبل ذلك العهد فناً أوتى ما أوتيه الفن البيزنطى من وفرة الألوان ، ودقة الرموز ، وغزارة الزينة ؛ وقدرة على تهدئة الذهن وتنبيه الروح .

٣ – أياصوفيا

ولم تكن العناصر اليونانية والرومانية ، والشرقية ، والمسيحية قد أتمت امتزاجها ليكون منها الفن البيزنطى قبل عهد جستنيان . فلقد أتاحت له فتنة نيقا Nika ، كما أتاح حريق رومة لنيرون من قبل ، فرصة بناء عاصمته من جديد ؛ ذلك أن الغوغاء فى لحظة من لحظات نشوة الحرية أحرقوا دار مجلس الشيوخ ، وحمامات زيوكسپوس Zeuxippus وأروقة الأوغسطيوم ، وجناحا من أجنحة القصر الإمبراطورى ، وأياصوفيا كنيسة البطريق الكبرى ، وكان فى وسع جستنيان أن يعيد بناء هذه كلها حسب تخطيطها القديم فلايتطلب هذا منه أكثر من عام أوعامين . لكنه لم يفعل هذا وصمم على أن ينفق فى بنائها مزيداً من الوقت والمال ، وأن يستخدم فى هذا البناء عدداً كبيراً من الرجال ، وأن يجعل عاصمة ملكه أجمل من رومة ، وأن يقيم فيها كنيسة لا يدانيها صرح آخر

فى العالم كله . وكانت بداية عمله أن وضع فى ذلك الوقت منهجاً للأبنية أوسع وأعظم من أى منهج آخر وضع لها فى التاريخ : وكان هذا المنهج يشمل حصوناً ، وقصوراً وأديرة ، وكنائس ، وأروقة معمدة ، وأبواباً أقيمت فى جميع أنحاء الإمبراطورية . ففى القسطنطينية أعاد بناء مجلس الشيوخ من الرخام الأبيض ، وشاد حمامات زيوكسپوس من الرخام المتعدد الألوان ، وبنى رواقاً معمداً من الرخام ، ومتنزهاً فى الأوغسطيوم ، ونقل الماء العذب إلى المدينة فى قناة مبنية جديدة تضارع أحسن ما وجد من القنوات فى إيطاليا . أما قصره فلم يكن يعلو عليه قصر آخر فى البهاء والترف . فقد كانت أرضه وجدرانه من الرخام ، وسُقُفه تقص بالفسيفساء البراقة ما ناله من النصر فى أيام حكمه ، وتصور الشيوخ فى حفلاتهم يقدمون للإمبراطور مظاهر الإجلال والتعظيم التى « لا تكاد تقل عما يقدم منها لله »[٣٦] ؛ وبنى على الجانب الآخر من البسفور ، بالقرب من خلقيدون مسكناً صيفياً لتيودورا وحاشيتها هو قصر هريون الذى كان له مرفؤه ، وسوقه ، وكنيسته وحماماته الخاصة به .

وبعد أربعين يوماً من خمود نار فتنة نيقا بدأ يبنى كنيسة أياصوفيا الجديدة . ولم يقمها إلى قديسة تحمل ذلك الاسم ، بل أقامها إلى المقدسة صوفيا Hagia Sophia أو الحكمة القدسية ، أو العقل الخلاق ، أو إلى الله نفسه : واستدعى لهذا الغرض من تراليس فى آسية الصغرى ، ومن ميليتس الأيونية ، أنثميوس وأزدور أعظم المهندسين الأحياء ، ليضعا رسوم البناء ويشرفا على تشييده . ولم يتبع المهندسان شكل الباسلقا الذى جرت عليه التقاليد ، بل وضعا للبناء تصميما تكون صرتا قبة واسعة لا ترتكز على جدران بل على أكتاف ضخمة ، وتسندها نصفا قبتين من كلا الجانبين . واستخدم فى العمل عشرة آلاف عامل ، وأنفق عليه ٣٢٠٫٠٠٠ رطل من الذهب (١٣٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) وهو كل ما كان فى خزانة الدولة ، وأمر حكام الولايات بأن يبعثوا إلى الكنيسة الجديدة بأجمل ما بقى من

الحلمات القديمة ، وجىء بعشرات الأنواع والألوان من الرخام من مختلف الأقطار وصبت فى النقوش والزينات مقادير هائلة من الذهب ، والفضة ، والعاج ، والحجارة الكريمة . واشترك جستنيان نفسه اشتراكاً عملياً فى تخطيط البناء وإقامته ، وكان له نصيب غير قليل (كما يقول المؤرخ المداهن الساخر) فى حل ما يعترض العمل من المشاكل الفنية . فكان يتردد عليه فى كل يوم وعليه ثياب بيض ، وفى يده عصا طويلة ، وعلى رأسه منديل ، يشجع العمال ويحثهم على أن يتقنوا العمل ويتموه فى موعده المقرر . وتم بناء الصرح العظيم فى خمس سنين وعشرة أشهر ؛ وفى اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر من عام ٥٣٧ أقبل الإمبراطور والبطريق ميناس يتقدمان موكباً مهيباً لافتتاح الكنيسة المتلألئة الفخمة . وسار جستنيان بمفرده إلى المنبر ورفع يديه إلى السماء ونادى قائلا : « الحمد لله الذى رآنى خليقاً بأن أتم هذا العمل الجليل ! أى سليمان ! لقد انتصرت عليك ! » .

وقد خطّ البناء على شكل صليب يونانى طوله ٢٥٠ قدماً وعرضه ٢٢٥ ، وغطى كل طرف من أطرافه بقبّة صغرى ، وقامت القبة الوسطى على المربع (البالغ ١٠٠ قدم × ١٠٠) والمكون من الضلعين المتقاطعين ، وكانت ذروة القبة تعلو عن الأرض مائة قدم وثمانين قدما وقطرها مائة قدم — أى أقل من قطر قبة البنثيون فى رومة باثنتين وثلاثين قدماً . وكانت هذه القبة الثانية قد صبت من الأسمنت المسلح قطعة واحدة مصمتة ، أما قبة أياصوفيا فقد بنيت من الآجر فى ثلاثين سطحاً تلتقى كلها فى نقطة واحدة — وهو طراز أضعف من الطراز الأول(*) . وليست ميزة هذه القبة فى حجمها بل فى دعائمها : فهى لا تقوم على بناء دائرى كما تقوم قبة البنثيون بل على أربطة من أعلاها ، وعلى عقود

(*) حدث فى عام ٥٥٨ زلزال صدع القبة الوسطى فانهارت فى صحن الكنيسة ، وأعاد بناءها إزدور بن إزدور المتوفى ، وقوى دعائمها ، ورفعها خمساً وعشرين قدماً فوق ما كانت عليه . وفى هذه القبة شروخ تنذر بأنها تحيا الآن حياة مزعزعة .

بين حافتها المستديرة وقاعدتها المربعة . ولم تحلّ هذه المشكلة المعمارية قبل ذلك الوقت حلا أكثر توفيقاً من هذا . وقد وصف بروكپيوس القبة بأنها « عمل مجيد يبعث الروعة فى النفوس . . . وهى لا تبدو قائمة على ما تحتها من البناء بل تبدو كأنها معلقة بسلسة من الذهب فى أبراج السماء »(٣٧) .

وأما من الداخل فكانت الكنيسة صورة رائعة من الزخرف البرّاق . فقد كانت أرضها وجدرانها من المرمر المتعدد الألوان : أبيض ، وأخضر ، وأحمر ، وأصفر ، وأرجوانى ، وذهبى . وأقيم منه كذلك طابقان من العمد يخيل إلى الناظر إليها أنها حديقة من الأزهار . وكانت تيجان العمد ، والعقود وما بينهما ، والأفاريز ، والطنف مغطاة بنقوش على الحجارة مكونة من أوراق الأكنثوس والكرم . وكان يطلّ من الجدران والقباب فسيفساء لا مثيل لها فى روعتها وسعتها . وكانت تضيؤها أربعون مائلة من الفضة معلقة من حافة القبة تضاف إلى ما فيها من النوافذ الكثيرة . وإن ما يحس به الناظر إلى هذه الكنيسة من سعة تبعثها فى نفسه أجنحتها الطويلة ، وبناؤها الرئيسى ، والفضاء الخالى من العمد تحت القبة الوسطى ؛ وما فى حظارها الفضى المواجه للقباء من زخارف معدنية ، والحظار المعدنى الجميل الذى فى الإيوان الأعلى ، والمنبر المرصع بالعاج والفضة والحجارة الكريمة ؛ وعرش البطريق المصنوع من الفضه المصمتة ، والسجف المنسوجة من خيوط الحرير والفضة ، والتى ترتفع فوق المذبح وعليها صورتا الإمبراطور والإمبراطورة تتلقيان بركات المسيح ومريم ؛ والمذبح الذهبى اللون المصنوع من الرخام النادر الوجود وعليه الأوانى المقدسة من الفضة والذهب — وهو بعض ما فى الكنيسة من زخرف وزينة — ليجل عن الوصف . ولو أن چستنيان قد تباهى بما تباهى به أباطرة المغول من بعده ، وهو أنهم كانوا يبنون كما يبنى الجبابرة ، ويزينون مبانيهم كما يزينها الصياغ ، لكان على حق فى مباهاته .

وكانت أياصوفيا بداية الطراز المعمارى البيزنطى وخاتمته فى آن واحد .

وكان الناس فى كل مكان يسمونها « الكنيسة الكبرى » وحتى بروكبيوس المتشكك نفسه تحدّث عنها حديث الرجل المرتاع فقال : « إذا دخل الإنسان هذه الكنيسة للصلاة ، أحس بأنها ليست من أعمال القوى البشرية . . . ذلك أن الروح حين ترقى إلى السماء تدرك أن الله هنا قريب منها ، وأنه يبتهج بهذا البيت ، بيته المختار »(*) .

٤ — من القسطنطينية إلى رافنا

كانت أياصوفيا أجلّ ما قام به جستنيان من الأعمال ، وكانت أبقى على الدهر من فتوحه أو قوانينه ، ولكن بروكبيوس يصف أربعاً وعشرين كنيسة أخرى بناها جستنيان أو أعاد بناءها فى عاصمة ملكه . ويقول : « لو رأيت كنيسة منها بمفردها لحسبت أن الإمبراطور لم يبنْ كنيسة سواها بل قضى سنى حكمه جميعها فى بنائها وحدها »[٣] . وظلت حمى البناء منتشرة فى جميع أنحاء الإمبراطورية طوال حياة جستنيان ، حتّى كان القرن السادس وهو بداية العصور المظلمة فى الغرب من أكثر العصور ازدهاراً فى تاريخ العمارة فى الشرق . فكانت ألف كنيسة فى إفسوس ، وأنطاكية ، وغزة ، وبيت المقدس ، والإسكندرية ، وسلانيك ، ورافنا ، ورومة ، والبلاد الممتدة من كرش فى بلاد القرم إلى صفاقس فى شمالى أفريقية ، تحتفل بانتصار المسيحية على الوثنية ، وبالطراز الشرقى — البيزنطى على الطراز اليونانى — الرومانى . وحلّت العقود والقباب محل الأعمدة الخارجية ، والعوارض ، والقواصر ، والطنف . وازدهرت فى سوريا

(*) لما استولى الأتراك على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ غطوا فسيفساء أياصوفيا بالجص ، لكراهيتهم ما عليها من صور منحوتة ، يعدونها من عبادة الأصنام . ولكن الحكومة التركية قد أذنت منذ قليل إلى طائفة من العمال من المعهد البيزنطى ببسطن بولاية مسشوستس أن يكشفوا عن هذه النماذج الفنية من أعمال الفسيفساء التى لا تسمو عليها نماذج أخرى فى العالم كله . وكاد الفاتحون الأتراك يكفرون عما فعلوه بهذه الكنيسة بإقامة أربع مآذن رشيقة تتناسب أتم التناسب مع أشكال القباب .

نهضة حقة فى القرن الرابع ، والخامس ، والسادس ؛ فكانت مدارسها القائمة فى أنطاكية ، وبيروت ، والرها ، ونصيبين ، تخرج العدد الجم من الخطباء ، والمحامين ، والمؤرخين ، والخارجين على الدين . وبرع صنّاعها فى أعمال الفسيفساء ، والنسيج ، وجميع الفنون الزخرفية ، وشاد مهندسوها مائة كنيسة زينّها مثّالوها بما لا حصر له من النقوش البارزة .

وكانت الإسكندرية المدينة الوحيدة فى الإمبراطورية التى كان ازدهارها متصلا لم ينقطع أبداً . ذلك أن مؤسسها قد اختارلها مكاناً يكاد يرغم عالم البحر المتوسط على استعمال مرافئها وزيادة تجارتها . . ولم تبق الأيام على شىء مما أقيم فيها من عمائر فى تاريخها القديم أو فى أوائل العصور الوسطى ، ولكن ما بقى من أعمالها فى المعادن ، والعاج ، والخشب ، والتصوير ، متفرقاً فى أماكن مختلفة يوحى بأن أهلها قد بزوا غيرهم فى الشهوانية ، والحمية الدينية . وكان الطراز الشرقى فى عهد جستنيان هو الطراز الغالب فى فن العمارة القبطى الذى بدأ بالباسلقا الرومانية .

وبدأ مجد رافنا المعمارى بعد أن اتخذها هونوريوس عاصمة الإمبراطورية الغربية فى عام ٤٠٤ بزمن قليل . وعم الرخاء المدينة فى الفترة الطويلة التى كانت فيها جلا پلاسيديا Galla Placidia نائبة عن الإمبراطور ، وكانت صلتها الوثيقة بالقسطنطينية سبباً فى قدوم الصنّاع الشرقيين ، واختلاطهم بالمهندسين الإيطاليين ، وفى دخول الأنماط الشرقية وامتزاجها بالأشكال الإيطالية . وظهر فيها الطراز الهندسى الشرقى المؤلف من قبة مقامة على قاعدة ذات شكل صليبى منذ عام ٤٥٠ فى الضريح الذى لقيت فيه پلاسيديا ربها ؛ ولا يزال فى وسعنا أن نرى فيه النقش الفسيفسائى الذائع الصيت الذى يمثل المسيح فى صورة الراعى الصالح . وفى عام ٤٥٨ أضاف الأسقف نيون Neon إلى مكان التعميد المقبب فى باسلقا أرسيانا Basilica Ursiana سلسلة من قطع الفسيفساء من بينها صورة مفردة.

للرسل . وشاد ثيودريك حوالى عام ٥٠٠ كنيسة كبرى سماها باسم القديس ابلينارس الذى يقال إنه مؤسس العشيرة المسيحية فى راڤنا . وهنا يظهر على الفسيفساء التى طبقت شهرته آفاق العالم القديسيون ذوو الثياب البيض فى وقارهم الشديد الذى ينبئ ببداية الطراز البيزنطى .

وكان استيلاء بليساريوس على راڤنا من الأسباب التى عجلت بانتصار الفن البيزنطى فى إيطاليا . وسرعان ما تمت كنيسة سان ڤيتالى San Vitale (٥٤٧) فى عهد چستنيان وثيودورا ، اللذين وهباها المال اللازم لتزيينها ، كما وهباها أيضاً وجهيهما غير الجذابين لينقشا على جدرانها . وما من شك فى أن الإمبراطور والإمبراطورة قد أوتيا حظا كبيراً من الشجاعة إذ أجازا أن تنقل صورتاهما إلى الخلف . ومواقف أولئك الحكام ، والقساوسة ، والخصيان تنبئ كلها عن صلابة وحدة فى الطباع ، وإن مظهرهما الأمامى الجامد ليعد انقلاباً فى الصور التى كنا نشهدها قبل عصور اليونان والرومان الأقدمين . وأثواب النساء كثيرة الزركشة تعلن انتصار نقوش الفسيفساء ؛ ولكننا لا نجد هنا رشاقة مواكب البارثنون المرحة السعيدة ، أو نصب السلام لأغسطس أو ما نشاهده فى الصور المنقوشة على أبواب شارترز وريمز من نبل ورقة .

وبعد عامين من افتتاح كنيسة سان ڤيتال افتتح أسقف راڤنا كنيسة سانت أپليناري فى كلاس Classe وهى ثانى كنيسة أقيمت لهذا القديس راعى المدينة ؛ وكان موضعها فى ضاحيتها التى على شاطئ البحر ، والتى كانت فى وقت ما قاعدة الأسطول الرومانى على البحر الأدرياوى . ونشاهد فيها التصميم الباسلقى الرومانى القديم ، ولكن تيجان الأعمدة المختلطة الأشكال تظهر عليها مسحة بيزنطية تنم عنها أوراق الأقنتا(*) الملفوفة الملتوية على خلاف ما كان يظهر فى الأنماط اليونانية والرومانية القديمة ، كأنما هبت عليها ريح شرقية . وإن ما فى هذه الكنيسة من

(*) Acanthus ويسمى أيضا الكنكر ، وشوك الجمل ، وشوك اليهود .

صفوف الأعمدة الكاملة الطويلة ، وفى حليات العقود والمثلثات المحصورة بينها من فسيفساء زاهية (من القرن السابع) ، وما فى وضع المرنمين من لوحات جميلة من المصيص ، وما فى الصليب القائم فى القبا من الجواهر مرصعة بها أرضية من النجوم فى الفسيفاء ، إن فى هذا كله ما يجعل هذه الكنيسة من أشهر كنائس شبه الجزيرة التى تكاد تكون كلها معرضا عظيما للفنون الجميلة .

٥ — الفنون البيزنطية

لقد كان فن العمارة أروع ما خلفه الفنان البيزنطى ، ولكنه كان فى ثناياه أو من حوله فنون أخرى كثيرة نبغ فيها نبوغا خليقا بالتنويه . نعم إنه لم يكن يعنى بالنحت المجسم ، وأن مزاج العصر كان يفضل الألوان على الخطوط ، ولكن بروكبيوس يثنى على المثالين فى ذلك العصر ، وأكبر الظن أنه يعنى بهم أصحاب النقش البارز ، ويقول إنهم لا يقلون مهارة عن فدياس وبركستليز ؛ وإنا لنجد على بعض التوابيت الحجرية المصنوعة فى القرن الرابع والخامس والسادس صوراً آدمية منحوتة برشاقة تكاد تضارع الرشاقة الهلينية ، مختلطة بها كثير من نقوش الزينة الآسيوية . وكان النقش على العاج من الفنون المحببة إلى البيزنطيين ، وكانوا يصنعون منه ألواحا ذات طيتين أو ثلاث طيات ، ويجلدون به الكتب ، ويصنعون منه العلب ، وصناديق العطور ، والتماثيل الصغيرة ، ويطعمون به التحف ويزينون به ما لا يحصى من الأشياء . وقد بقيت الفنون الهلنستية فى هذه الصناعة لم يمسسها سوء ، وكل ما حدث فيها أنها استبدلت المسيح والقديسين بالآلهة والأبطال . وإن الكرسى العاجى الذى كان يجلس عليه الأسقف مكسميان فى الباسلقا أرسيا Basilica Ursiana (حوالى ٥٥٠) ليعد تحفة عظيمة فى فن من الفنون الصغرى .

وبينا كان الشرق الأقصى يجرى التجارب على الرسم بألوان الزيت[٤٠] ،

كان التصوير البيزنطى لا يزال مستمسكا بالأساليب اليونانية التقليدية كتثبيت ألوان الرسوم بالحرارة — بحرق الألوان فى سطوح الخشب ، والخيش ، ونسيج التل ؛ وكالمظلمات يصنعونها بخلط الألوان بالجير ووضعها على سطوح من الجبس المبلل ، ومزج اللون بمحلول الماء والصمغ أو الغراء وبزلال البيض ثم وضعها على المربعات الخشبية أو على الجبس بعد أن يجف. وقد عرف الرسام البيزنطى كيف يمثل البعد والعمق ، ولكنه كان يهرب عادة من صعاب النظور بأن يملأ خلفية الصورة بالمبانى والسجف . وقد أخرج عدداً كبيراً من اللوحات المصورة ، ولكنها لم يبق منها إلا القليل . وكانت جدران الكنائس تزدان بالرسوم . وتدل القطع الباقية منها على الواقعية غير المتقنة كالأيدى العديمة الشكل ، والأجسام الصغيرة ، والوجوه الشاحبة ، والشعر المصفف تصفيفا غير معقول .

وقد برع الفنان البيزنطى فى الأشياء الدقيقة وأظهر فيها مرحه وظرفه . وليست روائع التصوير الباقية إلى هذا اليوم من أعماله هى رسوم الجدران أو اللوحات الكثيرة ، بل هى الرسوم الصغرى ذات الألوان البراقة التى كان يزين بها ما ينشر من الكتب فى عصره . ذلك أن الكتب كانت كثيرة النفقات فى ذلك العصر ، ولهذا كانت تحلى كما يحلى غيرها من الأشياء النفيسة . وكان الفنان يبدأ عمله هذا برسم ما يريده من الحليات على البردى أو الرق أو الجلد بفرشاة دقيقة أو قلم ، ثم يضع أرضية تكون عادة ذات لون ذهبى أو أزرق ، ثم يضع ما يريده من الألوان ، ثم يزين الأرضية والحواشى بأشكال رشيقة دقيقة . وكان فى بادئ الأمر يقتصر على تحسين الحرف الأول من كل فصل أو صفحة ؛ وكان يحاول فى بعض الأحيان أن يرسم صورة للمؤلف ، ثم انتقل بعدئذ إلى توضيح النصوص بالصور ؛ فلما تقدم فنه آخر الأمر كاد ينسى النص ويملأ الكتاب بالزخارف ويبنيها على أساس هندسى أو رمز دينى يكرره بأشكال مختلفة يخططها

الحصر ، حتى تصبح الصفحة كلها وكأنها صورة واحدة بديعة من الألوان والخطوط كأن النص دخيل عليها من عالم أكثر منها خشونة .

وكانت زخرفة المخطوطات مألوفة فى مصر أيام الفراعنة والبطالمة ، ثم انتقلت منها إلى بلاد اليونان الهلنستية وروما . وتحتفظ الفاتيكان بإنياذة ، والمكتبة الأمبروزية ميلان بإلياذة ، تعزى كلتاهما إلى القرن الرابع ؛ وهما مزدانتان زينة يونانية ورومانية قديمة ، ويبدو الانتقال من الزخرفة الوثنية إلى المسيحية واضحا فى **الطبوغرافية المسيحية** لصاحبها كزماس انديكپلوستيز Cosmas Indicoplenstes (حوالى ٥٤٧) . وقد نال لقبه هذا « إنديكلپوستير » لأنه سافر إلى الهند بحراً ، كما نال شهرته لأنه حاول أن يثبت أن الأرض مستوية . وأقدم كتاب دينى مزخرف باق إلى هذا اليوم هو سفر التكوين المكتوب من القرن الخامس والمحفوظ الآن فى مكتبة ڤينا . والنص مكتوب بحروف من الفضة والذهب على أربع وعشرين « ورقة » من الجلد الأرجوانى الرقيق . ويحتوى على أربعة وعشرين زخرفا بيضاء وخضراء ، وبنفسجية ، وحمراء ، وسوداء ، تصور قصة الإنسان من سقوط آدم حتى موت يعقوب . ولا يقل عنه جمالا **الملف الصغير لكتاب يوشع** المحفوظ فى الفاتيكان **وكتاب الأناجيل** الذى زخرفه الراهب رابولا Rabula فى أرض الجزيرة فى عام ٥٨٦ . ومن أرض الجزيرة وسوريا جاءت الصور والرموز التى كانت لها الغلبة فى الكتابة التصويرية التى ذاعت فى العالم البيزنطى . وقد تكررت هذه الكتابة فى الفنون الصغرى واتخذت لها ألف شكل وشكل حتى ثبتت وأصبحت تقليداً وعرفاً متبعاً ، وكان لها نصيب موفور فى جمود الفن البيزنطى .

وإذا كان المصور البيزنطى مولعاً بالتصوير البراق الدائم فقد اتخذ الفسيفساء وسيلته إلى هذين الفرضين . ومن أجل هذا اختار لأرض حجراته مربعات، من

الرخام الملون كما كان يفعل المصريون واليونان والرمان من قبل . أما السطوح الأخرى فكان يستخدم فيها مكعبات من الزجاج أو الميناء من جميع الألوان ومختلف الحجوم ، ولكن سطحها فى العادة كان يبلغ ⅛ بوصة مربعة . وكانت الحجارة الثمينة تختلط أحيانا بالمكعبات ، وكثيراً ما كانت الفسيفساء تستخدم فى صنع الصور الصغيرة والنصمات(*) التى توضع فى الكنائس أو البيوت . أو تحمل فى الأسفار عوناً لأصحابها على الزمن ودليلا على التقى والخشوع . غير أن صانع الفسيفساء كان يفضل على هذه الصور الصغرى مجالا أوسع هو جدران الكنائس والقصور . فكان فى مرسمه يجرب وضع المكعبات على قطعة من الخيش عليها رسم ملون . وهنا كان يجهد عبقريته الفنية ليضع تحت يده الألوان المدرجة الذائبة بعضها فى بعض كما يجب أن يراها الناظر من بعيد . وفى هذه الأثناء كانت طبقة من الأسمنت الغليظ ، ثم طبقة أخرى من الأسمنت الرقيق توضعان على السطح المراد تغطيته . ثم يأتى صانع الفسيفساء ويضغط مكعباته فى هذا القالب على غرار النموذج الذى وضعه لنفسه فوق خيشه ، وقد جرت عادته على أن يضع حافاتها المقطوعة إلى الأمام لكى يقع عليها الضوء . وكان يفضل السطوح المنحنية كسطوح القباب ، وأنصاف القباب الشبيهة بالأصداف لأنها تمتص فى أوقات مختلفة وبزواياها المختلفة أنواعا عدة من الأضواء المظللة . ومن هذا الفن الشاق الذى يتطلب المهارة والجلد ألهم الفن القوطى فى مستقبل الأيام غير قليل من فن تلوين الزجاج .

وقد ورد ذكر هذا الزجاج الملوّن فى النصوص الباقية من القرن الخامس ، ولكن شيئاً منه لم يبق حتى الآن ، ويبدو أن صبغته كانت من خارجه لم تمزج فيه مزجاً (٤١) . وكان صنع الزجاج بالنفخ وتقطيعه قدمضى عليهما الآن ألف عام ،

(*) النصمة الصورة تعبد وقد ترجمنا بها كلمة icon . (المترجم)

وكانت سوريا ، أقدم مواطن الصناعتين ، لا تزال مركزاً من مراكزهما . وكان فن الحفر على المعادن الثمينة والحجارة الكريمة قد انحط بعد أيام أورليوس ؛ ولهذا نرى الجواهر ، والنقود ، والأختام البيزنطية غير دقيقة الشكل والصناعة . لكن الصناع مع هذا كانوا يبيعون منتجاتهم لكل طبقة من الطبقات تقريباً ، لأن البيزنطيين كانوا مولعين أشد الولع بالحلى . وكانت محال صنع التحف الذهبية والفضية كثيرة العدد فى العاصمة ؛ كما كانت الحقاق ، والأقداح ، وعلب المخلفات المصنوعة كلها من الذهب تزدان بها كثير من مذابح الكنائس ؛ وكانت الصحاف الفضية تغطى موائد ذوى اليسار .

وكان فى كل بيت ، بل يكاد يكون لدى كل شخص ، شىء من النسيج الرقيق . وكانت لمصر الزعامة فى هذا الميدان بما كان فيها من منسوجات رقيقة ، متعددة الألوان ، مزدانة بالصور ، تصنع منها الثياب ، والستر ، وأغطية الفراش ، وكان قبط مصر سادة هذه الميادين . وتكاد بعض الأقمشة المصرية التى كانت تزدان بها الجدران فى تلك الأيام تضارع من الناحية الفنية أقمشة الجوبلين Goblins[٤٢] . وكان النساجون البيزنطيون ينسجون الحرير المطرز ، والثياب المطرزة ، بل والأكفان المطرزة أيضاً — فقد كانت المنسوجات التيلية تصور عليها بالفعل ملامح الموتى . وكان الناس فى القسطنطينية يعرفون بما يلبسونه من الثياب ، ذلك أن كل طبقة من أهلها كانت تعتز بنوع خاص من الثياب يميزها من غيرها وتدافع عنه أقوى دفاع ؛ وما من شك فى أن أية جماعة بيزنطية كانت تبدو للناظر براقة كذيل الطاووس .

وكانت الموسيقى محببة لجميع الطبقات منتشرة بينها ، وكان لها شأن متزايد فى طقوس الكنيسة ، وقد أعانت على مزج العاطفة بالعقيدة . وقد كتب ألپيوس Alypius فى القرن الرابع *مقدمة موسيقية* بقيت منها حتى الآن أجزاء هى أهم ما نسترشد به فى قراءة العلامات الموسيقية اليونانية . وقد استبدلت فى ذلك القرن

بالحروف الهجائية التى كانت تمثل بها الأنغام علامات رمزية ؛ ويبدو أن أمبروز هو الذى جاء بهذه العلامات إلى ميلان ، وأن هيلارى Hilary هو الذى أدخلها فى غالة ، وچيروم فى رومة . وألف رومانس Romanus ، الراهب اليونانى فى أواخر القرن الخامس ألفاظ الترانيم التى لا تزال حتى الآن جزءاً من الطقوس الدينية اليونانية ولحنها ؛ وليس ثمة ما يضارع هذه الترانيم فى عمق الشعور وقوة التعبير . وكتب بوئيثيوس مقالا فى الموسيقى لخص فيه نظريات فيثاغورس وارستكسنوس Aristoxenus وبطليموس ؛ وقد ظلت هذه الرسالة تدرس فى جامعتى أكسفورد ، وكمبردج يوم كنا نحن طلاباً (٤٣) .

وبعد ، فإن من واجب الإنسان أن يكون شرقيا إذا شاء أن يفهم الفن الشرقى على حقيقته . وإن المعنى الجوهرى الذى يدركه العقل الغربى من النزعة البيزنطية هو أن الشرق قد سرى فى قلوب اليونان وتغلغل فى أفئدتهم : فى الحكومة الأتوقراطية ، وفى الطبقات المتدرجة الثابتة ، وفى ركود العلم والفلسفة ، وفى الكنيسة الخاضعة لسلطان الدولة ، والشعب الخاضع لسلطان الدين ، وفى الثياب الفخمة والحفلات العظيمة ، والطقوس الدينية ذات الألفظ الطنانة الرنانة والمناظر الرائعة ، والنغمات الموسيقية الساحرة المتكررة التى تستحوذ على النفوس ؛ وتغمر الحواس بفيض من الألوان البراقة ؛ وأخضع الطبيعة للخيال ، والنمن التمثيلى للفن الزخرفى . ولقد كان من شأن الروح اليونانى القديم أن يجد هذا كله غريباً عنه لا يطيقه ، ولكن بلاد اليونان نفسها قد أضحت وقتئذ جزءاً من الشرق . وغلبت على العالم اليونانى كلالة أسيوية فيه فى الوقت الذى كانت فيه بلاد الفرس المتجددة الحيوية ، وكانت قوة الإسلام العظيمة التى لا يكاد العقل يُدرك مداها ، نقول فى الوقت الذى كانت فيه هذه وتلك تنازعانها حياتها نفسها .

الباب السابع

الفـــرس

٣٣٤ – ٦٤١

الفصل الأول

المجتمع الساسانى

ومن وراء نهر الفرات أو دجلة كانت تقوم طوال تاريخ اليونان وروما تلك الإمبراطورية التى تكاد تكون خافية على العالم الغربى ، والتى لبثت ألف عام تصد أوروبا المتوسعة وجحافل آسية الهمجية ، لا تنسى قط ما ورثته من مجد الأكمينيين ، وتنتعش على مهل مما أصابها فى حروب البارثيين ؛ وتحتفظ فى زهو وخيـــلاء بثقافتها الأرستقراطية الفذة تحت حكم ملوكها الساسانيين الأشداء الشجعان ، احتفاظا أمكنها به أن تحوّل فتح المسلمين لإيران إلى نهضة فارسية جليلة الشأن .

وكان لفظ إيران فى القرن الثالث الميلادى أوسع معنى من لفظ إيران أوفارس فى هذه الأيام . فقد كانت ، كما يدل اسمها أرض ، «الآريين» ، وكانت تشمل أفغانستان وبلوخستان ، وسنجديانا ، وبلخ والعراق . ولم تكن فارس ، وهى الاسم القديم لإحدى الولايات الحديثة ، إلا جزءاً صغيراً يقع فى الجنوب الشرقى من هذه الإمبراطورية ، ولكن اليونان والرومان الذين لم يكونوا يعنون بشئون « البرابرة » أطلقوا اسم الجزء على الكل . وكان يخترق إيران فى وسطها من الجنوب الشرقى لجبال هملايا إلى الشمال الغربى لجبال القفقاس حاجز جبلى

يقسم البلاد قسمين ، فى الشرق منه هضبة عالية جدباء ، وفى الغرب وديان خضراء يسقيها النهران التوأمان ، ويجرى ماء فيضانهما الموسمى فى شبكة من القنوات تكسب البلاد الخصب والنماء فتنتج أرضها القمح ، والبلح ، والعنب ، والفاكهة . وكان بين النهرين ، وعلى ضفافهما ، وفى ثنايا التلال ، وواحات الصحراء ، عدد لا حصر له من القرى وعشرات المئات من البلدان وعشرات من المدائن الكبيرة : منها إكباتانا ، والرى ، وموصل ، واصطخر (برسپوليس القديمة) ، والسوس ، وسلوقية ، وطيسفون (المدائن) العظيمة عاصمة الملوك الساسانيين .

ويصف أميانوس الفرس فى ذلك الوقت بأنهم « يكادون كلهم يكونون نحاف الأجسام ، سمر البشرة إلى حدما . . . لهم لحى على جانب من الظرافة ، وشعر طويل أشعث »(١) . غير أن الطبقات العليا لم تكن ذات شعر أشعث ، ولم يكن أفرادها نحاف الأجسام على الدوام ، وكان يغلب عليهم الجمال ، وكانوا ذوى أنفة وكبرياء ، ودماثة فى الأخلاق ، يميلون إلى الرياضة الشاقة الخطرة ، والثياب الفخمة . وكان رجالهم يلبسون العمائم على رءوسهم ، والسراويل المنتفخة فى سيقانهم ، والصنادل أو الأحذية ذات الأربطة فى أقدامهم . وكان أغنياؤهم يلبسون معاطف أو جلابيب من الصوف والحرير ويتمنطقون بمناطق يعلقون فيها السيوف . أما الفقراء فكانوا يقنعون بأثواب من نسيج القطن ، أو الشعر ، أو الجلد . وكان النساء يلبسن أحذية طويلة ، وسراويل قصيرة ، وقمصاناً واسعة ، وعباءات أو أثواباً مهفهفة ، ويعقصن شعرهن الأسود من الأمام فى غديرة يتركنها تنوس خلفهن ويزينها بالأزهار . وكانت جميع الطبقات مولعة بالزينة والألوان الجميلة . وكان الكهنة والزرادشتيون المتحمسون يلبسون ثياب القطن الأبيض يرمزون به إلى الطهارة ؛ أما قواد الجند فكانوا يفضلون اللون الأحمر ، وكان الملوك يميزون أنفسهم من سائر الطبقات بالأحذية القصيرة الحمراء ، والسراويل الزرقاء ، وأغطية للرءوس تعلوها كرات منتفخة أو رءوس حيوانات

أو طيور . وكانت الملابس فى بلاد الفرس ، كما كانت في جميع المجتمعات المتحضرة ، تكون نصف الرجل أو أكثر قليلا من نصف المرأة .

وكان الرجل الفارسى العادى المتعلم سريع الانفعال كالرجل الغالى ، شديد التحمس ، كثير التقلب ؛ يغلب عليه الخمول ، ولكنه سريع التيقظ ، يميل بطبعه إلى « الحديث الجنونى ، يسرف فيه إسرافاً ... أميل إلى الدهاء منه إلى الشجاعة ، لا يخافه إلا البعيدون عنه »[٢] — أى حيث يكون أعداء الفرس . وكان فقراؤهم يشربون الجعة ، ولكن الطبقات كلها تقريبا ، بما فيها الآلهة ، كانوا يفضلون النبيذ ؛ فقد كان أتقياء الفرس والمقتصدون منهم يصبونه حسب الطقوس الدينية ، وينتظرون حتى تأتى الآلهة لتشربه ، ثم يشربون هم بعدها الشراب المقدس[٣] . ويصف المؤرخون الفرس فى عصر الساسانيين بأنهم أغلظ أخلاقا مما كانوا فى عهد الأكيمينيين ، وأرق منهم فى عهد البارثيين[٤] ، ولكن قصص بروكپيوس تحملنا على الاعتقاد بأن الفرس ظلوا طوال العهود أحسن أخلاقا من اليونان[٥] . ولقد أخذ أباطرة الروم عن البلاط الفارسى نظم حفلاتهم وطرائقهم الدبلوماسية . وكان ملوكهم المتنافسون يخاطب بعضهم بعضاً بلفظ « الأخ » . ويضمنون للدبلوماسيين الأجانب سلامتهم من الاعتداء ومرورهم سالمين بأرضهم ، ويعفونهم من التفتيش الجمركى والعوائد[٦] . وفى وسعنا أن نرجع التقاليد الدبلوماسية المتبعة فى أوروبا وأمريكا إلى الأساليب التى كانت متبعة فى بلاط ملوك الفرس .

ويقول أميانوس إن « معظم الفرس يسرفون فى الجماع »[٧] ، ولكنه يعترف مع ذلك بأن اللواط والدعارة كانا أقل انتشاراً بينهم مما كانا بين اليونان . وقد امتدح عماليل الفرس لثلاث صفات فيهم فقال : « هم معتدلون فى الطعام ، قنوعون فى علاقاتهم الخاصة وفى العلاقات الزوجية »[٨] . وكانوا يستخدمون كل الوسائل لتشجيع الزواج وزيادة المواليد ، حتى يكون لهم من الأبناء ما يسد مطالب الحرب

ولهذا كان إله الحب عندهم هو المريخ لا ڤينوس . وكان الدين يأمر بالزواج ، ويحتفل به احتفالا مصحوبا بطقوس رهيبة ، ومن تعاليمه أن الإخصاب يقوى أهورا مزدا إله النور في صراعه العالمي مع أهرمان وهو الشيطان في الديانة الزرادشتية[٩] . وكان رب البيت يعبد أسلافه حول نار الأسرة ، ويطلب الأبناء لكي يضمن لنفسه العناية به وعبادته فيما بعد ، فإذا لم يولد له أبناء من صلبه تبنى ولداً من أبناء غيره . وكان الآباء هم الذين ينظمون عادة زواج أبنائهم يساعدهم في هذا غالباً موثق رسمي لعقود الزواج ، ولكن المرأة كان في وسعها أن تتزوج على خلاف رغبة والديها . وكانت البائنات والهبات تقوم بنفقات الزواج المبكر والأبوة المبكرة . وكان يسمح للرجال بتعدد الزوجات ، وكان يُوصى به إذا كانت الزوجة الأولى عاقراً . وكان الزنى منتشراً[١٠] . وكان في وسع الزوج أن يطلق زوجته إذا خانته ، كما كان في وسع الزوجة أن تطلق زوجها إذا هجرها أو قسا عليها . وكان التسري مباحا . وكان لهؤلاء المحظيات كما كان لنظائرهن عند اليونان ، الهتايراى hetairai ، الحرية الكاملة في أن يسرن أمام الجماهير وأن يحضرن مآدب الرجال[١١] . أما الزوجات الشرعيات فكن في العادة يبقين في أجنحة خاصة بهن في البيوت[١٢] ، وقد ورث المسلمون عن الفرس هذه العادة القديمة . وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع ، ولعله كان من الصواب أن يمنع الرجال من الاختلاط بهن . والنساء في شاهنامة الفردوسي هن اللائي يبدأن بخطبة الرجال وإغوائهن ، وكانت مفاتن النساء تتغلب على قوانين الرجال .

وكان يستعان على تربية الأبناء بالعقيدة الدينية ، ويبدو أن هذه كان لابد منها لتدعيم سلطان الأبوين . وكانوا يسلون أنفسهم بألعاب الكرة ، والرياضة البدنية ، والشطرنج[١٣] ، ويشتركون منذ نعومة أظفارهم في وسائل التسلية التي يمارسها الكبار كالضرب بالنبال ، وسباق الخيل ، وحجف الكرة ، والصيد . وكان كل ساساني يرى في الموسيقى عونا لابد منه في شئون الدين ، والحب ،

والحرب. وفى هذا يقول الفردوسى إن الموسيقى وأغانى النساء الجميلات كانت تلازم المآدب وحفلات الاستقبال الملكية[١٤]. وكانت القيثارة ، والناى ، والمزمار ، والقرن ، والطبلة ، وغيرها من الآلات الموسيقية كثيرة عندهم. وتؤكد الرواية المأثورة أن برباد مغنى كسرى أبرويز ألف ٣٦٠ أغنية ، ظل يغنى فى كل ليلة واحدة منها لسيده عاما كاملا[١٥]. وكان للموسيقى كذلك شأن كبير فى التعليم ؛ فقد كان مقر المدارس الابتدائية هو أبنية الهياكل ، وكان الكهنة هم الذين يقومون بالتعليم فيها . أما التعليم العالى فى الآداب ، والطب ، والعلوم ، والفلسفة فكان يتلقى فى دار المجمع العلمى الشهير فى غنديسابور فى سوريانا . وكان أبناء أمراء الإقطاع وحكام الولايات يعيشون فى الغالب بالقرب من الملوك ، وكانوا يتلقون العلم مع أمراء الأسرة المالكة فى مدارس كبرى متصلة بالبلاط[١٦] .

وظلت اللغة الفهلوية الهندى — أوروبية لغة فارس البارثية هى المستعملة فى البلاد . ولم يبق مما كتب بها فى ذلك العهد إلا نحو ٦٠٠,٠٠٠ كلمة كلها تقريبا تبحث فى شئون الدين . لكننا نعلم أنها كانت لغة واسعة[١٧] ؛ غير أن الكهنة كانوا هم حفظتها وناقليها ، ولذلك تركوا الكثير مما كتب بها فى غير الدين يفنى على مر الزمان (ولعلنا قد خُدِعنا بخطة شبيهة بهذه الخدعة فظننا أن الكثرة الغالبة مما كتب من أدب العصور الوسطى فى العالم المسيحى كان أدبا دينيا) . وكان الملوك الساسانيون ملوكا مستنيرين يناصرون الأدب والفلسفة ، وكان أكثرهم مناصرة لها كسرى أنوشروان ، فقد أمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى اللغة الفهلوية ، وبتدريس هذه الكتب فى غنديسابور ، بل قرأها هو نفسه . وقد كتب فى عهده كثير من المؤلفات التاريخية لم يبق منها كلها إلا الكرنماكى — أرتخشتر أو أعمال أردشير وهو مزيج من التاريخ والقصص كان هو الأساس الذى استمد منه الفردوسى كتاب الشاهنامة . ولما أغلق جستنيان مدارس أثينة فر سبعة من أساتذتها إلى فارس ووجدوا لهم فى بلاط كسرى ملجأ أمينا .

ولكنهم حنوا فيما بعد إلى أوطانهم ، فاشترط الملك « البربرى » فى المعاهدة التى عقدها مع چستنيان عام ٥٣٣ أن يسمح للحكماء اليونان بالعودة إلى أوطانهم وألا يمسهم أى أذى .

وفى عهد هذا الملك المستنير أصبحت كلية غنديسابور التى أنشئت فى القرن الرابع أو الخامس « أعظم المراكز الثقافية فى ذلك العهد[١٨] » ، وبهرع إليها الطلاب والمدرسون من كافة أنحاء العالم . وكان يؤمها النساطرة المسيحيون ، الذين جاءوا معهم بتراجم سريانية لكتب الطب والفلسفة اليونانية . وجاء إليها أتباع الأفلاطونية الجديدة وبذروا فيها بذور العقائد الصوفية ، وامتزجت فيها علوم الطب الهندية ، والفارسية ، والسورية ، واليونانية ، ونتج عنها مدرسة للعلاج مزدهرة ناجحة[١٩] . وكان المرض حسب النظرية الفارسية ينتج إذا دنس أو تلوث ركن أو أكثر من الأركان أو العناصر الأربعة — النار ، والماء ، والتراب ، والهواء . ويقول أطباء الفرس وكهنتهم إن الصحة العامة تتطلب إحراق كل المواد المتعفنة ، وإن صحة الأفراد تتطلب الطاعة التامة لقانون الطهارة الزرداشتى[٢٠] .

ولسنا نعرف عن علم الفلك عند الفرس فى ذلك الوقت أكثر من أنه قد احتفظ لهم بتقويم منظم ، وأن سنتهم كانت تنقسم إلى اثنى عشر شهراً فى كل منها ثلاثون يوماً ، وأن الشهر كان ينقسم إلى أربعة أسابيع ، اثنان منها يحتوى كل منهما على سبعة أيام واثنان فى كل منهما ثمانية ، وأنهم كانوا يضيفون خمسة أيام فى آخر العام[٢١] . وكان التنجيم والسحر منتشرين فى البلاد ، فلم يكونوا يقدمون على عمل هام دون الرجوع إلى أبراج النجوم ، وكانو يعتقدون أن جميع مصائر الناس على هذه الأرض تحددها النجوم الطيبة والخبيثة التى تحترب فى السماء — كما تحترب الملائكة والشياطين فى النفس البشرية — حرب أهورا مزدا وأهرمان القديمة .

وأعاد الملوك الساسانيون إلى الدين الزرادشتى ما كان له من سلطان ورونق. فوهبت الأراضى والعشور إلى الكهنة، وأسس نظام الحكم على أساس الدين كما كانت الحال فى أوربا، وعين كاهن أكبر ذو سلطان لا يفوقه سلطان الملك نفسه رئيساً لطائفة الكهنة المجوس الوراثية، التى كانت تشرف على جميع نواحى الحياة الذهنية فى فارس إلا القليل منها، وكانت تنذر كل من تحدثه نفسه بالإثم أو بالخروج على سلطان الدولة بالعذاب الدائم فى الجحيم؛ وظلت تسيطر على عقول الفرس وعلى جماهير الشعب مدى أربعة قرون(٢٢). وكانوا من حين إلى حين يحمون الأهلين من عسف الجباة والفقراء من استبداد الحكام(٢٣). وقد بلغ من ثراء هذه الجماعة أن كان الملوك أنفسهم يستدينون أموالا طائلة من خزائن الهياكل. وكان فى كل بلدة كبيرة معبد للنار تشتعل فيه نار مقدسة يقولون إنها لا تنطفئ أبداً وترمز إلى إله النور. وكانوا يعلمون الناس أن حياة الفضيلة الطاهرة وحدها هى التى تنجى الروح من أهرمان؛ وكان لا بد للروح فى حربها القائمة على الشيطان من أن تستعين بكهنة المجوس وبما يعرفونه عن الغيب، وبرقاهم وسحرهم، ودعواتهم. فإذا ما نالت الروح هذه المعونة سمت إلى درجة القداسة والطهارة، وخرجت سالمة من محكمة يوم الحساب الرهيبة، واستمتعت بالنعيم المقيم فى الجنة.

وكانت أديان أخرى أقل منزلة من هذا الدين الرسمى تجد لها مكاناً حوله. فكان مثراس إله الشمس المحبب للپارثيين يعبد بين عدد قليل من أفراد الشعب بوصفه مساعداً لأهورا مزدا. ولكن الكهنة الزرداشتيين كانوا يعدون الخروج على الدين القومى، كما يعده المسيحيون، والمسلمون، واليهود جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام. وشاهد ذلك ما حدث حين قام مانى Mani (حوالى ٢١٦ — ٢٧٦) يدعى أنه رسول رابع مكمل لبوذا، وزرادشت، ويسوع، ويدعو إلى دين قوامه العزوبة، والسلام، والهدوء، إذ صلب بناء على طلب

المجوس ذوى النزعة الحربية القومية ، واضطر أتباعه إلى العمل على نشر دينهم فى خارج البلاد . أما اليهودية والمسيحية فكانتا بوجه عام تلقيان من الملوك والكهنة الساسانيين كثيراً من التسامح ، كما كان البابوات أكثر تسامحاً مع اليهود منهم مع المارقين من الدين المسيحى . وقد وجد كثير من اليهود ملجأ لهم فى الولايات الغربية من الإمبراطورية الفارسية . وكانت المسيحية قد ثبتت دعائمها فى تلك الولايات حين جلس الساسانيون على العرش ، وظلت لا تلقى معارضة منهم حتى أضحت الدين الرسمى لعدوّى الفرس القديمين وهما بلاد اليونان ورومة ؛ فلما أن اشترك قساوستها اشتراكاً فعلياً فى الدفاع عن الأقاليم البيزنطية ضد شابور الثانى ، كما حدث عند نصيبين عام ٣٣٨ ، شرع ملوك الفرس يضطهدونها[٢٤] ، وبدأ المسيحيون فى فارس يجهرون بآمالهم الطبيعية فى انتصار الدولة البيزنطية . وأمر شابور فى عام ٣٤١ بذبح جميع المسيحيين الساكنين فى الإمبراطورية ، ولما أن رأى أن قرى بأكملها من القرى المسيحية قد أقفرت من أهلها أمر بأن يقتصر على قتل القسيسين ، والرهبان ، والراهبات ؛ ولكن ١٦٫٠٠٠ مسيحى قد هلكوا نتيجة لهذا الاضطهاد الذى دام حتى موت شابور (٣٧٩) . ولما جلس يزدجرد الأول على العرش (٣٩٩ — ٤٢٠) رد للمسيحيين حريتهم الدينية ، وساعدهم على بناء كنائسهم ، حتى إذا كان عام ٤٢٢ قرر مجلس من أساقفة الفرس استقلال الكنيسة المسيحية الفارسية عن الكنيستين المسيحيتين اليونانية والرومانية .

وفى داخل هذا الإطار المكون من العبادات والمنازعات الدينية ، والمراسيم والأزمات الحكومية والحروب الداخلية والخارجية ، فى داخل هذا الإطار كان الناس يمدون الدولة والكنيسة بمقومات حياتهما — يفلحون الأرض ، ويرعون الماشية والضأن ، ويمارسون الصناعات اليدوية ، ويتبادلون التجارة . وكانت الزراعة عندهم من الواجبات الدينية ؛ فكان الشعب يُعَلَّم أن تنظيف

الفلوات من الأشجار والأعشاب ، وزرع الأرض ، والقضاء على الآفات ، واستئصال الأعشاب الضارة بالنبات ، وإصلاح الأراضى البور ، وتسخير مجارى الماء لرى الأرض — كان الشعب يعلم أن هذه الأعمال المجيدة كلها تضمن انتصار أهورا مزدا فى آخر الأمر على أهرمان . وكان الفلاح الفارسى فى مسيس الحاجة إلى كثير من أسباب السلوى الروحية ، لأنه كان يعمل عادة بوصفه مستأجراً لأرض الأمير الإقطاعى ، ويؤدى ضرائب ورسوماً أخرى قدراً من المحصول يتراوح بين سدسه وثلثه . ونقل الفرس عن الهند حوالى عام ٥٤٠ استخراج السكر من القصب حتى لقد وجد الإمبراطور الشرقى هرقل مخازن ملأى بالسكر فى القصر الملكى بطيسفون (المدائن) (٦٢٧) ؛ ولما فتح العرب بلاد الفرس بعد أربعة عشر عاماً من ذلك الوقت ، عرفوا من فورهم كيف يزرعون القصب ، وأدخلوا زراعته فى مصر وصقلية ، ومراكش ، وأسپانيا ومنها انتشرت فى أوربا[٢٦] . وكانت تربية الحيوانات من أهم الأعمال فى بلاد الفرس ، فلم تكن تفوق الخيل الفارسية إلا الجياد العربية الأصيلة فى تسلسل أنسابها ، وجرأتها ، وجمالها ، وسرعتها . وكان لكل فارسى جواد يعزه كما يعز رستم راكوش ، وقد قدس الفرس الكلب لعظيم نفعه فى حراسة قطعان الماشية والبيوت ، وكان للقطة الفارسية شأن عظيم فى كافة أنحاء البلاد

وتطورت الصناعة فى عهد الساسانيين فانتقلت من المنازل إلى الحوانيت فى المدن . وكثرت نقابات الحرف ، ووجدت فى بعض البلدان جماعات ثورية من الصعاليك[٢٧] ، وأدخل نسج الحرير من الصين ، وسرعان ما انتشرت هذه الصناعة وتقدمت حتى كان الحرير الساسانى يطلب فى كل مكان ، وكان نموذجاً يحتذيه فن النسيج فى بيزنطية ، والصين ، واليابان ؛ وكان تجار الصين يفدون إلى إيران ليبيعوها حريرهم الخام ويشترون منها الطنافس ، والجواهر ، والأصباغ الحمراء ؛ وعمل الأرمن ، والسوريون ، واليهود على ربط بلاد الفرس ، وبيزنطية ، وروما

فى سلسلة من التبادل التجارى البطىء . وأعانت الطرق والجسور الصالحة ، التى كانت تتعهدها الدولة بعنايتها ، على إنشاء طائفة من المراكز ، وطرق القوافل التجارية التى ربطت طيسفون بسائر ولايات الدولة ؛ وأنشئت المرافئ فى الخليج الفارسى ، لتيسير التجارة مع الهند . وكانت الأنظمة الحكومية تحدد أثمان الحبوب ، والأدوية وغيرهما من ضروريات الحياة ، وتمنع تخزينها لرفع أثمانها ، واحتكارها[٢٨] . وفى وسعنا أن نقدر ثراء الطبقات العليا من قصة الشريف الذى دعا ألف ضيف إلى وليمة ، فلما جاءوا وجد أنه لا يملك من الصحاف ما يكفى لأكثر من خمسمائة ، فاستطاع أن يستعير الخمسمائة الباقية من جيرانه[٢٩] .

ونظم أمراء الإقطاع ، الذين كانوا يعيشون فى الغالب فى ضياعهم ، طريقة استغلال الأرض ومن عليها ، وألفوا الفيالق من مستأجرى أرضهم ليحاربوا حروب الأمة . وكانوا يتدربون على الحرب بمطاردة الصيد بحماسة وشجاعة ، فكانوا لذلك ضباطاً فى سلاح الفرسان ذوى شهامة ؛ وكانوا هم وجيادهم مسلحين كما كانت جيوش الإقطاع مسلحة فى أوربا فيما بعد ؛ ولكنهم لم يبلغوا ما بلغه الرومان فى فرض النظام على جنودهم ، أو فى استخدام ما عرف فيما بعد من فنون هندسة الحصار والدفاع . وكان يعلو عليهم فى المنزلة الاجتماعية عظماء الأشراف الذين كانوا يتولون حكم الولايات ويرأسون المصالح الحكومية . وما من شك فى أن الإدارة الحكومية كانت حازمة قديرة إلى حد بعيد ؛ وشاهد ذلك أن الخزانة الفارسية كانت فى أغلب الأوقات أكثر عمراناً بالمال من خزائن أباطرة الرومان ، وإن كانت الضرائب فى الدولة الفارسية أقل إرهاقاً مما كانت عليه فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الغربية . ولقد كان فى خزائن كسرى أبرويز فى عام ٦٢٦ ما قيمته ٤٦٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى[٣٠] ، وكان دخله السنوى يقدر بنحو ١٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار — وهما مبلغان ضخمان إذا ذكرنا ما كان للفضة والذهب من قوة الشراء فى العصور الوسطى .

وكان سن القوانين من عمل الملوك ، ومستشاريهم ، والمجوس ؛ وكانوا يعتمدون في سنها على قوانين الأبستاق القديمة ، وكان يترك للكهنة تفسير هذه القوانين وتنفيذها . ووصف أميانوس ، الذى كان يحارب الفرس ، قضاتهم بأنهم كانوا « رجالا عدولا ، ذوى تجربة ، وعلم بالقوانين[٣١] » . وكان المعروف عن الفرس بوجه عام أنهم يحافظون على الوعد ، وكانت الأيمان التى يقسمونها فى المحاكم تحاط بهالة من التقديس ، وكان الحنث فى اليمين يلقى أشد العقاب فى هذا العالم بحكم القانون ، ويعاقب صاحبه فى الدار الآخرة بوابل من السهام ، والبلط والحجارة . وكان التحكيم الإلهى من الوسائل التى يلجأ إليها لكشف الجرائم ، فكان يطلب إلى المتهمين أن يمشوا على مواد تحمى فى النار حتى تحمر ، أو يخوضوا اللهب ، أو يطعموا الطعام المسموم . وكان وأد الأطفال وإسقاط الأجنة محرمين يعاقب من يرتكبهما بالإعدام ؛ وكان الزانى إذا عرف ينفى من البلاد والزانية يجدع أنفها وتصلم أذناها ؛ وكان فى وسع المتقاضين أن يستأنفوا الأحكام أمام محاكم عليا ؛ ولم يكن الحكم بالإعدام ينفذ إلا إذا نظر فيه الملك وأقره .

وكان الملك يقول إنه يستمد سلطانه من الآلهة ، وإنه وليهم فى الأرض ، وإنه يضارعهم فى قوة أحكامهم ، وكان يلقب نفسه حين تسمح الظروف « ملك الملوك ، وملك الآريين وغير الآريين ، وسيد الكون ، وابن الآلهة[٣٢] » . وأضاف شابور الثانى إلى هذه الألقاب : « أخا الشمس والقمر ، ورفيق النجوم » وكان الملك الساسانى مطلق السلطان من الوجهة النظرية ، ولكنه كان يعمل فى العادة بمشورة وزرائه الذين كانوا يؤلفون مجلساً للدولة . وقد أثنى المسعودى المؤرخ المسلم على ما كان للملوك الساسانيين من إدارة ممتازة ، وعلى سياستهم الحسنة النظام ، وعنايتهم برعاياهم ورخاء بلادهم[٣٣] . ويقول كسرى أنوشروان ، كما جاء فى كتاب ابن خلدون « لولا الجيش لما كان الملك ، ولولا موارد الدولة ما كان الجيش ، ولولا الضرائب ما كانت الموارد ؛ ولولا الزراعة ما كانت الضرائب ،

ولولا الحكومة العادلة ما كانت الزراعة[٣٤] » . وكانت الملكية فى الأوقات العادية وراثية ، ولكن كان فى وسع الملك أن يختار غير ابنه الأكبر ليخلفه على العرش . وجلست ملكتان على العرش فى زمنين مختلفين ؛ وإذا لم يترك الملك من بعده ولياً للعهد من نسله اختار الأشراف ورجال الدين حاكماً على البلاد ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يختاروا أحداً من غير الأسرة المالكة .

وكانت حياة الملك مثقلة بالواجبات والتبعات التى لا آخر لها . فقد كان ينتظر منه أن يخرج للصيد والقنص بلا خوف ، وكان يخرج إليه فى هودج مزركش تجره عشرة من الجمال ، وعليه ثيابه الملكية . وكانت سبعة جمال تحمل عرشه ، ومائة جمل تحمل الشعراء المنشدين . وقد يكون فى ركابه عشرة آلاف من الفرسان ؛ ولكنا إذا صدقنا ما كتب من النقوش الساسانية على الصخور قلنا إنه كان ينبغى له آخر الأمر أن يمتطى صهوة جواد ، ويواجه بنفسه وعلا ، أو غزالا ، أو رئما ، أو جاموساً برياً ، أو نمراً ، أو أسداً ، أو غيرها من الوحوش التى جمعت فى حديقة الملك أو « جنته » . فإذا عاد من الصيد إلى قصره واجه مهام الحكم الشاقة ، وسط ألف من الحشم وفى حفلات لا آخر لها . وكان عليه أن يرتدى ثياباً مثقلة بالجواهر ، وأن يجلس على عرش من الذهب ، ويضع على رأسه تاجاً يبلغ من الثقل حداً لا بد معه أن يعلق على مسافة جد صغيرة ، لا يمكن رؤيتها ، من رأسه الذى لا يستطيع تحريكه . وعلى هذا النحو كان يستقبل الشعراء ، والأضياف ، ويتبع ما لا يحصى من المراسم الشاقة الدقيقة ، ويصدر الأحكام ، ويستقبل الوافدين الذين حددت لهم المواعيد ويتلقى التقريرات . وكان على الذين يدخلون عليه أن يخروا سجداً أمامه ، ويقبلوا الأرض بين يديه ، وألا يقفوا إلا إذا أمرهم بالوقوف ، ولا يتحدثوا إليه إلا وفى فمهم منديل خشية أن تعدى أنفاسهم الملك أو تدنسه . فإذا جاء الليل دخل على إحدى زوجاته أو محظياته يبذر فيها بذوره العليا .

الفصل الثانى

المملكية الساسانية

تقول الرواية الفارسية إن ساسان كان كاهناً فى پرسپوليس (اصطخر) ، وإن ابنه پاپاك Papak كان أميراً صغيراً فى خور ، وإن پاپاك قتل جوزهر ، حاكم الولاية الفارسى ، وأعلن نفسه ملكاً على تلك الولاية ، وأورث سلطانه ابنه شابور ، وإن شابور مات نتيجة لحادثة وقعت فى الوقت المناسب ، فخلفه ابنه أردشير . وأبى أرطبانوس الخامس آخر ملوك الفرس الأرساسيين أو البارثيين أن يعترف بهذه الأسرة المحلية الجديدة ؛ فحاربه أردشير وهزمه (٢٢٤) ، وصار ملك الملوك (٢٢٦) . فلما تم له هذا استبدل بحكم الأرساسيين الإقطاعى المفكك حكماً ملكياً قوياً أداته بيروقراطية مركزة كثيرة الفروع ؛ وكسب تأييد رجال الدين بأن أعاد العقيدة الزرادشتية وأعاد إلى كهنتها سابق سلطانهم ، وأثار كبرياء الشعب بأن أعلن أنه سيقضى على النفوذ الهلنستى فى فارس ، ويثأر لدارا الثانى من ورثة الإسكندر ، ويستعيد كل الأقاليم التى كانت فيما مضى تحت حكم الملوك الأكمينيين . والحق أنه قد بر بوعده هذا أو كاد . فقد قام بحملات خاطفة مدت حدود بلاد الفرس فى الشمال إلى نهر جيحون ، وفى الغرب إلى نهر الفرات ، ووضع التاج قبل أن تدركه المنية فى عام ٢٤١ على رأس ابنه شابور ، وأمره أن يلقى باليونان والرومان فى البحر .

وورث شابور الأول عن أبيه قوته ودهاءه ؛ وتمثله النقوش التى على الصخور بهى الطلعة ، نبيل الملامح ، ولكن هذه النقوش كانت بلا ريب تحيات من صانعيها جرى العرف بأن تكون على هذه الصورة . وقد تلقى شابور تعليما طيباً ؛

ونشأ على حب العلم ، ويقال إنه أعجب بحديث أوسطاثيوس Eustathius السوفسطائى سفير اليونان إعجاباً جعله يفكر فى اعتزال الملك ليتفرغ للفلسفة(٣٥) وخالف سميه السابق بأن أطلق الحرية الكاملة لجميع الأديان ، وسمح لمانى بأن يلقى مواعظه الدينية فى بلاطه ؛ وأعلن أن « المجوس ، والمانيين ، واليهود ، والنصارى ، والناس جميعاً أياً كان دينهم يجب أن يتركوا وشأنهم فى جميع أنحاء إمبراطوريته(٣٦) . وواصل ما بدأه أردشير من تنقيح الأبستاق ، فأقنع الكهنة بأن يضموا إلى كتابهم المقدس أبواباً فى غير شئون الدين تشمل علوم ما بعد الطبيعة والفلك ، والطب ، معظمها مأخوذ من بلاد الهند واليونان . وكان سخياً فى مناصرة الفنون ، ولم يبلغ ما بلغه شابور الثانى ، أو كسرى الأول والثانى ، من براعة فى قيادة الجند ، ولكنه كان أقدر الملوك الساسانيين جميعاً فى الشئون الإدارية . وأنشأ له عاصمة جديدة فى شاه بور لا تزال آثارها تحمل اسمه حتى الآن ، وأقام عند ششتار على نهر قارون سداً يعد من أكبر الأعمال الهندسية فى التاريخ القديم ؛ وقد بنى هذا السد من كتل ضخمة من الحجر الأعبل (الجرانيت) ، تكون منها جسر طوله ١٧١٠ قدم ، وعرضه عشرون قدماً . وحول مجرى النهر مؤقتاً لكى يستطاع إقامة البناء ؛ ورصف قاع المجرى عنده رصفاً متيناً ، وأنشئت فيه بوابات لتنظم تصريف المياه . وتقول الرواية المتواترة إن شابور استخدم فى تخطيط السد وبنائه مهندسين وأسرى من الرومان . وقد ظل هذا السد يؤدى الغرض منه حتى هذا القرن(٣٧) . ثم حول شابور اهتمامه على كره منه إلى الحرب والقتال ، فغزا سوريا ، ووصل فى حملته إلى أنطاكية ، ولكنه هزم فى معركة مع جيش رومانى فعقد مع رومة صلحاً (٢٤٤) ، استردت بمقتضاه جميع ما كان قد استولى عليه فى حروبه . غير أنه حقد على أرمينية أن تعاونت عليه مع رومة ، فزحف على تلك البلاد ، وأقام فيها أسرة صديقة لفارس (٢٥٢) ؛ ولما حمى بذلك جناحه الأيمن ، عاد إلى قتال رومة ، فهزم الإمبراطور فليريان وأسره (٢٦٠) ،

ونهب أنطاكية ، واستولى على آلاف من الأسرى سخرهم للعمل فى إيران (٢٦٠) . ثم انضم أدناثوس حاكم تدمر إلى رومة ، فاضطر شابور مرة أخرى إلى الاكتفاء بأن يكون نهر الفرات الحد الفاصل بين أملاك الفرس والرومان .

وخلفه على العرش فيما بين ٢٧٢ و٣٠٢ ملوك لم يرق أحد منهم إلى ما فوق الدرجة الوسطى من الكفاية . ويأتى بعد هذا هرمزد الثانى (٣٠٢ — ٣٠٩) الذى يشيد التاريخ بحكمه القصير الأجل ، والذى بدأ فيه طائفة من الأعمال النافعة وبسط على البلاد لواء السلم والرخاء . وبذل الملك عناية كبيرة فى ترميم الأبنية العامة ، والمساكن الخاصة ، موجهاً أكبر اهتمامه إلى مساكن الفقراء ، وكان ينفق على هذه الأعمال كلها من أموال الدولة . وأنشأ محكمة جديدة خصها بسماع شكاوى الفقراء ضد الأغنياء ، وكثيراً ما كان يتولى رياستها بنفسه . ولسنا نعرف هل كانت هذه العادات الغريبة هى التى حرمت ابنه من وراثة العرش ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فقد حدث على أثر وفاة هورمزد أن زج النبلاء بابنه فى السجن ، وأعطوا الملك لابنه الذى لم يولد بعد ، ولقبوه فى ثقة واطمئنان بشابور الثانى ، وأرادوا ألا يتركوا فى الأمر مجالا للشك فتوجوا الجنين بأن علقوا التاج الملكى على رحم أمه(٣٨) .

وبهذه البداية الطيبة حكم شابور الثانى أطول حكم فى تاريخ آسية (٣٠٩ — ٣٧٩) . وقد درب منذ طفولته على الفنون الحربية ، فقوى جسمه وإرادته ، حتى إذا بلغ السادسة عشرة من عمره تولى شئون الملك ونزل إلى ميدان القتال ، فغزا شرقى جزيرة العرب وخرب حوالى عشرين قرية ، وقتل آلافاً من الأسرى ، وقاد آلافاً غيرهم إلى الأسر فى حبال ربطها بجروحهم . وفى عام ٣٣٧ شن الحرب على رومة للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد الشرق الأقصى ، وواصلها حتى وفاته تقريباً إذا استثنينا فترات من السلم قصيرة . وكان اعتناق رومة وأرمينية للدين المسيحى سبباً فى ازدياد نيران الحرب شدة على شدتها

كأن الآلهة هى الأخرى قد نزلت إلى الميدان ، وجاءت معها بكل ما يحدثنا عنه هومر من وحشية فى القتال . وظل شابور أربعين عاما يقاتل طائفة كبيرة من أباطرة الروم واحداً بعد واحد ، فصده يوليان إلى طيسفون ، ولكنه ارتد بعدئذ ارتداداً غير شريف ؛ واضطر جوفيان أمام تفوق عدوه عليه فى الفنون العسكرية أن يعقد مع شابور صلحا نزل له بمقتضاه عن الولايات الرومانية الممتدة على نهر دجلة وعن أرمينية كلها . ولما مات شابور الثانى كانت بلاد الفرس قد بلغت ذروة سلطانها وهيبتها ، وكانت مائة ألف فدان من أرضها قد أصلحت واستخدم فى إصلاحها الأسرى من الأعداء .

وانتقل ميدان الحرب فى القرن التالى إلى حدود الفرس الشرقية : فقد حدث حوالى عام ٤٢٥ أن استولت على الإقليم المحصور بين نهرى سيحون وجيحون جماعات طورانية يطلق عليها اليونان اسم الإفثاليين Ephthalites ، ويلقبون خطأ باسم « الهون البيض » ، استولوا على الإقليم المحصور بين نهرى سيحون وجيحون وحاربهم الملك بهرام الخامس الساسانى (٤٢٠ — ٤٣٨) ، المعروف باسم الغور — أى « الحمار الوحشى » — بجرأته فى أعمال الصيد ، وانتصر عليهم ، ولكنهم بعد وفاته أخذوا ينتشرون فى الإقليم لكثرة تناسلهم وتفوقهم فى القتال ، وأنشأوا لهم إمبراطورية امتدت من بحر الخزر إلى نهر السند ، وجعلوا عاصمتها جرجان ، وكانت أشهر مدنها بلخ ، وهزموا فيروزشاه وقتلوه (٤٥٩ — ٤٨٤) ، وأرغموا الشاه الذى خلفه على أداء الجزية .

وبينما كان الخطر يتهدد فارس من جهة الشرق ، إذ ضربت الفوضى أطنابها البلاد ، نتيجة لاضطرار الملكية إلى الكفاح للمحافظة على سلطانها ضد الأشراف ورجال الدين . وفكر كقاده الأول (٤٨٨ — ٥٣١) فى أن يضعف أولئك الأعداء بمناصرة إحدى الحركات الشيوعية ، التى كانت تتخذهم الهدف الأول لهجماتها . وتفصيل ذلك أن أحد رجال الدين الزرادشتيين المدعو مزدق قد

أعلن في عام ٤٩٠ أنه مرسل من عند الله للدعوة إلى عقيدة قديمة مضمونها أن الناس جميعاً يولدون أكفاء ، وأن ليس لأحد من الناس حق طبيعي في أن يمتلك أكثر مما يمتلكه غيره ، وأن الملكية والزواج من البدع التي ابتدعها البشر ، وأنها أخطاء عاقبتها البؤس والشقاء ، وأن السلع جميعها والنساء كلهن يجب أن تكون ملكا مشاعا لجميع الرجال . ويقول عنه أعداؤه إنه كان يجيز السرقة ، والزنى ومضاجعة المحارم ، ويتخذ هذه الأعمال وسيلته الطبيعية لمقاومة الملكية والزواج ، ويقول إنها الطرق المشروعة للوصول إلى المدينة الفاضلة . واستمع إليه الفقراء وبعض الطوائف الأخرى مغتبطين ، ولكن أكبر الظن أن مزدق نفسه قد أدهشه أن يجد ملكا يوافق على آرائه . وبدأ أتباعه ينهبون بيوت الأغنياء ، ثم لا يكتفون بهذا بل يسبون نساءهم أيضاً ، ويأخذون أثمن ما في هذه البيوت ومن فيها من جوار ومحظيات حسان . وثارت ثائرة الأشراف فزجوا كفاده في السجن وأجاسوا أخاه چامسب على العرش . وقضى كفاده في « قلعة النسيان » ثلاث سنين فر بعدها من السجن ، وهرب إلى الإفثاليين . ورأى هؤلاء الفرصة سانحة لأن يكون حاكم بلاد الفرس خاضعا لسلطانهم ، فأمدوه بجيش وساعدوه على أخذ طيسفون عنوة . ونزل چامسب عن العرش ، وفر الأشراف إلى ضياعهم الريف ، وأصبح كفاده مرة أخرى ملك الملوك (٤٩٩) . ولما استتب له الأمر غدر بالشيوعيين ، وقتل مزدق وآلافا من أتباعه(٣٩) . ولعل هذه الحركة قد رفعت من شأن العمل اليدوي ، لأن قرارات مجلس الدولة بعدئذ لم يكن يوقعها الأمراء ورجال الدين وحدهم ، بل كان يوقعها معهم رؤساء نقابات الحرف(٤٠) . وحكم كفاده بعد ذلك جيلا آخر ؛ وحارب أصدقاءه الإفثاليين وانتصر عليهم ، وحارب رومة حربا غير حاسمة ، ثم مات وترك العرش لابنه الثاني كسرى أعظم ملوك الساسانيين جميعا .

كان خسرو الأول (« أي صاحب المجد التقي » ٥٣١ — ٥٧٩) يعرف عند اليونان باسم كسروس Chosroes وعند العرب باسم كسرى ؛ ولقبه الفرس

أنوشروان (« الروح الخالدة ») . ولما أن ائتمر به إخوته الأكبر منه سناً يخلعوه قتل إخوته جميعاً ، وقتل جميع أبنائهم عدا واحداً منهم . ولقبه رعاياه بالعادل » ، ولعله يستحق هذا اللقب إذا فرقنا بين العدالة والرحمة . ويصفه روكپيوس بأنه كان « بارعاً إلى أقصى حد فى تصنع التقى » وفى نكث العهد(٤١) لكن پروكپيوس من ألد أعدائه . ويثنى الطبرى المؤرخ الفارسى الأصل على نفاذ بصيرته ، وعلمه ، وذكائه ، وشجاعته ، وحصافة رأيه » وينطقه بخطبة ألقاها أول ما جلس على العرش ، وهى خطبة قد أحسن المؤرخ اختراعها إن لم يكن صادقاً فى نسبتها إليه(٤٢) . ونظم كسرى الحكومة كلها على أساس جديد واختار أعوانه لكفايتهم بصرف النظر عن طبقتهم ، ورفع منزلة بزرجمهر مربى ولده فجعله من كبار وزرائه ، وقد طبقت شهرة هذا الوزير الآفاق . واستبدل بجنود الإقطاع غير المدربين جيشاً نظامياً دائماً حسن النظام كامل العدة ، وأنشأ نظاماً عادلا للضرائب ، وجمع القوانين الفارسية ونظمها ، وأنشأ الترع والجسور لإصلاح نظام الرى ومد المدن بالماء ، وأصلح الأراضى البور بأن أمد أصحابها بالماشية ، والآلات والبذور . وشجع التجارة ووسع نطاقها ، بإنشاء الجديد من الطرق والجسور ، وإصلاح ما كان قائماً منها وتعهده ، وقصارى القول أنه بذل جهوده العظيمة كلها فى خدمة الشعب والدولة . وشجع الزواج — أو أرغم الناس عليه إرغاماً — لاعتقاده أن بلاد الفرس فى حاجة إلى المزيد من الناس لحرث أرضها وحماية تخومها . وحمل العزاب على الزواج بأن وهب البائنات للزوجات ، وأمر بتعليم أبنائهم على نفقة الدولة(٤٣) . وكان يربى الأطفال اليتامى والفقراء ويعلمهم وينفق عليهم من الأموال العامة ، ويعاقب المرتدين عن الدين بالإعدام ، ولكنه كان يسمح بانتشار المسيحية حتى بين حريمه . وقد قرب إليه الفلاسفة ، والأطباء ، والعلماء ، من بلاد الهند واليونان ، وكان يسره أن يبحث معهم مشاكل الحياة ، والحكم ، والموت . وكان من الموضوعات التى دار حولها البحث ذلك السؤال :

« ما هو أشد أنواع البؤس ؟ » . وأجاب أحد الفلاسفة اليونان عن هذا السؤال بقوله : « هو الشيخوخة المصحوبة بالفقر والبلاهة » ، وأجاب فيلسوف هندى بل هو « العقل القلق فى الجسم السقيم » . وكسب وزير كسرى ثناء جميع المجلس بحق حين قال « أما أنا فاعتقد أن أشقى الشقاء أن يرى الإنسان آخرته تقترب منه من غير أن يكون قد مارس الفضيلة »(٤٤) . وكان كسرى يناصر الآداب ، والعلوم ، ويُعين العلماء على متابعة الدرس بالهبات القيمة ، ويمد بالمال المترجمين والمؤرخين . وبلغت جامعة غنديسابور فى أيامه ذروة مجدها . وكان يحرص كل الحرص على حماية الأجانب فى بلاده فكان بلاطه لهذا السبب غاصاً على الدوام بكبار الزائرين من البلاد الأجنبية .

ولما جلس على العرش جهر برغبته فى أن يعقد الصلح مع رومة . ووافق جستنيان على هذه الرغبة لأنه كان يعد العدة لغزو أفريقية وإيطاليا ؛ ووقع « الأخوان » فى عام ٥٣٢ « صلحاً دائماً » . ولما أن سقطت أفريقية وإيطاليا فى يد جستنيان طالب كسرى متفكهاً بقسط من الغنيمة ، وحجته أن بيزنطية لم تكن لتصل إلى هذا النصر لو أن فارس لم تعقد معها الصلح ، فبعث إليه جستنيان ببعض الهدايا القيمة(٤٥) . وفى عام ٥٣٩ أعلن كسرى الحرب على « رومة » بحجة أن جستنيان قد أخل بشروط الصلح ، ويؤيد پروكپيوس هذه التهمة . لكن أكبر الظن أن كسرى قد رأى أن من الحكمة أن يبادر بالهجوم على جستنيان وجيوشه لاتزال مشغولة فى الغرب ، فذلك فى رأيه خير له من أن ينتظر حتى تنتصر بيزنطية ثم توجه قوتها كلها ضد فارس . يضاف إلى هذا أن كسرى قد بدا له ألا بد لبلاد الفرس من امتلاك مناجم الذهب فى طربزون ، وأن يكون لها منفذ على البحر الأسود . ولهذا زحف على سوريا ، وحاصر هيرابوليس ، وأپاميا ، وحلب ، وتركها وشأنها بعد أن افتدت أنفسها بكثير من المال ، وسرعان ما وقف أمام أنطاكية . ولم يبال أهلها به وبقوته فحيوه من فوق

الأسوار بوابل من السهام وقذائف المنجنيقات ، وبوابل آخر من ألفاظ السخرية الوقحة التي اشتهرت بها هذه المدينة في كافة أنحاء العالم[٤٦]. واستشاط المليك غضباً فهجم على المدينة واستولى عليها عنوة ، ونهب كنوزها ، وأحرق جميع مبانيها عدا كنيستها الكبرى ، وذبح عدداً كبيراً من أهلها ، وساق من بقي منهم ليعمروا « أنطاكية » أخرى في بلاد الفرس ، ثم نزل مبتهجاً ليستحم في البحر المتوسط الذي كان في وقت من الأوقات حد دولة الفرس الغربي . وأرسل جستنيان قائده بليساريوس لينقذ بلاده ، ولكن كسرى عبر الفرات على مهل مثقلا بالغنائم ، وفضل القائد الحصيف ألا يتبعه (٥٤١) . وما من شك في أن انتهاء الحروب التي قامت بين الفرس والرومان إلى نهاية غير حاسمة إنما يرجع بعضه إلى تعذر إقامة حامية قوية على ناحية العدو من الصحراء السورية أو جبال طوروس ، وإن كان ما أدخل حديثاً من تحسين على وسائل النقل والاتصال قد جعل الحروب الكبيرة في أمثال تلك الأصقاع مستطاعة في هذه الأيام . وقام كسرى بعدئذ بثلاث غزوات على آسية الرومانية زحف فيها على تلك البلاد زحفاً سريعاً ، وحاصر عدداً من مدنها ، وأخذ منها الفداء والأسرى ، ونهب ريفها ، ثم ارتد عنها في أمان (٥٤٢ — ٥٤٣) وأدى له جستنيان عام ٥٤٢ ألفي رطل من الذهب (نحو ٨٤٠٫٠٠٠ دولار أمريكي) ثمناً لهدنة تدوم خمسة أعوام على أن يؤدي إليه بعد انتهائها ٢٦٠٠ رطل أخرى نظير امتدادها خمسة أعوام جديدة وبعد أن دامت الحرب بين العاهلين الطاعنين في السن جيلا من الزمان تعهد آخر الأمر (٥٦٢) بأن يحتفظا بالسلم خمسين عاماً ، وتعهد جستنيان بأن يؤدي للفرس ثلاثين ألف قطعة من الذهب في كل عام (٧٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكي) ، ونزل كسرى عن حقه في جميع الأقاليم المتنازع عليها في بلاد القوقاز والبحر الأسود .

ولكن كسرى لم يفرغ بهذا من حروبه كلها . فقد أرسل حوالي عام ٥٧٠ بناء على طلب الحميريين المقيمين في الجنوب الغربي من جزيرة العرب جيشاً من

عنده ليخلصهم من الأحباش الذين فتحوا بلادهم . فلما أنجى الفرس الحميريين من الغزاة ، وجد هؤلاء أن بلادهم قد أضحت ولاية فارسية . وكان چستنيان قد عقد حلفاً مع بلاد الحبشة ، ورأى خلفه چستين الثانى أن طرد الفرس للأحباش من جزيرة العرب عمل عدائى موجه له . هذا إلى أن الترك الضاربين على الحدود الشرقية لبلاد الفرس قد اتفقوا سراً أن ينضموا إلى من يهاجمون كسرى . وأعلن چستين الحرب فى عام ٥٧٢ . ونزل كسرى إلى الميدان بنفسه على الرغم من كبر سنه ، واستولى على مدينة دارا الواقعة على الحدود الرومانية ؛ ولكن صحته خانته فهزم لأول مرة حياته (٥٧٨) ، وارتد إلى طيسفون حيث وافته منيته فى عام ٥٧٩ ، ولسنا نعرف سنه بالضبط حين وفاته . وقد امتد حكمه ثمانية وأربعين عاماً كسب فيها كل ما خاضه من الوقائع عدا واقعة واحدة ؛ ووسع حدود إمبراطوريته فى جميع جهاتها ، وجعل بلاد الفرس أقوى منها فى أى عهد آخر بعد عهد دارا الأول ؛ ووهبها نظاماً من الحكم بلغ من شأنه أن العرب حين فتحوا تلك البلاد فيما بعد اتخذوه نظاماً لحكمها دون أن يدخلوا عليه تغييراً يستحق الذكر . ويكاد كسرى أن يكون معاصراً لچستنيان ؛ ولكن معاصريهما مجمعون على أنه أعظم الملكين ، ويعده من جاء بعده من الفرس أقوى من حكم بلادهم فى تاريخها كله وأعظمهم شأناً .

وحكم بعده ابنه هرمز الرابع (٥٧٩ — ٥٨٩) ولكن قائده بهرام قوبين خلعه وأعلن نفسه وصياً على كسرى الثانى ابن هرمز (٥٨٩) ، ثم أعلن نفسه ملكا بعد عام واحد من ذلك الوقت . ولما بلغ كسرى سن الرشد طالب بعرش أبيه ؛ فرفض بهرام طلبه ، ففر كسرى إلى هيرابوليس فى سوريا الرومانية ؛ وعرض عليه الإمبراطور اليونانى موريس أن يعيده إلى ملكه إذا انسحب الفرس من أرمينية . ووافق كسرى على هذا الطلب ؛ وشهدت طيسفون ذلك المنظر العجيب الفذ منظر جيش رومانى يُجلس على العرش ملكا فارسياً (٥٩٦) .

وبلغ كسرى أبرويز (الظافر) درجة من السلطان لم يبلغها ملك آخر من ملوك الفرس منذ أيام خشيارشاى، ومهد السبيل لسقوط دولته ؛ ذلك أنه لما قتل فوقاس موريس وجلس مكانه على العرش أعلن أبرويز الحرب على المغتصب (٦٠٣) انتقاما لصديقه ؛ ولكن الواقع أن الحرب لم تكن إلا تجديدا للنزاع القديم . وكانت الدولة البيزنطية قد مزقها الشقاق والتحزب ، فلم تجد جيوش الفرس صعوبة فى الاستيلاء على دارا ، وآميدا ، والرها ، وهيرابوليس ، وحلب ، وأپاميا ، ودمشق (٦٠٥ — ٦١٣) . وزاد هذا النصر من حماسة أبرويز فأعلن الحرب الدينية على المسيحيين ، وانضم ٢٦٫٠٠٠ من اليهود إلى جيشه ، ونهبت جيوشه المتحدة فى عام ٦١٤ أورشليم ، وقتلت ٩٠٫٠٠٠ من المسيحيين[٤٧] ، وأحرقت كثيراً من كنائسها ومن بينها كنيسة الضريح المقدس ، وأخذ الصليب الحق ، وهو أعز أثر على المسيحيين ، إلى بلاد الفرس . وأرسل أبرويز إلى هرقل Heraclius الإمبراطور الجديد رسالة دينية قال فيها : « من كسرى أعظم الآلهة وسيد الأرض كلها إلى هرقل عبده الغبي الذليل : إنك تقول انك تعتمد على إلهك ، فلم إذن لم ينقذ أورشليم من يدى ؟ »[٤٨] . واستولى جيش فارس على الإسكندرية فى عام ٦١٦ ، ولم يحل عام ٦١٩ حتى دخلت مصر كلها فى حوزة ملك الملوك ، وهو ما لم يحدث لها منذ أيام دارا الثانى . وفى هذه الأثناء كان جيش فارسى آخر يجتاح آسية الصغرى ويستولى على خلقيدون (٦١٧) ؛ ولبثت تلك المدينة فى أيدى الفرس عشر سنين وهى التى لم يكن يفصلها عن القسطنطينية إلا مضيق البسفور . وكان أبرويز فى هذه السنين العشر يدمر الكنائس ، وينقل ما فيها من الآثار الفنية والكنوز إلى بلاد الفرس ويفرض على آسية الغربية من الضرائب الفادحة ما نضب منه معينها وما أعجزها عن مقاومة غزو العرب الذى لم يكن بينها وبينه وقتئذ إلا نحو جيل من الزمان .

ثم ترك كسرى تصريف الحرب لقواده ، وعاد ليتقلب فى اللهو والترف

فى قصره بدستجرد (على بعد نحو ستين ميلا من طيسفون) ، وقضى وقته بين الفن والحب ؛ وجمع المهندسين ، والمثاليين ، والمصورين ، ليجعل عاصمته الجديدة أعظم شأناً من عاصمته القديمة ، ولينحت صوراً مشابهة لشيرين أجمل زوجاته الثلاثة آلاف وأحبهن إلى قلبه . وشكا الفرس قائلين إنها امرأة مسيحية ، وادعى بعضهم أنها قد أدخلت الملك فى دينها ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد سمح لها والحرب الدينية دائرة رحاها أن تنشئ كثيراً من الكنائس والأديرة . ولكن بلاد الفرس التى عمها الرخاء لكثرة ما أفاء عليها من الأسلاب والأرقاء ، كان فى وسعها أن تغفر لمليكها لهوه وترفه ، وفنه ، وتسامحه الدينى ، وترحب بفتوحه وترى فيها النصر النهائى على بلاد اليونان والرومان ، ولأهورامزدا على المسيح . لقد جوزى الإسكندر أخيراً على فعلته ، وانتقم الفرس من اليونان لهزائمهم فى مرثون ، وسلاميس ، وپلاتية ، وأربيلا .

ولم يكن باقياً للإمبراطورية البيزنطية إلا عدد قليل من الثغور الأسيوية وقليل من أرض إيطاليا ، وأفريقية ، وبلاد اليونان ، وأسطول لم يهزم بعد ، وعاصمة محاصرة جن جنونها من الرعب واليأس . ولبث هرقل عشر سنين ينشئ جيشاً جديداً ودولة جديدة من أنقاض الجيش القديم والدولة القديمة . فلما تم له ذلك لم يحاول عبور البسفور إلى خلقيدون بل تجنب ذلك العمل الكثير التفقة والمشقة ، وأبحر بأسطوله إلى البحر الأسود ثم اخترق أرمينية وهاجم بلاد الفرس من خلفها ، ودمر كلورومية Clorumia مسقط رأس زرادشت كما ضرب كسرى من قبل مدينة أورشليم ، وأطفأ نارها المقدسة الخالدة (٦٢٤) . وسير إليه كسرى الجيوش يتلو بعضها بعضا ، ولكن هرقل هزمها جميعا ، ولما تقدم اليونان فر كسرى إلى طيسفون . وآلم قواده ما كان يوجهه إليهم من إهانات فانضموا إلى النبلاء وخلعوه ، ثم سجنوه ولم يطعموه إلا الخبز القفار والماء ، وذبحوا ثمانية عشر من أبنائه أمام عينيه ، وانتهى أمره بأن قتله ابن آخر من أبنائه يدعى شيروى (٦٢٨) .

الفصل الثالث

الفن الساسانى

لم يبق من الآثار ما يدل على ثراء ملوك ساسان ومجدهم إلا بقايا الفن الساسانى ، ولكن هذه البقايا تكفى وحدها لأن تزيد إعجابنا بقدرة الفن الفارسى على البقاء من عهد دارا الأكبر واصطخر إلى عهد الشاه عباس وإصفهان ، وبقدرته على التكيف لمواءمة ما يحيط به من الظروف .

فأما ما بقى من العمارة الساسانية فكله غير دينى ، فقد اختفت من الوجود هياكل النار المقدسة ، ولم يبق قائماً إلا القصور الملكية ، وحتى هذه ليست إلا « هياكل ضخمة »(٤٩) قد تجردت من زمن طويل مما كانت تزدان به واجهاتها من حلى مصنوعة من الجص . وأقدم هذه الخربات كلها ما يسمونه قصر أردشير الأول فى فيروزباد القائمة إلى الجنوب الشرقى من شيراز . ولا يعرف أحد تاريخ بنائه ، ويختلف ظن المؤرخين بين ٣٤٠ ق . م ، ٤٦٠ م . ولا تزال قبة هذا البناء الضخمة بعد أن مضى عليها خمسة عشر قرناً تقلب عليها فى خلالها الحر والبرد ، والسرقات والحروب ، لا تزال هذه القبة باقية إلى الآن تغطى بهواً فسيحاً ، تعلو فى الجو مائة قدم ؛ ويبلغ عرضها خمسا وخمسين قدماً . وثمة مدخل ذو قوس يبلغ ارتفاعه تسعا وثمانين قدماً ، وعرضه اثنتين وأربعين ، يقسم المواجهة التى طولها ١٧٠ قدماً قسمين ، وقد تهدمت هذه الواجهة فى هذه الأيام ، وكانت أقواس صغيرة تؤدى من قطرى البهو المستطيل الأوسط إلى قبة دائرية . وقد ابتدعت طريقة فذة ظريفة لحمل ضغط القبة ، فأقيم جدار مزدوج أجوف ربط إطاره الداخلى والخارجى بعقد دائرى وبذلك زاد الجدار الخارجى من قوة الجدار الداخلى ، ثم زيدت قوة الجدار المزدوج مرة أخرى بدعامات من الخارج مكونة

من أنصاف عمد مربعة مسندة من الحجارة الثقيلة وملتصقة بالبناء . ذلك طراز معمارى يختلف كل الاختلاف عن الطراز القديم ذى العمد الذى كان فى پرسپوليس — وهو طراز فج سمج غير ظريف ولكنه قد استخدمت منه أشكال بلغت كمالها فى كنيسة أياصوفيا التى أقامها چستنيان .

وهناك غير بعيد من هذا الأثر عند سروستان أثر آخر شبيه به وهو مثله لا يعرف تاريخه ويتكون من واجهة ذات ثلاثة أقواس ، وبهو أوسط كبير ، وحجرات واسعة تعلوها قباب بيضية الشكل ، وأقواس دائرية ، وأنصاف قباب لتقوية البناء . وليس ببعيد أن تكون الدعامات الهيكلية التى يسميها المهندسون بالدعامات « الطائرة » المعروفة فى الهندسة القوطية قد تطورت من هذه الأنصاف القباب بأن أزيل منها الهيكل الخارجى الذى تستند إليه[٥١] .

وإلى الشمال الغربى من مدينة السوس توجد بقايا قصر خرب آخر يعرف بالإيوانى خارقه ، وهو أقدم مثل معروف للعقود المستعرضة ذات أضلاع تخترقه من جانب إلى آخر[٥٢] . لكن أروع الآثار الساسانية كلها وأعظمها تأثيراً فى النفس ، أثر بعث لضخامته الرهبة فى قلوب العرب الفاتحين وهو القصر الملكى فى طيسفون وهو الذى يسميه العرب طاق كسرى (الأول) . وربما كان هو البناء الذى وصفه فى عام ٦٣٨ مؤرخ يونانى قال عنه إن چستنيان « بعث إلى كسرى برخام يونانى وصناع مهرة شادوا له قصراً على الطراز الرومانى غير بعيد من طيسفون »[٥٣] . وقد تهدم جناحه الشمالى فى عام ١٨٨٨ ؛ وزالت منه القبة ؛ لكن جدرانه الثلاثة الضخمة ترتفع إلى مائة قدم وخمس أقدام ، وتنقسم واجهة البناء أفقياً إلى خمس بوائك مسدودة . وفى البناء عقد عال أوسط — وهو أعلى العقود الأهليلجية المعروفة وأوسعها ، إذ يبلغ ارتفاعه ٨٥ قدماً وعرضه ٧٢ — يؤدى إلى بهو طوله ١١٥ قدماً وعرضه ٧٥ ، لقد كان الملوك الساسانيون مولعين بالحجرات الواسعة . وهذه الواجهات المخرَّبة تحاكى الواجهات الرومانية التى لا تبلغ درجة كبرى من

الرشاقة أمثال ملهى مرسلس Marcellus ، وتؤثر فى الناظر إليها بروعتها أكثر مما تبهره بجمالها . لكننا لا نستطيع أن نحكم على الجمال الماضى بالخربات القائمة فى هذه الأيام .

وليس أعظم ما يستهوى الإنسان من الآثار الساسانية هو قصور اللبن المحطمة بل هو النقوش المحفورة على جوانب الجبال الفارسية . وقد تطورت هذه الأشكال الضخمة من النقوش الأكيمينية ، وتراها فى بعض الأحيان مجاورة لها فى مكان واحد ، كأن أصحابها قد أرادوا أن يؤكدوا استمرار قوة الفرس وتكافؤ الملوك الساسانيين والأكيمينيين . وأقدم هذه النقوش الساسانية تمثل أردشير يطأ بقدمه عدوا له مطروحا على الأرض وربما كان هذا العدو آخر الأرساسيين . وأجمل من هذا نقشى رستم القريب من اصطخر الذى يخلد ذكرى أردشير ، وشابور الأول ، وبهرام الثانى . وقد صور فيه الملوك كبار الأجسام ولكن أجسامهم كأجسام معظم الملوك والسوقة ، يصعب عليهـا أن تنافس أجسام الحيوانات رشاقتها وتناسب أعضائها وشبيه بهـذا نقشى — رجب ، ونقش آخر عند شابور ، فيهما صور حجرية قوية لشابور الأول ، وبهرام الأول والثانى . وفى طاق البستان القريب من كرمنشاه نرى قوسين قائمين على عمودين محفورين حفراً قليل البروز فى الصخور ، ونقوشاً على وجهى الأقواس من الداخل والخارج تمثل شابور الثانى وكسرى أبرويز يصيدان الوحوش . ونرى الفيلة السمينة ، والخنازير البرية تبعث الحياة فى هذا الحجر الأصم ، وقد بذلت فى تصوير أوراق الأشجار عناية كبيرة ، وحفرت تيجان الأعمدة حفراً جميلا . ولسنا ننكر أننا لا نرى فى هذه النقوش ما نراه فى الحركات اليونانية من رشاقة أو فى الخطوط اليونانية من يسر ونعومة ، وأنا لانجد فيها حرصاً شديداً على الفردية ، ولا عناية بفن المنظور ، كما أنها ليس فيها إلا القليل من مجاراة النماذج المألوفة ؛ ولكنها مع هذا لا تقل عن معظم النقوش الكبرى فى رومة الإمبراطورية عظمة وفخامة ، وقوة وحيوية ورجولة .

ويبدو أن هذه النقوش المنحوتة فى الصخر كانت ملونة ، شأنها فى ذلك شأن كثير من زينات القصور ، ولكن هذه الألوان لم يبق منها إلا آثار قليلة . بيد أن أدب الفرس لا يترك مجالا للشك فى أن فن التصوير قد ازدهر فى عصر الساسانيين ؛ ويقول الكتاب إن النبي مانى أنشأ مدرسة للتصوير ؛ ويحدثنا الفردوسى عن كبار رجال الفرس الذين يزينون قصورهم بصور الأبطال الإيرانيين(٥٤) ؛ ويصف الشاعر البحترى ما كان على جدران قصر المدائن من صور ملونة(٥٥) . وكان من عادتهم أنه إذا مات ملك من ملوك الساسانيين استُدعى أعظم مصور فى زمانه لرسم صورة له تضم إلى مجموعة الصور المحفوظة فى الخزانة الملكية(٥٦) .

واشتركت فى فنون التصوير ، والنحت ، والخزف وغيرها من فنون الزينة مع فن المنسوجات الساسانية فى نقوشها ؛ فقد كانت الأقمشة الحريرية ، والمطرزات ، والمنسوجات الموشاة ، والدمقس المشجر ، والأنسجة المزركشة المعلقة على الجدران ، وأغطية الكراسى ، والسرادقات ، والخيام ، والطنافس ، كانت هذه كلها تنسج بمنتهى الصبر والمهارة ، وتصبغ بصبغات ساخنة صفراء ، وزرقاء ، وخضراء . وكان كل فارسى ، عدا الفلاح والكاهن ، يأمل أن يلبس أحسن مما تمكنه طبقته من لبسه ، وكثيراً ما كانت الهدايا تتخذ شكل أثواب فخمة ، وكانت الطنافس الزاهية الألوان من مستلزمات الثراء فى الشرق من أيام الأشوريين الأقدمين . وقطع النسيج الساسانية التى تزيد على العشرين قطعة ، والتى هى كل ما نجا من عوادى الدهر ، هى أغلى قطع النسيج الباقية فى العالم فى هذه الأيام . ولقد كان العالم القديم كله من مصر إلى اليابان حتى فى عصر المنسوجات الساسانية يعجب بها ويسعى لمحاكاتها ؛ وكانت هذه المنسوجات الوثنية فى أيام الحروب الصليبية تفضل على غيرها من المنسوجات لتلف بها مخلفات القديسين المسيحيين . ولما أن استولى هرقل على قصر كسرى أبرويز فى دستجرد كان من أثمن غنائمه أقمشة مطرزة .

برقيقة ، وطنفسة كبيرة[٥٨] . ومن التحف الذائعة الصيت « طنفسة الشتاء » لكسرى أنوشروان . وقد نقشت هذه الطنفسة لتنسيه نقوشها التى تمثل مناظر الربيع والصيف برد الشتاء . كان فيها أزهار وفاكهة منسوجة من الياقوت ، وكانت فيها ماسات تنمو بجوار جدران من الفضة ؛ وجداول من اللؤلؤ فوق أرضية من الذهب[٥٩] ، وكان مما يفخر به هارون الرشيد طنفسة ساسانية كبيرة مرصعة بالجواهر[٦٠]. وقد بلغ من مهارة الفرس أن كانوا يكتبون قصائد الحب على طنافسهم[٦١] .

ولم يبق من الفخار الساسانى إلا قطع قليلة من ذات الفائدة المادية ، لكن فن الخزف كان فناً راقياً فى أيام الملوك الإكيمينيين ، وما من شك فى أنه لم يمح كله من الوجود فى أيام الساسانيين ، لأنه بلغ ذروة الكمال فى إيران الإسلامية . ويظن إيرنست فنلوز Ernest Fenellosa أن بلاد الفرس قد تكون هى المركز الذى انتشر منه فن الميناء حتى فى بلاد الشرق الأقصى[٦٢] ، ولا يزال مورخو الفن يتجادلون هل فارس الساسانية ، أو سوريا ، أو بيزنطية هى التى أنشأت فن الخزف البرّاق ذى الطلاء الذهبى أو الفضى أو النحاسى ، وفن الميناء ذى الحواجز من خيوط معدنية . وكان صناع المعادن الساسانيون يصنعون جراراً ، وأباريق ، وأقداحاً كأنهم يصنعونها إلى جيل من الجبابرة ؛ وكانوا يديرونها على مخارط ، وينقشونها بالإزميل ، أو يحدثون عليها رسوماً بارزة بطرقها من الداخل ، ويتخذون لها أيادى وأفواهاً على شكل حيوانات تختلف من الديكة إلى الآساد . وفى دار الكتب الأهلية بباريس قدح فارسى ذائع الصيت هو « قدح كسرى » ، له رصيعة من البلور المطعم فى شبكة من الذهب المطروق . وتقول الرواية المتواترة إن هذا القدح كان من الهدايا التى بعث بها هارون الرشيد إلى شارلمان . وليس ببعيد أن يكون القوط قد أخذوا هـذا الفن عن الفرس ونقلوه إلى بلاد الغرب[٦٤] .

وكان صانعو الفضة يصنعون صحافاً قيمة ، ويساعدون الصياغ على صنع الحلى للخاصة والسوقة على السواء رجالاً كانوا أو نساء . وقد بقيت حتى الآن عدة صحاف من عهد الساسانيين فى المتحف البريطانى وفى لنينغراد ، والمكتبة الأهلية بباريس ، والمتحف الفنى بنيويورك ، وتحمل كلها صور ملوك أو نبلاء فى الصيد ، وحيوانات أكثر إتقاناً من الآدميين . وكانت النقود الساسانية تنافس فى بعض الأحيان النقود الرومانية فى جمال منظرها ، كما تشهد بذلك عملة شابور الأول(٦٥) . والكتب الساسانية نفسها يمكن أن تعد من التحف الفنية . وتصف الروايات المتواترة كيف كان الذهب والفضة يجريان من جلود كتب مانى حين أحرقت فى الميادين العامة(٦٦) . وكانت المواد الثمينة تستخدم أيضاً فى أثاث الساسانيين ، يدل على ذلك أن كسرى الأول كانت له منضدة من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة ، وأن كسرى الثانى أرسل إلى منقذه ، الإمبراطور موريس (أو موريق) ، منضدة من الكهرمان ، قطرها خمس أقدام ، ذات قوائم من الذهب ، ومغلفة بالجواهر(٦٧) .

وملاك القول أن الفن الساسانى يكشف عن جهود كبرى بذلت لإنعاشه بعد أن ظل أربعة قرون آخذاً فى الاضمحلال فى عهد البارثيين . وإذا جاز لنا أن نحكم عليه من بقاياه ، قلنا فى شىء من التردد إنه لا يضارع الفن الإكيمينى فى نبله وفخامته ، أو الفن الفارسى الإسلامى فى قوة ابتكاره ورقته وحسن ذوقه ، ولكنه احتفظ فى النقوش البارزة بكثير مما كان له فى الزمن القديم من قوة تبشر بما بلغته موضوعات التحلية من خصوبة فى مستقبل الأيام . وكان هذا الفن يرحب بالأفكار والأنماط الجديدة ، وقد أوتى كسرى الأول من الحكمة ما جعله يستقدم فنانين ومهندسين من اليونان فى الوقت الذى كان يهزم فيه قواد اليونان العسكريين . وقد وفى الفن الساسانى بما عليه من الدين ، فكان يصدر أشكاله وتحفه شرقاً إلى بلاد الهند ، وإلى التركستان والصين ، وغرباً إلى سوريا وآسية

الصغرى ، والقسطنطينية ، والبلقان ، ومصر ، وأسبانيا . ولعل تأثير هذا الفن كان من العوامل التي حولت اهتمام الفن اليوناني من الصور القديمة إلى الحلي البيزنطية ، واهتمام الفن اللاتيني المسيحي من السقف الخشبية إلى العقود والقباب والجدران المسندة المقامة من الآجر أو الحجر . وانتقلت البواكي وأنصاف القباب العظيمة من العمارة الساسانية إلى المساجد الإسلامية وإلى القصور والأضرحة المغولية . ذلك أن التاريخ لا يضيع فيه شيء : فكل فكرة مبدعة تتاح لها إن عاجلا أو آجلا فرصة تخرج فيها إلى الوجود وتتطور ، وتضيف لونها الجديد إلى شعلة الحياة المتقدة .

الفصل الرابع

فتح العـــرب

قتل شروى أباه وتوّج من بعده ملكاً باسم كفاده الثانى ، ثم عقد الصلح مع هرقل ونزل له عن مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وغربى الجزيرة ، وأعاد الأسرى الذين أخذهم الفرس إلى بلادهم ، وردّ إلى أورشليم بقايا الصليب المقدس . وابتهج هرقل — وحق له أن يبتهج — بهذا النصر المؤزر ، ولكنه ، لم يكن يعرف أنه فى اليوم الذى أعاد فيه الصليب المقدس إلى موضعه فى الضريح عام ٦٢٩ قد هاجمت سرية من العرب حامية يونانية بالقرب من نهر الأردن . وفى ذلك العام نفسه فشا وباء فاتك فى بلاد الفرس ، أودى بحياة آلاف من أهلها ومنهم الملك نفسه . وعلى أثر موته نودى بابنه أردشير الثالث — ولم يكن قد جاوز السابعة من العمر — ملكاً على الفرس . لكن قائداً يدعى شهر براز قتل الغلام واغتصب العرش ؛ ثم قُتِل شهربراز نفسه بأيدى جنوده ، وجرّ أولئك الجنود جثته فى شوارع المدائن وهم يصيحون : « هذا مصير كل من جلس على عرش بلاد الفرس ولم يكن يجرى فى عروقه الدم الملكى » ، ذلك أن الجماهير أكثر ملكية من الملوك . وسادت وقتئذ الفوضى فى تلك البلاد التى أنهكتها الحروب مدى ستة وعشرين عاماً ، وفشا فى الدولة التفكك الاجتماعى بعد أن عمها الفساد الأخلاقى بتأثير الثروة التى جاءت فى أعقاب النصر الحربى(٦٨) ، وقام تسعة من الحكام يتنازعون عرش البلاد فى خلال أربع سنوات ، ثم اختفوا كلهم مقتولين أو هاربين أو ميتين ميتة طبيعية شاذة ؛ وأعلنت بعض الولايات ، بل بعض المدن نفسها ، استقلالها عن الحكومة المركزية بعد أن عجزت هذه الحكومة عن بسط سـلطانها على البلاد . ووضع

التاج فى عام ٦٣٤ على رأس يزدجرد الثالث سليل بيت ساسان وابن جارية زنجية(٦٩) .

وفى عام ٦٣٢ توفى محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أنشأ دولة عربية جديدة ، وتلقى عُمر خليفته الثانى ، رسالة من المثنى قائده فى سوريا ، يبلغه فيها أن الفوضى ضاربة أطنابها فى بلاد الفرس وأنه قد آن الأوان للاستيلاء عليها(٧٠) . وعهد عمر هذا العمل إلى خالد بن الوليد أعظم قواده جميعاً . وزحف خالد بإزاء الساحل الجنوبى للخليج الفارسى على رأس قوة من العرب البدو الذين ضرستهم الحروب والراغبين أشد الرغبة فى الغنائم(*) ، ثم أرسل رسالة إلى هورمزد حاكم الولاية القائمة على الحدود الفارسية يقول له فيها : « أسلم تسلم » .

ودعاه هورمزد إلى المبارزة وقبل خالد دعوته وقتله . وتغلب المسلمون(٧١) على كل ما واجهوه من مقاومة حتى وصلوا إلى نهر الفرات ، ثم استدعى خالد لينقذ جيشاً عربياً فى جبهة أخرى ، وتولى المثنى قيادة العرب ، وعبر النهر على جسر من القوارب . وعهد يزدجرد ، وكان لا يزال شاباً فى الثانية والعشرين من العمر ، بالقيادة العليا إلى رستم والى خراسان ، وأمره أن يجند قوة ضخمة ينقذ بها الإمبراطورية . والتقى الفرس بالعرب فى موقعة الجسر وهزموهم وأخذوا يطاردونهم مطاردة فيها كثير من التهور . وأعاد المثنى تنظيم صفوفه وهزم فى واقعة البويب الجيش الفارسى المختل النظام وأفناه عن آخره تقريباً (٦٢٤) . وكانت خسائر المسلمين فى هذه المعركة فادحة ، فقد مات المثنى متأثراً بجراحه ، ولكن الخليفة أرسل قائداً آخر أقدر منه يدعى سعد بن أبى وقاص على رأس جيش جديد قوامه ثلاثون ألف رجل . ورد يزدجرد على هذا بأن أنزل إلى الميدان جيشاً مؤلفاً من ١٢٠,٠٠٠ من الفرس . وعبر بهم رستم نهر الفرات وعسكر عند القادسية

(*) وكان حقاً على المؤلف أن يضيف إلى ذلك قوله : والعامرة قلوبهم بالدين والراغبين فى الاستشهاد فى سبيله . (المترجم)

حيث دارت معركة من أعظم المعارك الحاسمة فى تاريخ آسية وأشدها هولا ، دامت أربعة أيام . وهبت فى اليوم الرابع عاصفة رملية فى وجوه الفرس ، واغتنم العرب هذه الفرصة وحملوا على أعدائهم الذين أعمتهم الرمال حملة صادقة ، قتل فيها رستم ومزق جيشه شر ممزق (٦٣٦) . وزحف سعد بجنوده دون أن يلقى مقاومة تذكر حتى وصل إلى نهر دجلة ، واجتازوه ودخل المدائن .

وذهل العرب السذج الأشداء حين وقعت أعينهم على القصر الملكى وأدهشتهم عقوده الفخمة ، وبهوه الرخامى العظيم ، وطنافسه الكبيرة ، وعرشه المطعم بالجواهر ، وقضوا أربعة أيام يحاولون فيها جمع غنائمهم . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله نهى عمر سعداً عن متابعة الزحف نحو الشرق وقال له إن فى العراق ما يكفى[٧٢]. ووافق سعد على أمر الخليفة وقضى الثلاث السنين التالية يوطد دعائم حكم العرب فى أرض الجزيرة . وكان يزدجرد فى هذه الأثناء ينشئ فى ولاياته الشمالية جيشاً جديداً قوامه ١٥٠٫٠٠٠ مقاتل . وبعث عمر لملاقاته ٣٠٫٠٠٠ من رجاله ، والتقى الجيشان عند نهاوند ، وهزم العرب الفرس بفضل مهارتهم فى الفنون العسكرية فى معركة « فتح الفتوح » وقتل من الفرس فى هذه المعركة ١٠٠٫٠٠٠ ضيق عليهم العرب فى مضيق بين جبلين (٦٤١) ؛ وسرعان ما سقطت بلاد الفرس كلها فى أيدى العرب ، وفر يزدجرد إلى بلخ وطلب إلى الصين أن تمد له يد المعونة ؛ ولكن الصين لم تجبه إلى طلبه ، ثم عاد فطلبها إلى الترك ، فأمدوه بقوة صغيرة ، لكن الجنود الترك قتلوه طمعاً فى جواهره حين هم بالزحف ليبدأ الحرب من جديد (٦٥٢) ؛ وبذلك انتهى عهد الساسانيين فى فارس .

المراجع مجملة

Abbott, G. F., Israel in Egypt, London, 1907.

Abbott, Nabia, Two Queens of Baghdad, Univ. of Chicago Press. 1946.

*Abélaed, P., Historia Calamitatum, St Paul, Minn, 1922.
Ouvrages inédits, ed. V. Cousin, Paris, 1836.

Abrahams, J., Chapters on Jewish Literature, Phila., 1899.
Jewish Life in the Middle Ages, Phila., 1896.

Abu Bekr ibn Tufail, The History of Hay ibn Yaqkzan tr. Ockley. N.Y., n.d

Ackerman, Phyllis, Tapestry, the Mirror of Civilization, Oxford Univ. Pres, 1938

Adams, B.. Law of Civlisation and Decay, N. Y., 1921

*Adams, H , Mont St. Mjchel and Chartres, Boston, 1926.

Addison, J. D., Arts and Crafts in the Middle Ages, Boston, 1908.

Ali, Maulana Muhammad, The Religion of Islam, Lahore 1936.

Al Tabari, The Book of Religion and Empire, N., Y., 1922.

Ameer Ali, Syed, The Spirit of Islam, Calcutta, 1900.

Ammianus Marcellinus, Works, Loeb Lib., 1935. 2v.

Andrae, Tor, Mohammed, tr. Menzel N. Y., 1936.

Anglo-Saxou Chronicle. tr. Ingram, Everyman Lib.

Anglo-Savon Poetry, ed. R. K. Gordon Everyman Lib.

Archer, T. A., and Kingsford, C.L, The Crusade, N. Y., 1895.

*Aristotle, Politics' tr. Ellis, Everyman Lib.

Armstrong, Sir Walter, Art in Great Britain and Ireland, London, 1919.

Arnold, M., Essays in Criticism, First Series, N. Y., n. d. Home Lib.

Arnold, Sir T. W., Painting in Islam, Oxford 1928.
The Preaching of Islam, N. Y., 1913.
and Guillaume, A. . The Legacy of Islam, Oxford, 1931.

Ashley, W. J., Introduction to English Economic History and Theory, N.Y., 1894f, 2v.

Asiny Palacios, M., Islam and the Divine Comedy, London, 1926

Asser of St. David's, Annals of the Reign of Alfred the Great, in Giles, J.A.

*Aucassin And Nicolette, tr. Mason, Everyman Lib.

Augustne. St., The City of God, tr. Healey, London, 1934.
* Confessions, Loeb Lid. 2v.
Letters, Loeb Lib.

Ausonius, Poems, Loeb Lib. 2v.

Averroës, A Decisive Discourse on . . . the Relation Between Religion and Philosophy, and An Exposition of the Methods of Argument Concerning the Doctrines of Faith, Baroda, n. d.

Avicenna, Canon Medicinae, Venice, 1908.

Bacon, Rager, Opus majus, tr. Burke, Univ. of Penn. Press, 1928. 2v,
Bader, G., Jewish Spiritnal Heroes, N. Y., 1940. 3v.
Boedeker, K., Northern Italy, London, 1913.
A - Baladhuri, Abu -l Abbas Ahmad, Origins of the Islamic State; tr. Hitti, Columbia Univ. Press, 1916.
Barnes, H E., Ecomic History of the Westen World N. Y., 1942.
History of Western Civlization, N. Y 1935. 2v.
Baron, S. W., Social and Religious History of the Jews, Columbia Univ. Pres, 1937. 8v.
ed , Essays on Maimonides, Columbia Univ. Press, 1941.
Beard, Miriam, History of the Business Man, N. Y., 1938.
Bebel, A., Woman under Socialism, N. Y., 1938.
Becker, C. H., Christianity and Islam, London, 1909
Bede, Ven , Ecclesiastical History of England, ed. King, Loeb Lib.
Beer M., Social Struggles in the Middle Ages, London, 1924.
Belloc, H., Paris, N. Y., 1907.
Benjamin of Tudela, Travels; cf. Komroff, M., Contemporaries of Marco Polo.
Bevan, E.R., and Singer. C., The Legacy of Israel, Oxford, 1927.
Bieber, M., History of the Greek and Roman Theater, Princeton Univ. Press, 1989.
Al - Biruni, Chronology of ancient Nations, tr. Sachau, London, 1879.
India, London, 1910. 2v.
Blok, P. J., History of the People of the Netherlands, N. Y., 1898. 3v.
Boer, T. J. de, History of Philosophy in Islam, London, 1903.
*Boethius, Consolation of Philosophy, Loeb Lib.
Boissier, G. La fin du paganisme, Paris, 1918, 2v.
Boissonnade, P., Life and Work in Medieval Europe, N. Y., 1927.
Bonaventure, St., Life of St. Francis, in Little Flowers of St. Francis, Everyman Lib.
Bond, Fr., Gothic Architecture in England. London 1906.
Wood Carving in English Churches, London, 1190 2v.
Bouchier, E. S., Life and Letters in Roman Africa, Oxford 1918.
Brehaut, E., An Encyclopedist of the Dark Ages. N. Y., 1912.
Bridges, J. H , Life and Work of Roger Bacon, London, 1914.
Briffault, R., The Mother, N. Y., 1927. 3v.
Bright, W., Age of the Fathers, N. Y., 1903. 2v.
Brittain, A., Women of Early Chistianity, Phila., 1907.
Broglie, Duc, de, St. Ambrose, London, 1899.
Brown, P. Hume, History of Scotland, Cambridge Univ. Press, 1929, 3v.
Browne, Lewis, ed., The Wisdom of Israel N. Y., 1946.
Bryce, Jas., The Holy Roman Empire, N. Y , 1921,

Bukhsh, S. K., The Orient under the Caliphs, translated from A. Von Kremer's *Kulturgeschbichte des Orients,* Calutta, 1920.
Studies : Indian and Islamic, London, 1227.

Bulletin of The Iranian Institute, N.Y.

Burton, Sir R. F., The Jew, the Gypsy, and El Islam, Chicago, 1898.
Personal Narrative of a Pilgrimage to al - Madinah and Meccah, London, 1893, 2v.

Bury, J. B., History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.
History of the Later Roman Empire, London, 1923. 2v.
Life of St. Patrick, London, 1905.

Butler, P., Women of Medieval France, Phila., 1908.

Calvert, A. F., Cordova, London, 1907.
Moorish Remains in Spain, N Y., 1906.
Seville, London, 1907.

Cambridge AacientHistory, N. Y., 1924. 12v.

Cambrice Medieval History, N.Y., 1924f 8v.

Campbell, D., Arabian Medicine, London 1926. 2v.

Capes, W.W , University Life in Ancient Athens, N. Y., 1922.

Carlyle, R. W., History of Medieval Political Theory in the West, Edinburgh, 1928 5v.

Carlyle Th., Past and Present, in Works, Collier ed., N. Y. 1901. 20v.

Carter, T.F., The Invention of Printing in China, N.Y., 1925.

Cassiodorus, Letters, ed. Hodgkin, London, 1886.

Castiglione, A., History of Medicine, N. Y., 1941.

Cotholic Encyclopedia , N.Y.. 1912. 16v.

Chambers, E. K., The Medieval Stage, Oxford, 1903. 2v.

Chapman, C. E., History of Spain, founded on the *Historia de Espana* Rofaei Altamira, N.Y., 1930.

Chardin, Sir J., Travels in Persia, Londen, 1927.

Chateaubriand, Vicomte de, The Genius of Christianity, Baltimore, n.d.

Clapham, J. H., and Power, Eileen, Cambridge Economic History of Europe, Vol. I, Camb. Univ Press, 1944.

Cbrétien de Troys, Arthurian Romances, London, Everyman Lib.

Claudian, Poems, Loeb Lib. 2v.

Clayvijo, Gonalez de, Embassy to Tamberlane, 1403-6. N.Y., 1928.

Clayton, J., Pope Innocent III and His Times, Milwoukee, 1941.

Collingwood, R. G., and Myres, J. L., Roman Britain, Oxford 1937.

Connick, C. J., Adventures in Light and Color N. Y. 1937.

Coulton, G. G., Chaucer and His England, London, 1921.
Five Centuries of Relgion, Camb. Univ. Press, 1923. 3v.
From St. Francis to Dante : a tr. of the Chronicle of Salimbene, London, 1908
The Inquisition. N.Y., 1929.

Inquisition and Liberty, London 1938.
Life in the Middle ages. Camb. Univ. Press, 1930. 4v.
Medieval Panorama. N. Y., 1944.
The Medieval Science, Camb. Univ. Press, 1930.
The Medieval Village. Camb. Univ. Press, 1925.
Social Life in Britain from the Conquest to the Reformation, Camb Univ. Press. 1938.

Cram, R.A., The Substance of Gothic, Boston, 1938.

Creswell., K.A , Early Muslim Architecture, Oxford, 1932. 2v.

Cronyn, G., The Fool of Veuus : the Story of Peire Vidal, N.Y., 1934.

Crump, C.G., and Jacob, E.F., The Legacy of the Middle Ages, Oxford, 1926.

Cunningham, W., The Growth of Eglish Industry and Commerce, Camb. Unlv. Press. 1806.

Cuts. E. L , St. Jerome, London, S.P.C.K , n.d.

Dalton, O.M., Byzantine Art and Archeology, Oxford, 1911.

Dante, Eleven Letters, tr. Latham, Boston, 1891.
De Monarchia, tr. Henry, Boston, 1904.
Il Eourvito, tr. Sayer, London, 1887.
La Commedia, ed. Toynbee, London! 1900.
La Vita Nuova, tr. D. G. Rossetti, Portland, Mc., 1898.
The Vision of (The Divine Comedy). tr. Cary, Everyman Lib.

'D'Arcy, M.C , Thomas Aquinas, London, 1930.

Dasent, G., tr., Story of Burnt Njal, Evryman Lib.

Davis, H. W. C., ed., Medieval England, Oxford, 1928.

Davis Wm. S , Life on a Medieval Baroy, N. Y., 1928.
and West, W. M., Readings in Ancient History, Boston, 1912 2v

Dawson, Christopher, The Making of Europe, N.Y., 1932.

Day, Clive, A History of Commerce, London, 1926.

Dennis, G., Cities and Cemeteries of Etruria, Everyman Lib, 2v.

De Vaux, Baron Caron Carra, Les penseurs de l'Islam, Paris 1921. 5v.

De Wulf, M., History of Medieval Philosophy, London, 1925. 2v.
Philosophy and Civilization in the Middle Ages, Princetion Univ Press. 1922.

Dhalla, M. N., Zoroastrian Civilization, Oxorord, 1922.

Diehl, C., Byzantine Portrait, N.Y., 1926.
Manuel d'art Byzantin, Paris, 1910.

Diesendruck, Levi Maimonides and Thomas aquinas, in N.Y. Public Library Pamphlets, v. 372.

Dieulafoy, M. Art in Spain and Portugal, N.Y. 1913.

Dill, Sir S., Roman Society in Gaul in the Merovingian Ages, London 1926.
Romou Society in the Last Century of the Western Empire, London, 1906.

Dillon, E., Glass, N. Y., 1907.

Dimand, M. S., Handbook of Muhammedan Art. N. Y., 1944.

Dopsch, A., Economic and Social Foundetions of European Civilization,. N. Y., 1937.

*Doughty, Chas. M. Travels in Arabia Deserta, N. Y., 1923. 2v.

Dozy, R., Spanish Islam, N. Y., 1913.

Draper, J. W., History of the Intellectual Development of Europe, N. Y.,. 2v.

Druck, D., Yehuda Halevy, N. Y., 1941.

Dubnow, S.M., History of the Jews in Russia and Poland, Phila., 1916. 3v.

DuChaillu, P., The Viking Age, N. Y., 1889. 2v.

Duchesne, L., Early History of the Christian Church, London. 1933. 3v.

Dudden, F. H, Gregory the Great, London, 1905. 2v.

Duhem, P., Le systeme du monde, Paris, 1913. 5v.

Eginhard, Life of Charlemagne, N. Y. 1880.

Encyclopaedia Britannica, 14th ed.

Erigena, John Scotus, On the Divisiou of Nature, Book I, Annapolis, Md.,. 1940.

Eunapius, Lives of the Sophists, in Philostratus, Everyman Lib.

Farmer, H. G, History of Arabian Music, London, 1929.

Faure, E, History of Art. N. Y., 1921. 4v. Vol. III : Medieval Art.

Fenollosa, E. F., Epochs of Chiuese and Iapanese Art. N. Y., 1921. 2v.

Fergusaon, J., History of Arehitecure in All Couutries, London, 1874. 2v.

Fiedler. H. G., ed., Das Oxforder Buch Deutscher Dichunh, Oxford, 1926.

Figgis, J.N., Poiltical Aspects of Str. Augustine's City of God, London, 1921.

Finlay, G., Greece under the Romans, Everyman Lib.

History of Grece, Oxford, 1877. 7v.

Firdousi, Epic of the Kings, retold by Helen Zimmern, N. Y., 1883.

Shah Nameh, in Gottheil, R., Literature of Persia, N.Y., Vol.I.

Fisher, H. L., The Medieval Empire, London, 1898. 2v.

Foakes-Jackson, F. and Lake, K., Beginning of Christianity, London, 1920. 3v.

Erancke, K, History of German Literature, N. Y. 1901.

Frank, T., ed., Economic Survey of Ancient Rome, Baltimore, 1933f. 5v.

Frazer, Sir J., Adonis, Attis, Osiris, London, 1907.

The Magic Art, N. Y., 1935. 2v.

Freeman, E. A., Historical Essays, First Series, London. 1896.

History of the Norman Conquest of England, Lonpon 1870. 4v.

French Classics, ed. Perier, Paris, Librairie Hatier, n. d.

Friedänder. L Roman Life and Manners under the Early Empire. London.. n. d. 4v.

Funk, F. X., Manual of Church History, London, 1910. 2v.
Gabirol, Solomon Ibn, The Improvement of the Moral Qualities, tr. and Introd. by Stephen S. Wise, N. Y., 1902.
Selected Religious Poems, tr. Israel Zangwill, Phila. 1923.
Gardiner, E. N., Athletics of the Ancient World, Oxford, 1930.
Gardner, Alice, Julian, Philosopher and Emperor, N. Y., 1895.
Garrison, F., History of Medicine, Phila., 1929.
Gasquet, A., Cardinal, Monastic Life in the Middle Ages, London, 1922.
Geoffrey of Monmouth, British History, in Giles, Six Chronicles.
Gest, A. P., Roman Engineering, N. Y., 1930.
Gesta Francorum, ed. Brehier, Paris, 1924.
Al-Ghazali, Abu Hamid, The Alchemy of Happiness, tr. Field, London, 1910.
Some Religious and Moral Teachings, tr. Nawab Ali, Baroda, 1920.
Gibbon, Ed., Decline and Fall of the Roman Empire, Everyman Library, 6v. ed. J. B. Bury, London, 1900. 7v.
Gildas, Works, in Giles, Six Chronicles.
Giles, J. A., Six Old English Chronicles, London, 1848.
Gilson, E., La philosophie au moyen âge, Paris, 1922. 2v.
La hilosophie au moyen âge, Paris, 1947.
Philosophy of St. Bonaventure, N. Y., 1938.
Reason and Revelation in the Middle Ages, N. Y., 1938.
Giraldus Cambrensis, Itinerary through Wales, (and Description of Wales, Everyman Lib.
Glover, T. R., Life and Letters in the Fourth Century, N. Y., 1924.
Gordon, R. K., ed., see Anglo - Saxon Poetry.
Gottheil, R J., ed., Literature of Persia, N. Y., 1900. 2v.
Grabmann, M., Thomas Aquinas, N. Y., 1928.
Graetz, H., History of the Jews, tr. Bella Löwy, Phila., 1891f. 6v.
Green, J. R., Conquest of England, London, 1884.
The Making of England, London, 1882.
Short History of the English People, London, 1898. 3v.
Gregory of Tours, History of the Franks, tr. Brehaut, N. Y., 1916.
Grousset, R., Civilizations of the East, London, 1931 ; Vol. I : The Near and Middle Eeast.
Grov's Dictionary of Music and Musicians, N. Y., 1928 5v.
Gruuebaum, G. von, Medieval Islam Univ. of Chicago Press, 1946.
Gruner, O.C., Treatise on the Canon of Medicine of Avicenna, London, 1930.
Guibert of Nogent, Autobiography, London, 1925.
Guignebert, C., Christianity Past and Present, N. Y., 1927.
Guillaume, A., The Traditions of Islam, Oxford, 1924.
Guizot, F., History of Civilization, London, 1898. 3v.
History of Frace, London, 1872. 8v.

Halevi, J., Kitab alKhazari, tr. Hirschfeld, London 1931.
Selected Poems, tr. Nina Salaman, Phila., 1928.
Hammerton, J. A., ed., Universal History of the World, London, n.d. 8v.
Haskins, C. H., The Normans in Eurppean History, Boston, 1915.
The Renaissance of the Twelfth Century, Harvard Univ. Press, 1928.
Studies in Medieval Culture, Oxford, 1929.
Hastings, J., ed., Encyclopedia of Religion and Ethics, N. Y., 1928. 12v.
Haverfield, F., Roman Occupation of Britain, Oxford, 1924.
Hazlitt, W. C., The Venetian Republic, London, 1900. 2v.
Headlam, C., Story of Chartres, London, 1908.
Story of Nuremberg, London, 1911.
Hearnshaw, F., Social and Political Ideas of Some Great Medieval Thinkers. N. Y., 1923.
Medieval Contributions to Modern Civilization, N. Y., 1922.
Heath, Sir Thos., History of Greek Mathematics, Oxford, 1921. 2v.
Hebraic Literature, translations from the Talmud, Midrashim, and Cabala, London 1901.
Hebrew Literature, ed. Epiphanius Wilson. N. Y., 1901.
Hefele, C. J., History of the Christian Councils, Edinburgh, 1894. 5v.
Heitland, W., Agricola, Comb. Univ. Press, 1921.
Hell, Jos, The Arab Civilization, Camb. Univ. Press, 1926.
Higham, T., aud Bowra, C, Oxford Book of Greek Verse, Oxford, 1930.
Himes, N., Medical History of Contaaception, Baltimore, 1936.
Hitler, A., Mein Kampf, N. Y., 1939.
Hitti, P. K., History of the Arabs, London 1937.
Hodgkin, T., Italy and Her Invaders, Oxford, 1892. 7v.
Charlemagne, N. Y., 1902.
Holinshed, Chronicle, Everyman Lib.
Home, G. Roman London, 1926.
Hoover, H., and Gibbons, H.A., Conditions of a Lasting Peace, N.Y.,1939.
Hopkins, C. Edward, The Share of Thomas Aquinas in the Growth of the Witchcraft Delusion, Univ. of Penn., 1940.
Horn, F. W., History of the Literature of the Scandinavian North, Chicago, 1895.
Houtsma, M., ed., Encyclopedia of Islam, London, 1908 - 24.
Howard, C., Sex Worship, Chigago, 1909.
Hulme, E. M., The Midble Ages, N. Y., 1938.
Hume, David, History of England, N. Y., 1891. 6v.
Hume, Martin, The Spanish People, N. Y., 1911.
Hurgronje, C., Mohammedanism, N. Y., 1916.
Husik, I., History of Medieval Jewish Philosophy, N. V., 1930.
Hyde, Douglas, Literary History of Ireland, London, 1899.
Iacopo de Voragine, The Golden Legend, tr. Wm. Caxton, Cambridge Univ. Press, 1914.

Ibn Khaldoun, Les prolégoménes, tr. en français par M. de Slane, Paris, 1934. 3v,
Ibn Khallikan, M., Biographical Dictionary, tr. M. de Slane, Paris 1843, 2v
Inge, W. R., Philosophy of Plotinus, London, 1929 2v,
Irving, W., Alhambra, N. Y., 1925,
. Life of Mahomet, Everyman Lib,
Jackson, Sir T., Byzantine and Romanesque Architecture, Camb. Univ. Press, 1920. 2v,
Gothic Architecture in France, England, and Italy, Camb. Univ. Press, 1915. 2v,
Jalal ud - Din Rumi, Selected Poems, ed, & tr, R. A. Nicholson, Camb. Univ. Press, 1898,
James, B., Women of England, Phila, 1908.
Jeuks, Edw., Law and Politics in the Middle Ages, N. Y., 1898.
Jerome, St., Select Letters, tr. Wright. Loeb Lib.
*Joinville' Jean de, Chronicle of the Crusade of St. Louis, Everyman Lib.
Jordanes, Gothic History Princeton Univ. Press, 1915,
Jörgensen, J., St. Francis of Assis, N. Y., 1940,
Joseph Ben Joshua Ben Meir, Chronicles, London, 1858, 2v.
Joyce, P., Short History of Ireland, London, 1924.
Julian, Works, Loeb Lib. 3v.
Jusserand, J. J, English Wayfaring Life in the Middle Ages, London, 1891.
Justiniani Institutionum Libri Quattuor, ed. Moyle, Oxford Univ. Press, 1888, 2v.
Kantorowicz, E., Frederick the Second, London, 1931,
Kellogg, J. H., Rational Hydrotherapy, Battle Creek, Mich., 1928.
Ker, W. P., Epic and Romance, London, 1897.
Kirstein, L., Dance : a Short History, N. Y., 1953.
Klausnet, J. From Jesus to Paul, N, Y., 1948,
Kluchevsky, V , History of Russia, London, 1912, 3v,
Komoff, M , Contemporaries of Marco Polo, N. Y., 1937,
Kroeger, A., The Minnesinger of Germany, N. Y., 1873.
Lacroix, Paul, Arts of the Middle Ages, London, n. d.
History of Prostitution, N. Y., 1931, 2v.
Manners, Customs, and Dress during the Middle Ages, N. Y., 1876.
Military and Religious Life in the Middle Ages, London, n.d.
Science and Literature in the Miedle Ages, London, n.d.
Lanciani. R., Ancient Rome, Boston, 1889.
Lane, Edw., Arabian Society in the Middle Ages, London, 1883.
Lane - Poole, S., Art of the Sarracens in Egypt, London, 1886.
Cairo, London, 1895.

Saladin, London, 1920
Specetches and Table Talk of the Prophet Mohammed London, 1882.
Story of he Moors in Spaint, N.Y., 1889.
Studies in a Mosque, London, 1883.
Lange, P. H., Music in Western Civilization, N.Y., 1941. A model of scholarship and style.
Lavisse, E., Histoire de France, Paris. 1900f. 18v.
Les, H.C., Historical Sketch of Sacerdodal Celibacy, Boston, 1884.
History of the Auricular Confession, Phila. 1886. 3v.
History of the Inqnisition in the Middle Ages, N.Y., 1888. 8v.
History of the Inquisition in Spain. N.Y., 1906. 4v.
Superstition and Force, Phila., 1892.
Lecky, W.E., History of European Morals, N.Y., 1926. 2v.
Le Stange, G., Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford, 1924.
Palestine under the Moslems, Boston, 1890.
Lethaby, W. Medieval Art, London, 1904.
Lonnrot, E., Kalevala, Everyman Lib. 2v.
Little, A. G., ed., Roger Bacon Essays' Oxford 914.
Little Flowers of St Francis, Everman Lib.
Lorris, W., and Jean Clopinel de Meung, The Romance of the Rose, London, 1931. 3v.
Lot, F., The End of the Ancient World. N.Y. 1931.
Louis, Paul, Ancient Roment Work, N Y., 1927.
Lowie, R., Are We Civilized?. N.Y., 1929.
Lützow, Count von, Bohemia, an Historical Sketch, Everymau Lib.
Lyra Graeca, ed. and tr. by J.M. Edmonds, Loeb Lib. 3v.

Mabinogion, tr. Lady Charlotte Guest, Everyman Lib.
Macdonald, D. B., Aspects of Islam, N.Y., 1911.
Development of Muslim Theology, Jurisprudene, and Constitutional Theory, N.Y., 1903.
Religious Attitude and Life in Islam, Chicago, 1909.
MacLaurin, C., Mere Mortals, N.Y., 1925, 2v.
Macrobii, Opera acceduut integra, London, 1694.
Mahaffy, J.P., Old Greek Education, N.Y., n.d.
Maimondides, Guide to the Perplexed, tr. Friedländer, London, 1885. 3v.
Mishneh Torah; Book I, tr. Hyamson, N.Y., 1937.
Maine, Sir H., Ancient Low, Everyman Lib.
Maitland, S.R.. Dark Ages, London, 1890.
Al-Makkari, Ahmed, History of the Mohammedan Dynasties in Spain, tr. de Gayangos London 1840. 2v.
Mâle, É., L'art religieux du XIIIme siècle en France Paris, 1902.
Malter, H., Saadia Gaon, Phila., 1921.
Mantzius, K., History of Theatrical Art, London, 1903f. 6v.

Marcus Aurelius, Meditations, tr. Long. Boston, 1876.
Marcus, J., The Jew in the Medieval World, Cincinnati, 1938.
Margoliouth, D. S., Cairo, Jerusalem, and Damascus, N.Y., 1907.
Mohammed and the Rise of Islam, N Y., 1905.
Maritain, I., The Angelic Doctor, N.Y., 1940.
Al-Masudi, Abu-l-Hasan, Meadows of Gold and Mines of Gems, tr. Sprenger, London, 1841.
Matthews, B., Development of the Drama, N. Y., 1921.
Movor, J., Economic History of Russia, London, 1925. 2v.
May, Sir T., Democracy in Europe, London, 1877. 2v.
McCobe, J., Crises in the History of the Papacy, N.Y., 1961.
Empresses of Constantinople, Boston, n.d.
St. Augustine and His Ages, N.Y., 1903.
Story of Religious Controversy, Boston, 1929.
McKinney, H., and Anderson, W., Music in History, Cincinnati, 1940.
Michelet, J., de, History of France, N.Y., 1880. 2v.
Migeon, G., Les arts musulmans, Paris, 1922. 2v.
Migeon, G., Les arts musulmans, Paris, 1922. 2v.
Milman, H., History of Lain Christianity, N. Y., 1860. 8v.
Mirror of Perfection, in Little Flowers of St. Francis.
Molmenti, P., Venice, London, 1906. 6v.
Mommsen, Th., Provinces of the Roman Empire, N.Y., 1887. 2v.
Monroe, P., Source Book of the History of Education for the Greek and Roman Period, N. Y., 1932.
Montalembert. Count de, The Monks of the West, Boston, n.d. 2v.
Montesquieu, Chas, Boron de, Spirit of Laws, N.Y., 1899. 2v.
Moore, C. H., Development and Character of Gothic Architecture, London, 1889.
Moore, G. F., Judaism in the First Centuries of the Christiau Era, Cambridge, Mass , 1932. 2v.
Morey, Chas, Medieval Art, N. Y., 1294.
Muir, Sir W., The Caliphate, London, 1891.
Life of Mohammed, Edinburgh, 1912.
Müller-Lyer, F., Evolution of Modern Marriage, N.Y., 1930.
Mumford, Lewis, Technics and Civilization, N.Y., 1934.
Munk, S., Mélanges de philosophie juive et arabe, Paris, 1859.
Munro, D. C. and Sellery, G.C., Medieval Civilization, N.Y, 1926.
Murray, A. S., History of Greek Sculpture, London, 1890. 2v.

Nennius, History of the Britons, in Giles, Six Chronicles.
Neuman, A. A., The Jews in Spain, Phila, 1942. 2v.
Newman, Louis, and Spitz, S., The Talmudic Anthology, N.Y., 1945.
Nicholson, R. A., Literary History of the Arabs, Camb. Univ. Press, 1930.
The Mystics of Islam, Camb. Univ. Press, 1922.
Studies in Islamic Mysticism, Camb. Univ. Press, 1921.
Studies in Islamic Poetry Camb. Univ. Press, 1921.

Translations of Eastern Poetry and Prose, Camb. Univ. Press, 1922.

Nickerson, H., The Inquisition, Boston, 1923.

Nietzsche, F., Beyond Good and Evil, N Y., 1923.

Nöldeke, Th., Sketches from Eastern History, London, 1802.

Nun's Rule, being the Ancren Riwle modernized, by Jas. Morton, London, 1296.

Oestèrley, W., and Box, G., Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism, London, 1920.

Ogg, F., Source Book of Medieval History, N.V., 1907.

O'Leary DeLacy, Arabic Thought and Its Place in History, London, 1922.

OMAN, C.W., The Byzantine Empire, London, 1802.

Oxford History of Music Oxford 1929f. 7v.

Paetow, L., J., Guide to the Study of Medieval History, N.Y., 1931.

Palmer, E.H., The Caliph Haroun Alraschid, N.Y., n.d.

Panofsky, Erwin, Abbot Suger, Princeton, 1948.

Paris, Matthew, English History from the Year 1235 to 1273, tr. Giles,. London, 1852. 3v.

Paul The Deacon, History of the Longobards. tr. Foulke, Univ. of Penn., 1907.

Pauphilet, A., ed., Jenx et saplence du moyen âge, Paris, 1940.

Persian Art. Souvenir of the Exibition at Burlington Honse, London, 1931.

Philby, H. St. John, A Pligrim in Arabia Golden Cockerel Press, n.d.

Pickthall, Marmaduke, The Meaning of the Glorious Koran N. Y, 1930.

Pirenne, H, Economic and Social History of Medieval Europe, N.Y., n.d.

History of Europe from the Invasions to the Sixteenth Century, N. Y. 1939.

Medieval Cities, Princeton, 1939.

Mohammed and Charlemagne. N.Y, 1930.

Plrennne, J, Les grands courants de l'histoire universelle, Neuchâtel 1964. 3v.

Pliny The Elder, Natural History, London, 1855. 6v.

Plymmer, C., Life and Times of Alfred the Great, Oxford, 1902.

Pokrovsky, M, History of Russia, N.Y., 1931.

Pollock, F., and Maitlaud, F., History of English Law before Edward I, Camb, Univ, 1895. 2v.

*Polo, Marco, Travels, ed Komoroff, N.Y. 1026.

Poole, R. L., Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning, N.Y. 1920.

Pope, A.U., Introduction to Persian Art, London, 1930.

Irauian and Armenian Contribution to the Beginnings of Cothic Architecture, Bulletin of the Asia institue, N.Y. 1946.

Masterpieces of Persian Art, N.Y. 1945.

Survery of Persian Art. Oxford Univ. Press. 1298. 6v.

Porter, A. K., Medieval Architecture, N.Y., 1909. 2v.

Power, Elleen, Medieval People, Boston, 1924.

and Power, Rhada, Cities and Their Stories, Boston, 1927.
Prestage, E., Chivaly, N.Y. 1928.
Procopius, Anecdota, or Secret History' Loeb Lib.
Buildings, Loeb Lib.
History of the Wars, Loeb Lib. 5v.
Psellus, M., Chronographia, French tr. by Emile Ranauld, Paris. n.d.

Quennell, M., Everyday Life in Roman Britain, N.Y. 1925.

Raby, F. J., History of Christian Latin Poetry in the Middle Ages. Oxford, 1927.
History of Secular Latin Poetry in the Middle ages, Oxford, 1934. 2v.
Ramhaud, A., History of Russia, Boston, 1889. 3v.
Rapaport. S., Tales and Maxims from the Talmud, London, 1910.
Rashdalli, H., The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford, 1936, revised by F. M. Powicke and A. B. Emden. 3v.
Rawlinson, G., The Seventh Great Oriental Monarchy, London, 1876.
Reese, G., Music in the Middle Ages, N.Y., 1940.
Rémusat, C. De, Abélard, Faris, 1845. 2v.
Renan, E., Averroès et l'averroïsme, Paris, n.d.
The Christian Church,London, n.d.
Marc Aurèle, Paris, n.d.
Poetry of the Celtic Races, in Harvard Classics, Vol. 38, N. Y., 1938.
Renard, G., Guilds of the Middle Ages, London. 1918.
Richard, E. History of German Civilization, N.Y., 1911.
Rickard, T., Man and Metals, N.Y., 1932. 2v.
Riefstahl, R., The Parish - Wastson Collection of Mohammedan Potteries, N.Y., 1922.
Rihani, The Quatrains of Abu-l-Ala, London, 1904.
Rivoira, G., Lombardic Architecture, London, 1910. 2v.
Moslem Architecture, Oxford, 1918.
Robertson, J. M., Short History of Free Thought, London, 1914. 2v.
Robillard, M., Chartres, Grenoble, n.d.
Rogers, J. E. T. Six Centuries of Work and Wages, N.Y., 1890.
Rostovizeff, M., History of the Ancient World, Oxford, 1928. Vol. II : Rome
Social and Economic History of the Roman Empire, Oxfor, 1926.
Roth, Leou, Spinoza, Descartes, and Mainides, 1924.
Rowbotham, J., The Troubadours and Courts of Love, London, 1895.
Ruskin, J., Stones of Venice, Everyman Lib. 3v.

Russell, B., History of Western Philosphy, N. Y., 1945.
Russell, C. E., Charlemagne, 1930.

Sabatier, P., Life of St. Francis of Assisi, N. Y., 1909.
Sa'di, The Gulistan, in Gottheil, R., Literature of Persia, Vol. II.
The Rose Graden (Gulistan), tr. by L. Cranmer-Byng, London, 1919.
Saladin, H., et Migeon G., Manuel d'art musulman, Paris, 1907. 2v.
Saliba, D , Étude sur la métaphysique d'Avicenne, Paris, 1926.
Salzman, L., English Industries of the Middle Ages, Oxford, 1923.
Sandys, Sir J., Companion to Latin Studies, Cambridge, 1925.
Sanger, W., History of Prostitution, N. Y., *1910.*
Sarre, F., Die Kunts des alten Persien, Berlin. *1925.*
Sarton, G., Introduction to the History of Science, Baltimore, *1930* 3v.in 5.
A masterpiece of painstaking scholarship.
Saunders, O. E., History of English Art in the Middle Ages, Oxford, *1932.*
Saxo Grammaticus, Danish History, London, n d. 2v.
Schechter, S, Studies in Judaism, N. Y, *1920.* 3v.
Schevill, F., Siena, N. Y., *1909.*
Schneider, H., The History of World Civilization, N. Y., *1931.* 2v.
Schoenfeld, H., Women of the Teutonic Nations. Phila., *1908.*
Schoenhof, J., History of Money and Prices, N. Y., *1896.*
*Scott-Moncrieff, C. K., The Letters of Abélard and Hèloïse, N. Y., *1926.*
Sedgwick, H. D., Italy in the Thirteenth Century, Boston, *1912.* 2v.
Seebohm, F., The English Village Community, London, *1896.*
Seignobos, C., The Feudal Regime, N. Y., *1920.*
Short, E. H., The Painter in History, London. *1929.*
Shotwell, J. T., and Loomis, L. R., The See of Peter, Columbia Univ. Press, *1927.*
Sidonius Apollinaris, Poems and Letters, Loeb Lib. 2v.
Sigfusson, Saemnnd, The Elder Edda, London, *1907.*
Sihle, E. G., From Augustus to Augustine, Camb. Univ. Press, *1923.*
Singer, C., ed., Studies in the History and Method of Science, Oxford, *1917t.* 2v.

Smith, Margaret, ed., The Persian Mystics : Attar, London, *1932.*
Smith, Toulmin, English Gilds : the Original Ordinance, London, *1870.*
Socrates, Ecclesiastical History, London, *1892.*
Sozomen, Ecclesiastical History, London, *1855.*
Speculum, A Journal of Medieval Studies, Cambridge, Mass.
Spencer, H., Principles of Sociology, N. Y., *1910.* 3v.
*Spengler, O., Decline of the West, N. Y., 1928. 2v.
Stephence, W. R., Hidebrand and His Times, London, 1914.

Sterling, M. B. The Story of Parzival. N.. 1911
Stevens, C. E., Sidonius Apollinaris, Oxford, 1933.
Street, G. E., Gothic Architeure in Spain. London 1869.
Stryygowski, Origin of Christian Church Art, Oxford, 1923.
Stubbs, Wm., Constitutional History of England, Oxford, 1903. 3v.
Sturluson, Snorri, Heimskringla. The Norse Sagas, Everyman Lib.
Heimskringla : The Olaf Sagas, Everyman Lib.
The Younger Edda, in Sigfusson, S.
Sumner, W. G., Folkways, Boston, 1906.
Sykes, Sir P., History of Persia, London, 1921. 2v.
Symonds, J. A., Studies of the Greek Poets, London, 1920.
Introduction to the Study of Dante, London, 1899.
AL - Tabari, Chroniqe, Fr. tr. by Zotenberg, Paris, 1867.
Tagore, Sir R., Gitanjali, N. Y., 1928.
Taine, H., Ancient Regime, N. Y., 1891.
Itay : Florence and Venice. N. Y., 1869.
Talmud, Babylonian, Eng. tr, London, 1935f. 24v.
Tarn, W , Hellenistic Civilization. London, 1927.
Taylor H. O. The Classical Heritage of the Middle Ages, N. Y., 1911.
The Medi·val Mind, London, 1927. 2v.
Thatcher. O., and McNeal, E., Source Book for Medieval History, N. Y., 1905.
Thierry, A., History of the Conquest of England by Normans, London, 1847. 2v.
Thomas Aquinas, St., Summa contra Gentiles London, 1024. 4v.
Summa theologica. tr. by Dominican Fathers, London, 1920. 22v.
Thompson, Sir E , Introduction to Greek and Latin Palaeography. Oxford, 1921.
Thompson, J. W.. Economic and Social History of the Middle ages, 300 - 1300, N. Y., 1928.
Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages, N. Y., 1931.
Fendal Germany, Chicago, 1328.
The Middle ages, N. Y., 1931. 2v.
*Thorndike, Lynn, History of Magic and Experimental Science, N. Y., 1929f.
A work of magnificent scholarship, which illuminates every subject that it touches.
Short History of Civilization. N. Y., 1926.
Tisdall, W., Original Sources of the Qur'an.
Tornay, S C., Averroës' Doctrine of the Mind, Philadelphia Review, May, 1943.
*Toynbee, A. J., A Study of History, Ovford, 1935f. 6v.
Traill, H. D, Social England, N. Y., 1902. 6v.

Ueberweg, F., History of Philosophy, N. Y., 1871: 2v.
Usher, A. P., History of Mechanical Inventions, N. Y., 1929.
Al-Utbi, Abul-Nasr, Memoirs of the Emir Sabaktagin and Mahmud of Ghazna, tr. Reynolds, London, 1858.

Vacandard, E., The Inquisition, N. Y., 1908.
*Van Doren, Mark, An Anthology of World Poetry' N. Y., 1928. The best work of its kind.
Vasari, G., Lives of the Painters, Everman Lib. 3v.
Vasiliev, A., History of the Byzantine Empire, Madison, Wis, 1929. 2v.
Vernadsky, G., Kievan Russia, Yale Univ. Press, 1948.
Villari, P., The Two First Centuries of Florentine History, London, 1908.
*Villehardouin, G. de, Chronicle of the Fourth Crusade, Everyman Lib.
Vinogradoff, P., English Society in the Eleventh Century, Oxford, 1908.
Voltaire, Essay in the Manners and Morals of Europe, in Works, Vol. XIII, N. Y., 1901.
Vossler, K., Medieval Culture : an Introduction to Dante and His Times, N. Y., 1929. 2v.

*Waddell, Helin, Medieval Latin Lyrics, N. Y., 1942.
* The Wandering Scholers, London, 1927.
* Peter Abélard, N. Y., 1933.
Waren, C., Medieval Sicily, London, 1910.
Walker Trust Report, The Great Palace of the Byzantine Empsrors, Oxford, 1947.
Walsh, J. J., The Popes and Science, N. Y., 1913.
The Thirteenth the Greatest of Centuries. Catholic Summer Shool Press, 1920.
Walther von der Vogelweide, I saw the World, tr. Colvin, London, 1938.
Songs and Sayings, tr. Betts, London, n.d.
Waxman, M., History of Jewish Literature, N. Y., 1930.
Weigall, A., The Paganism in Our Christianity, N. Y., 1930.
Weir, T.H., Omar Khayam the Poet, N. Y., 1928.
Welch, Alice, of Six Medieval Women, London, 1913.
West, A. F., Alcuin, N.Y., 1916.
Westermarck, E., Origin and Development of the Moral Ideas, London, 1917f. 2v.
Short History of Marriage, N. Y., 1926.
Wherry, E. M., Commentary of the Qur'an, with Sale's tr. and notes, London, 1896. 4v.
White, E. M., Woman in World History, London, n.d.
Wicksteed, P. H., Dante and Aquina, 1913.

William of Malmesbury, Chronicle of the Kings of England, London, 1883.

William of Tyre, Godeffory of Bologne, or the Siege and Conqueste of Jerusalem, tr. Caxton, London, 1893.

Willoughby, W. W., Social Justice, N. Y., 1900.

Winckelmann, J., History of Ancient Art, Boston, 1860, 2v.

Wolfram von Eschenbach, Parzival, tr. Weston, London, 1894, 2v.

Wright, Th., ed., The Book of the Knight of La Tour-Landry, London, 1868.
A History of Domestic Manners and Sentiments in England during the Middle Ages, London, 1903.

Yellin, D., and Ahrahams, I., Maimonides, 1903.

Zeitlin, S., Maimonides, N.Y., 1935.

Zimmern, H., The Hansa Towns, N. Y., 1889.

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد وتتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم «الكتاب» أى الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآيه فى القرآن أو الكتاب المقدس

CHAPTER I

1. Ammianus Marcellinus, xxi, 16.
2. Philostorgius, ii, 9, in Cibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, II, 78.
3. Sozomen, *Ecclesiastical History*, ii, 3.
4. Lot, Ferdinand, *End of the Ancient World* 71 ; Bury, J. B., *Histroy of the Later Roman Empire*, 1, 87.
5. *Cambridge Medieval History*, IV, 748.
6. Ibid., 1, 598.
7. Munro and Sellery *Medieval Civilization*, 87, says 30,000: Bury, op. cit, says 70,000.
8. Dudden, F. H., *Gregery the Great*, I, 129.
9. Duchesne, L., *Early Histary of the Christian Church*, II, 127.
10. Socrates, *Ecclesiastical History*, i 37-8.
11. Idid., ii, 7 - 11.
12. Boissier, G., *La Fin du paganisme*, I, 68; Duchesne, II, 250
13. Boissier, op. cit., I, 87.
14. Eunapius *Lives of the Sophhists*,
15. Capds, W. W., *University Life iu Ancient Athens*, 66.
16. Boissie, I, 178.
17. Wright, W. C., Introd to Eunapius, I, 11.
18. Cf. Inge, W. R., *Philosopby of Plotinus*, I, 11.
19. In Murray, A. S., *History of Greek Sculpture*, I, 96.
20. In Bo'ssier, I, 96.
21. Ammianus, xxii, 5 ; Duchesne. II, 262.
22. Boissier, I, 102.
23. Socrates, iii, 1.
24. Julian, *Letter to the Athenians*, 278D- 280 C : Ammianus, xvi, 11 - 12.
25. Ammianus, xvi, xvi, 53 ; Duchesne, II, 199.
26. Ammianus xviii, 1,
27. Ibid., xvi, 10.
28. Boissier, I, 107.
29. Ammianus, xxv 4.
30. Julian, *Misopogon*, 338B.
31. Socrates, iii, I; Ammianus, xxii, 4.
32. *Misopogon*, 304B.
33. Ammianus, xvi, 1.
34. Gardner, Alice, *Julian, Philosopher and Emperor 260*.
35. Ammianus, vxii, 7.
36. Eunapius, 477.
37. Julian, Letter 441, in *Works* III.
38. Julian, *To Edicius*, 23, in *Works*, III.
39. Julian, *Against the Galileans*, 89 A-94A, 106DE, 168B, 351D, 238A, 399D.
40. Julian, *To the Cynic Herakleios*, 205 C.
41. Ibid., 217B.
42. Ibid., 237B.
43. Ammisnus xxii, 12.
44. Lucalin, *Panegyric* in Boissier, I, 140.
45. Julian, *Letter to a Priest* 305B; *To Arsacius*.
46. Julian *To the High Pries Theodorus*, 16.
47. *Letter to o Priest* 260. D.
48. Ammianus, xxii, 10.

49. Sozomen, v, 5, 18 ;Julian *Works*, III, 41n.
50. In Boissier, I, 922.
51. Julian, Letter 10 ; Boissier, I, 127.
52. Julin, *Misopgon*, 368C.
53. Ammianus, xxii, 13.
54. Sozomen, vi 2.
55. Ammianus, xxv. 3.
56. Milman, H. H., *History of Latin Christianity* I, 112 : Sihler, E G., *From Agustus to Agusutine*, 217.
57 Theoderet iii, 28, in Lecky, W. E H., *History of European Morlas*, II, 261.
58. Duchesne, II, 267.

CHAPTER II

1. Dopsch, A. *Economics and Social Fourdation of European Civilliza-tion*, 89.
2. Williamof Malmesbnry, *Chronicle of the Kings of England*, i, 4.
3. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 451.
4. Boissier, II, 180.
5. Rotovtzeff, M., *Social and Economic History of the Roman*
6. Dill, S., *Roman Empire*, 297.
7. Jordanes, *Gotbic History*, // 247.
8. In Tbompon, J. W., *Economic and SocIal Bistory of the Middle, Ages*, 106.
9. Jordanes, // 26; Gibbon; III, 38.
10. Ammianus, iv, 31.
11. Socrates, iv, 31.
12. Broglie, Duc de *St. Ambrose*, 120-4.
13 Gibbon, III, 168.
14. Bury, J. B., *History of the Later Roman Empire* I, 129 ; Gibbon, III, 175.
15. Pirenne, H., *Medieval Cities* 36.
16. Lonis, Paul, *Ancient Rome at Work*, 231.
17. Boissier, I, 417 ; Dill, op. cit, 228, 272.
18. Salviauns, *DeGubernvtione Dei*, v, 28, in T., Frank, *Economic Survey of Ancient Rome*, III, 260.
19. Boissier, II, 416.
20. Ibid.
21. Louis, Paul, 235.
22. In Hodgkin, T.; *Italy and Her. Invaders*, I, 423.
23. Augustine, Ep. 232.
24. Salvian, iv 15; vii, *passim*, and excerpts in Heitland, W. E., *Agricola* 423 Boissier II 410, 420, and Bury *Later Roman Empire*; 307.
25. In Dill; 56
26. Symmachus. Ep. vi 42 ; ii 46 ; in Dill, 150.
Friedländer, L., *RomanLife and Manners under the Empire*, II, 12 II, 29.
28. Lot, 178 ; Dill 58 ; Friedländer,
29. Ammianus, xiv, 6.
30. Symmachus Ep. iii 43.
31. Ammianus xxii 10.
32. Ibid, xxi, 1 ; Thorndike, L., *History Of Magic and Experiment Science*, I, 285.
33. Ammianus, xvi 1.
34 Macrobius, *Opera accedunt integrae* Saturnalia *ad fin*.
35. Ibid., I, 11.
36. Claudian; *Poems*, On the consulate of Stilicho" iii 130.
37 Ibid., 107, 158.
38. Boissier, II, 55.
39. erome, Ep. exxv, 11.
40. Lecky, II, 115.
41. Ibid., 109.
42. Sozomen, vi, 33.
43. Lecky, II, 110; Noldeke, Th., *Sketches from Eastern History*, 212f.
44. Lecky, II. 118.
45. Taylor, H. O., *Clahsical Herit-age of Middle Ages*, 78.
46. Ibid ; Glove. T. R., *Life and Letters in the Foutb Century*, 349.
47. In Gibbon, III 75.
48. Socrates, vi, 3.
49. Bury, *Later Roman Empire*, I, 183-9.

50. Socrates, vi, 4-5.
51. In Clapham and Power, 116.
52. McCabe, J., *St. Augustine and His Age*, 228.
53. Ibid., 35.
54. Augustine, *City of God*, ii, 14.
57. *Confession*, v, 8.
58. Encylopaedia Britannica, II, 682,
59. McCabe *Angustime*, 254.
60. Catholic Encylopedia, II, 88; Augngustine, *Letiers*, introd., xvi xvlii.
61. Augustine, Ep, 86.
62. Ep. 93.
63. Ep. 173.
64. Ep. 204.
65. Eps, 103, 133.
66. *City of God*. v, 9; vi. 22, 27.
67. Sermon 269.
68. Sermon 165.
69. Duchesne, III, 143.
70. Sermon 131.
71. Ep. 181 A.
72. Comment. iu Joah. Evang. xxix, 6; Sermon 43.
73. In *Cambridge Medieval History*. I, 581.
74. *De Trinitate*, i, 1.
75. *De vera religione*, xviv, 45.
76. Solil. I. 7.
77. *Confessions*, xlil, 16.
78. *City of God*, iv. 27.
80. *De litero arbitrio*, ii, 16.
81. *De Gen. ad litt*, vii 28; De Wulf. *History of Medieval philosophy*, 1, 118; Catholic Encylodedia, I, 90.
82. In De Wulf, I, 117. *Confessions*, Book xi.
84. De *Trin*.. x, 10.
85. bid, viii, 6; *Confessions*, x, 6.
86. *De bano confugali*. x; Figgis J. N., *political Aspects of* St *Augustinès City of God*, 76 Lea, H. C., *Sacerdotal Celibacy*, 47.
87. *Confessions*, x, 30.
88. Ibid. vii. 14; x. 6, 22; xiii, 9.
89. *City of God*, vi, 9.
90. Phippians, iii, 20; Ephesians, ii, 19.
91. Figgis, 46.
92. Marcus Aurelius, *Meditations*. iv, 19.
93. *City of God*, xv, I.
94. Ibid., i, 34.
95. Ibid., xix, 7; xx, 9.
96. Boissier, II, 331.
97. Augustine, *Lettres*, p. 38.
98. Comm. on Psalm cxxii.
99. Funk, F.X., *Manual of Church*
100. Frazer, Sir J. G., *Adonis, Attis, Osiris*, 315
101. Ibid., 306.
102. In Boissier, II, 118.
103. Renan, E., *Marc Auréle*, 629.
104. Duchesne, III, 11.
105. Ibid., 16.
106. Ledky, *Morris*, II, 61.
107. Ibid., 72.
108. Ibid., 83.
109. Ibid.
110. Fisher, H.L., *The Medieval Empire*, I, 14.
111. Guignebert, C., *Christianity Past and Present*, 151.
112. Ambrose, Ep. 2, in Boissisr, II,

CHAPTER IV

1. *Cambridge Ancient History*, XII
2. Haverfield, F., *The Roman Occ-upation of Britain*, 220; Home, G., *Roman Britain*, 104.
3. Quennell, M., *Everyday Life in Roman Britain*, 103.
4. Mommsen, Th., *Provinces of the Roman Empire*, I, 211.
5. Bede, *Ecclesiastical History*, v, 24.
6. Gildas, *Chronicle*, xxxiii; *Anglo-Saxou Chronicle*, p. 25.
7. Bede, i, 15; *Anglo-Saxon Chronicle*, 26
8. Collingwood, R. G., and Myres, J., *Roman Britain*, 320.
9. Geoffrey of Monmouth, *British History*, vii-xi.

10, William of Malmesbury, *Chronicle*, 11.
11. Collingwood, 324.
12. Joyce, p. W., *Short History of Ireland*, 77.
13. Hxde, 19.
14, Lecky, *Morals*, II. 253.
15. Joyce, 123.
16. Briffault, R., *The Mothers*, III, 230, quoting De Jubainville, *Le Droit du roi dans l'époche irlandaise*, in *révue archélogique*, XLIII, 332f.
17. Hyde, 71.
18, Ibid., 88,
19. From the seventh-centnry "Voyage of Brand," in Hyde, 69f.
20. Bede, i, 13 ; Bury, J. B., *Life of St. Patrick*. 54.
21. Duchesne, III, 425.
22, Bury, *Patrick*.
23. Nennius, *History of the Britons*, 11, in Giles, *Six Old English Chronicles*. p. 410.
24. Bury, *Potrick*, 172.
25, Ausonius, *Poems, Commemoratio Professorum Burdigalensium*
26. Waddell, H., *Medival Latin* 32.
27. Ausonius, *Peems, Porentalia*, x.
28. Ibid., Ep. xxii, 23f.
29, Stevens, *Sidonius Apollmaris*, 68-9.
30. Guizot, *History of Civilization*, I, 343.
31. Dill, *Last Century*, 206.
32. Stevens, 134-8.
33. Ibid., 160f.
34. Sidonius Apollinaris, *Pome and Letters*, Ep. i, 2.
35. In Francke,K. *History, of German Literature*, 10
36. Sidonius in Lacroix, P., *Manners, Customs, and Dress*, 514.
37. Gibbon, IV, 65.
38. Gregory of Tours, viij, 9.
39. Lea, *Superstition and Force*, 318.
40. Sophocles, *Antigone*, 11, 276-7.
41. Gibbon, IV, 70.
42. Schoenfeld, Hermann, *Women of the Teutonic Nations*, 41 ; Dill, *Roman Society in the Merovingian Age*, 47.
43. Salic law xiv and xli, in Ogg, F., *Source Book of Medieval History*, 63-5.
44. Schoenfeld, 40.
45. Brittain, A., *Women of Early Christiamity* 203.
46. Lot 397.
47. Gregory of Tours ii, 37.
48. Ibid.
49. Id., ii, 40.
50. II, 43.
51. V, 132-6 ; 165.
52. Dill, *Merovingian Age*, 279.
53. Gregory of Tours, vii, 178 ; x, 246.
54. Id., iv, 100.
55. Michelet, J., *History of France*, I, 107.
56. Gregory, introd., p. xxii.
57. Gregory, I 5.
58. II prologue.
59. Gregory, intord., p, xxiv.
60. Guizot, *History of Civilization*, I, 58.
61. Lecky, *Morals*, II. 204.
62. Isidore of seville, *Etymologies*. in Brehaur E., *An Encylopedist of the Dark Ages*, 215.
63. Dieulafory, M., *Art in Spain and Portugal*, 45.
64. Mahaffy, J. P., *Old Greek Education*, 52.
65. Thompson, J.W., *Economic History of the Middle Ages*, 120.
66. Cassiodorus, *Letters, of Variae*, ii, 27.
67. Procopius, v. 1.26.
68. This survives only as a crude abbreviation by Jordanes.
69. Milman, I, 433.

70. Ibid., 439.
71. In Cassiodorus, *Variae*, ii, 28.
72. Milman, I, 442.
78. Boethius, *Consolation of Philosophy*, ii, 3.
74. Ibid., 4.
75. Ibid., iii, 10.
76. Procopius, v.1.

CHAPTER V

1. *Justiniani Institutionum Libri quattuor*, Introd., I, 63.
Procopius, *Buildings*, i, 7.
2. Procopius, *Anecdota*, viii, 24.
4. John Malalas in Bury, *later Roman Empire*, II, 24.
5. Procopius, *Anecdota*, xv, 11.
6. Id., *History of the Wars*, i, 24.
7. Id., *Buildings*, i, 11.
8. Diehl, C , *Byzantine Portraits*,58
9. Procopius, *Anecdota*, xi,
10. ıbid., ix, 50.
11. Bury, *Later Roman Empire*, II,29.
12. Procopius, *Aneceota*, xvit, 5.
18. Diehl, *Portraits*, 70.
14. Bouchier, E., *Life and Letters in Romrn Africa*, 107.
15. Procopius, *History of the Wars*, iv, 6.
16. Ibid., vii, 1.
17. Ibid., 5-8.
18. Lot, 267.
19. Gibbon, IV, 359.
20. Lot. 267.
21. *Justiniani Inst.*, Proemium.
22. Cod. I, xiv, 34.
23. Cod. IV, xliii, 21.
24. Cod. XI, xiviii, 21 ; lxix, 4.
25. Bury, *Later Roman Empire*, II, 406 ; Milman, I, 501.
26. Procopius, *History of the Wors*, vii, 32.
27. In Gibbon, V, 43.
28. Procopius, *Buildings*, i, 1.

CHAPTER IV

1. Frank, *Economic Survy of Ancient Rome*, IV, 152.
2. Rostovtzeff, M., *History of the Ancient World*, II, 353-4.
3. Procopius, *History* viii, 17.
4. Lopez, R. S., in *Speculum*, XX, i, 3, 7, 19.
5. Ibid., 10-12.
6. Novella 122 in Bury *Leter Roman Empire*, II, 356.
7. Dalton O.M., *Byzantine Art*, 50
8. Bury, 357.
9. Diehl, C., *Manuel d'art Byzantin*, 92-6.
10. Hrocopius, *Anecdota*, xvii, 24.
11. Himes, N , *Medical History of Contraception*, 92-6.
12. Boissier, *La fin du paganisme*, I, 168.
13. Gibbon, I 382.
14. Schueicer, H., *History of World Civilization*, II, 640.
15. Castiglione, A, *History of Medicine*, 252 ; Garrisou, F.H., *History of Medciine*, 132.
16. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*. I. 147
17. O'Leary, E., *Arabic Thought*,53. 53.
18. Himes, 95.
19. Thorndike, I, 584.
20. Hugustine, *Confessions*, vii, 6.
21. Heath, Sir T., *History of Greek Mathematics*, II, 528.
22. Socrates, vii, 15.
23. Lecky, *Morals*, II, 315.
24. Bury, *Later Roman Empire*,I,217.
25. Duchesne, III. 210.
26. Socrares, vii, 15.
27. Gregory Nazianzen, *Panegyric on St. Basil*, in Monroe, P., *Source Book of the History of Educetion for the Greek and Rrman Period* 305.
28. Bury, *Later Roman Empire*,I,377.
29. Diehl, *Manuel*, 218.
03. Higham and Bowra, *Oxford Book of Greek Verse*, 654.
31. Ibid., 665.
32. Socrates, vii, 48.

33. Procopius, *History*, viii,32; v,3.
34. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, I, 350-1; Finlay, G., *Greece under the Romans*, 195.
35. Strzygowski, J., *Origin of Christian Church Art*, 4-6.
36. Procopius, *Buildings*, i, 10.
37. Ibid., i, 1.
38. Ibid.
39. Ibid., i, 3.
40. Dalton, 258.
41. Lot, 143.
42. Diehl, *Manuel*, 249; Dalton, 579; Lot, 146.
43. Boethius, ix.

CHAPTER VII

1. Ammianus, xxii, 6.
2. Ibid.
3. Dhalla, M. N., *Zoroastrian Civilization*, 371.
4. Rawlinson, G., *Seventh Great Oriental Monarchy*, 29.
5. Procopius, *Persian War*, ix, 19.
6. Bury, *Later Roman Empire*, I, 92.
7. Ammianus, xxiii, 6.
8. Talmud, Berachoth, 8b.
9. Dahlla, 301f.
10. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 188.
11. Macrobius, *Saturnalia*, vii, 1.
12. Gottheil, R. J., *Literature of Persia*, I, 159.
13. Firdousi, *Epic of the Kings*, retold by Helen Zimmern, 191; Sykes, Sir P., *History of Persia*,
14. Gottheil, 166.
15. Dhalla, 377.
16. Ibid., 305.
17. Browne, E.G., *Literary History of Persia*, I, 107.
18. Sarton, G., *Introd to the History of Science*, I, 435.
19. Browne, E.G., *Arabian Medicine*, 23.
20. Dhalla, 354.
21. Ibid., 362.
22. Ibid., 274; Bury, *Later Roman Empire*, I, 91.
23. Rawlinson, G., *Seventh Great Oriental Monarchy*, 636.
24. Bright, W., *Age of the Fathers*, I, 202.
25. Skes, I, 414.
26. Lowie, R.H., *Are We Civilized?*, 37.
27. Pope, A. U., *Survey of Persian Art* I, 755.
28. Dhalla, 356.
29. Pope, 761.
30. Baron, S.W., *Social and Religious History of the Jews*, I, 256.
31. Ammianus, xxiii, 6.
32. Pope, 716.
33. Browne, *Literary History*, I, 127.
34. Ibn Khaldun, *Prolègomènes*, I,80. Rawlinson, 61, attributes this saying to Ardashir I.
35. Eunapius, // 466.
36. *Cambridge Ancient History*, XII, 112.
37. Sykes, I, 408.
38. Rawlinson, 141.
39. Browne, *Literary History*, I, 171 Sykes, I, 449, places this massacre in the early years of Khosru I.
40. Pope, 755.
41. Procopius, *History of the Wars* ii, 9.
42. Nöldeke, Th., *Geschichte der Perser . . . aus Tabari*, 160, in De Vaux, *Les Penseurs de l'Islam*. I, 92.
43. Rawlinson, 446.
44. Sykes, I, 460.
45. Procopius, *History*, i, 26.
46. Mommsen, *Provinces*, II, 47.
47. Graetz. H., *History of the Jews* III, 18.
48. Sykes, I, 480f.
49. Pope, 524.
50. Creswell, K. A., *Early Muslim Architecuture*, I, 101.
51. Dieulafoy, *Art in Spain*, 13. Ibid., Pope, A. U., *Iranian and Armenian Contributions to the*

Beginnings of Gothic Architecture, 180.

53. Theophylactus Simocatta in Rivoira, O.T., *Moslem Architecture* 114. Herzfeld thought the Ctesiphon palace the work of Shapur. I.
54. Gottheïl I, 167.
55. Arnold, Sir T., *Painting In Islam*, 62.
56. Pope, *Survey*, I, 717, Dieulafoy, 21.
57. Ackerman, P., in *Bulletin of the Iranian Institute*, Dec., 1946, p. 42.
58. Pope, A. U., *Introd. to Persian Art*, 144, 168.
59. Sykes, I, 465.
60. Pope, A. U., *Masterpieces of Persian Art*, 182.
61. Pope, *Introd.*, 64.
62. Fenollosa, E., *Epochs of Chinese and Japanese Art*, I, 21.
63. Riefstahl, R. M., *The Parish-Waston Collection of Mohammedan Potteries*, p. viii, Pope, *Survey*, I, 779, Lot, 141.
64. Sir Percy Sykes in Hammerton, J. A., *Universal History of the World*, IV, 2318.
65. Examples in Sarre, F., *Die Kunst des alten Persien*, 134.
66. Pope, *Introd.*, 100.
67. Pope, *Survey*, I, 775.
68. Dhalla, 278.
69. Sykes, I, 490.
70. Browne, *Literary History*, I, 194.
71. Sykes, I, 490.
72. Ibid., 498.

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(خ)

(د)

(ش)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

الفهرس

الكتاب الأول ـ الدولة البيزنطية فى أوج مجدها

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

الباب الأول : يوليان المرتد

الباب الثانى : انتصار البرابرة

الباب الثالث : تقدم المسيحية ٩١

الباب الرابع : أوربا تتشكل

الباب الخامس : چستنيان

الباب السادس : الحضارة البيزنطية

الموضوع

الباب السابع : الفرس

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

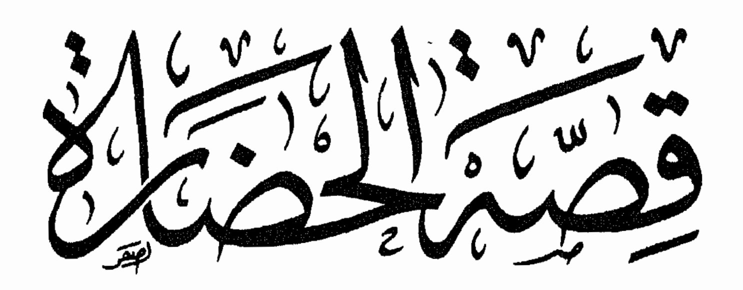
باسم الله نبدا الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلدات قصة الحضارة السبعة ، وقد صدر منها بعد هذا مجلد خامس فى حضارة عصر النهضة . أما هذا المجلد فيروى قصة حضارة العصور الوسطى من قسطنطين إلى دانتى ، وهى فترة دامت أكثر من ألف عام ؛ وقد أطلق المؤلف على هذا العهد اسم عصر الإيمان لأنه كان عصر العقيدة الدينية القوية ، ولأن فيه أضحت المسيحية دين الدولة الرومانية ، وفيه ظهر الدين الإسلامى وانتشر فى آسية وأفريقية وأوربا ، وبلغت الحضارة الإسلامية فيه ذروة مجدها فى الشرق والغرب على السواء .

وهذا المجلد الرابع — وإن لم يشمل من الزمن إلا هذه الفترة القصيرة من تاريخ العالم — من أكبر مجلدات هذه القصة ؛ فهو فى الأصل الإنجليزى يبلغ نحو ألف ومائتى صفحة مقسمة إلى خمسة « كتب » سنصدرها باللغة العربية فى ستة أجزاء .

وهذه الفترة من أهم الفترات وأبقاها أثراً فى تاريخ العالم ، وحسبنا أن نعيد ما قلناه من قبل وهو أن فيها ثبتت دعائم المسيحية ، وظهر الإسلام ، وقام الصراع بين اليهودية والمسيحية . وفيها بدأت أوربا تتشكل ، وتحطمت الإمبراطورية الرومانية وظهرت الأمم الأوربية الحديثة ، ونشبت الحروب الصليبية ، وظهر الإسلام وعم نوره الآفاق ، ولاحت تباشير عصر النهضة .

وسيجد القارئ ذلك كله مفصلا فى هذا الجزء والأجزاء التالية إن شاء الله .

ونرى مرة أخرى أن نكرر الشكر للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية وللجنة التأليف والترجمة والنشر وللقراء الكرام الذين كان إقبالهم على الأجزاء السابقة أكبر مشجع لنا على مواصلة الجهد فى ترجمة هذا المجلد الضخم ونرجو ألا يطول انتظارهم لبقية الأجزاء ؟



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدران

الجزء الأول من المجلد الرابع





تونس



بيروت